الباب السابع والعشرون

مذهب الروم الكاثوليك

١٠٩٥ – ١٢٩٤

الفصل الأول

عقيدة الشعب

يعدّ الدين من كثير من الوجوه أكثر أساليب الإنسان طرافة لأنه آخر ما تفسر به الحياة ، وهو سبيله الوحيدة لاتقاء الموت . وليس فى تاريخ العصور الوسطى كله ما هو أعظم أثراً فى النفس من الدين ، فإنك تراه فى كل مكان ، ويكاد يكون أعظم القوى فى تلك العصور . وليس من السهل على من يعيشون الآن منعمين تتوافر لهم جميع حاجاتهم أن يدركوا حق الإدراك ، ما كان فى تلك العصور من فوضى وعوزهما اللذان شكلا عقائد الناس فى خلالها . ولكن من واجبنا أن ننظر إلى ما كان عند المسيحيين واليهود من خرافات ، وأسرار خفية ، ووثنية ، وسذاجة ، وسلامة طوية . نقول إن من واجبنا أن ننظر إلى هـذا كله بنفس العطف الذى يجب أن ننظر به إلى عنائهم ، وفقرهم ، وأحزانهم ، وإن فرار الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء من « الدنيا ، واللحم ، والشيطان » إلى أديرة الرجال والنساء ليوحى إلينا بما كان يسود ذلك الوقت من اضطراب ، واختلال أمن ، وعنف أوفت على الغاية أكثر ممـا يوحى بجبن أولئك الفارين وخور عزيمتهم . وبدا أن من البدائه أن لا سبيل إلى السيطرة على الدوافع البشرية

الوحشية إلا بقانون أخلاق تؤيده قوة تعلو على القوى البشرية . وكان أكبر ما يحتاجه العالم وقتئذ هو عقيدة توازن المحن بالآمال ، وتخفف من وقع الحرمان بالسلوى والعزاء ، وتزيل من ملل الكدح بخيال العقيدة ، وتمحو قصر الأجل بعقيدة الخلود ، وتضفى على المسرحية الكونية معنى ملهما يشرفها ويرفع من قدرها ، لولاه لكانت موكبا لا معنى له ولا يمكن احتماله ، موكبا من الأنفس ، والأجناس ، والنجوم ، تهوى واحدة بعد واحدة إلى الفناء الذى ليس منه محيص .

وسعت المسيحية إلى الوفاء بهذه الحاجات بفكرة حماسية رائعة عن الخلق والخطيئة الآدمية ، والأم العذراء ، والإله المعذب ، والنفس الخالدة التى قُدّر عليها أن تواجه يوم الحساب فيقضى عليها بالتردى فى الجحيم إلى أبد الآبدين ، أو أن تنجو وتنال النعيم السرمدى على يد كنيسة توفر لها بأسرارها المقدسة البركة الإلهية التى حلت على العالم بموت منقذه . وكانت حياة الكثرة الغالبة من المسيحيين تجول وتجد معناها فى هذه النظرة الشاملة إلى العالم . وكان أعظم ما أهدته العقيدة الدينية إلى العالم فى العصور الوسطى هو ثقته بأن الحق سيعلو آخر الأمر ، وأن كل نصر ظاهرى للشر سيفنى آخر العهد حين يظفر الخير بالشر فى العالم كله ، وتلك ثقة تعلى من قدر البشرية وتدعم كيانها .

وكانت عقيدة يوم الحساب أساس العقيدة المسيحية واليهودية والإسلامية . وبقى الاعتقاد بعودة المسيح إلى الأرض ، ونهاية العالم لتكون هذه العودة وتلك النهاية تمهيداً ليوم الحساب الأخير ، بقى هذا الاعتقاد بعد حبوط مسعى الرسل ، ومرور العام المتمم للألف بعد المسيح ، ومخاوف أربعين قرناً وآمالها . نعم إن هذا الاعتقاد أضحى أقل وضوحاً وأضيق انتشاراً مما كان قبل ، ولكنه لم ينمح من النفوس ، فقد قال روچر بيكن Roger Bacon فى عام ١٢٧١ : إن « العقلاء من الناس » يرون أن نهاية العالم قد قربت(١) ، وكان كل وباء شامل ، وكل

كارثة مدلهمة ، وكل زلزال مروع ، وكل مذنّب يظهر فى السماء ، وكل حادثة غير عادية ، كان كل شيء من هذا القبيل يعد نذيراً بنهاية العالم ، وحتى إذا ظل العالم باقيا فإن أرواح الموتى وأجسامهم ستبعث من فورها(*) بعد وفاتها لتحاسب على ما قدّمت من خير وشر .

وكانت تجيش فى صدور الناس آمال غامضة بدخول الجنة ، ولكنهم كانوا يخافون النار خوفا واضحاً صريحاً لا غموض فيه ، وكان فى الدين المسيحى فى العصور الوسطى كثير من الرقة والرأفة ، ولكن رجال الدين والوعاظ الكاثوليك ، والبروتستنت الأولين ، كانوا يشعرون بأن من الواجب عليهم أن يزروعوا الناس بأهوال الجحيم(**) . ولم يكن المسيح فى هذا العهد هو « عيسى الوديع الرقيق » ، بل كان هو المنتقم الجبار لكل ما يرتكبه البشر من آثام . وكان فى الكنائس كلها تقريباً رمز من يمثل المسيح فى صورة قاض ، وكان فى الكثير منها صور ليوم الحساب ، تمثل ضروب التعذيب التى يلقاها الملعونون تمثيلا أشد وضوحاً من النعيم الذى يتمتع به السعداء المقربون . ويقال إن القديس مثوديوس استطاع أن يقنع بوريس **Bôris** ملك بلغاريا باعتناق الدين المسيحى بأن رسم له صورة الجحيم على جدار القصر الملكى[٤] . وكان كثيرون من المتصوفة يدعون أنهم رأوا فى أحلامهم صوراً للنار ، وقد وصفوها وصفاً جغرافياً ، وصوروا ما فيها من عذاب[٥] ، ونقل إلينا الراهب تنديل **Tundale** من رهبان القرن الثانى عشر تفاصيل لها دقيقة : فقال إن فى وسط الجحيم يرى الشيطان مشدوداً إلى مشواة ملتهبة من الحديد بسلاسل حمراء من شدة الحرارة ، لا ينقطع له صراخ من فرط

(*) وكانت النظرية المسيحية القائلة بأن حساب الموتى سيؤجل إلى « يوم الحشر » الذى سيفنى فيه العالم ، كانت هذه النظرية قد استبدلت بها العقيدة القائلة إن كل إنسان سيحاسب بعد موته مباشرة[٢] .

(**) قارن هذا بقول القائد وليم بوث **William Booth** (١٨٢٩ — ١٩١٢) عن أساليب وعاظ جيش النجاة : « لا شيء يؤثر فى قلوب الناس كما تؤثر فيه الأشياء الرهيبة المروعة . فهم لا يتأثرون إلا إذا تصاعد أمام أعينهم لهيب الجحيم »[٣] .

الألم ، ويداه طليقتان يمدهما ليقبض بهما على العصاة المذنبين ، يحطمهم بأسنانه كما يحطم العنب ، وأنفاسه النارية تجذبهم إلى حلقه الملتهب . ويقذف أعوانه من الشياطين أجسام المذنبين بخطاطيف من الحديد فى النار مرة وفى الماء الزمهرير مرة أخرى ، أو يعلقونهم من ألسنتهم ، أو ينشرون أجسامهم بالمناشير أو يطرقونها بالمقاطع على سندان ، أو يقلونها فى النار ، أو يعصرونها حتى تصفى من قطعة من النسيج . وكان الكبريت يمزج بالنار حتى تزيد رائحته الكريهة من عذاب الآثمين . وليس للنار ضوء ، ولهذا فإن الظلمة المروعة تغشى هــذه الآلام المختلفة التى لا يحصى لها عد[٦] . أما الكنيسة نفسها فلم يصدر عنها رسمياً قول يحدد مكان النار أو يصفها ، ولكنها كانت تعلن سخطها على أمثال أرجن Origen الذين يرتابون فى حقيقة نيرانها المادية[٧] . ولو أن أهوال هذه العقيدة قد نالها بعض التخفيف لأخفقت فى تحقيق غرضها ، ولهذا فإن القديس تومس أكويناس كان يؤمن بأن « النار التى ستعذب فيها أجسام المجرمين نار مادية » وحدد مكان الجحيم « فى أسفل الأرض »[٨] .

ولم يكن الشيطان فى خيال العامة من أهل العصور الوسطى . وفى خيال رجال من أمثال جريجورى الأكبر ، رمزاً أو كناية أو تشبيها ، بل كان جسما حقيقيا حياً من لحم ودم ، يغشى كل مكان فى العالم ، يغوى الناس بضروب من المغريات ويخلق كل أنواع الشر . وكان من المستطاع عادة أن يطرد بقضه وقضيضه بقدر من الماء المقدس أو بعلامة الصليب ، ولكنه فى هــذه الحال يخلف وراءه رائحة خبيثة هى رائحة الكبريت المحترق . والشيطان شديد الإعجاب بالنساء ، ويتخذ بسماتهن ومفاتنهن أدوات يغوى بها ضحاياه ، وينال رضاءهن فى بعض الأحيان — إذا كان لنا أن نصدق النساء أنفسهن . فقد اعترفت امرأة من طلوشة (طولوز Toulouse) أنها كثيراً ما ضاجعت الشيطان ، وأنها وهى فى الثالثة والخمسين من عمرها ولدت منــه هولة لها رأس ذئب ، وذنب أفعى[٩] . وللشيطان فى رأى

أقوام العصور الوسطى عدد لا يحصى من أعوانه الأبالسة ، يحومون حول كل نفس ، ويعملون دائبين على جرها إلى ارتكاب الإثم . وهؤلاء أيضاً يحبون أن يضاجعوا النساء اللاتى يهملن أنفسهن ، أو ينمن وحدهن ، أو ينقطعن للدين والعبادة[١٠] . وقد وصف الراهب ريكالم Richalm أولئك الأبالسة بأنهم « يملأون العالم كله ، وأن الهواء كله ليس إلا كتلة سميكة منهم يترصدوننا فى كل زمان ومكان . . . ومن أعجب العجائب أن يبقى واحد منا حيا يرزق ، ولولا رحمة الله لما نجا أحد من شرهم »[١١] . وكان الناس كلهم تقريباً بما فيهم الفلاسفة أنفسهم يؤمنون بهذا العدد الجم من الأبالسة والشياطين ، ولكن روح الفكاهة المنجية كانت تخفف من رهبة هذا الإيمان بهم ، وكان كثير من الرجال ذوى العقول المتزنة ينظرون إلى أولئك الأبالسة الصغار على أنهم جماعة من الخبثاء أكثر منهم خلائق مروعين . وكان من العقائد الشائعة أن أولئك الأبالسة يتدخلون تدخلا مسموعاً ، ولكنه غير منظور ، فى أحاديث الناس ، ويخرقون أثوابهم ، ويلقون بالأقذار على عابرى السبل . ويقال إن شيطاناً متعباً جلس مرة على خسَّة فأكلتها راهبة وهى لا تدرى ما تفعل[١٢] .

وأكثر رهبة من العقيدة السالفة الذكر الاعتقاد بأن « كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون » (الآية ١٤ من الإصحاح ٢٢ من إنجيل متى) . وكان المؤمنون المستمسكون بدينهم يعتقدون أن الكثرة الغالبة من الجنس البشرى ستتردى فى الجحيم[١٣] ، وكان كثيرون من رجال الدين المسيحيين يؤمنون بحرفية القول المعزو إلى المسيح : « من آمن واعتمد خلص ، ومن لم يؤمن يدن » (مرقس إصحاح ١٦ الآية ١٦) . ووصل القديس أوغسطين على الرغم منه إلى النتيجة القائلة إن من مات من الأطفال قبل التعميد مآله النار[١٤] ، وكان القديس أنسلم يظن أن ليس فى عذاب الأطفال غير المعمدين (الآثمين لأن آدم وحواء قد ارتكبوا الإثم) من المخالفة للعقل والمنطق أكثر مما فى فرض الرق على

أبناء الأرقاء — وهو لا يرى أن فى هذا بعداً ما عن المعقول[١٥] . وقد خنفت الكنيسة من هول هذه العقيدة بأن علمت الناس أن الأطفال غير المعمدين لا يلقون فى الجحيم بل يلقون فى يمبوس Jnfernus puerorum حيث لا يكون عذابهم إلا ما يشعرون به من ألم لأنهم حرموا من الجنة[١٦] . وكانت الكثرة الغالبة من المسيحيين تعتقد أن المسلمين جميعاً — كما كانت الكثرة الغالبة من المسلمين ما عدا النبى محمداً تعتقد أن المسيحيين جميعاً — سيلقون فى النار ، وكان الاعتقاد السائد أن « غير المؤمنين سيعذبون[١٧] . وذهب مجلس لاتران الرابع إلى أبعد من هذا فأعلن (١٢١٥) أن لا نجاة لأحد من النار إذا لم يكن من أتباع الكنيسة الجامعة[١٨] . وقرر البابا جريجورى التاسع أن ما كان يأمله ريمند للى Raymond Lully من أن « الله يحب شعبه حباً يؤدى إلى نجاة الناس جميعاً تقريباً ، لأنه لو كان المعذبون أكثر من الناجين لكانت رحمة المسيح خالية من كثير الحب »[١٩] ، وليس ثمة رجل آخر من رجال الدين البارزين أجاز لنفسه أن يعتقد — أو أن يقول — إن الناجين سيزيدون على المعذبين[٢٠] . وقدر برثلد الرجنزبرجى Bertshold of Regensburg ، وهو من أشهر وعاظ القرن الثالث عشر وأحبهم إلى الناس ، نسبة المعذبين إلى الناجين بمائة ألف إلى واحد[٢١] . ويرى القديس تومس أكويناس أن « فى هذا أيضاً تظهر رحمة الله أكثر مما تظهر فى شىء سواه ، لأنه يرفع القليلين إلى معارج النجاة ، التى يعجز عن إدراكها الكثيرون »[٢٢] . وكان كثيرون من الناس يعتقدون أن البراكين هى أفواه جهنم ، وأن قعقعتها ليست إلا صدى خافتاً لأنين المعذبين[٢٣] ، وكان جريجورى الأكبر يقول إن فوهة بركان إتنا تزيد اتساعاً فى كل يوم لتبتلع العدد الذى لا يحصى من الأرواح التى كتب عليها العذاب[٢٤] . وكانت أحشاء الأرض المزدحمة تضم ثناياها الحارة الكثرة الغالبة من جميع من ولدوا من بنى الإنسان ، ولا يستطيع أحد أن يستريح أو يفر من النار إلى أبد الدهر ؛ وفى

ذلك يقول برثلد : أحص رمال شواطئ البحار ، أو الشعر الذى ينبت على أجسام البشر والحيوان من يوم أن خلق آدم ، وقدر سنة من العذاب لكل حبة رمل أو شعرة ، ثم اعلم أن هذه الحقبة من الزمن التى تصل إليها لا تكاد تمثل بداية آلام المعذبين[٢٥] . وكانت اللحظة الأخيرة فى حياة الإنسان هى اللحظة فى الأبدية كلها ، وكان خوف الناس من أن يكون الإنسان فى هذه اللحظة الأخيرة آثماً لم تغفر له ذنوبه ، كان هذا الخوف عبئاً ثقيلا ترزح تحته النفوس البشرية .

وكانت عقيدة المطهر أو الأعراف تخفف من هذه الأهوال تخفيفاً غير قليل . وكانت الصلوات من أجل أرواح الموتى عادة قديمة قدم الكنيسة نفسها ، وفى وسعنا أن نرجع طقوس التكفير عن الذنوب والصلاة على أرواح الموتى إلى عام ٢٥٠ م[٢٦] . وقد تحدث أوغسطين عن وجود موضع يتطهر فيه الموتى من ذنوب غفرت لهم ولكنها لم يكفر عنها تكفيراً كافياً بعد موتهم ؛ وقبل جريجورى الأول هذه الفكرة ، وقال إن ما تعانيه الأرواح فى المطهر من آلام قد يخفف ويقصر مداه بفضل دعاء الأحياء من أصدقائهم وصلواتهم[٢٧] ، غير أن هذه النظرية لم تصبح من العقائد الواسعة الانتشار حتى نفخ فيها بطرس دميان Peter Damian حوالى عام ١٠٧٠ من روحه الحماسية وأذاعها ببلاغته . وزاد انتشار هذه الفكرة فى القرن الثانى عشر حين ذاعت قصة تقول إن القديس بترك St. Patrick أراد أن يقنع بعض المتشككين فأجاز حفر حفرة فى أيرلندة نزل إليها بعض الرهبان ، ثم عاد بعضهم . كما تقول القصة . ووصفوا المطر والنار وصفاً واضحة تثبط عزيمة من يريدون أن يحذوا حذوه ، وادعى أون Owen الفارسى الأيرلندى أنه نزل من هذه الحفرة إلى الجحيم فى عام ١١٥٣ . ووصف ما لاقاه فى العالم السفلى وصفاً لاقى نجاحاً منقطع النظير[٢٨] . فقد

أقبل الناس من بعيد لزيارة هذه الحفرة ، ونشأت من ذلك شرور ومساوئ مالية اضطرت البابا اسكندر السادس أن يأمر فى عام ١٤٩٧ بردمها لأنها من الادعاءات الباطلة[٢٩] .

ترى كم من الناس فى العالم المسيحى أثناء العصور الوسطى كانوا يصدقون العقائد المسيحية ، إننا نسمع عن وجود ملحدين كثيرين ، ولكن الكثرة الغالبة من أولئك الملحدين كانت تتمسك بالمبادئ الأساسية للعقائد المسيحية ، وقد حدث بمدينة أورليان Orleans فى عام ١٠١٧ أن « رجلين من أكرم الناس أبا وأوسعهم علماً » أنكرا عقائد خلق العالم ، والتثليث ، والجنة ، والنار ، وقالا إنها كلها مجرد هذيان »[٣٠] . ويقول چون السلزبرى John of Salisbury فى القرن الثانى عشر إنه سمع كثيرين من الناس يتحدثون « أحاديث لا يقبلها الدين »[٣١] ، ويقول ڤلانى Villani إنه كان بمدينة فلورنس فى ذلك القرن نفسه جماعة من الأبيقوريين ، يسخرون من الله والقديسين ، ويطلقون العنان لشواتهم الجسمية[٣٢] . ويحدثنا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis (١١٤٦ ؟ — ١٢٢٠) عن قس ، لا يذكر اسمه ، لامه قس آخر على عدم عنايته بالاحتفال بالقداس ، فكان رده أن سأل ناقده هل يؤمن هو حقاً باستحالة مادة القربان إلى لحم المسيح ودمه ، وبعقيدة التجسد ، وبمولد المسيح من مريم العذراء ، وبالبعث — وزاد على ذلك أن قال هذا كله قد اخترعه القدماء الماكرون ليرهبوا الناس ويسيطروا عليهم(*) ، وإن طائفة من المنافقين يحذون الآن حذوهم[٣٣] . وينقل جرلد الويلزى نفسه قول العالم سيمون التورنائى Simon of Tournai (حوالى ١٢٠١) فى حسرة وألم : « ربَّاه ياذا الجلال !

(*) يذكرنا هذ بقول أبى العلاء المعرى :

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما ديانانكم مكر من القدماء
أرادوا بها جمع الحطام فأفلحوا وماتوا فبادت سنة اللؤماء

وبغير هذين البيتين من أقواله وقد ورد بعضها فى الجزء الثانى من هذا المجلد . (المترجم)

إلى متى تبقى هذه الشيعة المخرفة من المسيحيين ، وتدوم هذه البدعة التى لا أصل لها ؟»(٣٤) . وتقول إحدى القصص المتداولة عن سيمون هذا إنه أثبت فى محاضرة له عقيدة التثليث بالحجج القوية البارعة ، فلما رأى إعجاب مستمعيه به تاه بنفسه عجباً فقال إن فى وسعه أن يثبت عكس هذه العقيدة بحجج أخرى أقوى من حججه الأولى ، فلما نطق بهذا — كما تقول القصة — أصيب من فوره بالشلل والعته(٣٥) . وفى عام ١٢٠٠ كتب بطرس رئيس دير الثالوث المقدس Holy Jrinity فى ألدجيت Aldgate بلندن يقول : « من الناس من لا يعتقدون بوجود الله ، ويقولون إن العالم تسيره الصدفة . . . ومنهم كثيرون لا يؤمنون بالملائكة الأخيار أو الأشرار ، ولا بالحياة بعد الموت أو بأى شىء روحى لا تراه العين »(٣٦) . وقد أثار شجن ڤنسنت من أهل بوڤيه Vincent of Beauvais (١٢٠٠؟ — ١٢٦٤) أن كثيرين يسخرون من الرؤى ومن القصص (قصص القديسين) » ويقولون « إنها من خرافات العوام أو إنها بدع كاذبة ، ويضيف إلى ذلك قوله : « وليس لنا أن نعجب من أن هذه القصص لا تقبلها عقول الذين لا يعتقدون بوجود النار »(٣٧) . ولقد كانت عقيدة الجحيم من العقائد التى لا يستسيغها الكثيرون . وكانت بعض النفوس الساذجة تتساءل : « لم خلق الله الشيطان إذا كان قد سبقت فى علمه خطيئته وسقوطه ؟ »(٣٨) . وقال بعض المتشككين إن الله لا يمكن أن تصل قسوته إلى الحد الذى يجعله يعاقب على الذنب المحدد بالألم الغير المحدود ، ويجيب رجال الدين عن هذا الاعتراض بقولهم إن الذنب الذى يرتكبه الآدمى إجرام فى حق الله ، وإنه لهذا يعد إثماً لا نهاية له . ولم يقنع هذا القول ناسجا كان يعيش فى طولوز عام ١٢٤٧ فقال : « لو أننى استطعت أن أقبض على هذا الإله الذى لا ينجى من كل ألف من خلقه إلا واحداً ثم يعذب الباقين ، لانتزعت أسنانه وأظافره كما تفعل بالخونة المارقين ، ولبصقت فى وجهه »(٣٩) . ولبعض المتشككين أقوال لا تبلغ من

العنف هذا المبلغ كله ، فيقولون مثلا إن نار الجحيم لا بد أن تُكَلِّس الروح والجسم حتى يصبحا عديمي الإحساس بها ويصير « من اعتاد الجحيم مستريحا فيها راحته فى أى مكان سواها »(٤٠) . وتبدو فى نشيد أوكاسين ونيقولت Queassin et Nieolette (حوالى عام ١٢٣٠) الفكاهة القديمة القائلة بأن الإنسان يلقى فى الجحيم صحابا أظرف ممن يلقاهم فى الجنة(٤١) . ويشكو القسيسون من أن معظم الناس يؤجلون التفكير فى النار إلى آخر لحظة فى حياتهم لوثوقهم من أنهم مهما تكن آثامهم فإن « ثلاث كلمات » (ego-te absolvo) « تكفى لنجاتى »(٤٢) .

ويبدو أنه كان فى القرى وقتئذ كما فيها الآن من لا يؤمنون بالله ، ولكن الكافرين القرويين لا يتركون وراءهم ذكريات تحدث عنهم ، يضاف إلى هذا أن معظم ما وصل إلينا من أدب العصور الوسطى قد كتبه رجال الدين أو أن رجال الدين قد أخفوا الجزء الأكبر منه ولم يبرزوا لنا إلا ما وقع عليه اختيارهم . وسنجد فيما بعد « علماء جوالين » يقولون شعراً يبدو فيه عدم الاحتشام ، ولصوصاً غلاظاً ينطقون بأشد الأقوال تجديفاً ، وأناساً ينامون ويغطون(٤٣) ، بل ويرقصون(٤٤) ويفجرون(٤٥) فى الكنائس ، كما نجد من يرتكبون « العهر ، والنهم ، والقتل ، والسرقة فى يوم الأحد » (كما يقول أحد الرهبان) « أكثر ممن يرتكبون هذه الذنوب فى جميع أيام الأسبوع الذى قبله »(٤٦) . وفى وسعنا أن نذكر فى هذه الصفحة ما لا يحصى من الأمثلة نجمعها من مائة بلد وبلد ، ومن ألف عام وعام . وكلها تدل على ما كان فى العصور الوسطى من نقص فى الإيمان الحق ، وتحذرنا من التغالى فى الاعتقاد بتقوى الناس فى تلك العصور ؛ ولكن العصور الوسطى لا تزال مع هذا تغمر الباحث فى جو من العبادات والعقائد الدينية ؛ فلقد كانت كل دولة أوربية تأخذ المسيحية فى كنفها وتحت حمايتها ، وترغم الناس بقوة القانون على الخضوع للكنيسة ، وكان كل ملك ، إلا القليل النادر منهم ، يثقل

الكنيسة بالهبات ، وكانت كل حادثة تقع فى التاريخ ، إلا ما ندر منها ، تفسر على أساس من الدين ، وكل واقعة فى أسفار العهد القديم تسبق إلى تصوير شىء أسفار العهد الجديد .

ومن أمثلة ذلك ما يقوله الأسقف العظيم من أن داود حين يراقب بثشبع وهو يستحم إنما يرمز إلى المسيح إذيرى كنيسته تطهر نفسها من دنس هذه الدنيا(٤٧). وكان كل شىء عادى طبيعى علامة على شىء خارق للعادة ، كما كان لكل جزء من كنيسة ، فى رأى جيوم ديوراند Guillame Durant (١٢٣٧ — ١٢٩٦) ، أسقف مندى mende ، معنى دينى ؛ فمدخل الكنيسة هو المسيح ، الذى يوصلنا إلى الجنة ؛ وعمدها تمثل المطارنة وعلماء الدين ، الذين يقيمون صرح الكنيسة ، وغرفة المقدسات التى يلبس فيها القس ثيابه هى رحم مريم ، الذى يتجسد فيه المسيح بجسد الآدميين(٤٨). ويقول أصحاب هذه النزعة إن لكل حيوان معنى فى الدين ؛ من ذلك ما جاء فى كتاب فى الحيوان مؤلف فى العصور الوسطى وهو نموذج لغيره من أمثاله : « إذا ولدت لبوءة شبلا ، فهى تلده ميتاً ، وتظل تعنى به ثلاثة أيام حتى يأتى أبوه فى اليوم الثالث وينفخ فى وجهه ، ويبعث فيه الحياة . وبهذه الطريقة عينها أحيا الله جل وعلا ابنه سيدنا عيسى المسيح من بين الموتى(٤٩) .

وكان الناس يسرون بسماع مائة ألف من القصص عن الحوادث ، والقوى ، ووسائل الشفاء الخارقة ، أو يخلقونها خلقاً من عند أنفسهم ، كقولهم إن صبياً إنجليزياً حاول أن يسرق بعض زغاليل الحمام من عشها ، فالتصقت يده بقوة سماوية بالحجر الذى اتكأ عليه ، ولم تفك إلا بعد أن قضى أهله ثلاثة أيام فى الصلاة والدعاء(٥٠). وقدم طفل طعاما لتمثال المسيح الطفل المنحوت فى مزار صور فيه مولده ؛ فما كان من الطفل المسيح إلا أن شكره ودعاه إلى دخول الجنة ؛ ولم تمض على هذا الحادث ثلاثة أيام حتى توفى الطفل الذى قدم الخبز للمسيح(٥١) .

وكلف قس فاسق بإحدى النساء ، فلما عجز عن استمالتها إليه احتفظ بجسم المسيح الطاهر فى فمه بعد القربان ، لعله إذا قبلها والجسم فى فمه استجابت إلى رغبته بقوة القربان المقدس . . . ولكنه لمـــا أراد أن يخرج من الكنيسة خيل إليه أن جسمه قد تضخم حتى اصطدم رأسه بسقفها » . فدفن الخبز المقدس فى أحد أركان الكنيسة ؛ واعترف بعدئذ بما حدث لقس آخر ، فأخرجا الخبز من الأرض فوجداه قد استحال إلى صورة رجل مصلوب يقطر منه الدم(٥٢). واحتفظت إحدى النساء بالخبز المقدس فى فمها وهى فى طريقها من الكنيسة إلى بيتها ، ثم وضعته فى قفير نحل لتقلل بذلك من عدد ما يموت من نحلها ، فما كان من النحل « إلا أن بنى لضيفه العزيز من أحلى ما يخرجه من الشهد معبداً صغيراً بديع الصنع »(٥٣). وملأ البابا جريجورى الأول مؤلفاته بقصص من هذا القبيل . ولعل الناس ، أو المتعلمين منهم ، كانوا يشكون فى هذه القصص ويرون أنها أقاصيص مسلية طريفة وليست أسوأ من القصص العجيبة التى يطرد بها الملوك ورؤساء الجمهوريات الوقت الحاضر السأم عن أنفسهم ويريحون بها عقولهم المجهدة ، ولعل السذج فى العصور الحالية لم يقبلوا أكثر من تبديل نوعها لا مداها ، وإن فى كثير من أقاصيص العصور الوسطى لشواهد على إيمان أهل تلك العصور إيماناً يحدث فى النفس أعمق الأثر ؛ وحسبنا أن نذكر منها أنه لما عاد البابا ليو التاسع المحبوب إلى إيطاليا بعد رحلة الإصلاح التى قام بها فى فرنسا وألمانيا انشق له نهر أنين Aniene كما انشق البحر الأحمر لموسى ليستطيع أن يجتازه(٥٤).

وترجع قوة الدين المسيحى إلى أنه يعرض على الناس الإيمان لا المعرفة ، والفن لا العلم ، والجمال لا الحقيقة ؛ وقد فضله الناس فى صورته هذه ، وكانوا يرون آن ليس فيهم من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم ، ولهذا كانوا يشعرون بأن من الحزم أن يؤمنوا بالأجوبة التى ينطق بها رجال الدين ، ويؤكدوها توكيداً

يزيل مخاوفهم . ولو أن الكنيسة قد اعترفت بأنها تخطئ تارة وتصيب تارة أخرى لفقدوا ثقتهم فيها ، ولعلهم كانوا يرتابون المعرفة ويرون أنها الثمرة المرة للشجرة المحرمة تحريماً ينطق بالحكمة ، أو السراب الذى يضل الناس ويغويهم ليخرجوا من جنة السذاجة والحياة الخالية من الشك . وهكذا استسلم العقل فى العصور الوسطى للإيمان فى أغلب الأوقات والحالات ، وجعل كل اعتماده على الله وعلى الكنيسة ، كما يثق رجل هذه الأيام بالعلم وبالدولة . انظر إلى قول فليب أغسطس لملاحيه أثناء عاصفة ثارت فى منتصف الليل : « إنكم تهلكوا لأن آلافا من الرهبان يقومون من فراشهم فى هذه اللحظة ، ولن يلبثوا أن يصلوا من أجلكم(٥٥) » . وكان الناس يعتقدون أنهم تسيطر عليهم قوة أعظم مما تستطيع المعرفة البشرية أن تهبهم ، وكانوا فى العالم المسيحى ، كما كانوا فى العالم الإسلامى ، يسلمون أنفسهم إلى الله ؛ كما كانوا حتى فى دنسهم ، وعفتهم ، وفجورهم يبتهلون إليه أن ينجيهم . لقد كان هذا عصراً ثملا بنشوة الإيمان بالله .

الفصل الثانى

الأسرار المقدسة

كانت القوة الثانية من قوى الكنيسة التى تلى تحديد الدين هى عملها فى أداء الأسرار المقدسة — أى الشعائر التى ترمز إلى منح البركة الإلهية . ويقول القديس أوغسطين فى هذا : « لا يستطيع الناس فى دين من الأديان أن يرتبط بعضهم ببعض إلا إذا اجتمعوا فى نوع من الزمالة عن طريق رموز أو شعائر يرونها رأى العين »(٥٦) . ويكاد اللفظ اللاتينى الذى يعبر عن هذه الأسرار المقدسة وهو لفظ Sacramentum ينطبق فى القرن الرابع الميلادى على كل شىء مقدس — على التعميد ، وعلى الصليب ، والصلاة ؛ وأطلقه أوغسطين فى القرن الخامس على الاحتفال بعيد القيامة ؛ ثم قصره إزدور الأشبيلى Isidore of Seville فى القرن السابع على التعميد وتثبيت العماد ، والقربان المقدس . فلما كان الثانى عشر حددت الأسرار المقدسة بسبعة أسرار : التعميد ، وتثبيت العماد ، والكفارة ، والقربان المقدس ، والزواج ، ورتبة الكهنوت ، والمسح بالزيت قبيل الوفاة . أما الشعائر الصغرى التى تمنح البركة الإلهية كالرش بالماء المقدس أو علامة الصليب — فلم تكن من هذه الأسرار وسميت sacramentals أى المتعلقة بتلك الأسرار تمييزاً لها عن الأسرار الأصيلة .

وكان التعميد أهم تلك الأسرار كلها ، وكان يهدف إلى غرضين : محو الخطيئة الأولى ، بحيث يولد الشخص مولداً جديداً يستقبل على أثره فى حظيرة الدين المسيحى . وكان المفروض أن يطلق الأبوان على طفلهما فى هذا الحفل اسم أحد القديسين ، ليكون هذا القديس فى المستقبل شفيع الطفل ، وأنموذجه ، وحاميه ، وهذا هو « اسمه المسيحى » أو الخاص . وقبل أن يحل القرن

التاسع كانت طريقة التعميد المسيحية الأولى — طريقة غمر الطفل كله — قد استبدلت بها تدريجاً طريقة الرش لأنها أقل خطراً على الصحة من الطريقة الأولى فى الجواء الباردة الشمالية . وكان فى وسع أى قسيس — أو أى مسيحى عند الضرورة — أن يقوم بعملية التعميد ؛ وكانت الطريقة القديمة ، طريقة تأجيل التعميد حتى يكبر الطفل ، قد استبدلت بها طريقة التعميد فى سن الرضاعة ؛ وقد أنشأت بعض الجماعات وبخاصـــة فى إيطاليا كنائس صغرى خاصة لأداء هذه الشعيرة .

وكانت مراسم تثبيت العماد والقربان المقدس تقام عند أتباع الكنيسة الشرقية بعد التعميد مباشرة . أما عند أتباع الكنيسة الغربية فقد أجلت سن تثبيت العماد شيئاً فشيئاً إلى السنة السابعة من حياة الطفل حتى يستطيع أن يتعلم المبادىء الأساسية للدين المسيحى . ولم يكن يقوم بهذه العملية إلا أحد الأساقفة ، ويصحبها دعاء إلى الروح القدس أن يدخل فى جسم التعميد ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ولطمه لطمة خفيفة على خده ؛ وبهذه الطريقة الشبيهة بما كان متبعاً فى مراسم الفروسية يثبت المسيحى الصغير فى دينه ، ويكون له تبعاً لذلك كل ما للمسيحى من حقوق وعليه كل ما على المسيحى من واجبات .

وأهم من هذا مراسم الكفارة . فإذا كانت عقائد الكنيسة تلقن الناس أنهم آثمون ، فقد كانت تعرض عليهم وسائل تطهير أرواحهم حيناً بعد حين بأن يعترفوا بذنوبهم إلى قسيس ، ويقوموا بمراسم الكفارات . فقد ورد فى الإنجيل (متى الآية ١٩ من الأصحاح السادس عشر ، والآية ١٨ من الأصحاح الثامن عشر) أن المسيح غفر الخطايا . وأنه منح الرسل هذه القدرة نفسها قدرة « الربط والحل » . وتقول الكنيسة إن هذه القدرة قد انحدرت بالتوارث من الرسل إلى المطارنة الأولين ، ومن بطرس إلى البابوات ، ثم وهبها المطارنة إلى القسيسين فى القرن الثامن . واستبدلت

بطريقه الاعتراف العلنى التى جرت بها العادة فى أيام المسيحية الأولى طريقة الاعتراف السرى الفردى حتى لا تمس كرامة بعض الكبار ؛ ولكن الاعتراف العلنى بقى عند بعض الطوائف الخارجة على مبادئ الكنيسة . وكانت الكفارة العلنية تفرض أحياناً عند ارتكاب بعض الجرائم الشنيعة كمذبحة سالونيك أو قتل بكت Becket . وقد قرر مجلس لاتران الرابع (١٢١٥) أن يتكرر الاعتراف والعشاء الربانى كل عام ، وجعلهما من الواجبات الخطيرة ، إذا أهملهما إنسان حرم من جميع خدمات الكنيسة ومن الدفن دفنة مسيحية . وأريد تشجيع من يريدون التوبة وحمايتهم فوضع « خاتم » على كل توبة بمفردها ؛ ومعنى هذا الخاتم أنه لا يجوز لقس أن يفشى ما اعترف له به . ونشرت منذ القرن الثامن قوائم تحدد الكفارة القانونية (التى قررتها الكنيسة) لكل مذنب — الصلوات ، والصيام ، والحج ، وإخراج الصدقات ، أو غيرها من أعمال التقى أو التصدق .

ولهذا « النظام العجيب » ، كما يصف ليبنتز مراسم الكفارة ، كثير من النتائج الطيبة . فهو يريح التائب من آلام وخز الضمير الصامتة المنهكة للأعصاب ؛ وهو يمكن القس من إصلاح أحوال أتباعه الخلقية والجسمية ، وهو يريح بال المذنب بما يبعثه فيه من أمل فى صلاح حاله ، وهو كما يقول ڤلتير المتشكك ، قيد يقلل من ارتكاب الجرائم[٥٨] . ويقول جيته Goethe « لقد كان من الواجب ألا يحرم بنو الإنسان من الاعتراف السمعى »[٥٩] . لكنه لم يخل من بعض النتائج السيئة : فقد كان هذا النظام يستخدم أحياناً لتحقيق أغراض سياسية ، وذلك حين كان القساوسة مثلا يأبون أن يغفروا للذين يناصرون الأباطرة على البابوات[٦٠] . وكان يستخدم أحياناً فى محاكم التفتيش كما حدث حين أمر القديس شارل برميو St. Charles Borromeo (١٥٣٨ — ١٥٨٣) رئيس أساقفة ميلان قساوسته أن يطلبوا إلى من يأتونهم للتوبة على أيديهم أن يخبروهم بأسماء كل من يعرفونهم من الملحدين أو ممن تحوم حولهم شبهة الإلحاد[٦١]

وأخطأ بعض السذج فظنوا أن الغفران يبيح لهم أن يعودوا إلى ارتكاب الذنوب . ولما ضعف التحمس الدينى كانت الكفارات القاسية المفروضة على من يتقدمون للتوبة مما يغريهم بالكذب ، وأجيز للقساوسة أن يفرضوا على التائبين عقوبات مخففة ، كانت فى العادة هى التصدق بالمال لغرض ترتضيه الكنيسة . ونشأت من هذا « التخفيف » صكوك الغفران .

ولم يكن صك الغفران رخصة بارتكاب الإثم ، بل كان إعفاء جزئياً أو كلياً من بعض العقاب الذى يستحقه الإنسان جزاء له على آثامه الدنيوية ، أو من هذا العقاب كله ، وهذا الإعفاء تمنحه إياه الكنيسة . وكان الغفران الذى يمنح عند الاعتراف يمحو الخطيئة التى لولاه لأدت بكاسبها إلى الجحيم ، ولكنه لم يكن يعفيه من العقاب « الزمنى » المترتب على إثمه . وكانت أقلية صغرى من المسيحيين هى التى تكفر عن ذنوبها فى هذا العالم تكفيراً تاماً ، أما ما بقى من هذا التكفير فيحدث فى المطهر . وكانت الكنيسة تدعى لنفسها حتى التجاوز عن هذا العقاب ؛ وذلك بأن تنقل إلى أى تائب مسيحى يقوم بأعمال معينة من التقى أو التصدق قسما صغيراً عن كنوز البركة التى تجمعت من تعذيب المسيح وموته ، ومن أعمال القديسين الأبرار الذين تزيد حسناتهم على سيئاتهم . وقد منحت صكوك الغفران منذ القرن التاسع ؛ وأعطى بعضها فى القرن الحادى عشر للحجاج الذين يزورون الأضرحة المقدسة ؛ وكان أول صك بالغفران الكلى هو الذى عرضه إربان الثانى فى عام ١٠٩٥ على من يشتركون فى الحرب الصليبية الأولى . ونشأت من هذه العادات سُنَّة منح صكوك الغفران لمن يتلون أدعية معينة أو يؤدون خدمات دينية خاصة ، أو ينشئون القناطر ، أو الطرق ، أو الكنائس أو المستشفيات ، أو يقطعون الغابات ، أو يجففون المستنقعات ، أو يتبرعون بالمال لحرب صليبية أو لهيئة كهنوتية أو لعيد كنسى ، أو حرب مسيحية ... واستخدمت هذه السنة فى كثير من الأغراض الصالحة ، ولكنها فتحت الأبواب

للمطامع البشرية ؛ فقد بعثت الكنيسة ببعض رجال الدين ، وكانوا فى العادة من الرهبان ، ليجمعوا المال بأن يعرضوا على الراغبين صكوك الغفران نظير هبات يقدمها الطالبون ، أو توبة من الذنوب ، أو صلوات يؤدونها . وقد نشأ من هذه العروض التى يسميها الإنجليز « غافرات pardoners تنافس شديد جلل بالعار كثيراً من المسيحيين ، فكانوا يتظاهرون بتعظيم بعض الآثار الدينية المزورة ليحملوا الناس على التبرع بالمال ، وكانوا يحتفظون لأنفسهم من هذه الأموال بقسط قليل أو كثير . وبذلت الكنيسة عدة محاولات لتقليل هذه المساوئ ، من ذلك أن مجلس لاتران الرابع أمر المطارنة أن ينبهوا المؤمنين إلى ما هنالك من الآثار الدينية الكاذبة والشهادات المزورة ؛ وحرمت رؤساء الأديرة من حق إصدار صكوك الغفران ، وفرضت بعض القيود على حق المطارنة فى إصدارها ، وحثت جميع رجال الدين على أن يراعوا جانب الاعتدال فى تحمسهم لهذه الوسيلة الجديدة . وندد مجلس مينز الدينى فى عام ١٢٦١ بكثير من موزعى هذه الصكوك ، ووصفهم بأنهم كاذبون أشرار ، يعرضون ما يعثرون عليه من عظام الناس أو الحيوان على أنها عظام أولياء صالحين ، مرنوا على البكاء حين يشاءون ، يساومون على التطهير من الذنوب بأكبر ما يستطيعون الحصول عليه من المال وبأقل ما يقدمونه من الأدعية والصلوات[٦٢] . وشهرت بها مجالس كنسية أخرى مثل هذا التشهير كمجلس ڤين Vtenne (١٣١١) ومجلس راڤنا (١٣١٧)[٦٣] ، لكن هذه المساوئ لم تنقطع .

وكان العشاء الربانى أهم الأسرار المقدسة بعد التعميد . ذلك أن الكنيسة تمسكت بحرفية العبارة المعزوة إلى المسيح وقت تناول العشاء الأخير ، والقائلة إن الخبز هو جسمه وإن النبيذ دمه . وأهم ما تقوم عليه شعيرة العشاء الربانى هو تحول رغيف الخبز وكأس النبيذ إلى جسم المسيح ودمه بقدرة القسيس المعجزة ؛ وكان الغرض الأول من القداس هو أن يسمح للمؤمنين بأن يشتركوا فى « جسم »

الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى « دمه ، وروحه ، وألوهيته » ، وذلك بأكل القربان المقدس ، وشرب النبيذ المقدس . وإذا كان شرب هذا النبيذ يعرض دم المسيح للانسكاب على الأرض فقد نشأت فى القرن الثانى عشر عادة الاكتفاء بتناول العشاء الربانى بالخبز وحده ؛ ولما أن طالب بعض المحافظين (الذين أخذ عنهم الهوسيون البوهيميون (Hussites of Bohemia) أراءهم فيما بعد أن يتناولوا القربان بصورتيه ليتأكدوا من أنهم حصلوا على دم المسيح وجسمه ، قال لهم علماء الدين إن دم المسيح « ملازم » لجسمه فى الخبز ، وإن جسمه « ملازم » لدمه فى النبيذ[٦٤] . وانتشرت ألف قصة وقصة عن مقدرة الخبز المقدس على إخراج الشياطين ، ومداواة الأمراض ، وإطفاء النيران ، والكشف عن الكذب باختناق الكاذبين[٦٥] . وكان يطلب إلى كل مسيحى أن يتناول العشاء الربانى مرة فى العام على الأقل ، وكان تناول الشاب المسيحى لأول مرة فرصة لإقامة المهرجانات الفخمة والحفلات السارة .

ونشأت عقيدة حضور المسيح فى أثناء العشاء الربانى نشأة بطيئة . وكانت الصياغة الرسمية الأولى لهذه العقيدة هى التى أذاعها مجلس نيقية فى عام ٧٨٧ . ثم قام راهب بندكتى فرنسى يدعى رتراموس Ratramus فى عام ٨٥٥ وقال إن الخبز والخمر المقدسين لم يكونا جسم المسيح ودمه إلا بطريقة روحية لا جسدية . وقام برنجار Berenegar رئيس شمامسة تور حوالى عام ١٠٥٤ وجهر بارتيابه فى تحول الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه ، فكان جزاؤه الحرمان من الدين ، وكتب لافرانك Lafranc رئيس دير بلك Bec رداً عليه (١٠٦٣) يقرر فيه العقيدة الدينية الصحيحة قال فيه :

إنا لنعتقد أن المادة الأرضية . . . تستحيل بتأثير القوة السماوية التى لا يستطيع أحد وصفها ... أو إدراك كنهها إلى جوهر جسم المسيح ؛ على حين أن مظهره ، وبعض صفاته الأخرى المتصلة بهذه الحقائق نفسها ، تبقى خافية حتى

ينجو الناس من هول رؤية الأشياء النيئة المخضبة بالدماء ، وحتى ينال المؤمنون الجزاء الكامل لإيمانهم . ومع هذا كله فإن جسم المسيح ذاته يبقى فى الوقت عينه فى السماء ... مصونا كاملا ، لايمسه أذى أو دنس[٦٦].

وأعلن مجلس لاتران فى عام ١٢١٥ أن هذه العقيدة من المبادئ الأساسية فى الدين المسيحى ، وأضاف مجلس ترنت Trent إلى هذا القول فى عام ١٢٦٠ أن كل جزىء من الخبز المقدس مهما كسر يحتوى جسم عيسى المسيح كلة ، ودمه ، وروحه ؛ وبهذه الطريقة تعظم الحضارة الأوربية والأمريكية اليوم شعيرة من أقدم الشعائر فى الأديان البدائية — وهى أكل الإله .

وقد رفعت الكنيسة من شأن عقدة الزواج إلى أكبر حد ، وجعلتها عقدة دائمة ، حين جعلت الزواج من الأسرار المقدسة . وحين يحتفل بضم إنسان إلى رجال الدين يهب المطران القس الجديد بعض القوى الروحية التى ورثها عن الرسل والتى يفترضون أن الله نفسه قد وهبها إياهم عن طريق المسيح . وفى آخر الأسرار المقدسة وهو المسح الأخير ، يستمع القس إلى اعترافات المسيحى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ويمنحه المغفرة التى تنجيه من النار ، ويمسح أعضاءه حتى تتطهر من الخطيئة وتصبح مستعدة للبعث أمام الحكم العدل . ويدفنه الأحياء من أهله دفنة مسيحية بدل أن يحرقوا جسده كما يفعل الوثنيون ، لأن الكنيسة كانت تقول إن الجسم أيضاً يبعث حيا بعد الموت ، وهم يلفونه فى كفنه ، ويضعون قطعة من النقود فى تابوته كما كان يفعل الأقدمون إذ يعتقدون أنهم يؤجرون كارون Charon لنقله إلى الدار الآخرة[٦٦] ، ثم يحملونه إلى قبره باحتفال مهيب ينفق فيه الكثير من المال . وقد يستأجر النائحون أو النائحات ليبكوه وينوحوا عليه ويرتدى أهله عليه سود الثياب مدة عام ، حتى لا يستطيع أحد أن يعرف لطول مدة الحزن أن قلباً تائباً ، وقساً خادما ، قد ضمنا لهذا الرجل جنة النعيم .

الفصل الثالث

الصـــلاة

الشعائر الدينية فى كل دين عظيم لازمة لزوم العقيدة نفسها ، فهى تعلم الإيمان ، وتغذيه ، وتوجده فى كثير من الأحيان ؛ وهى تربط المؤمن بربه برباط يريحه ويطمئنه ؛ وتفتن الحواس والروح بمظاهرها الروائية وشعرها ، وفنها ؛ وتربط الأفراد برباط الزمالة ، وتخلق منهم جماعة مؤتلفة حين تقنعهم بالاشتراك فى شعائر واحدة ، وترانيم واحدة ، وأدعية وصلوات واحدة ، ثم يفكرون آخر الأمر تفكيراً واحدا .

وأقدم الصلوات المسيحية هما الصلاة التى مطلعها « أبانا الذى فى السموات » والتى مطلعها « نؤمن بإله واحد » ، وقبل أن ينتهى القرن الثانى عشر بدأت الصلاة الرقيقة المحببة التى مطلعها « السلام لك يا مريم » تتخذ صيغتها المعروفة . وكانت هناك غير هذه الصلوات أوراد شعرية من الثناء والتضرع . ومن الصلوات فى العصور الوسطى ما يكاد يكون رقى تمكن من يتلوها من الإتيان بالمعجزات ، ومنها ما هو إلحاح متكرر لا يتفق مع تحريم المسيح « للتكرار العديم النفع »(٦٧) . ونشأت عند الرهبان والراهبات تدريجاً ، وعند غير رجال الدين فيما بعد ، عادة استعمال المسبحة ، وهى عادة شرقية جاءبها الصليبيون(٦٨) . ونشر الرهبان الدمنيك هذه العادة ، كما نشر الفرنسسكان عادة « طريق الصليب » أو « مواضعه » وهى التى تقضى بأن يتلو المتعبد صلوات أمام صورة أو لوحة من لوحات أو صور أربع عشرة تمثل كل منها مرحلة من مراحل آلام المسيح ؛ فكان القساوسة ، والرهبان ، والراهبات ، وبعض العلمانيين ينشدون أو يتلون أدعية الساعات القانونية — وهى أدعية ، وقراءات ، ومزامير ، وترانيم صاغها البندكتيون وغيرهم

وجمعها ألكوين Alcuin وجريجورى السابع فى كتاب موجز . وكانت هذه الأدعية تطرق أبواب السماء من مليون كنيسة وبيت متفرقة فى جميع أنحاء الأرض كل يوم وليلة فى فترات بين كل واحدة والتى تليها ثلاث ساعات . وما من شك فى أن نغماتها الموسيقية كان لها أحسن الوقع على آذان أصحاب البيوت التى تستمع إليها كما يقول أوردركس ڤيتالس : Ordericus Vitalis « ما أحلى أناشيد العبادة الإلهية التى تطمئن بها قلوب المؤمنين ، وتدخل عليهم السرور »(٦٩) .

وكثيراً ما كانت الصلوات الرسمية التى تتلى فى الكنائس توجَّه إلى الله الأب ؛ وكان عدد قليل منها يوجَّه إلى الروح القدس ؛ ولكن صلوات الشعب كانت توجه فى الأغلب الأعم إلى عيسى ومريم ، والقديسين . وكان الناس يخافون الله سبحانه وتعالى ، فقد كان لا يزال يتصف فى عقول العامة بكثير من القسوة التى كانت ليهوه ؛ وكيف يجرؤ الشخص المذنب الساذج أن يوجه صلاته إلى ذلك العرش الرهيب البعيد ؟ إن عيسى لأقرب إليه من ذلك العرش ، ولكنه هو أيضاً إله ، ومن أصعب الأشياء أن يجرؤ الإنسان على مخاطبته. وجهاً لوجه بعد أن أنكر نعمه هذا النكران التام . ومن أجل هذا بدا للناس أن من الحكمة أن توجه الأدعية والصلوات إلى أحد القديسين (أو إحدى القديسات) تشهد قوانين الكنيسة بمقامه فى الجنة ، وأن يتوسل إليه بأن يكون وسيلته عند المسيح . وبهذه الطريقة بعثت فى عقول العامة من الماضى الذى لا يبيد أبداً جميع مظاهر الشرك الشِّعرية الخيالية . وملأت العبادات المسيحية بطائفة كبيرة من الأرواح ، ترافق الناس ، وتشد عزائمهم . وتكون لهم إخوة على الأرض تقربهم إلى السماء . وتخلص الدين من عناصره الأكثر قتاماً ؛ فكان لكل أمة ، ومدينة ، ودير ،وكنيسة، وحرفة، ونفس ، وأزمة من أزمات الحياة ، وليّها الشفيع النصير ، كما كان لكل منها إلها فى رومة القديمة . كان لإنجلترا القديس

جورج ، ولفرنسا القديس دنيس ؛ وكان القديس بارثولميو حامى الدابغين ، لأن جلده سلخ وهو حى ؛ كان صانعو الشموع يضرعون إلى القديس يوحنا لأنه غمر فى قدر مليئة بالزيت المشتعل ؛ وكان القديس كرستفر St. Christopher نصير الحمالين لأنه حمل المسيح على كتفيه ، وكانت مريم المجدلية تتلقى توسلات بائعى العطور لأنها صبت زيوتاً عطرة على قدمى المسيح المنقذ . وكان لكل من يحدث له حادث طارئ ، أو يصاب بمرض ، صديق فى السموات ؛ فكان القديس سبستيان والقديس رتش Roch ذوى قوة وبأس فى أيام الوباء . وكان القديس أبولينيا St.Appolinia الذى كسر الجلاّد فكه يشفى ألم الأسنان ؛ والقديس بليز St. Blaise يشفى آلام الحلق ، والقديس كورنى St. Corneille يحمى الثيران ، والقديس جول Gall يحمى الدجاج والقديس أنطون يحمى الخنازير ؛ وكان القديس ميدار Médord هو الذى تتضرع إليه فرنسا أكثر من سائر القديسين لينزل إليها المطر ، فإذا لم ينزله ألقى عبّاده الذين ينفد صبرهم تمثالا له فى الماء من حين إلى حين ، ولعل هذا كان بمثابة رقية سحرية(٧٠) .

ووضعت الكنيسة تقويماً كنسيا جعلت كل يوم فيه عيداً لأحد القديسين . ولكن التقويم لم يتسع للخمسة والعشرين ألفاً من القديسين الذين اعترفت بهم قوانين الكنيسة قبل أن يحلّ القرن العاشر الميلادى . وقد بلغ من معرفة الشعب بتقويم القديسين أن التقويم العادى قسم السنة الزراعية أقساما أطلق على كل منها اسم أحد القديسين ؛ فى فرنسا مثلا كان عيد القديس جورج يوم البذر ، وفى إنجلترا كان عيد القديس ڤالنتين St. Valentine يحدد آخر فصل الشتاء ؛ فإذا حل ذلك اليوم ، على حد قولهم ، تزاوجت الطيور بحماسة فى الغابات ، ووضع الشباب الأزهار على أعتاب النوافذ فى بيوت البنات اللاتى يحبونهن . ومن القديسين عدد كبير اعترفت بهم الكنيسة لأن العامة داوموا على عبادتهم وإحياء ذكراهم ، أو لأن مكاناً ما قد أصرّ على هذه العبادة على الرغم من

معارضة رجال الدين . وعلقت صور ووضعت تماثيل للقديسين فى الكنائس ، والميادين العامة ، وفى الطرق ، وفوق المبانى ، وتلقت من أنواع العبادة التلقائية ما جلل بالعار بعض الفلاسفة ومحطمى العصور المقدسة . واضطر كلوديوس أسقف تورين إلى الشكوى من أن كثيرين من الناس « يعبدون صور القديسين ؛ . . . فهم لم يقلعوا عن عبادة الأصنام ، بل كل ما فى الأمر أنهم غيروا أسماءها »[٧١] . وبهذه الطريقة ، على الأقل ، أوجدت إرادة الشعب وحاجته شكل العبادة التى يتعبدها .

وما دام القديسون قد كثر عددهم إلى هذا الحد ، فقد كثرت تبعاً لذلك مخلفاتهم — عظامهم ، وشعورهم ، وأثوابهم ، وأى شىء استعملوه فى حياتهم . وكان المفروض أن كل مذبح يشمل واحداً أو أكثر من واحد من هذة المخلفات ؛ فكانت باسلقا القديس بطرس تباهى بأنها تحتوى جسدى القديسين بطرس وبولس اللذين أصبحت رومة بفضلهما كعبة الحجاج من جميع أنحاء أوربا . وكانت كنيسة فى سانت أومر St. Omer تدعى أن فيها قطعاً من الصليب الحقيقى ومن الحربة التى اخترقت جسم المسيح ، ومن مهده ، وقبره ، ومن المن الذى نزل من السماء ، ومن عصا هارون ، ومن المذبح الذى تلا عليه القديس بطرس القداس ، ومن شَعر تومس أبكت وقلنسوته ، وقميصه المنسوج من الشعر ، والشعر الذى جز من مقدم رأسه ، ومن الألواح الحجرية الأصلية التى سَجّلت عليها الوصايا العشرَ إصبعُ الله نفسه[٧٢] ، وتحتوى كنيسة أمين Amiens رأس يوحنا المعمدان فى كأس فضية [٧٣] ، ويحتوى دير القديس دنيس جسم ديونيسيوس الأريوبجى Dionysius the Areopagite وتاجه الشوكى . وتدعى واحدة من ثلاث كنائس متفرقة فى فرنسا أن فيها جسد مريم المجدلية كاملا[٧٤] ؛ كما تؤكد خمس كنائس فى فرنسا أن فى كل منها الأثر الحقيقى الوحيد الباقى من ختان المسيح[٧٥] . وتعرض كنيسة إكستر Exter أجزاء من

الشمعة التى استعملها ملاك الله لإضاءة قبر عيسى ، وأجزاء من العشب الذى تحدث منه الله إلى موسى[٧٦] . وفى دير وستمنستر بعض دم المسيح وقطعة من الرخام عليها طابع قدمه[٧٧] . ويعرض أحد أديرة درهام مفصلا من مفاصل القديس لورنس ، والفحم الذى أحرقه ، والصفحة التى قدم عليها رأس يوحنا المعمدان إلى هيرود ، وقميص العذراء ، وقطعة من الصخر عليها علامات نقط من لبنها[٧٨] . وكانت كنائس القسطنطينية قبل عام ١٢٠٤ غنية أكثر من غيرها بالمخلفات المقدسة ، فكان فيها الحربة التى نفذت فى جسم المسيح ، والتى لاتزال حمراء من دمه ، والعصا التى ضُرب بها ، وقطع كثيرة من الصليب الحقيقى مغلفة بالذهب ، وثريد الخبز الذى قدم ليهوذا فى العشاء الأخير ، وشعرات من لحية المسيح ، وذراع يوحنا المعمدان اليمنى . . .[٧٩] . وسرقت كثير من هذه المخلفات حين نهبت القسطنطينية ، ثم اشترى بعضها ، وأخذت تتنقل من كنيسة إلى كنيسة فى بلاد الغرب إلى أيدى من يؤدى فيها أكبر الأثمان . وكانت تعزى إلى جميع المخلفات قوى معجزة ، وتروى مئات الآلاف من القصص عما تحدثه من المعجزات . وكان الرجال والنساء يبذلون كل ما فى وسعهم للحصول على أقل أثر ، أو أقل أثر من أثر ليتخذوه طلسما — كخيط من ثوب قديس ، أو قليل من تراب عُلبة مخلفات ، أو نقطة زيت من مصباح مقدس فى ضريح . وكانت الأديرة تتنافس وتتنازع فى جمع المخلفات وعرضها على العباد الأسخياء ، لأن امتلاك المخلفات الشهيرة كان يدرّ على الدير أو الكنيسة ثروة طائلة .

وحسبنا مثلا لهذا أن نذكر أن « نقل » عظام تومس أبكت إلى ضريح جديد فى كنيسة كنتربرى الكبرى (١٢٢٠) جمع من الذين شاهدوا هذا العمل مايقدر بنحو ٣٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى بنقود هذه الأيام[٨٠] . واجتذب هذا العمل الرابح كثيراً من ممارسيه ، فكانت مخلفات زائفة كثيرة تباع للكنائس والأفراد ، وكانت بعض الأديرة يغريها الكسب بـ « كشف » مخلفات

جديدة حين تحتاج إلى المال . وكان شر هذه المساوئ هو تقطيع الأولياء الأموات ليتيسر لعدد من الأماكن أن يحظى برعاية القديس وقوته[٨١] .

ومما يذكر بالحمد لبعض رجال الدين من غير رجال الأديرة ، وللكثرة الغالبة من الأديرة نفسها ، أنها لم تكن ترضى ، وأنها كثيرا ما كانت تندد ، بهذه الدكاكيرية (الفيتنشية) المسرفة الواسعة الانتشار . ومن الرهبان الذين يسعون إلى العزلة فى عباداتهم من لم يكونوا يرضون عن المعجزات التى تفعلها مخلفات أديرتهم . من ذلك أن رئيس جرامونت Grammont توسل إلى مخلفات القديس استيفن أن تمتنع عن الإتيان بخوارق العادات ، لأنها تغرى الجموع الصاخبة بالتجمع ؛ ثم هدد القديس بقوله : « وإلا ألقينا عظامك فى النهر »[٨٢] . ولم تكن الكنيسة هى التى تزعمت حركة خلق الأقاصيص الخرافية عن معجزات المخلفات أو مضاعفة عددها ، بل الشعوب هى التى فعلت هذا ، وكثيراً ما كانت الكنيسة تحذر الجماهير من تصديق ما يذاع من تلك الأقاصيص[٨٣] . مثال ذلك أن مرسوما إمبراطورياً لعله صدر بناء على طلب الكنيسة حرَّم على الناس « حمل » مخلفات القديسين « أو بيعها » وأن القديس أوغسطين شكا من المنافقين الذين يلبسون مسوح الرهبان » والذين « يتجرون فى أجسام الشهداء ، إذا كانوا شهداء بحق » ؛ وقد أعاد جستنيان نشر هذا المرسوم[٨٤] . وكتب الأب جيبرت النوجنتى Guibert of Nogent حوالى عام ١١١٩ رسالة فى مخلفات القديسين ينادى فيها بوضع حد لجنون المخلفات ، ويقول إن الكثير من هذه الآثار « لأولياء اشتهروا فى سجلات لا قيمة لها » ، وإن بعض « رؤساء الأديرة أغوتهم كثرة ما يحمل إليهم من الهدايا ، فقبلوا اصطناع المعجزات الكاذبة » ، « وثمة نساء عجائز ونساء ساقطات كثيرات يتغنين بالأقاصيص الكاذبة عن القديسين الشفعاء وهنّ يعملن على أنوالهن . . . فإذا ما فنـــد إنسان أقوالهن هاجمته . . . بلقاطاتهن » . ويقول إنه قلما أوتى أحد من رجال الدين

الجرأة أو الشجاعة على الاحتجاج ، ويعترف بأنه هو نفسه قد سكت حين رأى تجار المخلفات يعرضون على المؤمنين المصدقين « بعض ذلك الخبز عينه الذى مضغه السيد المسيح بأسنانه نفسها » ؛ ذلك « أنى لو جادلت المجانين لحق علىّ القول بأنى مجنون »(٨٥) . ويضيف إلى ذلك أن فى عدد من الكنائس رءوساً كاملة ليوحنا المعمدان ، ويعجب مما كان لهذا القديس من رءوس كثيرة لا يمكن أن يقطعها قاطع(٨٦) . وجرم البابا اسكندر الثالث (١١٧٩) على الأديرة أن تطوف بما عندها من المخلفات لجمع التبرعات ؛ كما حرّم مجلس لاتران المنعقد فى عام ١٢١٥ عرض المخلفات فى خارج الأضرحة(٨٧) ؛ وندد مجلس ليون الثانى (١٢٧٤) بـ « الحط من قدر » المخلفات والصور(٨٨) .

ويمكن القول بوجه عام إن ما قامت به الكنيسة لم يكن هو تشجيع الخرافات بل كان أكبر نصيب لها فى هذه الناحية هو أنها ورثتها من خيال الناس أو من تقاليد عالم البحر المتوسط . وكان الإيمان بما لبعض المخلفات ، والطلاسم ، والتمائم ، والرقى ، من قدرة على الإتيان بالمعجزات عزيزاً على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وقد ورثوا هذه العقائد من الأديان الوثنية القديمة . وبقيت أشكال قديمة من عبادة عضو التذكير زمناً طويلا فى العصور الوسطى ، ولكن الكنيسة ألغتها شيئاً فشيئاً(٨٩) . وورثت عبادة الله بوصفه رب الجيوش ، وملك الملوك ، بعض أساليب التقرب إليه وتعظيمه ، ومخاطبته ، من الساميين والرومان ؛ وتذكرنا عادة حرق البخور أمام المذبح أو رجال الدين بعادة تقريب القرابين المحروقة ؛ أما عادة الرش بالماء المقدس فكانت صورة قديمة من التعاويذ ؛ وأما المواكب ومراسم التطهير فهى امتداد لشعائر موغلة فى التقدم ؛ وملابس القساوسة ، وتلقيب البابا بالحبر الأعظم Pontifex Maximus تراث من رومة الوثنية . ووجدت الكنيسة أن معتنقى المسيحية من أهل الريف لايزالون يعظمون بعض العيون ، والآبار ، والأشجار ،

والحجارة ؛ فرأت أن من الحكمة أن تخلع البركة على هذه الأشياء ، وأن يستخدمها المسيحيون بدل أن تقضي قضاء مفاجئاً سريعاً على عادات شديدة الارتباط بعواطف الخلق . واتباعاً لهذا دشنت مجموعة من الحجارة فى صورة مائدة فى بلواريه Plouaret على أنها مصلى القديسين السبعة ، وحللت عبادة شجرة البلوط بأن علقت على الأشجار صور القديسين المسيحيين(٩٠) . وعادت الاحتفالات الوثنية العزيزة على الشعوب أو التى لا بد منها لكى تبيح للناس الخروج على قواعد الأخلاق وأضحت أعياداً مسيحية ، واستحالت الطقوس الوثنية النباتية طقوساً كنسية مسيحية وظل الناس كما كانوا من قبل يوقدون النيران فى منتصف الصيف عشية عيد القديس يوحنا(*) ؛ وسمى عيد قيام المسيح (عيد القيامة) بالاسم الوثنى القديم Eostre وهو اسم إلهة الربيع التيوتونية القديمة ، وحل تقويم القديسين المسيحى محل التقويم الرومانى ؛ وأجازت الكنيسة أن تبقى الأرباب القديمة العزيزة على الناس وأن تحمل أسماء قديسين مسيحيين ، فأضحت إلهة النصر Deä Victovria إلهة إقليم الألب الأدنى هى القديسة ڤكتوار St. Victoire ، كما ولد كاستر وپلكس Castor and Pollux من جديد وأصبحا هما القديسين كزماس Cosmas ودميان Damian .

وكان أعظم ما ظفرت به هذه الروح ، روح التكيف المتسامحة ، من نصر هو السمو بعبادة الإلهة الأم الوثنية واستحالتها إلى عبادة مريم أم المسيح . وهنا أيضاً كان الشعب هو البادئ بهذا التسامى . ذلك أن سيريل Cyril كبير أساقفة الإسكندرية وصف ، فى موعظة له شهيرة ألقاها فى إفسس Ephesus عام ٤٣١ ، مريم بكثير من العبارات التى كان الوثنيون من أهل تلك المدينة يصفون بها « إلهتهم الكبرى » أرتميس — ديانا Artimis-Diana دلالة على حبهم إياها

(*) ويطلق على هذا العيد بالإنجليزية اسم Easter وكان عيد هذه الإلهة يحتفل به فى يوم الاعتدال الربيعى . (المترجم)

واعتزازهم بها ، ووافق مجلس إفسس فى تلك السنة على أن تلقب مريم « أم الإله » وعلى الرغم من احتجاج نسطوريوس Nestorius . وما لبثت أرق صفات عشتروت ، وسيبيل ، وأرتميس ، وديانا ، وإيزيس أن جُمعت كلها فى عبادة مريم . ثم قررت الكنيسة فى القرن السادس إقامة الاحتفال بعيد صعود العذراء إلى السماء ، وحددته باليوم الثالث عشر من شهر أغسطس ، وهو تاريخ عيدين قديمين لإيزيس وأرتميس[٩١] . وأضحت مريم القديسة الشفعية للقسطنطينية وللأسرة الإمبراطورية ، وكانت صورتها تحمل فى مقدمة كل موكب عظيم ، وكانت (ولا تزال) تعلق فى كل كنيسة وبيت فى العالم المسيحى اليونانى . وأكبر الظن أن الصليبيين هم الذين جاءوا من الشرق إلى الغرب بعبادة العذراء عبادة قوية بمظاهر ذات جمال وروعة[٩٢] .

ولم تشع الكنيسة نفسها عبادة مريم . نعم إن آباء الكنيسة كانوا قد كرموا مريم وفضلوها عن حواء ؛ ولكن عداءهم للمرأة بوجه عام ، ووصفهم إياها بأنها « الوعاء الضعيف » ، ومصدر كل غواية بارتكاب الإثم ؛ وخوف الرهبان من النساء وفرارهم منهن ، وحملة الوعاظ على مفاتن النساء ونقائصهن — هذا كله لم يكن من شأنه أن يؤدى إلى عبادة مريم هذه العبادة القوية الشاملة . وكان الشعب وحده هو الذى ابتدع أجمل زهرة فى العالم الروحى أثناء العصور الوسطى وجعل مريم أقرب الأشخاص إلى القلوب فى التاريخ كله . ذلك أن سكان أوربا المستفيقة من رقدتها لم يعودوا يقبلون تلك الصورة الصارمة لإله يعاقب الكثرة الغالبة من خلقه بإلقائهم فى نار جهنم ، فخففوا من تلقاء أنفسهم الأهوال التى يحدثهم عنها علماء الدين بما خلعوه على أم المسيح من صفات الرحمة والحنان ، وكانوا يرون أن فى وسعهم أن يقتربوا من عيسى — وهو لايزال عندهم أسمى وأعدل من أن يتصلوا به مباشرة — عن طريق أمه التى لاترد سائلا ، والتى لا يستطيع ابنها أن يرد لها شفاعة . وحسبنا دليلا على رأى الناس

فى مريم القصة التى يرويها قيصريوس الهسترباخى Caesarius of Heisterbach (١٢٣٠) وهى أن شابا أغواه الشيطان بإنكار المسيح نظير ثروة طائلة وعدها إياه ، ولكنه لم يفلح فى أن يغريه بإنكار مريم ؛ فلما تاب الشاب استطاعت مريم أن تقنع المسيح بالعفو عنه . ويحدثنا الراهب نفسه عن أخ له سترسى من غير رجال الدين سمعه يناجى المسيح بقوله : « رباه ! إن لم تنقذنى من هذه الغواية فسأ شكوك إلى أمك »(٩٣) . وقد بلغت صلوات الناس لها من الكثرة حداً جعل خيال العامة يصور عيسى فى صورة من يغار منها ، فيقولون إن شخصاً ملأ السموات بصلاة العذراء « السلام لك يا مريم » فظهر له المسيح ، كما تقول القصة الطريفة ، وأنبه أشد التأنيب وقال له : « إن أمى لتشكر لك كثيراً ما قدمت لها من أدعية وصلوات ، ولكن عليك مع ذلك ألا تغفل عن الصلاة لى أيضاً »(٩٤) . ولقد كانت عدالة المسيح فى حاجة إلى رحمة مريم لتخففها ، كما كانت صرامة يهوه فى حاجة إلى المسيح . والحق أن أم المسيح أصبحت كما وصفها القرآن ، ثالثة الثالوث الجديد ، يشترك كل إنسان فى حبها والثناء عليها ؛ فالعصاة أمثال أيلار ينحنون لها إجلالا وتكريماً ، والهجاءون أمثال روتبوف Rutebeuf ، والمتشككون الصخابون أمثال المدرسيين الجوالين لم يكونوا يجرءون على النطق بكلمة نابية عنها ؛ وكان الفرسان ينذرون أنفسهم لخدمتها ، والمدن تقدم لها مفاتيحها ، والطبقات الوسطى الرأسمالية الناشئة ترى فيها الرمز الطاهر للأمومة والأسرة ؛ والجفاة الغلاظ من رجال النقابات الطائفية – وحتى أبطال الثكنات وميادين القتال الذين لا يتورعون عن النطق بأقبح الألفاظ فيما هو مقدس – يتبارون مع الفتيات القرويات والأمهات الثاكلات فى توجيه صلواتهم إليها ووضع هداياهم تحت قدميها(٩٥) . وكان أقوى أسفار العصور الوسطى عاطفة هو ذلك الورد الذى يعلن فى حماسة متأججة متزايدة مجدها ويطلب معونتها . ولم يكن مكان ما يخلو من صورة لها ، بل لم تخل منها منحنيات

الشوارع وملتقيات الطرق والحقول . ولما أن تمخض القرنان الثانى عشر والثالث عشر عن أنبل مولد للشعور الدينى فى التاريخ أقبل الفقراء والأغنياء ، والأذلاء والعظماء ، ورجال الدنيا ورجال الدين ، والفنانون ، والصناع ، أقبل هؤلاء جميعاً يجودون بما ادخروه من مال وبما لديهم من حذق ومهارة لتكريمها فى ألف كنيسة وكنيسة سميت كلها إلا القليل منها باسمها أو كان أبهى ما فيها حرماً خاصاً هو ضريحها .

وعلى هذا النحو نشأ دين جديد ، ولعل السبب فى بقاء الكثلكة إلى هذا اليوم هو أنها استوعبت هذا الدين . وصبغ إنجيل لمريم ، لا تعترف به الكنيسة ، ولا يصدقه العقل ، ولكنه يُفتتَن به افتتاناً يجلّ عن الوصف ، وضع الشعب ما فيه من القصص وسطرها الرهبان ؛ نذكر منها **القصة الذهبية** التى تقول إن أرملة قدمت ولدها الوحيد استجابة لنداء وطنها ، فلما أسره العدو أخذت الأرملة تصلى إلى العذراء فى كل يوم أن تنقذ ولدها وترده إليها ؛ ومرت على ذلك أسابيع طوال لم تستجب العذراء لدعائها ، فما كان منها إلا أن سرقت تمثال الطفل عيسى من بين ذراعى أمه وأخفته فى بيتها ، وحينئذ فتحت العذراء السجن ، وأطلقت سراح الشاب ، وأمرته أن « بلّغ أمك ، يا بنى أن ترد إلىّ ولدى بعد أن رددت إليها ولدها »[٩٦] . وجميع رئيس دير فرنسى يدعى جولتييه ده كوانسى Gaultier de Coincy أقاصيص مريم فى قصيدة طويلة مؤلفة من ثلاثين ألف بيت ، نجد فيها العذراء تشفى راهباً مريضاً بأن تجعله يمتص اللبن من ثديها العذب . وقبض على لص كان على الدوام يصلى لها قبل أن يقدم على السرقة ، وعلق اللص ليشنق ، ولكن يديها ظلتا ترفعانه دون أن يراهما أحد فلما تبين الناس أنها تحميه ، أطلق سراحه ؛ وخرجت راهبة من ديرها لتحيا حياة الإثم ، فلما عادت إلى الدير بعد عدة سنين تائبة محطمة الروح ، وجدت العذراء — التى لم تغفل هى عن الصلاة إليها فى كل يوم — قد شغلت مكانها على الدوام ، وأن

إنساناً ما لم يلاحظ غيابها[٩٧] . ولم يكن فى مقدور الكنيسة أن ترتضى هذه القصص كلها ، ولكنها كانت تقيم احتفالات عظيمة فى ذكرى الحوادث البارزة فى حياة مريم — كالبشارة ، والزيارة[*] ، والتطهير (عيد تطهير العذراء ودخول المسيح إلى الهيكل) ، والصعود ؛ ثم خضعت الكنيسة آخر الأمر إلى إلحاح أجيال من غير رجال الدين ومن الرهبان الفرنسسكان فأجازت للمؤمنين أن يعتقدوا ، ثم أمرتهم فى عام ١٨٥٤ أن يعتقدوا ، بالحمل بلا دنس — أى أن مريم قد حملت مبرءاً من أثر الخطيئة الأولى التى تلطخ ، حسب قول الكنيسة ، كل طفل يولد من رجل وامرأة من عهد آدم وحواء .

واستحالت الكثلكة بفضل عبادة مريم من دين رهبة — لعلها كانت ضرورية فى العصور الوسطى — إلى دين رحمة وحب ؛ وإن نصف ما فى العبادات الكاثوليكية من جمال ، وكثيراً مما فى الفن الكاثوليكى والغناء الكاثوليكى من روعة وجلال ، لمن خلق هذا الإيمان السامى الذى يتجلى فى وفاء امرأة ورقتها ، بل وفى جمال جسمها ورشاقتها . لقد دخلت بنات حوّاء الهيكل وبدلت روحه ؛ وكانت هذه الكثلكة الجديدة من الأسباب التى طهرت الإقطاع فاستحال فروسية ، ورفعت من شأن المرأة إلى حد ما فى عالم من صنع الرجال ؛ وبفضله وهب النحت والتصوير فى العصور الوسطى فن تلك العصور عمقاً ورقة قلما كان اليونان يعرفونهما فى عهدهم . وفى وسع الإنسان أن يعفو عن كثير مما فى دينٍ وفى عصرٍ أوجدا مريم وكنائسها الكبرى .

(*) زيارة مريم العذراء لإليصابات قبل أن تلد هذه ابنها يوحنا المعمدان ، وتحتفل الكنيسة بهذه الذكرى فى ٢ يولية من كل عام . (المترجم)

الفصل الرابع

الطقـــوس

لقد كانت الكنيسة حكيمة إذ أفسحت فى فنها ، وترانيمها ، وصلواتها ، مكاناً لعبادة العذراء ؛ ولكنها أصرّت فى العناصر القديمة من عباداتها وطقوسها على النواحى الصارمة الجدية من الدين . من ذلك أنها جرت على السنة التى كان يجرى عليها الأقدمون ، ولعلها رأت فى هذه السنة فائدة للصحة ، فشرعت الصيام فى أوقات معينة ، نهت فيها عن أكل اللحم فى جميع أيام الجمعة ، كما حرمت أكل اللحم، والبيض ، والجبن ، طوال أيام الصوم الكبير الأربعين ، وأمرت أن يدوم ذلك الصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ؛ وأمرت كذلك ألا يكون فى هذه الفترة زواج ، أو طرب ، أو صيد ، أو محاكمات فى دور القضاء ، أو صلات جنسية بين الرجال والنساء(٩٨) . وكانت هذه نصائح لمن أراد أن يكون مسيحيا كاملا ، وقلما كان أحد يتمسك بها ، أو يرغم على اتباعها ، ولكنها أفادت فى تقوية الإرادة وكبح الشهوات عند خلائق نهمين شهوانيين .

وكانت الصلوات أيضاً مما ورثته الكنيسة عن الأقدمين ، ثم عدلت فصارت أشكالا من التمثيل الدينى ، والموسيقى الدينية والفن الدينى ، رفيعة ، سامية ، مؤثرة فى النفس . وكانت أقدم العناصر فى الصلاة المسيحية هى مزامير العهد القديم وأدعية هيكل أورشليم وعظاته ، وقراءات من العهد الجديد ، وتناول القربان المقدس . وأدى انقسام الكنيسة شرقية وغربية إلى اختلاف فى الشعائر الدينية ، كما أدى عجز البابوات الأولين عن أن يفرضوا إرادتهم كاملة خارج حدود إيطاليا الوسطى إلى وجود خلاف فى الحفلات الدينية حتى داخل الكنيسة

اللاتينية نفسها . من ذلك أن أحد الطقوس الذى استقر فى ميلان انتشر إلى أسپانيا ، وغالة ، وأيرلندة ، وشمالى بريطانيا ، ولم تتغلب عليه الطقوس الرومانية إلا فى عام ٦٦٤ . وأصلح البابا هدريان الأول طقوس الكنيسة فى منشور خاص بعث به شرلمان حوالى آخر القرن الثامن ؛ ولعل عمله هذا كان إتماما لجهود بذلها جريجورى الأول فى هذه السبيل ، ودوّن جويوم دوران Guillaume Durand أهم طقوس الكنيسة الرومانية فى كتابه « عرضه للوظائف الدينية قائم على العقل Rationale divinorum officiorum » (١٢٨٦) . وفى وسعنا أن ندرك ما لقيه هذا المؤلف من قبول إذا عرفنا أنه أول ما طبع من الكتب بعد الكتاب المقدس . وكان المحور الذى تدور عليه العبادات المسيحية وأهم شعائرها هو القداس . وكان هذا الاحتفال يعرف فى القرون الأربعة الأولى باسم « الحمد Eucharist » ، وقد بقيت هذه الذكرى القدسية للعشاء الأخير جوهر الصلوات وعمادها الأساسى ، ثم اجتمعت حولها فى خلال اثنى عشر قرناً من الزمان مراسيم متتابعة معقدة من الأدعية والترانيم تختلف باختلاف أيام السنة ، وفصولها ، والغرض الذى يقام من أجله هذا القداس أو ذاك ، ودوّنت هــذه المراسم فى كتاب القداس ليسهل على القس الرجوع إليها . وكانت الكنيسة اليونانية تفصل بين الرجال والنساء وقت الاجتماع لإقامة القداس كما كانت الكنيسة اللاتينية تفعل ذلك فى بعض الأحيان . ولم تكن هناك كراسىُّ يجلس عليها المصلون ، بل كانوا يؤدون الصلاة وهم وقوف ، وكانوا فى بعض اللحظات الرهيبة يؤدونها راكعين ؛ ويعفى من الوقوف والركوع الشيوخ والضعفاء ؛ وأقيمت للرهبان والقساوسة الذين يضطرون إلى الوقوف خلال الصلاة الطويلة أفاريز صغيرة فى أمكنة الترتيل لتسند الجزء الأسفل من العمود الفقرى ، وأضحت هذه الرحمات miserieovoliae موضع عناية ناحت الخشب وحذقه. وكان القس الذى يقيم القداس يدخل وعليه (توغا toga) كالتى

يرتديها اليونان والرومان الأقدمون ، يغطيها قميص أبيض طويل all ، وحلة القداس Cbasuble وبطرشيل stole وكلها أثواب زاهية عليها زخارف رمزية ، أكثرها ظهوراً الأحرف IHS وهى أوائل الكلمات Jesos Huiss Soter أى عيسى ابن (الله) المنقذ . وكان القداس نفسه يبدأ عند أسفل المذبح بهذا النشيد المتواضع : سأدخل فى مذبح الله ، ويضيف إليه السادن : « إلى الله الذى يضفى البهجة على شبابى » . ثم يصعد القس المذبح ويقبّله لأنه المكان المقدس الذى أودعت فيه مخلفات القديس . ويترنم بالدعاء الذى مطلعه كيرى اليسون kyrie eleison (« ارحمنا يا ألله ») وهو بقية يونانية فى القداس اللاتينى . ويتلو بعدئذ دعاء المجد (« المجد لله فى العلا ») والدعاء الأساسى الذى مطلعه « نؤمن بإله واحد » ثم يدشن قطعاً صغيرة من الخبز وقدحاً من الخمر لتكون جسم المسيح ودمه بأن يتلو عليها تلك الكلمات : هذا جسدى وهذا دمى .

Hoc est corpus meum و (*)Hic est sanguinis meus

ثم يعرض هذه العناصر المتحولة — أى ابن الله — لتكون قرباناً يتقرب به إلى الله وإحياء لذكرى التضحية على الصليب ، وبديلا من التضحية القديمة بالأحياء . ثم يلتفت القس إلى المصلين ويأمرهم بأن يسموا بقلوبهم إلى الله ، فيرد عليه السادن بوصفه نائباً عن المصلين بقوله : « إنا نرفعها إلى الرب » . ويتلو القديس بعدئذ القداس المثلث Triple Sanctus وحَمَل الله Ognus Dei ، وأبانا الذى ، ويشترك هو نفسه فى تناول الخبز والخمر المقدسين ، ويقدم العشاء الربانى إلى الحاضرين ، وبعـد أن يؤدى عدة صلوات إضافية ينطق بالصيغة الأخيرة وهى : تفرقوا ، حان الفراق Ite missa est . ولعل لفظ القداس الإنجليزية mass مشتق من لفظ missa هذا[٩٩] . ويبقى بعد هذا من القداس فى أشكاله المتأخرة أن يبارك القس المصلين ، وأن تتلى بعض فقرات أخرى من الإنجيل — وهى

(*) ومن هذه الألفاظ اشتق الساحرون « لفظ hevuspocuε »

عادة الديباجة الأفلاطونية الجديدة من إنجيل يوحنا . ولا يقام القداس عادة إلا على يد مطران ، وبعد القرن الثانى عشر لم يكن يقام إلا إذا ألقى فيه راهب موعظة .

وكان القداس يُنشد على الدوام فى أول الأمر ، وكان المصلون يشتركون فى إنشاده ؛ ثم قلَّ اشتراكهم فيه أثناء القرن الرابع وما بعده ، وأخذ مرتلون مختصون يردون على المنشد(*) . وتعدّ الترانيم التى يتغنى بها فى الصلوات المختلفة بالكنائس من أعظم ما أنتجته العاطفة والفن فى العصور الوسطى روعة وأقواها فى النفس أثراً . ويبدأ التاريخ المعروف للترانيم اللاتينية بهلارى Hilary أسقف بواتييه (المتوفى عام ٣٦٧) . ذلك أنه لما عاد إلى غالة من منفاه فى بلاد الشام جاء معه ببعض الترانيم اليونانية — الشرقية ، وترجمها إلى اللغة اللاتينية ، وأضاف إليها ترانيم أخرى من عنده ، وقد فقدت هذه كلها . ووضع أمبروز Ambrose بداية أخرى فى ميلان ، ولدينا من ترانيمه الطنانة ثمانى عشرة ترنيمة كان لحرارتها المكبوتة أعظم الأثر فى نفس أوغسطين . وأكبر الظن أن ترنيمه الشكر والإيمان النبيلة التى مطلعها « الشكر لك يا ألله » والتى كانت تعزى قبل إلى أمبروز قد كتبها نيقيتاس مطران رمسيانا Remisiana فى أواخر القرن الرابع . وربما كانت الترانيم اللاتينية قد أصبحت أرق من الترانيم السابقة إحساسا وأجمل صورة لتأثرها بالشعر العربى الإسلامى والبروفنسالى(١٠٠) . ومن الترانيم ما يكاد يكون عبارات ركيكة لا تزيد على ألفاظ رنانة ، مقفاة ؛ غير أن ترانيم عهد العصور الوسطى الزاهر — فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر — أضحت من جوامع الكلم ، محكمة العبارات ، تتخللها القوافى الرخيمة ، وتعبِّر عن أفكار طيبة رقيقة ، ترفعها إلى مستوى أعظم الشعر الوجدانى الذى أنتجه الأدب العالمى .

(*) انظر الباب الثالث والثلاثين ففيه تفصيل واف لموسيقى القداس .

وجاء إلى دير القديس ڤكتور الشهير القائم فى خارج باريس حوالى عام ١١٣٠ شاب من بريطانى بفرنسا ، لا نعرف من اسمه أكثر من آدم نزيل دير القديس ڤكتور . وقضى الشاب فى ذلك الدير الستين عاما الباقية من عمره هادئاً راضياً ، وتشرَّب بروح هوجو Hugo ورتشرد الصوفيين الذائعى الصيت ، وعبَّر عن هذه النزعة الصوفية تعبيراً متواضعاً ، حلواً ، قويا ، ترانيم يقصد بمعظمها أن تتلى بعد مراسم القداس . وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألف راهب فرنسسكانى يدعى چكوپون ده تودى Jacopone de Todi (١٢٢٨ ؟ — ١٣٠٦) أعظم ترنيمة فى العصور الوسطى وهى المعروفة باسم « وقفت الأم Sébat mother » . وكان چكوپون هذا محامياً ناجحاً فى تودى القريبة من پروجيا Perugia ، واشتهرت زوجته بصلاحها وجمالها ، وماتت هذه الزوجة إثر حادث سقوط طوار عليها فى أحد الأعياد ؛ فذهب الحزن بعقل چكوپان ، وأخذ يجول على غير هدى فى طرق أمبريا Umbria مردداً بأعلى صوته ذنوبه وأحزانه ، وطلى نفسه بالقار والريش ، وأخذ يمشى على أربع ، وانضم إلى جماعة الفرنسسكان وأنشأ القصيدة التى تحتوى فى إيجاز ما كان فى هذا الوقت من تُقى وحنان :

وقفت الأم كسيرة القلب ،
تزرف الدمع أمام الصليب
وابنها معلق يحتضر ؛
وقد نفذ فى روحها المثقلة بالأحزان ،
وهى تندبه وتتألم من أجله ،
سيف الأسى البتّار .
ألا ما أشد حزنها
تلك الأم التى أنعم الله عليها بابنها الوحيد ،
والتى رماها الزمان بسهامه !

وأخذت وقتئذ تنتحب وتندب سوء حظها ،
وترتجف حين أبصرت عذاب ابنها النبيل .
ومنذا الذى لا يحزن
إذا شاهد أم منقذنا
وقد شجتها الغصة ؟
منذا الذى يستطيع أن يحاجز نفسه عن أن يشاركها أحزانها حين
يرى هذه الأم الحنون
تندب مصير ولدها ؟ . . .
أقبلى يا أماه ، يا منبع الحب ،
وأشعرينى آلامك بأكملها
دعينى أشاركك أحزانك ،
واشعلى فى قلبى نار الشوق
وحب المسيح إلهنا ومنقذنا ،
دعينى أفعم قلبه بالسرور !
أيتها الأم المقدسة ، افعلى هذا رحمة بى !
اغرسى ضربات من مات شهيداً
عميقة فى قلبى .
دعينى أقاسى آلام
ابنك الذى أصيب بجرح أليم
وتحمل الهوان من أجلى !
دعينى أبكِ بحق إلى جانبك ،
وأقض سنى حياتى كلها

أشاركك الحزن على ابنك المصلوب .
ألا ليتنى أستطيع أن أكون معك ،
وأقف بجوار الصليب فى صحبتك ،
راضياً ، مغتبطا ، مرتبطا فى الحزن بك
فليحمنى الصليب ،
ولتنجنى آلام المسيح المنقذة للبشر ،
وليرعنى بلطفه ،
وإذا ما بلى جسمى
فلتنظر روحى فى أمجاد السماء
إليه وجهاً لوجه .

وليس فى الشعر ما يضارع هذه الترانيم المسيحية التى قيلت فى العصور الوسطى إلا قصيدتان إحداهما هى قصيدة عيد القربان Pange Lingue ، والأخرى قصيدة « يوم الغضب » الرهيبة التى كتبها تومس السلانوى Thomas of Celono حوالى ١٢٥٠ ، والتى تنشد فى القداس الذى يقام للموتى ؛ وهنا توحى رهبة يوم الحساب بقصيدة لاتقل كآبة وكمالا عن أى حلم من أحلام دانتى المعذّبة[١٠١] .

وأضافت الكنيسة إلى طقوسها ذات الأثر الشديد فى النفس والمشتملة على الأدعية والترانيم والقداس ــ أضافت إلى هذه الطقوس ما يحدث فى الأعياد الدينية من حفلات ومواكب . وأخذ عيد الميلاد فى البلدان الشمالية المراسم المفرحة للطبقة التى كان التيوتون الوثنيون يقيمونها احتفالا بانتصار الشمس وقت الانقلاب الشتائى على الظلمة المقبلة ؛ ومن هذا نشأت كُتَل عيد الميلاد التى تحرق فى بيوت الألمان ، وأهل فرنسا الشمالية ، والإنجليز ، وأهل اسكنديناوة ، كما

نشأت شجرة عيد الميلاد التى تثقل بالهدايا ، والولائم المرحة التى تتخم البطون القوية حتى الليلة الثانية عشرة بعد هذا العيد ، وكان ثمة أعياد واحتفالات أخرى يخطئها الحصر — عيد الغطاس ، وعيد الختان ، وحد السعف ، وعيد القيامة ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة . . . وكانت هذه الأعياد وأيام الآحاد كلها إلى درجة أقل منها قليلا ، أحداثاً مثيرة فى حياة رجل العصور الوسطى . وكان يستعد لاستقبال عيد القيامة بالاعتراف بما يهمه أن يتذكره من ذنوبه ، ويستحم ، ويحلق لحيته أو يقص شعره ، ويلبس خير ملابسه وأكثرها مضايقة له ، ويَطْعَمُ الله فى العشاء الربانى ؛ ويحس أعمق الإحساس بالمسرحية المسيحية الخطيرة الشأن التى قُدّر عليه أن يكون جزءاً منها . وكانت حوادث آلام المسيح تمثل فى كثير من المدن فى الثلاثة الأيام الأخيرة من أسبوع الآلام ، تتضمنها مسرحية دينية ذات حوار وأغان بسيطة ؛ كذلك كانت عدة أوقات أخرى من السنة الكنسية تمتاز بأمثال هذه « الطقوس الخفية » . وحدث فى عام ١٢٤٠ أن أبلغت يوليانا Juliana رئيسة دير قريب من لييج Liége قس القرية التى تقيم فيها أن رؤى سماوية قد نبهتها إلى أنه لا بد من تكريم جسم المسيح حين يستحيل القربان إلى لحمه ودمه فى العشاء الربانى وذلك بإقامة عيد فخم رهيب ، وأقر البابا إربان الرابع هذا الاحتفال فى عام ١٢٦٢ وعهد إلى تومس أكوناس أن يضع له « صلاة مؤلفة من ترانيم وأدعية تناسبه » . وقام الفيلسوف بهذه المهمة على خير وجه ، وفى عام ١٣١١ ثبت أخيراً عيد القربان واحتفل به فى أول يوم خميس بعد عيد العنصرة بأفخم موكب من مواكب السَّنَة المسيحية بأجمعها . وكانت هذه الحفلات تجتذب إليها جموعا لا يحصى عددها ، وتبعث البهجة والمرح فى قلوب الكثيرين ممن يشتركون فيها ؛ وهى التى مهدت السبيل للمسرحية غير الدينية فى العصور الوسطى ، وساعدت على قيام مواكب النقابات الطائفية واحتفالاتها ، وألعاب المهرجان والاحتفال بتنصيب الفرسان ، وتتويج الملوك ، وشغل ما هنالك من فراغ

فى حياة الأهلين الذين لا يميلون بفطرتهم إلى السلم والنظام بالحركات المنبعثة عن التقى ، والصلاح ، والمناظر التى تسمو بأرواحهم إلى أعلى الدرجات . ولم تكن الكنيسة تقيم تعاليمها الأخلاقية ، التى تصل إليها عن طريق العقائد الدينية على الجدل المؤدى إلى الإقناع ، بل كانت تلجأ فى الوصول إلى هذا الغرض إلى الحواس عن طريق التمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والقصص ، والشعر ؛ ولا يسعنا إلا أن نعترف أن الالتجاء إلى العواطف على هذا النحو أكثر نجاحا وأهدى إلى الغرض — شراً كان أو خيراً — من الالتجاء إلى العقل المتقلب ذى النزعة الفردية . ولقد أوجدت الكنيسة بالتجائها إلى هذا فن العصور الوسطى .

وكانت أعظم المهرجانات ما يقام منها عند أماكن الحج . فقد كان الرجال والنساء يحجون ليكفروا عن ذنب أو يوفوا بنذر ، أو يطلبوا شفاء من داء بإحدى المعجزات ، أو ينالوا غفرانا ؛ وما من شك فى أنهم كانوا يسعون ، كما يسعى السياح فى هذه الأيام ، ليشاهدوا بلدانا جديدة ومناظر جديدة ، وليقوموا فى طريقهم بمغامرات تطرد ما يلقونه فى حياتهم الضيقة الرتيبة من ملل وسآمة . وكان هناك عشرة آلاف مكان معترف بجواز الحج إليها فى أواخر القرن الثالث عشر . وكان أكثر الحجاج شجاعة يؤمون فلسطين النائية ، ومنهم الحفاة ، ومنهم من لا يلبسون إلا قميصا واحداً ؛ وكانوا يحملون فى الصلاة ، صليبا ، وعكازا ، وكيسا من النقود تناولوها كلها من يد قسيس . وحدث فى عام ١٠٥٤ أن سار ليدبيرت Leidbert أسقف كمبريه على رأس ثلاثة آلاف حاج إلى بيت المقدس ، وفى عام ١٠٦٤ سار كبير أساقفة كولونى ، ومينز ، وأساقفة اسپاير ، وبامبرج ، وأوترخت إلى بيت المقدس أيضا ، ومن ورائهم عشرة آلاف مسيحى هلك منهم ثلاثة آلاف فى الطريق ، ولم يعد منهم إلى أوطانهم سالمين إلا ألفان . وعبر حجاج آخرون جبال البرانس ، أو جازفوا بحياتهم فى المحيط الأطلنطى

ليزوروا الأماكن التى يقال إن بها عظام الرسول يعقوب بقمپستيلا Compostela من أعمال أسپانيا . وفى إنجلترا كان الإنجليز يحجون إلى قبر القديس كثبرت Cuthbert فى درهام ، وإلى قبر ادورد المعترف Edward the Confessor فى وستمنستر ، أو إلى قبر القديس إدمند St, Edmund فى بيورى Bury ، أو إلى الكنيسة التى أنشأها كما يقولون يوسف الأرماثيائى Joseph of Aremathea فى جلاستنبرى Glastonbury وكان أهم من هذه الأماكن كلها فى نظر الإنجليز ضريح تومس أبكت فى كنتربرى . وكانت فرنسا تجتذب الحجاج إلى قبر القديس مارتن فى ثور وإلى نتردام فى تشارتر ، ونتردام فى له — پوى — أن — ڤلاى Le-puyen-Velay وفى إيطاليا كنيسة القديس فرانسس وعظامه فى أسسى Assisi ، وفيها أيضاً سانتا ، كاسا Santa Casa أو البيت المقدس فى لوريتو Loreto ويعتقد المتقون أنه هو البيت الذى سكنت فيه مريم مع عيسى فى الناصرة ، وأن الملائكة حملت هذا الكوخ من فلسطين حين طرد الأتراك آخر الصليبيين منها ، وطارت به فى الهواء ثم أنزلته فى دلماشيا (١٢٩١) ، ثم طارت فوق البحر الأدرياوى إلى غابات أنكونا (اللورتوم Louretum) التى اشتق منها اسم هذه القرية المكرمة .

وآخر ما نذكره فى هذا المقام أن كل طرق العالم المسيحى كله كانت تؤدى بالحجاج إلى رومة ، ليشاهدوا قبرى بطرس وبولس ، ولينالوا الغفران بزيارة المنازل المقدسة ، أو الكنائس القائمة فى تلك المدينة ، أو للاحتفال بعيد من الأعياد ، أو ذكرى سارة فى التاريخ المسيحى . وحدث فى عام ١٢٩٩ أن أعلن البابا بنيفاس الثامن أن سيقام عيد كبير فى عام ١٣٠٠ ، وعرض أن يغفر جميع ذنوب من يأتون للتعبد فى كنيسة القديس بطرس فى ذلك العام . ويقال إن عدد من دخل أبواب رومة من الغرباء فى كل يوم من أيام هذه الشهور الاثنى عشر لم يكن يقل عن مائتى ألف ، وإن مليونى زائر مع كل منهم نذر يناسبه وضعوا

ما معهم من الكنوز أمام قبر القديس بطرس ؛ وقد بلغت هذه الكنوز من الكثرة حدا شغل قسيسين ظلا يعملان بالمجارف ليلا ونهارا لجمع النقود[١٠٢]. وكانت دلائل السياح ترشد الحجاج إلى الطرق التي يسلكونها ، والأماكن التي لا بد لهم أن يزوروها فى طريقهم أو حين يحطون رحالهم . وفى وسعنا أن نرسم لأنفسنا صورة حقيقية من فرحة الحجاج المتعبين ، وقد كساهم العثير ، وحين تقع أبصارهم آخر الأمر على المدينة الخالدة ، وحين ترتفع عقيرتهم بأغنية الفرحة والحمد التى يتلوها الحجاج : « أى رومة النبيلة ، يا ملكة هـــذا العالم كلة ، ويا خير المدائن كلها ، يا ذات اللون الأحمر الياقوتى الذى كستك به دماء الشهداء الوردية ، ولكنك كالسوسن النقى بمن فيك من العذارى . إليك نهدى تحياتنا خلال السنين وندعو لك بالخير ، ونحييك من خلال القرون ! » .

وقد أضافت الكنيسة إلى الخدمات الدينية المختلفة خدمات أخرى اجتماعية ؛ فقد أشعرت الناس بما للعمل من كرامة ، ومارس رهبانها العمل فى الزراعة والصناعة . ووافقت على أن ينتظم العمال فى نقابات طائفية ، ونظمت نقابات طائفية دينية للإشراف على أعمال الصدقات[١٠٣] . وكانت كل كنيسة حرماً مقدساً من حق كل من يُطارَد أن يلجأ إليها ليجد فيها مُقاماً له حتى تهدأ سورة من يطارده ويخضع للإجراءات القانونية ، وكان إخراج هؤلاء الرجال من هذا الحرم الأمين تدنيساً له يعاقب من يرتكبه بالطرد من حظيرة الدين . وكانت الكنيسة الصغيرة والكبيرة المركز الاجتماعى فى القرية أو المدينة . وكان حرمها المقدس فى بعض الأحيان أو الكنيسة نفسها يستخدمان برضاء القساوسة لخزن الحبوب أو الدريس أو النبيذ ، كما كانا يستخدمان أيضاً فى طحن الحبوب أو عصر الجعة[١٠٤] . وفى الكنيسة عُمِّد معظم أهل القرية ، وعندها سوف تدفن كثرتهم . وفيها يجتمع الكبار فى أيام الأحد ليتجاذبوا أطراف الحديث أو يتناقشوا فى شؤون القرية ، ويجتمع الشـــبان والشابات ليرى بعضهم بعضاً .

وعندها يجتمع المتسولون وتوزّع الكنيسة صدقاتها ، وفيها يجتمع كل ما تعرفه القرية من فن إلا القليل منه ليجمل بيت الله ، ويبتهج ألف فقير بما يشهد من مجد المعبد المقدس الذى شاده الناس بأموالهم وأيديهم ، والذى يعدّونه ملكا لهم ، وموطنهم الجماعى والروحى . وكانت الأجراس المعلقة فى برج الكنيسة تدق ساعات اليوم ، أو تدعو المؤمنين إلى الصلاة والدعاء ، وكانت موسيقى هذه الأجراس أحلى من كل ما عداها إذا استثنينا الترانيم التى تؤلف بين الأصوات والقلوب وتوحدها ، أو تبعث الحماسة فى قلوب ذوى الإيمان الفاتر بتسابيح القداس . وقد ارتفعت أبراج الكنائس ، المستدق منها وغير المستدق ، فى أقطار الأرض من نفجورود إلى فارس، ومن بيت المقدس إلى هبريدة تشق الفضاء لأن الناس لا يستطيعون الحياة بلا أمل ولا يرضون بالموت .

الفصل الخامس

القانون الكنسى

نمت إلى جانب الطقوس الدينية المعقدة الرائعة طائفة من الشرائع الكهنوتية أكثر منها تعقيداً ، تنظم أعمال الكنيسة وقراراتها . وكانت الكنيسة ذلك الوقت تسيطر على دولة أعظم رقعة وأكثر تبايناً من أية إمبراطورية . وقد نشأ القانون الكنسى شيئاً فشيئاً من العادات الدينية القديمة ، ومن فقرات فى الكتاب المقدس ، وآراء آباء الكنيسة ، وقوانين رومة أو القبائل المتبربرة ، وقرارات مجالس الكنيسة ، وقرارات البابوات وآرائهم . وعدّلت أجزاء من قانون چستنيان لكى تشرف على سلوك رجال الدين ، وأعيدت صياغة بعضها الآخر لكى يتفق مع آراء الكنيسة فى الزواج ، والطلاق ، والوصايا . وأعدت مجموعات من الشرائع الدينية فى البلاد الغربيــة فى القرنين السادس والثامن ، كما أعد أباطرة بيزنطية من حين إلى حين مجموعات مثلها فى بلاد الشرق . وصيغت قوانين الكنيسة الرومانية فى صيغتها النهائية التى كانت عليها فى العصور الوسطى على يد جراتيان Gratian حوالى عام ١١٤٨ .

وكان جراتيان هذا من رهبان بولونيا ، ولذلك لا يبعد أن يكون قد درس على إرنيريوس Irnerius فى جامعة تلك المدينة . وسواء كان هذا أولم يكن فإن الذى لا شك فيه أن الموجز الذى أصدره يدل على علم غزير بالقانون الرومانى وفلسفة العصور الوسطى . وقد سمى كتابه **التوفيق بين القواعد المتعارضة** Concordia discordantium Canonum ، ثم أطلقت عليه الأجيال المتأخرة اسم **القرارات** . وقد جمعت فيه ما أصدرته الكنيسة من قوانين ، وما كان لها من عادات ، وما أصدرته المجالس الدينية والبابوات حتى عام **١١٣٩** من قرارات

خاصة بالعقائد الدينية ، والطقوس ، والأنظمة ، والقواعد الإدارية ، والمحافظة على أملاك الكنيسة وإجراءات المحاكم الكنسية ، وما لها من سوابق ، وتنظيم حياة الرهبنة ، وعقود الزواج وقواعد الوصية . وربما كانت طريقة العرض قد أخذت عن كتاب أبلار Sic et non « هكذا وإلا فلا » .

وما من شك فى أنها كان لها بعض الأثر فى الطريقة المدرسية بعد جراتيان Gratian ، فهى تبدأ بقضية مقررة ثم تنقل أقوالا أو سوابق تعارضها ، وتحاول أن تزيل هذه الاعتراضات وتضيف بعض الشروح والتعليقات . ولم تتخذ الكنيسة فى العصور الوسطى هذا الكتاب مرجعاً نهائيا ، ولكنه أصبح فى الفترة التى كان قائما فيها نصا لا غنى عنه ، ويوشك أن يكون نصا مقدسا . وأضاف إليه جريجورى التاسع (١٢٣٤) وبنيفاس الثامن (١٢٩٤) وكلمنت الخامس (١٣١٣) ملاحق من عندهم ، وقد نشرت هذه الملاحق وبعض إضافات أقل منها شأناً مع كتاب جراتيان فى عام ١٥٨٢ باسم « مجموعة من القوانين الكنسية مقابلة لمجموعة قوانين جستنيان المدنية »(*) .

والحق أن الميدان الذى يشغله القانون الكنسى كان أوسع من الميدان الذى يشغله أى قانون مدنى معاصر له ، فهو لا يقتصر على البحث فى تكوين الكنيسة ، وعقائدها ، وأعمالها ، بل يبحث فوق ذلك فى القواعد التى تعامل بمقتضاها غير المسيحيين المقيمين فى البلاد المسيحية ؛ والطرق التى تستخدمها عند النظر فى أمر الإلحاد ، وفى القضاء على الملحدين ؛ وفى تنظيم الحروب الصليبية ؛ وفى قوانين الزواج وشرعية الأبناء ، والمهور ، والزنى ، والطلاق ، والوصايا ، والدفن وأحوال الأرامل ، واليتامى ؛ وفى قوانين الإيمان ، ونقضها ، وانتهاك حرمة المعابد ، والتجديف والمتاجرة بالدين والرتب الكهنوتية ، والسب ،

(*) وفى ٢٠ مايو ١٩١٨ أصبحت مجموعة القوانين الكنسية المعدلة هى قانون الكنيسة الرسمى .

والربا ، والأثمان العادلة ؛ وفيه قواعد لتنظيم المدارس والجامعات ، وهدنة الله وغيرها من الوسائل المقيدة للحرب والمنظمة للسلم ؛ وما يجب أن تكون عليه المحاكم الكنسية والبابوية ، وحق استخدام الطرد من الدين واللعنة والحرمان ؛ وتوقيع العقوبات الكنسية ؛ والعلاقة القائمة بين المحاكم المدنية والمحاكم الدينية ، وبين الدولة والكنيسة . وكانت الكنيسة ترى أن الواجب المفروض على المسيحيين جميعاً أن يخضعوا لهـذه المجموعة الضخمة من القوانين ، وأن من حقها هي أن توقع على كل من يخرج على أي شيء منها مختلف العقوبات البدنية أو الروحية ، لايستثنى من ذلك إلا شيء واحد وهو أنه لا يجوز لأية محكمة كنسية أن تنطق بـ « حكم الدم » — أي أن تحكم بالإعدام على شخص ما .

وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش(*) تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي ؛ فكان الحرمان الأصغر Minor excommunication يمنع المسيحي من الاشتراك في العشاء الرباني وفي طقوس الكنيسة ؛ وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة ؛ وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه . أما الحرمان الأكبر Maior excommunication (وهو الحرمان الوحيد الذي تستخدمه الكنيسة في هذه الأيام) فلا يصدره إلا مجلس ديني أو مطارنة أعلى مرتبة من القساوسة ، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة . فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي : فلا يستطيع أن يقاضي ، أو يرث ، أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية ، ولكنه يجوز لغيره أن يقاضيه ، ويحرم على أي مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حق عليه الحرمان الأصغر . ولما أن صدر قرار الحرمان على ربرت ملك

(*) أو دواوين التحقيق كما يسميها بعضهم

فرنسا (٩٩٨) لزواجه من ابنة عمه ، تركه جميع رجال حاشيته وجميع خدمه تقريباً ؛ وكان الخادمان اللذان بقيا عنده يلقيان فى النار ما يتبقى من طعامه بعد كل وجبة من وجباته ، حتى لا تدنسهما هذه البقايا . وكانت الكنيسة فى الحالات القصوى تضيف إلى الحرمان عقوبة اللعنة Anathema ، وهى عقوبة ذكر فيها بعناية وبأقوى عبارة ، وبكل ما تحتويه العبارات القانونية من لغو ، كل ما يتصل بهذه العقوبة . وكان آخر ملجأ للكنيسة هو حق البابا فى أن يصدر قرار تحريم (Interdict) على أية بقعة من العالم المسيحى — أى أن يمنع إلى أجل جميع الخدمات الدينية أو الكثرة الغالبة منها . وإذ كان الناس فى تلك الأيام يشعرون بحاجتهم إلى العشاء الربانى ، ويخشون أن توافيهم المنية قبل أن يعفى عن خطاياهم ، فقد كان المحروم يضطر عاجلا أو آجلا إلى مصالحة الكنيسة . وقد صدرت قرارات بالحرمان من هذا النوع على فرنسا فى عام ٩٩٨ ، وعلى ألمانيا فى عام ١١٠٢ ، وعلى إنجلترا فى عام ١٢٠٨ ، وعلى رومة نفسها فى عام ١١٥٥ .

وكانت كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً فى ضعف أثرهما فى القرن الحادى عشر[١٠٥] . فقد كان البابوات يصدرون بين الفينة والفينة قرارات لأغراض سياسية ؛ كما حدث حين هدد إنوسنت الثالث مدينة پيزا بإصـــدار قرار التحريم عليها إذا لم تنضم إلى الجامعة التسكانية[١٠٦] . وبلغت قرارات الحرمان بالجملة — للغش فى أموال الزكاة التى كانت الكنيسة تتقاضاها من الأهلين — من الكثرة أن أضحت أقسام كثيرة من المجتمع المسيحى محرومة كلها فى وقت واحد ، ومنها ما لم تكن تعرف أنها محرومة ، كما أن منها ما أغفل قرار الحرمان أو سخر منه[١٠٧] ولم يعبأ به . من ذلك أن قرار الحرمان بالجملة صدر على ميلان وبولونيا وفلورنس ثلاث مرات فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر . وظلت ميلان اثنين وعشرين عاماً تتجاهل القرار الثالث . ويحدثنا الأسقف جويوم له مير

Guillaume le Maire فى عام ١٣٩١ عن هذه القرارات فيقول : « لقد رأيت بعينى فى بعض الأحيان أربعمائة محروم فى أسقفية واحدة بل رأيت سبعمائة منهم . . .(*) يزدرون سلطة المفاتيح ويوجهون ألفاظ التجديف والسباب للكنيسة ورجالها(١٠٨) » ولم يعبأ فليب أغسطس وفليب الجميل بقرارات الحرمان التى صدرت عليهما .

وكان ما يحدث آناً بعد آن من تجاهل لهذه القرارات بداية اضمحلال سلطان القانون الكنسى على غير رجال الدين فى أوربا . وكانت الكنيسة قد أخضعت لسلطانها طائفة كبيرة من شئون الحياة البشرية حين تضعضعت السلطات المدنية فى الألف السنة الأولى من التاريخ المسيحى ؛ فلما أن قويت الحكومة المدنية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر استرد القانون المدنى من القانون الكنسى طائفة بعد طائفة من الشئون البشرية . نعم إن الكنيسة قد نالت مكاسب جديدة فى التعيين فى الوظائف الدينية ، أما فى معظم الميادين الأخرى فقد أخذ سلطانها يضمحل فى شئون التعليم ، والزواج ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والحرب . فقد أعلنت الدول التى نمت وترعرعت فى ظل النظام الاجتماعى الذى أوجدته هى والذى أجاز لها أن تنمو وتترعرع ، أعلنت هذه الدول أنها شبت عن الطوق وبدأت تلك العملية الطويلة — عملية التحرر من السلطة الدينية — التى بلغت غايتها فى هذه الأيام . ولكن جهود واضعى القانون الكنسى لم تذهب هباء ، كما لا تذهب هباء معظم الجهود المبدعة الخلاقة فى هذا العالم ، فهى التى أعدت ودربت أعظم من أخرجتهم من الحكام ؛

(*) لعله يريد سلطة رجال الدين الذين كانت بيدهم مفاتيح السماء فى ظنهم . (المترجم)

وأسهمت فى نقل القانون الرومانى إلى العالم الحديث ، وأيدت الحقوق القانونية للأرامل والأطفال ، ووضعت فى القانون المدنى المعمول به فى أوربا الغربية المبدأ الذى يجعل للزوجة فى حياتها نصيبا من مال زوجها[١٠٩] ، وكان له نصيب فى صياغة الفلسفة المدرسية ووضع مصطلحاتها . وملاك القول أن الشريعة الكنسية كانت من أعظم الأعمال التى تمخض عنها العقل البشرى فى العصور الوسطى .

الفصل السادس

رجال الدين

كان الناس فى حديثهم العادى فى العصور الوسطى يقسمون الخلق طبقتين : طبقة رجال الدين وطبقة « رجال الدنيا » وكان الراهب من رجال الدين وكانت الراهبة من نسائه ، ومن الرهبان من كانوا أيضاً قسيسين وهؤلاء يكونون « رجال الدين النظاميين » أى رجال الدين الذى يتبعون قانون الأديرة (regula) ؛ أما غيرهم من رجال الدين فكانوا يسمون « دنيويين » أى يعيشون فى الدنيا » (saeculum) ، وكانت طبقات رجال الدين جميعها تمتاز من غيرها بحلق قمة الرأس وبأن يلبس أفرادها مئزراً طويلا ذا لون واحد أيا كان ، ما عدا اللونين الأحمر والأخضر ، تضمه أزرار بطوله كله من الرأس إلى القدمين . ولم يكن لفظ رجال الدين يطلق على من كان منهم فى « الدرجات الصغرى » فحسب — أى بوابى الكنائس ، وقارئى الصلوات ، وقارئى الرُّقَى ، والسدنة — بل كان يطلق كذلك على جميع طلبة الدين ومدرسيه فى الجامعات ، وعلى كل من حلقوا قمة رءوسهم — أى دخلوا فى زمرة رجال الدين — وهم طلاب ثم أصبحوا فيما بعد أطباء أو محامين ، أو فنانين ، أو مؤلفين ، أو اشتغلوا محاسبين أو مساعدين لرجال الأدب . وهذا هو السبب الذى من أجله ضاق معنى لفظى Clerical ، Clerk فصارا «كتابياً » و« كاتباً » . وكان يسمح لرجال الدين من غير الطبقات العليا أن يتزوجوا وأن يشتغلوا بأية مهنة محترمة ، ولم يكونوا يلزمون بأن يظلوا مستمسكين بعادة حلق قمم رؤوسهم .

أما الطبقات الثلاث « الكبرى » أو « الطبقات المقدسة » — أتباع الشمامسة — والشمامسة — والقساوسة — فلم يكن يجوز لمن انضم إليها أن يخرج

منها ؛ وقد أغلق أمام أفرادها بوجه عام باب الزواج بعد القرن الحادى عشر ، ولكن لدينا شواهد تدل على أن بعض القساوسة اللاتين بعد أيام جريجورى السابع كانوا يتخذون لهم أزواجاً أو خليلات[١١٠] ، غير أن هذه الحالات أخذت تقل شيئاً فشيئاً حتى كانت من الحالات الشاذة النادرة(*) ، وكان على قس الأسقفية أن يقنع بالمتع الروحية . وإذ كانت حدود الأسقفية تتفق فى العادة مع حدود الضيعة أو القرية ، فإن مالك الضيعة كان فى أغلب الأحوال هو الذى يعين القس[١١١] بالاشتراك مع الأسقف . وقلما كان هذا القس ممن نالوا قسطاً موفوراً من التعليم ؛ وسبب ذلك أن التعليم الجامعى كان وقتئذ كبير النفقة ، وأن الكتب كانت نادرة ؛ ولهذا كان يكفيه أن يعرف كيف يقرأ الصلوات والقداس ، ويقوم بتقديم العشاء الربانى وتنظيم شئون العبادة والصدقات فى الأسقفية . ولم يكن فى كثير من الحالات أكثر من مساعد أو نائب يستأجره قس أكبر منه ليؤدى الخدمات الدينية فى الأسقفية نظير ربع دخله من معاشه . وكان فى مقدور القس الكبير بهذه الطريقة أن يكون له معاش من أربع

(*) لقد خلقت العزوبة العامة بين الرهبان والقساوسة والراهبات بعد عام ١٢١٥ مشكلة من المشاكل الجنسية . ولربما كانت أوربا قد قاست بعض الخسارة فى القوة الحيوية من جراء امتناع عدد كبير من الأشخاص الأصحاء عن الاضطلاع بواجب الأبوة والأمومة ، ولكننا لا نعرف على وجه التحقيق إلى أى حد تورث القدرة العالية على التناسل . وأقرب من هذا البحث إلى الناحية العلمية أثر التفاوت فى العدد بين الرجال والنساء الذين لا ينتمون إلى الطبقات الدينية والناشئ من تحريم الزواج على الرهبان والقسيسين . ولما زادت نسبة الوفيات بين الرجال على مثلها بين النساء بسبب الأسفار للتجارة وغيرها ، وبسبب الحروب العادية والصليبية ، والنزاع بين الأفراد والجماعات ، وغير هذه من الأخطار ، بقيت نسبة كبيرة من النساء عانسات أو لجأن إلى الاختلاط الجنسى غير المشروع . وكانت الكنيسة ترحب بمن يردن أن يترهبن من النساء إذا استوفين شروط الترهب ، ولكن عدد الرهبان والقساوسة مجتمعين كان يفوق عدد الراهبات كثيرا . ومن أجل هذا فإن بنات الأشراف اللاتى لا يتزوجن كثيراً ما كن يوهبن إلى الأديرة أما بنات غير هذه الطبقة فكن يلجأن إلى العمل على عجلة الغزل ، أو يعشن مع بعض أقاربهن ، أو يحيين فى جو من العار والريبة ليشبعن مطالب رجال من ذوى المكانة .

أبرشيات أو خمس ، أما قس الأبرشية فكان يحيا حياة الفقر والمذلة(١١٢)، يعتصر دخله من « رسوم المذبح » أو التعميد ، أو عقود الزواج ، أو الدفن ، أو قراءة القداس للموتى . وكان فى بعض الأحيان ينحاز إلى جانب الفقراء فى حرب الطبقات ، كما فعل جون بول John Ball(١١٣) ؛ ولم يكن مستواه الخلقى يضارع مستوى قس هذه الأيام الذى سما إلى ما سما إليه بفضل المنافسة الدينية ، ولكنه كان بوجه عام يقوم بعمله صابراً حريصاً على إطاعة نداء الضمير وواجب الشفقة والرحمة . فكان يعود المرضى ، ويواسى المحرومين ، ويعلم الشباب ، ويلوك صلواته ، ويبث فى الأهلين الغلاظ الشداد شيئاً من التحضر والخلق الطيب . ويقول أقسى ناقدى هذه الطائفة إن كثيرين من قساوسة الأبرشيات « كانوا ممن لا غنى عنهم فى هذا العالم »(١١٤)، وقال عنهم لكى Lecky المتحرر من قيود الدين : « ليس ثمة طائفة غيرهم أظهرت ما أظهروه هم من غيرة جامعة مجردة من الانهماك فى متاع الدنيا ، لا يثنيها عن هدفها مصالحها الشخصية ، يضحى أفرادها فى سبيل الواجب المفروض عليهم أعز ما فى العالم من متاع ، ويواجهون جميع الصعاب أيا كان نوعها وألوان العذاب والموت ببسالة لا تتزعزع ولا تلين »(١١٥) .

وكان القساوسة والأساقفة يؤلفون فيما بينهم طبقة رجال الكهنوت . فأما الأسقف فكان قساً اختير ليؤلف من عدة أبرشيات وعـــدد من القساوسة أسقفية واحدة . وكان الذين يختارونه لهذا المنصب من الوجهـــة النظرية وفى بداية الأمر هم القساوسة والشعب ، ولكن الذى كان يرشحه لمنصبه عادة قبل أيام جريجورى السابع هو البارون أو الملك ، وكان يختاره بعد عام ١٢١٥ كهنة الكنيسة الكبرى بالاشتراك مع البابا نفسه . وكان يعهد إليه بكثير من الشئون الدنيوية والكنسية ، كما كانت محكمته الأسقفية تنظر فى بعض القضايا المدنية وفى جميع القضايا التى تمس رجال الدين على اختلاف طبقاتهم . وكان من حقه

أن يعين القساوسة ويفصلهم ، ولكن سلطته على الأديرة ورؤسائها فى أسقفيته نقصت فى الوقت الذى نتحدث عنه لأن البابوات أخضعوا طبقات الرهبان لسلطانهم المباشر لخوفهم من سلطان الأساقفة . وكان إيراد الأسقف يأتى بعضه من الأبرشيات التابعة له ، ولكن معظمه كان يأتيه من الضياع التابعة لكرسيه ؛ وكان فى بعض الأحيان يعطى إحدى الأبرشيات من المال أكثر مما يأخذ منها . وكان المتقدمون لشغل مناصب الأساقفة يتعهدون عادة بأن يؤدوا — للملك أولا ثم للبابا فيما بعد — قدراً من المال نظير ترشيحهم ؛ وكانوا بوصفهم حكاماً دنيويين يطرأ عليهم ما يطرأ على غيرهم من ميل لتعيين أقاربهم فى المناصب ذات الإيراد المجزى — وكان مما يشكو منه البابا إسكندر الثالث أنه « لما حرم الله الأساقفة من الأبناء وهبهم الشيطان أبناء الإخوة والأخوات »(١١٦) . وكان كثيرون من الأساقفة يحيون الحياة المترفة ، التى تليق بالسادة الإقطاعيين . ولكن كثيرين منهم كانوا يهبون أنفسهم لواجباتهم الروحية والإدارية . ولقد كان أساقفة أوربا ، بعد أن أصلح ليو التاسع نظام الأسقفيات ، خير الطوائف كلها فى العصور الوسطى من الناحيتين العقلية والخلقية .

وكان يرأس أساقفة كل إقليم كبير الأساقفة أو المطران ، وكان له هو وحده حق دعوة مجلس الكنيسة الإقليمى ورياسته . وكان بعض كبار الأساقفة ، بما أوتوا من قوة فى الخلق أو سعة فى الثراء ، يسيطرون على حياة أقاليمهم من نواحيها كلها تقريباً . وكان كبار أساقفة مدن همبرج ، وبرمن ، وكولونى ، وترير ، ومينز ، ومجدبرج ، وسلزبرج الألمانية من السادة الإقطاعيين الأقوياء ، يختارهم الأباطرة فى كثير من الأحيان لتصريف شئون الإمبراطورية أو ليكونوا لهم سفراء أو مستشارين . وكذلك اضطلع كبار أساقفة ريمس ، ورون ، وكنتربرى ، بمثل هذا الواجب الخطير فى فرنسا ، ونورمندية ، وإنجلترا . ومن كبار الأساقفة — فى

طليطلة ، وليون ، ونربوتة ، وريمس ، وكولونى ، وكنتربرى — من أصبحوا « رؤساء » كباراً ذوى سلطان غير منازع على جميع رجال الدين فى أقاليمهم .

وكان كبار الأساقفة يجتمعون فى مجلس تتألف منه من حين إلى حين حكومة نيابية للكنيسة . وكانت هذه المجالس فى العهود المتأخرة تدعى لنفسها سلطات تعلو على سلطات البابا ؛ أما فى العصر الذى نتحدث عنه ، عصر أعظم البابوات ، فلم يكن أحد فى أوربا الغربية ينازع سلطان أسقف رومة سلطاته العليا الدينية والروحية . وكانت فضائل ليو التاسع وهلدبراند قد كفّرت عن فضائح القرن العاشر ، كما أخذ سلطان البابوية ينمو بين صروف القرن الثانى عشر المتقلبة وكفاحه نمواً مكن إنوسنت الثالث من أن يدّعى أن هذا السلطان يمتد إلى جميع بقاع الأرض . فقد كان الملوك والأباطرة يمسكون بركاب خادم خدم الله ، ذى الثياب البيض ، ويقبّلون قدميه . وأضحى منصب البابوية فى ذلك الوقت أسمى ما يطمع فيه إنسان على ظهر الأرض ، فكانت أذكى العقول وقتئذ تتهيأ فى أشد مدارس اللاهوت والقانون صرامة لتشغل فيما بعد مكاناً بين رجال الكنيسة . وكان الذين يرقون منهم إلى الذروة رجالا من ذوى العقول الجبارة والقلوب الباسلة لا يخشون أن يحكموا قارة بأجمعها ؛ وقلما كان موت الواحد منهم يثنى غيره عن مواصلة السياسة التى وضعها هؤلاء الرجال هم ومجالسهم ؛ فلقد أتم إنوسنت الثالث ما لم يتمه جريجورى السابع ، وفاز إنوسنت الرابع والإسكندر الرابع بالنصر فى الكفاح الذى قام به إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ضد الأباطرة الذين أرادوا تضييق سلطان البابوية .

وكان سلطان البابا يؤول إليه من الوجهة النظرية من الحقوق التى منحها المسيح الحواريين . وكانت حكومة الكنيسة بهذا المعنى حكومة دينية — أى حكومة الشعب ، عن طريق الدين ، على أيدى خلفاء الله فى الأرض . لكن الكنيسة كانت بمعنى آخر حكومة دمقراطية : فقد كان فى وسع أى إنسان فى

العالم المسيحى ، عدا المصابين فى عقولهم أو أجسامهم ، والمحكوم عليهم فى جرائم ارتكبوها ، والمطرودين من حظيرة الدين ، والأرقاء — كان فى وسع أى إنسان عدا هؤلاء أن يُختار قساً أو بابا . وكان الأغنياء فى هذا المجال ، كالأغنياء فى كل مجال سواه ، تتاح لهم فرص أكثر من غيرهم لأن يُعِدوا أنفسهم لتسنم درجات هذا السلم الدينى الكثيرة ؛ غير أن الباب كان مفتوحاً لجميع الناس على السواء ، وكانت المواهب العقلية ، لا الآباء والجدود ، هى التى يعتمد عليها النجاح فى أكثر الأحيان . وقد خرج مئات من الأساقفة وعدد كبير من البابوات من بين صفوف الطبقة الفقيرة(١١٧) ، وكان سريان هذا الدم الجديد من جميع الطبقات فى طوائف رجال الدين بمثابة غذاء مستمر لعقولهم ، وقد « ظل عصوراً طوالا الاعتراف العملى الوحيد بمساواة الناس بعضهم بعضاً »(*) .

ولقد مر بنا أن حق اختيار البابا قد اقتصر على « الأساقفة الكرادلة » المقيمين فى رومة ؛ ثم زيد عدد هؤلاء الكرادلة السبعة تدريجاً بمن ضمهم البابوات إليهم من أمم مختلفة ، حتى أضحوا كلية مقدسة مؤلفة من سبعين عضوا يمتازون من غيرهم بقلانسهم الحمراء ومآزرهم الأرجوانية ، وأضحوا طبقة جديدة فى سلم الدرجات الدينية لا يعلو عليهم إلا البابا نفسه .

(*) من كتاب جيمس وستفول طمسن James Westfall Thomsou « تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى Economic and Social History of the Middle Ages المطبوع بنيويورك سنة ١٩٢٨ ص ٦٠١ . انظر أيضاً قول فلتير : « كانت الكاثوليكية تمتاز على الدوام بأنها تخص بذوى الجدارة ما تختص به الحكومات الأخرى ذوى النسب العريق » . مقال فى آداب أوربا وأخلاقها (Esssay on the Manners and Morals of Europe فى مجموعة مؤلفاته المطبوعة فى نيويورك عام ١٩٢٧ المجلد الثالث عشر ص ٣٠) ويقول هتلر إن هذا هو مصدر السلطة القوية التى لا يصدقها العقل والتى تستقر فى هذه المنظمة المعمرة . ذلك أن هذا الحشد الكبير من الرؤساء الدينيين ، بفضل السنة التى جرى عليها دائما دون استثناء سنة سد ما يطرأ على صفوفه من نقص بين أدنى طبقات الأمم ، يفضل هذه السنة يحتفظ هذا الحشد بما بينه وبين عالم العاطفة الشعبية من رابطة غزيرية ، ويضمن لنفسه فوق هذا قدراً من الطاقة والنشاط والقوة سيظل بهذه الصورة موجوداً إلى أبد الدهر فى جمهرة الشعب . من كتاب كفاحى Mein Kamp المطبوع فى نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٤٣) .

وكان البابا يحكم دولة روحية بلغت فى القرن الثالث عشر ذروة مجدها ، ويساعده فى حكمها أولئك الرجال وطائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً « الكوريا » Curia أو المحكمة التنفيذية والقضائية . وكان من حقه وحده أن يدعو للانعقاد مجلسا عاما من الأساقفة ، ولم يكن لما يصدرونه من الشرائع أية قوة إلا إذا صدق عليه البابا بمرسوم من قبله . وكان له الحرية المطلقة فى تفسير قانون الكنيسة ، وإعادة النظر فيه ، وتوسيعه ، وإعفاء من يرى إعفاءه من قواعده . وكان هو المحكمة العليا التى تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات ، وكان هو وحده الذى يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى ، أو يسلك شخصاً فى زمرة القديسين . وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له ، وأن يقبلوا رقابة مندوبى البابا على شئونهم . وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية ، وأمم كالإنجليز ، والمجر ، والأسبان تعترف بأنه سيدها الإقطاعى وترسل إليه الجزية ؛ وكان فى وسعه أن يرقب بعينيه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة ؛ والقساوسة ، والرهبان ، المنبثين فى كل مكان ، فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها فى أية دولة من الدول . وهكذا عاد إلى رومة شيئاً فشيئاً ، بدهاء بابواتها ، ما كان لها من سلطان على أوربا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة .

الفصل السابع

البابوية فى أوجها ١٠٨٥ ـ ١٢٩٤

ولم يقض على النزاع الذى قام بين الكنيسة والدولة حول المناصب الكنسية بعد عهد جريجورى السابع وانتصار الإمبراطورية فى الظاهر . بل ظل هذا النزاع قائماً جيلا من الزمان ، تولى فيه عدة أحبار ، وانتهى بتراض بين الطرفين فى اتفاق ورمز Worms (١٢٢٢) الذى عقد بين البابا كلكستس الثانى Calixtus II والإمبراطور هنرى الخامس . وقد سلم هنرى بمقتضى هـذا الاتفاق بحق الكنيسة فى « تعيين كل من يتمتعون بالخاتم والعصا » ، ورضى أن « يجرى » انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة « حسب القوانين الكنسية » ، أى أن يقوم به رجال الدين أو الرهبان ذوو الشأن — « وأن يكون بمأمن من كل تدخل » واستخدام للمال . ووافق كلكستس على أن يجرى انتخاب الأساقفه ورؤساء الأديرة الذين يمتلكون أرضاً من التاج فى حضور الملك ؛ وأنه إذا قام النزاع حول الانتخابات كان من حق الملك أن يفصل بين المتنازعين بعد استشارة أساقفة الإقليم ؛ وأن على الأسقف أو رئيس الدير الذى يمتلك أرضاً من الملك أن يؤدى له جميع الالتزامات الإقطاعية التى يجب على التابع أن يؤديها للمتبوع[١١٨] . وكانت اتفاقات مماثلة لهذا الاتفاق قد عقدت قبل ذلك الوقت مع إنجلترا وفرنسا . وادعى كل من الطرفين أنه هو المنتصر ، والحق أن الكنيسة تقدمت بهذه الاتفاقات خطوة كبيرة نحو استقلالها بشئونها ، ولكن الروابط الإقطاعية ظلت تعطى الملك الكلمة المسموعة فى اختيار الأساقفة فى جميع أنحاء أوربا[١١٩] .

وحدث فى عام ١١٣٠ أن انقسمت هيئة الكرادلة شيعتين ، اختارت إحداهما لكرسى البابوية إنوسنت الثانى واختارت الثانية أنكليتس الثانى Anacletus II . وكان أنكليتس ينتمى إلى أسرة پيرليونى Pierleoni الشريفة ، ولكنه كان له جد يهودى اعتنق الدين المسيحى ، وكان معارضوه يسمونه « الجد اليهودى » ؛ وبعث القديس برنار ، وهو رجل كان فى غير هذا الظرف الخاص صديقاً لليهود ، برسالة إلى الإمبراطور لوثير الثانى Lothaire II يقول إن « مما يجلل المسيح بالعار أن يجلس رجل من أصل يهودى على كرسى القديس بطرس » — وقد نسى قوله هذا أصل بطرس نفسه . وأيدت كثرة رجال الدين ، وأيد ملوك أوربا كلهم إلا واحداً منهم ، إنوسنت الثانى ، وأخذت الجماهير فى أوربا تسلى نفسها بتوجيه المثالب لأنكليتس ، واتهامه بأنه يضاجع المحرمات عليه ، وينهب الكنائس المسيحية ليغنى بأموالها أصدقاءه اليهود ؛ ولكن أهل رومة ظلوا يؤيدونه إلى يوم وفاته (١١٣٨) . وأكبر الظن أن قصة أنكليتس هى مصدر خرافة أندريس Andreais التى ذاعت فى القرن الرابع عشر عن « البابا اليهودى »(١١٩م) .

وكان هدريان الرابع (١١٥٤ — ١١٥٩) مثلا آخر لما يستطيع أن يرقى إليه من الدرجات الرفيعة ذوو المواهب السامية . فقد ولد من أسرة وضيعة فى إنجلترا ، وجاء إلى أحد الأديرة يطلب الصدقات . وارتفع نقولاس بريكسپير Nicholas Breakspear بجدارته وحدها إلى منصب رئيس الدير وإلى كردينال ثم إلى بابا . ووهب أيرلندة إلى هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وأرغم بربرسا على أن يقبل قدميه ، وكاد يحتال على الإمبراطور العظيم ويقنعه بأن يسلم بحق البابوات فى أن يتصرفوا حسب مشيئتهم فى عروش الملوك . ولما مات هدريان اختارت كثرة الكرادلة إسكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) واختارت أقلية منهم فكتور الرابع . وأراد بربرسا أن يستعيد السلطة التى كانت للأباطرة الألمان

على البابوية ، فدعا كلا الرجلين لأن يعرضا عليه مطالبهما . فأما الإسكندر فرفض الطلب ، وأما ڤكتور فتبله ، وأيد بربرسا فى مجمع پاڤيا المقدس (١١٦٠) اختيار ڤكتور لكرسى البابوية ، فما كان من الإسكندر إلا أن أصدر قراراً بحرمان فردريك ، وأعفى رعايا الإمبراطور من طاعته فى الشئون المدنية ، وساعد الثورة القائمة عليه فى لمباردية . وأذل انتصار الجامعة اللمباردية فى لنيانو (١١٧٦) فرديك ، فعقد الصلح مع الإسكندر فى مدينة البندقية ، وقبل قدمى البابا مرة أخرى . وأرغم هذا البابا نفسه هنرى الثانى ملك إنجلترا على أن يسير حافى القدمين إلى قبر بكت Becket ، وأن يتلقى هناك درساً فى الطاعة من قساوسة كنتربرى . وكان كفاح الإسكندر زمنا طويلا ونصره المؤزر فى هذا الكفاح هما اللذين مهدا السبيل لبابا من أعظم البابوات على بكرة أبيهم .

وولد إنوسنت الثالث فى أنيانى القريبة من رومة فى عام ١١٦١ . وكان وهو لا يزال يسمى لوتاريودى كنتى Lotariodei Conti ، ابن كونت سنيى Segni يتصف بجميع المزايا التى يمتاز بها أبناء الأشراف ممن نالوا قسطاً كبيراً من الثقافة . ثم درس الفلسفة واللاهوت فى باريس ، والشريعة الكنسية والمدنية فى بولونيا Bologna ، ولما عاد إلى رومة استطاع بمهارته الدبلوماسية ، وعلمه الواسع بالعقائد الدينية ، وصلاته بأصحاب النفوذ ، أن يرقى رقياً سريعاً فى المناصب الدينية ؛ فكان وهو فى الثلاثين من عمره شماساً أكبر ، ولما بلغ السابعة والثلاثين اختير بابا بإجماع الآراء وإن لم يكن قد أصبح قسيساً (١١٩٨) ، وجلس على كرسى البابوية فى اليوم التالى ليوم اختياره ، وكان من حسن حظه أن الإمبراطور هنرى السادس الذى تمت له السيادة على إيطاليا وصقلية قد مات فى عام ١١٩٧ وترك عرش الإمبراطورية لفرديك الثانى ، وهو طفل فى الثالثة من عمره . وانتهز إنوسنت هذه الفرصة السانحة ، وكان فى استخدامها جد عنيف : فقد طرد رئيس بلدية رومة الألمانى من منصبه ، وأخرج الملتزمين الألمان من

اسبوليتو Spoletp وپروچيا Perugia ، وتقبل خضوع تسكانيا ، وأعاد حكم البابا فى الولايات البابوية ، واعترفت به أرملة هنرى سيدا أعلى للصقليتين ، وقبل هو أن يكون وصياً على ابنها ، ولم تمض عشرة شهور حتى كان إنوسنت سيد إيطاليا بلا منازع .

ويدل ما لدينا من الشواهد على أنه كان أعظم أهل زمانه عقلا ، فقد ألف وهو فى بداية العقد الرابع من عمره أربعة كتب فى علوم الدين ، تمتاز بغزارة المادة وبلاغة الأسلوب ، ولكن هذه الكتب قد طغى عليها سنا شهرته السياسية . وكانت عباراته التى ينطق بها فى الشئون البابوية تمتاز بالوضوح والتفكير المنطقى السليم ، وقوة العبارة ؛ ولولا منصبه الدينى لبلغ فى الفلسفة ما بلغه أكويناس ، ولبلغ فى الأدب مبلغ أبلار وإن امتاز عنه بصدق العقيدة . وقد أكسبته عيناه الثاقبتان ، وأكسبه وجهه الأسمر ، مهابة لم ينتقص منها قصر قامته . ولم تكن تعوزه الفكاهة ، وكان يجيد الغناء ، ويقرض الشعر ، وكان رقيق الحاشية ، وفى وسعه إذا شاء أن يكون رحيما ، صبورا ، ومتسامحا فيما يمس شئونه الخاصة . أما فيما يختص بعقيدته وأخلاقه ، فلم يكن يقبل أى انحراف عن أحكام الكنيسة أو مبادئها الخلقية ؛ وإذ كان عالم الإيمان والأمل المسيحيين هو الدولة التى دعى لحمايتها فقد كان يسعه كما يسع غيره من الملوك أن يدافع عن دولته بحد السيف إذا لم تكف الكلمة للدفاع عنها . وكان وهو الذى ولد فى مهد الثراء يعيش عيشة البساطة الفلسفية ، طول حياته ، طاهر اليد فى عصر فشت فيه الرشوة فى كل مكان(١٢٠) . وما كاد يتولى منصبه حتى حرم على موظفى هيئة الكرادلة أن يتقاضوا أجرا على ما يقومون به من أعمال . وكان يحب أن يرى كرسى الرسول بطرس يثرى من مال العالم كله ، ولكنه كان يصرف أموال البابوية بنزاهة معقولة . وكان دبلوماسيا بارعا ، وكان له نصيب معتدل من النقائص الخلقية التى تلازم هذه الحرفة الممتازة(١٢١) . وكأن الزمن قد عاد به

أحد عشر قرنا إلى الوراء ، فجعله إمبراطورا رومانيا رواقيا أكثر منه مسيحيا ، لا يشك قط فى أن من حقه أن يحكم العالم .

وكان من الطبيعى ، وذكرى هؤلاء البابوات الأقوياء لا تزال ماثلة فى أذهان أهل رومة ، أن يقيم إنوسنت سياسته على الاعتقاد بقداسة منصبه ورسالته . ولهذا كان شديد الحرص على أبهة الاحتفالات البابوية وفخامتها ، ولم ينزل قط أمام الجماهير عن قلامة ظفر من جلال منصبه وعظمته . وكان صادق الإيمان بأنه هو وارث السلطات التى يعتقد الناس عامة أن المسيح وهبها للحواريين وللكنيسة ، فلم يكن فى مقدوره أن يعترف بأن لأحد ما له هو من السلطان . ومن أقواله فى هذا المعنى : « إن المسيح لم يترك لبطرس حكم الكنيسة كلها فحسب بل ترك له حكم العالم بأجمعه »[١٢٢]. ولم يكن يدعى لنفسه السلطة العليا فى الشئون الأرضية أو الزمنية الخالصة ، اللهم إلا فى الولايات البابوية[١٢٣] ، ولكنه كان يصر على أنه إذا ما تعارضت السلطة الروحية مع السلطة الزمنية وجب أن تسمو السلطة الروحية على السلطة الزمنية كما تسمو الشمس على القمر . وكان يستمسك بالمثل الأعلى الذى استمسك به جريجورى السابع — وهو أن على الحكومات أن ترضى بأن يكون لها مكان فى دولة عالمية يتولى البابا رياستها ، على أن تكون له الكلمة العليا فى جميع الشئون القضائية ، والأخلاقية ، والعقائد الدينية ، وأوشك فى وقت ما أن يحقق هذا الحلم ، فقد نفذ جزءاً من خطته على أثر استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى عام ١٢٠٤ ، إذ خضعت الكنيسة اليونانية إلى أسقف رومة ؛ واستطاع أن يتحدث وهو مغتبط عن ثوب المسيح غير المخيط ؛ وأخضع بلاد العرب وأرمينية البعيدة نفسها لسيطرة الكرسى البابوى فى رومة ؛ واستطاع أن يكون هو صاحب الحق فى تعيين رجال الدين فى مناصبهم ؛ واندفع فى سلسلة من المغامرات والنزاع الخطيرة انتهت بإرغام رؤساء الحكومات الأوربية على الاعتراف بسيادته عليهم سيادة لم يسبق لها من قبل مثيل . هذا فى

فى خارج إيطاليا ، أما فى إيطاليا نفسها فكانت سياسته أقلّ من هذا نجاحاً : فقد عجز فيما بذله من جهود متعددة للقضاء على الحروب القائمة بين دول المدن الإيطالية ، ونغّص عليه أعداؤه السياسيون فى رومة حياته وجعلوها غير آمنة حتى كان فى وقت من الأوقات يخشى المقام فى عاصمته . كذلك أفلح الملك شفير Severre النرويجى (١١٨٤ — ١٢٠٢) فى مقاومته بالرغم من صدور قرار الحرمان عليه[١٢٤] هو وبلاده ، وتجاهل فليپ الثانى ملك فرنسا أمره حين عقد الصلح مع إنجلترا ، وإن كان قد خضع لما أصر عليه البابا من أن يعيد زوجته التى هجرها ، واقتنع ألفنسو التاسع صاحب ليون Leon أن يفارق برنجاريا Berengaria التى تزوجها لأنها من قريباته المحرمات عليه . واعترفت البرتغال ، وأرغونة ، وبلاد المجر ، وبلغاريا ، بأنها إقطاعيات بابوية ، وأعطت البابا جزية سنوية ، ولما رفض الملك چون أمر البابا بتعيين لانجتن Langton كبيراً لأساقفة كنتربرى اضطره البابا بقرار التحريم الذى أصدره على إنجلترا وبدهائه السياسى أن يضم إنجلترا إلى الإقطاعات البابوية . ووسع إنوسنت سلطاته فى ألمانيا بأن أعان أتو الرابع على فليب صاحب سوابيا Swabia ، ثم أعان فيليب على أتو ، وحصل فى كلتا الحالين على منح وامتيازات للبابوية نظير انتصاره لكلا الطرفين المتنازعين ، فضلا عن تحرير الولايات البابوية مما كان يتهددها من التطويق ؛ وأذكر الإمبراطور أن بابا من البابوات هو الذى « نقــل » السلطة الإمبراطورية من اليونان إلى الفرنجة ، وأن شارلمان لم يصبح إمبراطوراً إلا بعد أن مسحه البابا وتوّجه ، وأن فى مقدور البابوات أن يستردوا ما منحوا . وحسبنا دليلا على سلطان إنوسنت ما وصفه به زائر بيزنطى إلى رومة إذ قال إن إنوسنت « ليس خليفة بطرس بل خليفة قسطنطين »[١٢٥]

وقد أحبط ما بذله الحكام الزمنيون من جهود لفرض الضرائب على رجال الدين دون رضاء البابا ، ورصد المال فى الكرسى البابوى لمعونة القساوسة المحتاجين ،

ويبذل ما فى وسعه لتحسين تربية رجال الدين وتعليمهم ؛ وقد رفع من منزلتهم الاجتماعية حين عرّف الكنيسة بأنها ليست جميع المؤمنين المسيحيين بل هى جميع رجال الدين المسيحيين ؛ وقاوم عادة استيلاء الأساقفة أو رؤساء الأديرة على العشور التى تجمع من الأبرشيات وحرمان قساوسة الأبرشية منها(١٢٦) . وعمل على إصلاح ما كان فى أديرة الرجال والنساء من تراخ وإهمال بأن نظم زيارات متتابعة لهذه الأديرة لمعرفة أحوالها والتفتيش عليها . واستطاع بفضل ما وضعه من التشريعات أن يحدد العلاقة بين رجال الدين وغير رجال الدين ، وبين القساوسة والأساقفة ، والأساقفة والبابوات . ورفع من شأن المجلس البابوى فجعله محكمة قديرة للمشورة ، والإدارة ، والقضاء ، حتى أضحت وقتئذ أقدر هيئة حاكمة فى زمانها ، وقد ساعدت إجراءاتها ومصطلحاتها على تشكيل فن الدبلوماسية وطرائقها . وأكبر الظن أن إنوسنت نفسه كان أعظم أهل زمانه تبحراً فى القانون ، وأنه كان قادراً على أن يجد فى المنطق والسوابق سنداً قانونياً لكل قرار يصدره . وكان العلماء والمشترعون يهرعون إلى « مجمع الكرادلة » حيث كان يرأس هذه الهيئة بوصفها المحكمة الكنسية العليا ، ليفيدوا من نقاشها وأحكامها فى المسائل القانونية المدنية والدينية ؛ وقد أسماه بعضهم « أبا القانون Pater iuris »(١٢٧) ، وأسماه آخرون حباً وتفكهاً سليمان الثالث(١٢٨)

وكان آخر ما ناله من نصر بوصفه مشترعاً وبابا أن رأس فى عام ١٢١٥ مجلس لاتران الرابع الذى عقد فى كنيسة القديس يوحنا برومة . وأقبل على هذا المجلس العام الثانى عشر ألف وخمسمائة من رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، وغيرهم من علية رجال الدين والمندوبين فوق العادة من جميع الأمم ذات الشأن فى العالم المسيحى المتحد . وكانت خطبة الافتتاح التى ألقاها البابا اعترافا وتحديا غاية فى الجرأة إذ قال « إن أكبر سبب فى فساد الخلق هو فساد رجال الدين أنفسهم ، وهذا هو مصدر كل ما فى العالم المسيحى من شرور : فقد

انمحى الإيمان ، وطمست معالم الدين . . . ووطئت العدالة بالأقدام ، وكثر الخارجون على الدين ، وجرؤ الناس على الانشقاق ، وازداد غير المؤمنين قوة ، وانتصر المسلمون[١٢٩] » . ورضيت سلطات الكنيسة وعقولها المجتمعة فى هذا المجلس أن يسيطر عليها رجل واحد سيطرة تامة ، فكانت أحكامه هى قرارات المجلس ، وقبلت هذه السلطات أن يعيد هو تعريف عقائد الكنيسة الأساسية ، وأن يحدد معناها ؛ وعرّفت لأول مرة تعريفاً رسمياً عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه . وقبل المجلس قرارات البابا التى تطلب إلى غير المسيحيين فى البلاد المسيحية أن يلبسوا شارة خاصة تميزهم من غيرهم ؛ واستجاب بحماسة إلى دعوته بشن حرب على الملاحدة الألبچنسيين ؛ ولكنه أيضاً أيده فى الاعتراف بنقائص الكنيسة وعيوبها ، وشهّر ببيع المخلفات الزائفة ، وانتقد انتقاداً شديداً صكوك الغفران التى « لا يتورع بعض رجال الدين . . . عن منحها ويسرفون فى ذلك إسرافاً بعيداً عن الحكمة ، والتى أضحت مفاتيح الكنيسة بفضلها محتقرة ، وفقدت التوبة ما كان لها من قوة »[١٣٠] . وحاول المجلس أن يصلح حياة الرهبنة إصلاحاً شاملا ، ونَدد بإدمان رجال الدين الخمر وما انحدروا إليه من فساد فى الأخلاق ، وزواج فى الخفاء ؛ واتخذ بإزائهم إجراءات شديدة ؛ ولكنه رفض ما ادعاه الألبچنسيون من أن كل اتصال بين الرجال والنساء إثم . وملاك القول أن مجلس لاتران الرابع كان فى كثرة من حضره ، وفى اتساع مداه وآثاره ، أهم مجمع عقدته الكنيسة بعد مجلس نيقية .

وبعد أن بلغ إنوسنت ذروة المجد فى حياته أخذ ينهار مسرعا نحو منيته العاجلة . ذلك أنه قد انهمك فى توسيع سلطانه وإدارة أعماله انهماكاً دائماً لم يخلد فيه قط إلى شىء من الراحة ، وأنهك قواه وهو لا يزال فى الخامسة والخمسين من عمره . ومن أقواله وهو يتحسر : « ليس لدى متسع من الوقت أفكر فيه فى الشئون السماوية ، بل إنى قلما أجد وقتاً للتنفس ، ولقد كرست حياتى لغيرى

حتى كدت أصبح غريباً عن نفسى[١٣١] » ، ولعله كان يسعه فى آخر سنة من حياته أن يرجع بذاكرته إلى أعماله ، وأن يحكم عليها حكماً موضوعياً أصدق من حكمه عليها فى غمرة النزاع الذى كان وقت أن قام بها . لقد أخفقت الحملات الصليبية التى نظمها لاسترداد فلسطين ، وكانت الحملة التى نجحت بعد وفاته هى التى أبيد فيها الألبجنسيون فى جنوبى فرنسا بوحشية مجردة من كل رحمة . نعم إنه نال إعجاب مواطنيه ، ولكنه لم ينل حبهم كما ناله جريجورى الأول أو ليو التاسع ، وقد شكا بعض رجال الدين من أنه كان ملكاً أكثر منه رجل دين ؛ وظن القديس لتجاردس Lutgardis أنه لن يستطيع الفرار من النار إلا بشق الأنفس[١٣٢] ؛ وحتى الكنيسة نفسها امتنعت عن أن تسلكه فى عداد القديسين وفيهم من هم أقل وأكثر منه إطاعة لصوت الضمير ، وإن كانت تفخر بعبقريته وتشكر له صادق جهوده .

ولكننا لا ينبغى لنا أن نضن عليه بأنه رفع الكنيسة إلى ذروة مجدها ، وأوشك أن يحقق ما كانت تحلم به من أن تصبح دولة عالمية مسيطرة على شئون الناس الأخلاقية . وكان هو أقدر حكام زمانه ، يعمل لتحقيق أغراضه ببعد نظر ، وإخلاص ، ومزيج من الإصرار والمرونة ، وجهود لايكاد يصدقها الإنسان ؛ فلما مات فى عام ١٢١٦ كانت الكنيسة قد بلغت من دقة التنظيم ، وعظيم الأبهة ، وبعد الصيت ، وقوة السلطان ، ما لم تعرف له نظيراً قبل ، وما لم تستمتع به بعد إلا فى فترات جد نادرة وقصيرة .

وليست لهونوريوس الثالث (١٢١٦ — ١٢٢٧) منزلة عالية فى سجلات التاريخ القاسية ، لأنه كان لرقة حاشيته عاجزاً عن أن يخوض بقوة الحرب الناشبة بين الإمبراطورية والبابوية ؛ أما جريجورى التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) فقد خاض غمار هذه الحرب بعزيمة تكاد تصل إلى درجة التعصب ، وإن كان قد بلغ الثمانين من العمر حين جلس على كرسى البابوية ؛ وقد حارب فردريك

الثانى وانتصر عليه انتصاراً كان من أثره آن تأخر عصر النهضة مائة عام ؛ وهو الذى نظم محكمة التفتيش ، ولكنه كان إلى ذلك مخلصاً إخلاصاً لا يرقى إليه الشك ، تقيا إلى حد البطولة ، قويا فى دفاعه عما حسبه أثمن ما يملكه بنو الإنسان وهو الدين الذى جاء به المسيح .

وهل كان هـــذا الرجل قاسياً غليظ القلب ، وهو الذى حمى كردينال فرانسس وهداه بحكمته ، ولولا هذا لكان من الجائز أن يصبح من الملحدين المارقين . وقضى إنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤) على فردريك الثانى ، وأقر استخدام محكمة التفتيش للتعذيب[١٣٣] . وكان نصيراً صادقاً للفلسفة ، مساعداً للجامعات ، مؤسساً لمدارس القانون . وكان اسكندر الرابع (١٢٥٤ — ١٢٦١) محباً للسلم ، رحيما ، شفيقاً عادلا « أدهش العالم ببعده على الاستبداد »[١٣٤] ومعارضته لصفات أسلافه العسكرية ،[١٣٥] ، يفضل التقى عن السياسة ؛ وقد مات « كسير القلب » كما يقول مؤرخ فرنسسكانى « ولم يتقطع يوما عن التفكير فيما بين المسيحيين من نزاع متزايد رهيب »[١٣٦] ؛ وعاد كلمنت الرابع (١٢٦٥ — ١٢٦٨) إلى امتشاق الحسام ، ودبر هزيمة مانفرد Manfred ، وقضى على أسرة هوهنستاوفن وعلى ألمانيا الإمبراطورية . ولما استعاد اليونان مدينة القسطنطينية تعرض الاتفاق القائم بين الكنيسة اليونانية والرومانية لخطر الزوال ؛ ولكن جريجورى العاشر (١٢٧١—١٢٧٦) استحق حمد ميخائيل بليلجوس Miehael Palealogus بمقاومته مطامع شارل دوق أنجو فى الاستيلاء على القسطنطينية ؛ فلما عاد إمبراطواطور الروم إلى ملكه أخضع الكنيسة اليونانية إلى رومة ، وعادت البابوية إلى ما كانت عليه من تفوق .

الفصل الثامن

مالية الكنيســة

لقد كانت الكنيسة فى واقع الأمر دولة أوربية فوق الدول جميعها : تضطلع بشئون العبادات ، والأخلاق ، والتعليم ، والزواج ، والحروب العامة ، والحروب الصليبية ، والموت ، والوصايا ، لنصف سكان قارة من القارات ، وتشترك اشتراكا فعليا فى تصريف الشئون الزمنية ، وتقيم أكثر الصروح نفقة فى تاريخ العصور الوسطى ، ولهذا كله لم تكن تستطيع أن تقوم بهذه الوظائف كلها إلا باستغلال مائة مصدر من مصادر الإيراد .

وكانت العشور أكبر مصادر هذا الإيراد : ذلك أن قانون الدولة فرض بعد شارلمان على جميع الأراضى التى يمتلكها غير رجال الدين أن تؤدى عشر مجموع غلتها أو ريعها عيناً أو نقداً إلى الكنيسة المحلية ؛ كذلك فرض على كل أبرشية بعــد القرن العاشر أن تبعث بجزء من عشورها إلى مطران الأسقفية . وأجازت مبادئ الإقطاع أن تقطع عشور الأبرشية للغير ، وترهن ، ويوصى بها ، وتباع ، شأنها فى هذا شأن جميع الأملاك أو الإيراد ، فلم يكد يحل القرن الثانى عشر حتى نشأت شبكة مالية معقدة كانت الكنيسة المحلية وقسيسها هما القائمين على جمع عشورها ولم يكونا من مستهلكيها . وكان ينتظر من القس أن « يصب اللعنات من أجل عشوره » على حد قول الإنجليز — أى أن يُخرج من الدين من يحاولون التملص من أدائها أو يزورون فى إيرادهم ؛ لأن الناس فى تلك الأيام كانوا يكرهون أداء العشور للكنيسة التى يرون أن أعمالهــا لازمة لنجاتهم ، كما يكرهون فى هذه الأيام أداء الضرائب للدولة . فنحن نسمع عن ثورات يقوم بها دافعو العشور من آن إلى آن : فقد حدث فى رجيوإميليا Reggio Emilia عام

١٢٨٠ ، كما يقول الراهب سلمبين Salimbene ، أن تحدى الناس قرارات الحرمان والتحريم ، وتعاهدوا على « ألا يؤدى أحد منهم أى عشور إلى رجال الدين . . . وألا يجلسوا معهم على مائدة الطعام . . . وألا يقدموا لهم طعاما أو شرابا — وهو حرمان معكوس ، اضطر معه الأسقف إلى أن يترضاهم(١٣٧) .

وكان مصدر إيراد الكنيسة الأساسى هو أراضيها التى حصلت عليها بالهبة أو الوصية ، وبالبيع أو إغلاق الرهن ، أو بإصلاح الأراضى البور بأيدى جماعات الرهبان أو غيرها من الجماعات الدينية . وكان ينتظر من كل مالك حسب السنن الإقطاعية أن يوصى حين مماته بجزء من ماله للكنيسة ؛ وكان الذين لا يفعلون هذا يرتاب فى صدق إيمانهم ، ويتعرضون لعدم الدفن فى الأراضى المخصصة للموتى الصالحين(١٣٨) . وإذا كان الذين يعرفون الكتابة من غير رجال الدين نسبة ضئيلة من الأهلين ، فإن القس كان هو الذى يدعى فى العادة إلى كتابة الوصايا . وقد أصدر البابا إسكندر الثالث فى عام ١١٧٠ قراراً يحرم على أى إنسان عمل وصية صحيحة من الوجهة القانونية إلا فى حضرة قسيس ، وينص على أن كل موثق من غير رجال الدين يجرؤ على كتابة وصية بغير هذا الشرط يطرد من حظيرة الدين(١٣٩) ، وكانت الكنيسة وحدها هى المختصة بإثبات صحة الوصايا . وكانت الهبات أو الوصايا لكنيسة ما فى نظر الناس هى أول الطرق الموثوق بها للنجاة من آلام المطهر . وكان عدد كبير من الوصايا للكنيسة ، وبخاصة قبل عام ١٠٠٠ م يبدأ بهذه العبارة : Adventante mudi vespero ، ومعناها أنه « لما كانت أمسية العالم قريبة »(١٤٠) . ولقد سبق القول إن بعض الملاك كانوا ينزلون عن أموالهم إلى الكنيسة بوصف ذلك تأميناً لهم من العجز : فكانت الكنيسة تؤدى للراهب راتباً سنويا وترعاه فى حالتى المرض والشيخوخة ، على أن تتسلم تركته خالية من جميع الحقوق العينية حين وفاته(١٤١) . وكانت بعض الأديرة « تؤاخى » المحسنين إليها فتمنحهم نصيباً من تخفيف عذاب المطهر ، وهو

التخفيف الذى ناله الرهبان بفضل صلواتهم وصالح أعمالهم[١٤٢] . ولم يكتف الصليبيون ببيع أراضيهم إلى الكنيسة بأثمان بخسة ليحصلوا ببيعها على ما يحتاجونه من المال ، بل إنهم استدانوا الأموال من الهيئات الكنسية بضمان ممتلكاتهم أو برهنها لها ؛ وكثيراً ما كانت هذه الممتلكات تؤول إلى تلك الهيئات لعجز أصحابها عن أداء ما عليها من الديون . ومن الناس من كانوا يموتون وليس لهم ورثة طبيعيون فيتركون أملاكهم كلها للكنيسة ، من ذلك أن ماتلدا دوقة تسكانيا Countess Matilda of Tuscany حاولت أن توصى للكنيسة بما يكاد يبلغ ربع مساحة إيطاليا كلها .

وإذ كانت أملاك الكنيسة مما لا يجوز انتقاله إلى غيرها ، وكانت قبل عام ١٢٠٠ معفاة فى الأحوال العادية من الضرائب الزمنية[١٤٣] ، فقد أخذت هذه الأملاك تنمو على مر القرون ، فلم يكن من الأمور غير العادية أن تمتلك كنيسة كبرى ، أو يمتلك دير للرجال أو النساء ، عدة آلاف من الضياع تشمل فيما تشمله نحو اثنتى عشرة بلدة ، بل تشمل أحياناً مدينة كبرى أو مدينتين[١٤٤] . فقد كان أسقف لانجر Langres مثلا يمتلك المقاطعة كلها . وكان دير القديس مارتن فى تور يحكم عشرين ألفا من أرقاء الأرض ، وكان أسقف بولونيا يمتلك ألنى ضيعة ، وكان الدير لورسش Lorsch مثل هذا القدر من الضياع ، وكان لدير لاس هوجاس Las Huelgas فى أسپانيا أربع وستون بلدة[١٤٥] ؛ وكانت الكنيسة فى قشتالة تمتلك حوالى عام ١٢٠٠ م ربع الأراضى الزراعية ؛ وكانت فى إنجلترا تمتلك خمسها ، وفى ألمانيا ثلثها ، وفى ليڤونيا Livonia نصفها[١٤٦] . على أنه يجدر بنا أن ننبه القارئ إلى أن هذه التقديرات تقريبية ، وليست كلها مما يوثق بصحته . وأضحت هذه الثروة المكدسة موضع حسد الدولة ومطمعها . فقد صادر شارل مارتل أملاك الكنيسة ليمول بها حروبه ، وأصدر لويس التقى القوانين التى تحرّم على من كان له أبناء أن يوصى بأملاكه إلى الكنيسة[١٤٧] .

وجرّد هنرى الثانى إمبراطور ألمانيا كثيراً من الأديرة من أراضيها ، وقال فى تبرير هذا العمل إن الرهبان قد نذروا أن يعيشوا فقراء ، ووضعت بعض القوانين الإنجليزية الخاصة بالأموال المرصودة قيوداً على انتقال الأملاك إلى « الهيئات » أى الجماعات الكنسية . واستولى إدورد الأول من الكنيسة الإنجليزية فى عام ١٢٩١ على عُشر أملاكها ، كما استولى منها فى عام ١٢٩٤ على نصف دخلها السنوى . وبدأ فليب الثانى سُنّة فرض الضرائب على أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وجرى القديس لويس على هذه السنّة وجعلها فليب الرابع شريعة مقررة . ولما تقدمت الصناعة والتجارة ، وكثرت النقود ، وارتفعت الأثمان ، أصبح دخل الأديرة والأسقفيات الآتى معظمه من الرسوم الإقطاعية التى كانت مقدرة من قبل على أساس مستوى الأثمان المنخفضة ، والتى لم يكن يستطاع رفعها فى هذه الأيام ، نقول أصبح دخل الأديرة والأسقفيات لايفى بمعيشة من فيها ، دع عنك ترفهم(١٤٨) ، فلم يحل عام ١٢٧٠ حتى كانت كثرة الكنائس والأديرة فى فرنسا مستغرقة فى الدين ؛ ذلك أنها كانت قد استدانت من أصحاب المصارف بفوائد مرتفعة لتفى بمطالب الملوك ؛ وكان هذا من أسباب ضعف نشاط البناء فى فرنسا فى آخر القرن الثالث عشر .

وزاد البابوات فى فقر الأسقفيات بما فرضوه من الضرائب على أملاكها وإيرادها ليمولوا الحروب الصليبية فى بادئ الأمر ، وليوفوا بنفقات الكرسى البابوى المطردة الزيادة فيما بعد ؛ وكان لا بد من وجود مصادر للدخل المركزى كلما وسعت البابوية مجال أعمالها وزادتها تعقيداً . وتحقيقاً لهذه الغاية أمر البابا إنوسنت الثالث (١١٩٩) جميع الأساقفة أن يرسلوا إلى كرسى القديس بطرس جزءاً من أربعين جزءاً من إيرادهم فى كل عام ، وفرضت ضرائب على جميع أديرة الرجال والنساء ، وعلى الكنائس الداخلة فى دائرة الحماية البابوية مباشرة . وفرض البابوات على كل أسقف فى أول اختياره لمنصبه ضريبة تعادل من الوجهة

النظرية جميع إيراده فى السنة الأولى ، ولكنها كانت من الوجهة العملية نصف هذا الإيراد ؟ وذلك نظير تثبيته فى منصبه . وكذلك كانت مبالغ كبيرة تنتظر ممن يعينون رؤساء أساقفة ، وكان يطلب إلى كل بيت من البيوت المسيحية أن يرسل إلى الكرسى البابوى بنساً سنويا (٩/١٠٠ من الريال الأمريكى) يعرف باسم « بنسات بطرس » . وقد جرت العادة على أن تفرض رسوم على القضايا التى تعرض على المحكمة البابوية . وكان البابوات يدعون لأنفسهم حق الخروج على القانون الكنسى فى بعض الحالات ، كالإذن بزواج من يحرم زواجهم من ذوى القربى إذا بدا لهم أن ثمة غاية سياسية طيبة تبرر هذا الخروج ، وفرضت أجور على الإجراءات القضائية التى يتطلبها هذا العمل . كذلك جاءت إلى البابوات أموال طائلة ممن ينالون صكوك الغفران البابوية ، ومن الحجاج القادمين إلى رومة . وقد حسب دخل الكرسى البابوى فى عام ١٢٥٠ فكان أكثر من دخل رؤساء الدول الأوربية الزمنيين مجتمعين(١٤٩) . ولقد تلقى البابا من إنجلترا فى عام ١٢٥٢ ثلاثة أمثال إيراد التاج(١٥٠) .

ومهما تكن ثروة الكنيسة متناسبة مع اتساع وظائفها ، فقد كانت هذه الثروة أهم أسباب الإلحاد فى هذا العصر . فقد أعلن آرنلد البرشيانى Arnold of Brescia أن كل قس أو راهب يموت وله ملك مآله النار لا محالة(١٥١) . وزاد البجوميل Bogoniles والولدنس Waldenses ، والباترين Paterines ، والكاثارى Cathari على ذلك فشنوا حملة شعواء على ثروة أتباع المسيح . وكان من قصائد الهجاء المتداولة فى القرن الثالث عشر قصيدة عنوانها « الإنجيل حسب الماركات الفضية » مطلعها : « وقال البابوات للرومان فى تلك الأيام : إذا جاء ابن الإنسان إلى مقعد جلالتنا فليكن أول ما تقولون : أيها الصديق لم جئت إلى هذا المكان ؟ فإذا لم يعطكم شيئا فألقوا به فى الظلمات الخارجية »(١٥٢) . وإنا لنجد فى جميع آداب ذلك الوقت — فى الأقاصيص الخرافية ، وفى الأغانى ، وفى قصة الوردة Roman de La Rose

وفى قصائد الشعراء الجائلين ، وأشعار شعراء الفروسية الغزليين ، وفى قصائد دانتى ، وفى أقوال مؤرخى الأديرة الإخباريين أنفسهم شكاوى من بخل رجال الدين أو ثرائهم(١٥٣) . وقد ندد ماثيوپاريس Mathew Paris أحد الرهبان الإنجليز بجشع رجال الدين الإنجليز والرومان الذين يعيشون منعمين من أملاك المسيح(١٥٤) . وكتب هيوبرت ده رومان Hubert de Romans رئيس طائفة الرهبان الدمنيك عن « بائعى صكوك الغفران البابوية الذين يفسدون المحاكم الدينية بما يقدمونه من الرشا »(١٥٥) . ويتحدث پترس كانتور Petrus Cantor وهو نفسه قسيس ، عن القساوسة الذين يبيعون القداس أو أدعية الغروب(١٥٦) ؛ وشنع بكت Beckte رئيس أساقفة كنتربرى بمجلس القضاء البابوى الذى يباع ويشترى ، وينقل عن هنرى الثانى قولا له يفخر فيه بأن جميع أعضاء مجلس الكرادلة يتقاضون منه أجورا(١٥٧) . والحق أن تهم الرشوة والفساد قد وجهت إلى كل حكومة ظهرت فى التاريخ . وإن فى هذه التهم لشيئاً من الحقيقة فى جميع الأحوال ، غير أن فيها كذلك بعض المبالغة فى حوادث منشؤها أمثلة صاخبة حدثت فى بعض الأوقات ، ولكن هذه التهم تثير أحياناً غضباً يكاد يبلغ حد الثورة ، ولقد كان يسع الأهلين الذين أقاموا بدريهماتهم الكنائس لمريم العذراء أن يحتجوا وهم غضاب على جشع الكنيسة مجتمعة ، وكم من مرة قتلوا قسا عنيداً(١٥٨) .

واشتركت الكنيسة نفسها فى نقد جشع رجال الدين ، وبذلت كثيراً من الجهود للقضاءعلى شره رجالها وترفهم . فلقد حاول مئات من رجال الدين من القديس بطرس داميان St. Peter Damian ، والقديس برنار St. Bernard والقديس فرانسس ، والكاردينال ده ڤترى Cardinal de Vitry إلى صغار الرهبان تقليل هذه المساوئ(١٥٩) ، وإن ما كتبه هؤلاء المصلحون من رجال الكنيسة لهو أهم المصادر التى عرفنا منها ما نعرفه عن هذه المساوئ . وقام عدد من طوائف الرهبان ينادون بضرورة إصلاحها ، ويضربون بأنفسهم المثل لما

يجب أن يكون عليه هذا الإصلاح ، وندد البابا اسكندر الثالث ومجلس لاتران الذى عقد فى عام ١١٧٩ بفرض الأجور على أداء مراسم التعميد ، أو مسح المشرفين على الموت ، أو القيام بمراسم الزواج ، ودعا جريجورى العاشر مجلس ليون الجامع سنة ١٢٧٤ خاصة لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإصلاح الكنيسة . ولم يكن البابوات أنفسهم فى ذلك العصر ممن يبدو عليهم ميل إلى الترف ، وقد كسبوا مالهم بالانهماك فى أداء واجباتهم المنهكة . وإن من المآسى التى تتعرض لها الروحانيات أنها تضمحل ويضعف شأنها إذا لم يعن بتنظيمها ، وأنها تفسدها ما يتطلبه تنظيمها من ضرورات مادية .

الباب الثامن والعشرون

محاكم التفتيش فى بداية عهدها

١٠٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

الإلحاد الألبجنسى

وصارت الحملة على رجال الدين سيلاً جارفاً فى آخر القرن الثانى عشر. فقدكان فى عصر الإيمان مخابئ منعزلة من التصوف الدينى والعاطفة الدينية، بمنجاة من المسيحية الكهنوتية المنظمة، غير راضية عن أعمالها. وأقبلت على بلاد الغرب موجات جديدة من التصوف الشرقى لعلها سارت فى ركاب الصليبيين العائدين إلى بلادهم. وجاءت من بلاد فارس عن طريق آسـية الصغرى وبلاد البلقان أصداء الاثنينية المانوية(*) والشيوعية المزدكية. وجاءت من بلاد الإسلام كراهية الصور والاشمئزاز من القساوسة؛ وأعقب الحروب الصليبية وإخفاقها شك خفى فيما يعزى إلى الكنيسة المسيحية من أصل قدسى ومعونة إلهية. وجاء البوليسيون Paulicians إلى إيطاليا وبروڤانس عن طريق بلاد البلقان فارّين نحو الغرب من وجه الاضطهاد البيزنطى، يحملون معهم سخريتهم من الصور المقدسة والعشاء الربانى، ورجال الدين، وقسموا الكون إلى عالم روحى

(*) المانوية أتباع مانى، وهو رجل من أهل همذان عاش بين عامى ٢١٥ و ٢٧٦ وقال إن كل شىء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلام أو الخير والشر. (المترجم)

من خلق الله وعالم مادى من خلق الشيطان ، وقالوا إن الشيطان هو يهوة الوارد ذكره فى العهد القديم . وتكونت طائفة البجوميل Bogomiles (أى أصدقاء الله) فى بلغاريا ، وتسمّوا فيها بهذا الاسم ، وانتشروا فى البوسنة بنوع خاص ؛ وهوجموا بالسيف والنار فى أوقات مختلفة فى القرن الثالث عشر ، واستماتوا فى الدفاع عن أنفسهم ، ثم استسلموا آخر الأمر (١٤٦٣) للإسلام لا للمسيحية .

وظهرت فى عام ١٠٠٠ شيعة فى طولوز (طلوشة) وأورليان ، تنكر المعجزات وقدرة التعميد على غسل الذنوب ووجود المسيح فى القربان المقدس ، وتأثير الصلوات للقديسين . وأغفل أمرهم إلى حين ، ثم حوربوا ، وأحرق ثلاثة عشر منهم أحياء فى عام ١٠٢٣ . ونشأت شيع ملحدة أخرى شبيهة بهم ، وأعقبت نشأتهم اضطرابات فى كمبريه ، ولييج (١٠٢٥) ، وجسلار Goslar (١٠٥٢) ، وسواسون Soissons (١١١٤) ، وكولونى (١١٤٦) ، وغيرها من المدن ، أحصى منها برثلد الرجنزبرجى Berthold of Regensburg مائة وخمسين شيعة فى القرن الثالث عشر[1] ؛ منها جماعات عديمة الضرر تلتقى ليقرأ بعضها إلى بعض الكتاب المقدس بلغتها القومية دون الاستعانة بقسيس ، وليفسروا بأنفسهم ما فيه من عبارات اختلف الناس فى تفسيرها ؛ ومنها جماعات عدة كالهيوملياتى Humiliati فى إيطاليا ، والبجوين Béguines والبغارد Beghards فى البلاد الوطيئة ، تتمسك بالدين فى كل شىء إلا فى إصرارها المحير على أن يعيش القساوسة فقراء . وكان الفرنسيسكان شيعة من هذا الصنف ، وكانت تعدّ من الشيع الملحدة ولم تنج من هـذا إلا بشق الأنفس .

لكن الولد نزين Waldenses لم ينجوا من هذا المصير ، فقد استأجر تاجر ثرى يدعى بطرس ولدو Pater Waldo فى عام ١١٧٠ جماعة من العلماء ليترجموا الكتاب المقدس إلى اللانج دك langue d'oc لغة جنوبى فرنسا . وأقبل على درس الترجمة بشغف ، وخرج من هذا الدرس معتقداً أن من واجب المسيحيين

أن يعيشوا كما كان يعيش الرسل — ليس للواحد منهم مِلك خاص . ثم نزل عن جزء من ثروته لزوجته ، ووزع الباقى منها على الفقراء ، وقام يدعو الناس إلى أن يعيشوا فقراء . وجمع حوله طائفة قليلة العدد هى « رجال ليون الفقراء » لبسوا مسوح الرهبان ، وعاشوا عيشة العفة والطهارة ، ومشوا حفاة أو منتعلين الصنادل ، وكانوا ينفقون من مكاسبهم مشاعة[٢] . وصبر عليهم رجال الدين بعض الوقت فلم يعارضوهم فى شىء ، وسمحوا لهم بأن يقرأوا أو ينشدوا فى الكنائس[٣] . ولكن بطرس ضرب بمنجله محصول رجل غيره ، منفذاً بذلك أوامر الإنجيل بحرفيتها ، فأذكره رئيس أساقفة ليون بعبارة قوية أن الأساقفة وحدهم هم الذين يجوز لهم أن يعظوا الناس . وسافر بطرس إلى رومة (١١٨٩) ، وطلب إلى الإسكندر الثالث أن يمنحه إذناً بالوعظ ، فأجابه البابا إلى طلبه على شريطة أن يوافق على ذلك رجال الدين المحليون ، وأن يكون خاضعاً لإشرافهم . وواصل بطرس عظاته ، دون أن يحصل على موافقة رجال الدين المحليين ؛ وأصبح أتباعه من أشهر رجال الدين تمسكا بالكتاب المقدس ، وحفظوا فقرات طويلة منه عن ظهر قلب . واصطبغت هذه الحركة تدريجاً صبغة معادية لرجال الدين ، ونبذتهم جميعاً ، وأنكرت صحة العشاء الربانى الذى يقدمه قس آثم ، وعزت إلى كل مؤمن طاهر القدرة على العفو عن الذنوب . وعارض بعض الأعضاء صكوك الغفران ، وعقيدة المطهر ، وتحول القربان المقدس إلى جسم المسيح ودمه ، والصلاة للقديسين . وقامت طائفة منهم تنادى بأن « الأشياء جميعها يجب أن تكون ملكا مشاعاً »[٤] . ونادت طائفة أخرى بأن الكنيسة هى المرأة الحمراء المذكورة فى سِفر الرؤيى[٥] . وصدر فى عام ١١٤٨ قرار بحل هذه الجماعة ، وقبل إنوسنت الثالث فى الكنيسة عام ١٢٠٦ فئة منها هى فئة « الكاثوليك الفقراء » ، أما كثرتها الغالبة فقد أصرت على آرائها الخارجة على الدين ، وانتشرت من فرنسا إلى أسبانيا وألمانيا . وأصدر مجلس عقد فى طولوز عام ١٢٢٩ ، ليقاوم أغلب

الظن انتشار هذه الشيعة ، قراراً يقضى بألا يمتلك شخص من غير رجال الدين كتباً مقدسة عدا كتب الترتيل والأدعية (ومعظمها مزامير) ؛ وحرم عليهم أن يقرأوا هذه الكتب بغير اللغة اللاتينية ، لأن الكنيسة لم تكن حتى ذلك الوقت قد بحثت أية ترجمة إلى اللغات القومية وأيدت صحتها[٦] . ولما قاومت حركة القضاء على الألبجنسيين حُرق آلاف من أتباع ولدو ، ومات بطرس نفسه فى بوهيميا فى عام ١٢١٧ ، ويبدو أنه مات ميتة طبيعية .

وقبل أن ينتصف القرن الثانى عشر كانت بلدان أوربا الغربية معششاً للشيع الملحدة ، حتى قال أحد الأساقفة فى عام ١١٩٠ إن « المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين »[٧] ، وكان فى ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً ، وكان أهم الشيع الملحدة فيها شيعة البتريائيين Patarines — ويبدو أن اسمهم مشتق من بتاريا Pataria أحد الأحياء الفقيرة فى البلدة . ويلوح أن هذه الحركة بدأت احتجاجاً على الأغنياء ، ثم استحالت حركة ضد رجال الدين ، وأخذت تندد بالرشا وبيع المناصب الكهنوتية ، وثراء رجال الدين وزواجهم ، وانتشار التسرى بينهم ، واقترحت كما قال أحد زعمائها « أن تصادر أموال رجال الدين ، وأن تباع أملاكهم بالمزاد ؛ فإذا قاوموا فلتبح بيوتهم للنهب ، وليطردوا هم وأبناؤهم غير الشرعيين من المدينة »[٨] . ونشأت شيع مثلها ضد رجال الدين فى فيتربو Viterbo ، وأرفيتو Orvieto وفيرونا Verona ، وفرارا Ferrara وپارما Parma وپياسنزا Piacenza ، وريميني Rimini . . .[٩] ، وكانت هذه الشيع فى بعض الأوقات هى المسيطرة على الجمعيات الشعبية ، والمستولية على زمام الحكم ، وبلغ من سلطانها أن فرضت الضرائب على رجال الدين لتمويل المشروعات المدنية[١٠] . وأمر إنوسنت الثالث مندوبه فى لمبارديا أن يستقسم جميع موظفى البلديات ألا يعينوا أحداً من الملاحدة فى أية وظيفة أو أن يوافقوا على أى تعين من هذا القبيل . وثار الغوغاء فى مدينة ميلان عام ١٢٧٣ وأخذوا « يجهرون

بأقوال التجديف والسباب » ، ودنسوا عدة كنائس « بالأقذار التي نستنكف عن ذكرها »(١١) .

وكانت أسماء مختلفة تطلق على أقوى الشيع الملحدة كلها ، فكانت تسمى شيعة الكاثارى ، وهذا اللفظ مشتق من كلمة يونانية معناها « الطاهر » أو البلغارى نسبة إلى أصلهم (ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة « بجر Bugger » للسباب) ؛ والألبجنسيين نسبة إلى بلدة ألبى Albi التى كانوا يكثرون فيها بنوع خاص . وكانت مدائن منپليه ، ونربونه ومرسيليا المراكز الفرنسية للشيع الملحدة ، ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود ، وتردد التجار من مراكز الإلحاد فى البوسنة ، وبلغاريا ، وإيطاليا . ونشر التجار حركة الإلحاد فى طولوز ، وأورليان ، وسواسون ، وأراس ، وريمس ؛ ولكن لانجويدك Languedoc وپروڤانس بقيتا حصنها الحصين . وكانت حضارة العصور الوسطى الفرنسية قد بلغت ذروتها فى هاتين المقاطعتين ؛ فكان أتباع الأديان الكبرى يختلطون فيهما متحابين كما يتحاب أهل الحضر المهذبون .

وكانت النساء حسانا مزهوات ، والأخلاق طليقة من القيود ؛ وكان الشعراء الغزلون ينشرون الأفكار المرحة ، وكان عصر النهضة وشيك البدء فيهما كما كان وشيك البدء فى إيطاليا أيام فردريك . وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ (١٢٠٠) من إمارات تكاد تستقل كل منها بشئونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا رباط واه . وكان نبلاء طولوز هم أعظم السادة فى ذلك الإقليم ، فقد كانوا يملكون من الأراضى أكثر من أملاك الملك الخاصة . وكانت عقائد الكاثارى وشعائرهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى ، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الأريوسى الذى انتشر فى فرنسا الجنوبية فى عهد القوط الغربيين ، ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية . وكان من بينهم رجال دين يرتدون ثياباً سوداء ، ومطارنة يسمون

الـكمل Perfecti ، يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم ، وأبنائهم ، وأن يهبوا أنفسهم « لله والإنجيل . . . وألا يقربوا امرأة قط ، ولا يقتلوا حيوانا ، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان ، وألا يطعموا إلا السمك والخضر(*) » . وكان أتباعهم « المؤمنون (Credentes) » يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا ، وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم ، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية ، وأن يسيروا نحو الحياة « الكاملة » ، وأن يُحيُّوا كل واحد من الـكمل بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

وتقسم فلسفة الكاثارى الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير : الله والروح ، والسماء ؛ والشر : الشيطان ، والمادة ، والعالم المادى. وتقول إن الشيطان لا الله هو الذى خلق العالم المرئى. وهى تعد المادة كلها شرا بما فيها الصليب الذى مات عليه المسيح والقربان المقدس ، وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز : « هذا جسمى »(١٣) . وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يدنس المتصل ، وكل الاتصال الجنسى إثم ، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء(١٤) . ويصف أعداء الألبجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الربانى ، والقداس ، وتعظيم الصور المقدسة ، والتثليث ، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء ؛ وعندهم أن المسيح من الملائكة ، ولكنه ليس هو الله . ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة ، ويأملون أن تقسم الطيبات بين الناس بالتساوى(١٥) . وقد اتخذوا « عظة الجبل » أساساً لمبادئهم الأخلاقية ؛ وكانوا يعلِّمون أن يحبوا أعداءهم ، وأن يعنوا

(*) من تقرير كتبه سكونى Sacchoni أحد قضاة محكمة التفتيش(١٢) . ولسنا نعرف شيئاً من عقائد الكاثارى وشعائرهم إلا منقولا عن أعدائهم . أما ما كتبوه هم فقد ضاع أو تلف .

بالمرضى والفقراء ، وألا يقسموا قط ، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم ؛ وكان يقال لهم إن العنف يتنافى مع الخلق الكريم ، ولو كان موجهاً للكفار ، وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم ، وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشر من غير أن يستخدم وسائل شريرة(١٦) . ولم يكن فى هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر ؛ بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب فى عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها : ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكى يصل إلى السماء ؛ ولهذا كان عليه أن يتلقى من قس مسيحى القداس الأخير الذى يتم به تطهير الروح من آثامها . وكان الكثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القداس (كما كان بعض المسيحيين الأولين يؤجلون التعميد) إلى مرضهم الأخير فى ظنهم ، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد ، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القداس الأخير ؛ ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسيمه . وكان القساوسة الألبجنسيون يتهمون بأنهم يعملون لمنع هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء . ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا فى بعض الأحيان يميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمت مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير(١٧) .

واقد كان يسع الكنيسة أن تترك شيعة الكاثارى تقضى بنفسها على نفسها ، لولا أن هذه الطائفة أخذت توجه سهام النقد إلى الكنيسة . فقد أنكرت أن الكنيسة كنيسة المسيح ؛ وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى رومة ، ولم يؤسس البابوية ، وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل ؛ وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه ، أما البابا فيسكن قصراً منيفاً ، وإن المسيح لم يكن له ميلك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوى الثراء

العريض ؛ وما من شك – كما يقول الكاثارى – فى أن رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، ذوى الأملاك الواسعة ، والقساوسة الدنيويين ، والرهبان السمان ، هم الفَرِيسِيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد ! ولم يكونوا يشكّون فى أن الكنيسة الرومانية هى « زانية بابل » ، وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان ، وأن البابا هو المسيح الدجال[١٨] . وكانوا ينددون بالداعين إلى الحروب الصليبية ويصفونهم بأنهم قتلة[١٩] ، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة . ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء فى صورة قبيحة ، عوراء ، مشوهة الجسم ، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات ، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة ، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن سخريتهم[٢٠] . ونشرت كثير من آراء الكاثارى عن طريق الأغانى التى يذيعها شعراء الفروسية الغزلون ، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء الشيعة الجديدة . غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يعدُّون من أنصار الألبچنسيين ؛ فقد كانوا يسخرون من الحج ، والاعتراف ، والماء المقدس ، والصليب ، وكانوا يسمون الكنائس « معششات اللصوص » ، كما كان القساوسة الكاثوليك فى رأيهم « خونة ، كاذبين ، منافقين »[٢١] .

وظل رجال الدين والسلطة الزمنية فى فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثارى ؛ ويلوح أنهم أجازوا لجمهرة الشعب أن تختار بملء حريتها بين الدينين القديم والجديد[٢٢] . وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثارى والكاثوليك ، منها واحد عقد فى كاركسون Carcassonne حضره مندوب من قِبل البابا وآخر من قِبل پدرو الثانى ملك أرغونة (١٢٠٤) . كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثارى مجلساً من رجال دينها فى عام ١١٧٦ ، وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة .

وتباحث المجتمعون فى عقائد هذه الشيعة ، ونظمها ، وشئونها الإدارية ، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها ، وانفض المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد(٢٣) . وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة فى لانجويدك ؛ ذلك أن هذه الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأرض ، على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء ؛ ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها . وحدث فى عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزيير Béziers ديراً من الأديرة ، وزج أسقف ألبى Albi فى السجن ، وعين أحد الخارجين على الدين لحراسته . ولما أن اختار رهبان آليه Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنهم الفيكونت أحرق الدير وزج بالرئيس فى السجن . فلما مات هذا السجين نصب الفيكونت المرح جثته فى المنبر ، وأرغم الرهبان على أن يختاروا فى مكانه رئيساً يرتضيه . كذلك طرد ريمند روجر Raymond Roger كونت فوا Foix رئيس دير پاميير Pamiers ورهبانه من ديرهم ، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح ، واستخدم جنوده أذرع الصلبان التى عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب ، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية . وهدم ريمند كونت طولوز عدداً من الكنائس ، واضطهد رهبان مواساك Moissac ، وطُرد من حظيرة الدين (١١٩٦) ؛ ولكن الحرمان الدينى كان وقتئذ أمراً لا قيمة له فى نظر الأشراف المقيمين فى فرنسا الجنوبية ؛ واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثارى الإلحادية ، أو بسطوا على معتنقيها حمايتهم(٢٤) .

ولما جلس إنوسنت الثالث على كرسى البابوية فى عام ١١٩٨ رأى فى هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً . لقد كان يرى بعض العذر فيما يوجه إلى الكنيسة من نقد ، ولكنه كان يحس بأنه لا يستطيع أن يقف مكتوف اليدين ، يرى هذا الصرح الدينى العظيم الذى وضع له أكبر الخطط ، وعقد عليه أنبل الآمال ، والذى بدا له أقوى عاصم من العنف البشرى ، والفوضى

الاجتماعية ، ومن ظلم الملوك — ، يرى هذا الصرح يهاجم من أساسه ، وتغتصب ممتلكاته ، وتهان كرامته ، ويتعرض لضروب السخرية والتجديف . لقد ارتكبت الدولة هي أيضاً كثيراً من الذنوب ، واحتضنت الفساد والموظفين الفاسدين ، ولكن البلهاء وحدهم هم الذين يرغبون في القضاء عليها . وهل يستطاع إقامة نظام اجتماعي دائم على المبادئ التي تنهى عن الأبوة ، وتدعو إلى الانتحار ؟ وهل يفلح نظام اقتصادي يمجد الفقر ويخلو من كل ما في الملكية من حافز إلى السعي والعمل ؟ وهل يستطاع إنقاذ العلاقات الجنسية بين النساء والرجال ، وتنشئة الأطفال ، من الفوضى الوحشية إلا بنظام كنظام الزواج . وقد بدت عقائد الكاثاري لإنوسنت كأنها خليط من السخف ، نفثت فيها سذاجة الجماهير سما زعافاً ؟ وما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبجنسيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه ؟

وكتب إنوسنت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch في غسقونية يقول :

إن قارب القديس بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه أمواج البحر ، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي . . . أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلا في تحررها من جميع القيود وفي شدة أذاها ، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين ، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها ، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس ، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية . وإذ كان . . . هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها ، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته بكل ما أوتيتم من قوة . . . وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل ، وأن تخرجوا من

أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها . . . وفى وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحد السيف(٢٥).

ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش – وهو رجل متسامح مع غيره كما هو متسامح مع نفسه – لم يقم بالعمل الذى تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به ؛ أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزيير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما إنوسنت لينفذا أوامره . وحدث حوالى ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات تتزعمهن أخت كونت فواه مبادئ الكاثاريين ، وكان ذلك فى احتفال عام شهده كثير من النبلاء ، فما كان من إنوسنت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين مندوبا آخر أشد منهم بطشا وأمضى عزيمة ، وكان هذا المندوب هوارنو Arnuad رئيس الرهبان السسترسيين (١٢٠٤) ومنحه قوات غير عادية تجيز له أن يفحص ويحقق فى جميع أنحاء فرنسا . وأمره أن يعرض على ملك فرنسا وأشرافها عفواً شاملا لكى يساعدوه فى القضاء على شيعة الكاثارى الملحدة ، ثم عرض البابا على فليب أغسطس فضلا عن هذا أن يمنحه نظير هذه المساعة جميع الأراضى التى يمتلكها من يأبون الانضمام إلى حملة صليبية ضد الألبجنسيين(٢٦) . لكن فليب تردد فى قبول هذا العرض لأنه كان قد أتم قبيل ذلك الوقت فتح نورمندية ، وكان فى حاجة إلى متسع من الوقت يهضم فيه هذا الكسب الجديد . ووافق ريمند السادس صاحب طولوز أن يستخدم طريقة الإقناع مع الملحدين ، ولكنه أبى أن يشترك فى حرب تشن عليهم ، فما كان من إنوسنت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان ؛ فلما وعد ريمند بأن يجيب البابا إلى طلبه ، وعفا عنه البابا ، عاد إلى التباطؤ والإهمال ، وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب الباب بطرد الكاثارى من أرضه ؛ «كيف نفعل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهالينا ، ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين ؟ »(٢٧) . وأقبل على القوم القديس دمنيك من أسبانيا ؛ وأخذ يخطب داعيا إلى مسالمة الزنادقة ، وعاد

بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه[٢٨] . ولعل المشكلة كانت تحل بهذه الطريقة ، يصاحبها إصلاح شأن رجال الدين لو لم يقتل پيير ده كاستلنو Pierre de Castelnau أحد مندوبي البابا بيد فارس بسط عليه ريمند بعدئذ حمايته[٢٩] . وكان إنوسنت قد رأى جهوده التي بذلها نحو عشر سنين طوال ضد هذه الطائفة الملحدة تبوء بالخيبة ، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد ، وحرم ريمند ومحرضيه من الكنيسة ، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضي الخاضعة لهم ، وعرض هذه الأراضي على كل مسيحي يستطيع القبض عليهم ، ودعا المسيحيين في جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبجنسيين ومن يحمونهم . وأجاز فليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا في هذه الحرب ، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا . ووعد جميع من يشتركون في هذه الحرب بالغفران الشامل الذي وعد به من يحملون الصليب للقتال في فلسطين . وطلب ريمند المغفرة ، وكفر عن ذنبه علنا (ضرب بالسوط وهو نصف عار في كنيسة القديس جيل St. Gilles) ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك في الحرب المقدسة (١٢٠٩) .

وقاوم معظم سكان لانجويدك ، خاصتهم وعامتهم على السواء ، أولئك الصليبيين ، لأنهم رأوا في هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغي الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية ، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال[٣٠] . ولما اقترب الصليبيون من بيزيير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلمت إليهم جميع الملحدين الذين دوّن أسقفها أسماءهم ؛ ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يُضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم . فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة ، واستولوا عليها ، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم ، وحتى الذين احتموا منهم

بالكنيسة لم ينجوا من القتل[٣١] . ومن القصص التى شاعت وقتئذ قصة لا نجد لها سنداً إلا فيما كتبه قيصريوس هيستر باخ **Caesarius Heisterbach** بعد عشرين عاما من ذلك الوقت ، وهى تقول إن أرنود **Arnaud** مندوب البابا سُئل هل يؤمَّن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون ، فأجاب : « اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره »[٣٢] ، ولعله كان يخشي أن يجهر جميع المغلوبين وقتئذ باعتناق الدين القويم ، ثم يعودو بعد إلى ضلالهم . ولما حرقت بزيير عن آخرها تقدم الصليبيون بقيادة ريمند ليهاجموا حصن كاركسون حيث وقف روچر كونت بزيير وابن أخى ريمند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن ، لكن الحصن سقط فى أيدى المهاجمين ومات روچر بزحار البطن .

وكان أكثر القواد شجاعة فى هذا الحصار هو سيمون ده مونت فورت Simon de Montfort . وقد وُلد سيمون هذا فى فرنسا حوالى عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس . وأصبح سيمون بعدئذ إيرل ليسستر Earl of Leicester ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنجليزية . وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان ، كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين . فكان يستمع إلى الصلوات فى كل يوم ، واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة فى حروب فلسطين . وأخذ فى هذه الحرب الألبجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من ٤٥٠٠ رجل بلدة فى إثر بلدة يستحثه مندوب البابا ، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة ، ويعرض على الأهلين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون ؛ واختار آلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء ، وفضّل مئات أن يقتلوا[٣٣] . وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريمند كلها تقريباً ما عدا طولوز ، حتى استسلمت له طولوز نفسها فى عام ١٢١٥ ، واجتمع مجلس من مندوبى البابا فى منپلييه وقرر خلع كونت ريمند ، وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه .

ولم يكن إنوسنت الثالث راضياً كل الرضا عن هذه الأعمال ، فقد هاله أن يجد أن الصليبيين استولوا على أملاك رجال لم يخرجوا قط على الدين ، وأن هؤلاء الرجال نُهبوا وقُتلوا كما يُقتل القراصنة المتوحشون ويُنهبون(٣٤). وأشفق البابا على ريمند فوظف له معاشاً سنويا ، ووضع جزءاً من أملاكه تحت وصاية الكنيسة تحتفظ بها لابنه ولما بلغ ريمند السابع سن الرشد فتح طولوز واستردها من سيمون ؛ ومات سيمون نفسه وهو يحاصر المدينة مرة ثانية (١٢١٨) . ووقفت الحرب الصليبية وقتئذ لما مات إنوسنت . وخرج من بقى حيا من الألبجنسيين المستمسكين بعقيدتهم يمارسون شعائر دينهم ويدعون له تحت حكم كونت طولوز الجديد اللين الرحيم .

وعرض لويس الثامن ملك فرنسا فى عام ١٢٢٣ أن يخلع ريمند ، وأن يقضى على كل الخوارج فى أملاكه . إذا سمح له هونوريوس الثالث بأن يضم هذا الإقليم إلى أملاكه الخاصة . ولسنا نعرف بم أجاب البابا ، وكل ما نعرفه أن حرباً صليبية بدأت . وأن لويس أوشك أن ينتصر فيها حين وافته المنية فى منپلييه (١٢٢٦) . وانتهز ريمند هذه الفرصة ليعقد الصلح مع بلانش صاحبة قشتالة النائبة فيها عن لويس التاسع ، فعرض أملاك ابنته چين Jeanne على الفونس أخى لويس . وعودة أملاك ريمند بعد وفاته إلى چين وزوجها . وكانت بلانش يؤرقها ويقضّ مضجعها الأشراف الثائرون عليها ، فقبلت هذا العرض ، ووافق عليه البابا جريجورى التاسع بعد أن تعهد ريمند بالقضاء على حركة الإلحاد بقضها وقضيضها . وعقدت معاهدة الصلح فى باريس عام ١٢٢٩ ووضعت الحروب الألبجنسية أوزارها بعد ثلاثين عاماً من التقتيل والتخريب ، وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب ، وانتهى بانتصاره عهد التسامح ؛ وحرم مجلس نربونه (١٢٢٩) أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أى جزء من الكتاب المقدس(٣٥). وأخذ الإقطاع ينتشر ، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية فى

الاضمحلال ؛ وانقض عصر شعراء الفروسية الغزلين فى جنوبى فرنسا .
وماتت فى عام ١٢٧١ چين هى وألفونس اللذان ورثا أملاك ريمند دون أن يكون لهما أبناء ، وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج الفرنسى ، وأصبحت لفرنسا الوسطى وقتئذ منافذ تجارية حرة على البحر المتوسط ، وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها ؛ وكانت هذه الوحدة هى ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبچنسية .

الفصل الثانى

منشأ محكمة التفتيش أو التحقيق

لقد سنّ كتّاب العهد القديم قانوناً بسيطا لمعاملة المارقين من الدين ، يقضى بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً ، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم : « ذهبوا وراء آلهة أخرى » أخرج المارقون من المدينة و « رجموا بالحجارة حتى يموتوا » . (تثنية التشريع ١٣ : ١٠)(*) :

إذا قام فى وسطك نبى أو حالم وأعطاك آية أو أعجوبة ، ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها ، فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم ، لأن الرب إلهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم . . . وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه يتكلم بالزيغ من وراء الرب إلهكم . . . فتنزعون الشر من بينكم . وإذا أغواك سراً أخوك ابن أملك ، أو ابنك أو ابنتك ، أو امرأة حضنك ، أو صاحبك الذى مثل نفسك قائلا نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك . . . فلا ترض منه ولا تسمع له ، ولا تشفق عينك عليه ، ولا تستره بل قتلا تقتله . (تثنية التشريع ١٣ : ١ — ٩) . . . لا تدع ساحرة تعيش (الخروج ٢٢ : ١٨) .

وقد ورد فى إنجيل يوحنا (١٥ : ٦) أن عيسى عليه السلام ارتضى هذا القول : « إن كان أحد لا يثبت فىَّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف ، ويجمعونه ويطرحونه فى النار فيحترق » . وحافظت الجماعات اليهودية فى العصور الوسطى من الوجهة

(*) فى الأصل الإنجليزى (١٧ : ٢٥) ولكن ١٣ : ١٠ هو الصحيح . (المترجم)

النظرية على شريعة الكتاب المقدس الخاصة بالمروق من الدين ، ولكنها قلما عملت بها . واستمسك بها ابن ميمون بلا تحفظ(٣٦) .

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين — أى الامتناع عن عبادة الآلهة اليونانية — جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام ، وهذا هو القانون الذى حكم به على سقراط بالموت ؛ وفى رومة القديمة ، حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء ، كان الخروج عليهم أو التجديف فى حقهم من جرائم الخيانة العظمى التى يعاقب عليها بالإعدام . فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب ، استدعى القاضى الرومانى نفسه هذا المتهم وقام بتحقيق القضية (inquisitio)، ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش أو التحقيق فى العصور الوسطى شكلها واسمها . وطبق أباطرة الروم القوانين الرومانية فى العالم البيزنطى فحكموا بالإعدام على المانويين وغيرهم من المارقين . ثم كثر التسامح فى البلاد الغربية خلال العصور المظلمة وهى التى قلما كان أبناؤها يتحدون الكنيسة ، وقال ليو التاسع أن الحرمان من الدين يجب أن يكون هو العقاب الوحيد الذى يوقع على المارقين(٣٧) . ولما انتشر الإلحاد فى القرن الثانى عشر قال بعض رجال الكنيسة إن حرمان الملحدين يجب أن يعقبه نفى الدولة إياهم أو سجنهم(٣٨) . ولما عادت بولونيا فى القرن الثانى عشر إلى اتباع القوانين الرومانية جاءت فى قانونها نصوص وأساليب ، ودوافع . لإنشاء محكمة تحقيق ، ونقل قانون الإلحاد الكنسى كلمة كلمة من القانون الخامس المعنون De hereticis (الضلال) فى كتاب جستنيان(٣٩). وكان آخر ما فعلته الكنيسة أن أخذت فى القرن الثالث عشر قانون ألد أعدائها . فردريك الثانى ، وهو أن يكون الإعدام عقوبة الضلال .

ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين — ولدى كثيرين من الضالين أنفسهم — أن الكنيسة قد أقامها ابن الله ، وتبعا لهذا المبدإ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكى جريمة موجهة إلى الله نفسه ؛ وكانت النظرة التى ينظر بها

إلى الضال العاصى هى أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح ، وكل رجل من رجال الحكم بغض النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا . وإذ كانت الكنيسة تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوربا الأخلاقية والسياسية ، فقد كانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة : أى أنه عمل يراد به تقويض أسس النظام الاجتماعى . وفى ذلك يقول إنوسنت الثالث : « إن القانون المدنى يعاقب الخونة بمصادرة أملاكهم وإعدامهم . . . وهذا يؤكد حقنا فى أن يحرم من الدين من يخونون دين المسيح ، وأن تصادر أملاكهم ؛ ذلك بأن الإساءة إلى الذات العلية المقدسة جريمة أشنع من الإساءة إلى جلالة الملك »(٤٠) . وكان الضال يبدو فى أعين الحكام الدينيين أمثال إنوسنت شراً من المسلم أو اليهودى ؛ ذلك أن هذين يعيشان إما فى خارج العالم المسيحى أو يخضعان لقانون نظامى — صارم — إذا كانا فى داخله ؛ يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبى جندى فى حرب صريحة ، أما الضال فهو خائن فى داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهى مشتبكة فى حرب طاحنة مع الإسلام ، يضاف إلى هذا فى رأى رجال الدين ، أنه إذا أجيز لكل إنسان أن يفسر الكتاب المقدس حسب ما يراه عقله (مهما يكن قاصراً) ، وينشئ لنفسه الصورة التى يرتضيها من صور المسيحية ، فإن الدين الذى حفظ لأوربا قانونها الأخلاقى الضعيف لن يلبث أن ينهار ويتفرق إلى مائة عقيدة ، ويفقد ما له من أثر بوصفه قوة اجتماعية تربط الآدميين المتوحشين بفطرتهم وتخلق منهم مجتمعاً وحضارة .

وكان الشعب نفسه ، إلا فى جنوبى فرنسا وإيطاليا ، أشد الناس حماسة فى اضطهاد المخالفين ، وقد يكون هذا لأن الشعب نفسه يعتنق آراء رجال الدين السالفة الذكر دون أن تكون لها فى ذهنه صورة واضحة لها ، أو لأن النفوس الساذجة تخشى بفطرتها كل مخالف وغريب ، أو لأن الناس يسرهم أن يطلقوا فى غمار الجماهير المجتمعة المجهولة العنان لغرائزهم المكبوتة بسبب ما عليهم من

التبعات بوصفهم أفراداً . وأياً كان السبب فإن « الغوغاء أنفسهم قد عاقبوا الضالين قبل أن تشرع الكنيسة فى اضطهادهم بزمن طويل »[٤١]، بل لقد كان الأهلون المتدينون يشكون لين الكنيسة المفرط مع الضالين[٤٢] ، وكانوا فى بعض الأحيان « يختطفون المنشقين من أيدى القساوسة الذين يحمونهم »[٤٣] ؛ وشاهد ذلك ما كتبه قس من فرنسا الشمالية إلى إنوسنت الثالث يقول : « لقد بلغ من تقوى الناس فى هذه البلاد أنك لا تراهم دائما على استعداد لأن يبعثوا إلى موضع الحرق بمن ثبتت ضلالتهم فحسب ، بل إنهم ليبعثون إليه فوق ذلك بكل من يظنونه ضالا »[٤٤] ؛ وحدث فى عام ١١١٤ أن زج أسقف سواسون ببعض الضالين فى سجن ، ولكن العامة انتهزوا فرصة غيابه و« خافوا أن يصطنع رجال الدين اللين معهم » فهجموا على السجن وجردوا الضالين منه وحرقوهم أحياء[٤٥] . وأصر العامة فى ليبج عام ١١٤٤ على أن يحرق بعض الضالين الذين كان الأسقف أدلبرو Adlbero لا يزال يأمل فى هدايتهم[٤٦] . ولما قال پير ده بروى Birre de Bruys « إن القساوسة يكذبون حين يدعون أنهم يصنعون جسم المسيح » (وهم يصنعون القربان المقدس) وأحرق كومة من الصلبان فى يوم الجمعة الحزينة ، قتله العامة فى مكانه وأحرقوه لساعته[٤٨] .

واشتركت الدولة على كره منها فى اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألا تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التى تغرس فى قلوب الناس عقيدة دينية موحدة . يضاف إلى هذا خوفها أن يكون الضلال الدينى ستاراً يخفى وراءه التطرف السياسى ، ولم تكن فى ظنها هذا مخطئة على الدوام[٤٩]. وقد يكون للاعتبارات المادية أثر فى هذا الشأن لأن الضلال الدينى أو السياسى كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة ؛ ولهذا كان الرأى العام بين الطبقات العليا — مع استثناء لانجويدك مرة أخرى — يطلب إلى الدولة أن تقضى على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء[٥٠]. ولهذا أمر هنرى السادس إمبراطور ألمانيا (١١٩٤)

أن ينزل بالضالين أشد أنواع العقاب ، وأن تصادر جميع أملاكهم ، وأصدر أتو الرابع (١٢١٠) ، ولويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٦) ، وأصدرت مدينتا فلورنس (١٢٢٧) وميلان (١٢٢٨) ، مراسيم شبيهة بمرسوم هنرى . وكان أشد قوانين الاضطهاد هو القانون الذى سنّه فردريك الثانى فيما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٣٩ وقضى بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى « اليد الزمنية — أى إلى ولاة الأمور المحليين — وأن يحرقوا أحياء ، فإذا ما رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ، ثم صودرت جميع أملاكهم ، وحرم ورثتهم من ميراثهم ، وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أى منصب ذى دخل أو كرامة ، إلا إذا كفّروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين . وقضى القانون بأن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط(٥١) . وأضاف لويس التاسع الرقيق الظريف أحكاماً شبيهة بهذه الأحكام إلى قوانين فرنسا . والحق أن الملوك هم الذين كانوا ينازعون الشعب فضل البداية فى اضطهاد الضالين . وحسبنا أن نذكر غير ما سبق أن ربرت ملك فرنسا أمر بإحراق ثلاثة عشر ضالا فى أورليان عام ١٠٢٢ ؛ وكان هذا أول حادث معروف من حوادث إعدام الضالين بعد إعدام برسليان Priscillian بأيدى السلطات الزمنية فى عام ٣٨٥ . وبعد ذلك شنق هنرى الثالث إمبراطور ألمانيا عدداً من المانويين أو الكاثاريين جسلار غير عابئ باحتجاج وازو Wazo أسقف لييج وقوله إن فى الحرمان من الدين عقاباً كافياً للضالين(٥٢). وفى عام ١١٨٣ « بعث » الكونت فليب صاحب فلاندرز هو ورئيس أساقفة ريمس « عدداً كبيراً من النبلاء ، ورجال الدين ، والفرسان ، والفلاحين ، والفتيات ، والنساء المتزوجات ، والأرامل إلى حيث أحرقوا وهم أحياء بعد أن صادرا أملاكهم واقتسماها بينهما » .

وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك فى الأحوال العادية

للأساقفة . وإنا ليصعب علينا أن نسمى هؤلاء الأساقفة باحثين ، لأنهم كانوا ينتظرون الشائعات العامة أو الضجيـــج الذى يدلهم على الضالين ، فيستدعونهم ولكنهم يصعب عليهم أن يحملوهم بطريق التحقيق على الاعتراف بذنوبهم . ولم يكونوا يرتضون أن يلجأوا إلى التعذيب ، فكانوا لذلك يعمدون إلى طريق التحكيم الإلهى ، وهم مخلصون فى ظاهر الأمر فى اعتقادهم أن الله سيرسل المعجزات لحماية البريئين . وأيد القديس برنار هذه الوسيلة ووصفها مجلس من الأساقفة عقد فى ريمس (١٢٥٧) بأنها إجراء عادى فى محاكمة الضالين ، ولكن إنوسنت الثالث حرمها . وساء البابا لوسيوس الثالث إهمال الأساقفة فى محاربة الضلال ، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة فى كل عام على الأقل ، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات ، وأن يسلكوا كل من لا يقسم يمين الولاء التام للكنيسة فى زمرة الضالين (وقد رفض الكاثارى أن يقسموا هذا القسم) ، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاة الأمور المحليين . وخوّل مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون فى القضاء على الضلال(٥٤) . وطلب إنوسنت الثالث فى عام ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن « يبيدوا من الأراضى الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عينتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب » فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين . وكل أمير يهمل فى أداء هذا الواجب يخلع ويعفى البابا رعاياه من طاعته(٥٥) ، ولم يكن « العقاب الذى يستحقونه » حتى ذلك الوقت يزيد على النفى ومصادرة الأملاك(٥٦) .

ولما ارتقى جريجورى التاسع عرش البابوية (١٢٢٧) وجد أن الضلال آخذ فى الازدياد رغم المحاكمات الشعبية ، والحكومية ، والأسقفية . فقد كانت جميع بلاد البلقان ، وكان الجزء الأكبر من إيطاليا ، وغير قليل من فرنسا ، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيغ والضلال ، حتى لقد أضحت الكنيسة . ولما يمض على

سلطان إنوسنت الرائع إلا زمن وجيز ، يتهددها خطر الانقسام والتفكك . وكانت المسألة ، كما يراها الحبر الطاعن فى السن ، أن الكنيسة وهى تقاتل فردريك والضلال فى وقت واحد ، إنما تقاتل فى سبيل المحافظة على حياتها ، وأنها يحق لها من أجل ذلك أن تلجأ إلى المبادئ الأخلاقية والأساليب التى تحتمها حالة الحرب . وروّع جريجورى أن عرف أن الأسقف فلپو پاترنون Filippo Paterrenon الذى تمتد أسقفيته من بيزا إلى أرزو قد اعتنق مذهب الكاثارى ، فعيَّن لجنة للتحقيق يرأسها راهب من الدمنيك تعقد جلساتها فى فلورنس وتقدم الضالين إلى المحاكمة (١٢٢٧) . وكانت هذه اللجنة فى واقع الأمر بداية محكمة التحقيق البابوية ، وإن كان المحققون فيها خاضعين من الوجهة الرسمية لسلطان الأسقف المحلى . فلما كان عام ١٢٣١ أدخل جريجورى فى قانون الكنيسة الشرائع التى سنها فردريك فى عام ١٢٢٤ ؛ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام ؛ وبهذا أنشئت محكمة التحقيق (التفتيش) رسميا تحت سلطان البابوات .

الفصل الثالث

المحققون (المفتشون)

أرسل جريجورى وخلفاؤه بعد عام ١٢٢٧ عدداً متزايداً من المحققين أو المفتشين الخصوصيين لمطاردة الضلال ، وكان يفضل أن يختار لهذا العمل أعضاء طوائف الرهبان المتسولين الجدد لأن حياتهم البسيطة وإخلاصهم يختلفان عن ترف رجال الدين من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى لايستطيع الاعتماد على الأساقفة على أنه لم يبح لأى محقق أن يقضى بحكم شديد على أى ضال من غير موافقة الأسقف ، ولهذا اختير كثير من الرهبان الدمنيك لهذا الغرض ، حتى لقد سموا من قبيل السخرية Domini Canes أى « كلاب الله » (الصيادين)(٥٧) . وكان كثيرون منهم رجالا متزمتين فى أخلاقهم ولكن قلّ منهم من كان يتصف بالرحمة ، ولم يكونوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة ، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح . وكان منهم رجال ذوو عناية وضمائر حية أمثال برنار جوى Bernard Gui ، ومنهم من كانوا مرضى ساديين مثل ربرت الدمنيكى Robert the Dominican وهو رجل ضال تائب أرسل فى يوم واحد من أيام ١٢٣٩ مائة وثمانين شخصاً ليحوقوا أحياء ، من بينهم أسقف منح الضالين حسب رأيه حرية أكثر مما يستحقون . وقد أعفى ربرت هذا من منصبه وحكم عليه بالسجن مدى الحياة(٥٨) .

وكان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم ، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين(٥٩) . ولقد بذل الدمنيك جهوداً خاصة لتحويل اليهود إلى المسيحيه ،

ولكنهم لم يكونوا يلجئون فى هذا العمل لغير الوسائل السلمية ؛ وبلغ من حرصهم على هذا أنه لما اتهم بعض اليهود فى عام ١٢٥٦ بقتل بعض أطفال المسيحيين فى بعض طقوسهم ، عرض الرهبان الدمنيك والفرنسسكان حياتهم للخطر لإنقاذهم من الغوغاء[٦٠] . وخير ما يوضح لنا الغرض من إنشاء محكمة التحقيق ودائرة اختصاصها مرسوم بابوى أصدره نقولاس الثالث (١٢٨٠) :

نعان بهذا حرمان جميع الضالين ونصبّ عليهم اللعنة — الكاثارى ، والپتارين ، ورجال ليون الفقراء . . . وكل من عداهم أيا كان الاسم الذى يسمون به . فإذا أدانتهم الكنيسة وجب إسلامهم إلى القاضى الزمنى لمعاقبتهم . . . وإذا ما ندم واحد منهم بعد اعتقاله وأراد أن يكفّر عن ذنبه ، وجب سجنه مدى الحياة ... وكل من يأوى الضالين ، أو يحميهم ، أو يساعدهم ، يحرم من الدين ؛ وإذا بقى إنسان محروماً عاماً كاملا ويوماً حرم من حماية القانون . . . وإذا لم يستطع المتهمون بالضلال أن يثبتوا براءتهم ، طردوا من حظيرة الدين ، فإذا بقوا محرومين عاما كاملا حكم عليهم بما يحكم على الضالين . وليس لهؤلاء حق استئناف الحكم . . . وكل من يمنحهم دفنة مسيحية يحكم عليه بالحرمان ويظل كذلك حتى يعمل ما يستوجب الرضا عنه . . . فلا يُغفر له ذنبه حتى يخرج بيده جثث المحرومين ويطرحها فى العراء . . . ونحن نحرم على غير رجال الدين جميعهم أن يناقشوا فى مسائل الدين الكاثوليكى ، ومن يفعل هذا يحرم من الدين ؛ وعلى كل من يعرف أحداً من الضالين ، أو ممن يعقدون اجتماعات سرية ، أو ممن لا يؤمنون بعقائد الدين القويم أيا كانت ، أن يبلغ ذلك إلى من يفضى إليه باعترافه ، أو إلى شخص آخر يبلغه إلى الأسقف أو المحقق ، فإذا لم يفعل هذا حرم من الدين . والضالون ، وكل من يأوونهم ، أو يؤيدونهم ، أو يساعدونهم ، وكذلك أبناؤهم حتى الجيل الثانى — هؤلاء لا يسمح لهم بتولى المناصب الكنسية . . . وها نحن أولاء نحرمهم جميعاً وأمثالهم من دخلهم إلى أبد الدهر[٦١] .

ويجوز أن تبدأ إجراءات محاكم التحقيق بالقبض العاجل على جميع الضالين ، وعلى جميع المشتبه فى ضلالهم أحياناً ؛ وقد تبدأ بأن يستدعى المحققون الزائرون جميع السكان البالغين فى مكان ما للبحث المبدئى . والذين يقرون بضلالهم فى خلال « المهلة القانونية » الأولى ، ومدتها ثلاثون يوما ، ثم يتوبون ، يطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً ، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمــال التقى ، أو يتصدقون بالمال[٦٢] . أما الضالون الذين لا يعترفون فى أثناء هذه المهلة ، ثم يكشف عن أمرهم فى هذا التحقيق المبدئى ، أو تدل عليهم عيون محكمة التحقيق[٦٣] ، أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى ، أما هؤلاء جميعاً فيدعون إلى المثول أمام محكمة التحقيق . وكانت هذه المحكمة تؤلف فى الأحوال العادية من اثنى عشر رجلا يختارهم الحاكم الزمنى فى الإقليم من ثبت يحتوى أسماء المرشحين ، يعرضه عليه الأسقف وهيئة المحققين ، ويضم إليه اثنان من المسجلين وعدد من الحجاب . فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية ، وأقروا بذنبهم ، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم ، وإذا أنكروا جرمهم زجوا فى السجن . وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم . وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات ، وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم ؛ وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم ، ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم[٦٤] . ويسمح لجميع المتهمين فى مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على ثبت شامل يحوى جميع أسماء من يتهمونهم ، ولكن هذا الثبت لا يدل أى متهم على من اتهمه ، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أى متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه . وفى ذلك يقول لى Lea : « والحق أن عدداً من الشهود قد قتلوا لريبة بسيطة حامت حولهم »[٦٥] . وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه ، وكانت المحكمة ترفض أى دليل يقدمه أولئك الأعداء[٦٦] .

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشد العقاب[٦٧] ؛ ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية[٦٨] ، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوى يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوى السمعة الطيبة فى الإقليم ، وأن يصدروا حكمهم بما يتفق مع آرائهم[٦٩] . وكانت هيئة من الخبراء (perite) تدعى فى بعض الأحيان لتبدى رأيها فى الأدلة . وقصارى القول أن الأوامر الصادرة إلى المحققين كانت تنبههم إلى أن نجاة المذنب من العقاب خير من إدانة البرىء ، وأن من واجبهم أن يحصلوا إما على دليل واضح أو اعتراف صريح .

وكان القانون الرومانى القديم يجيز الالتجاء إلى التعذيب للحصول على الاعتراف ، ولم تكن هذه الطريقة تتبع فى المحاكم الأسقفية ، أو فى السنين العشرين الأولى من سنى محـــاكم التحقيق . غير أن إنوسنت الرابع (١٢٥٢) أجازها حيث يكون القضاة واثقين من جرم المتهم ، ثم أجازها من جاء بعده من الأحبار[٧٠] . ولكن البابوات كانوا ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين ، وألا يلجأ إليه إلا مرة واحدة ، « وألا يصل إلى ما يؤدى إلى فقد عضو من الأعضاء أو إلى خطر الموت » . وفسر المحققون عبارة « مرة واحدة » بأنها تعنى مرة واحدة فى كل محاكمة ، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب فى بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة ، ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم . وكان التعذيب يستخدم فى كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة ، أو لإجبار الضال المعـــترف على الإدلاء بأسماء غيره من الضالين[٧١] . وكان من أنواعه الجلد ، والكى بالنار ، والتعذيب بالعذراء ، والسجن الانفرادى فى جب مظلم ضيق . وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد ؛ أو كان يشد إلى إطار على شكل مثلث ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية . وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف

بذلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفسانى ، كالوعد بالرأفة أو التهديد بالقتل[٧٢] . وقلما كانت محكمة التحقيق ترى قيمة للاعتراف الذى يأتى من طريق التعذيب ، ولكن هذه المشكلة كان يتغلب عليها بإرغام المتهم على أن يؤكد ، بعد ثلاث ساعات من اعترافه ، ما قرره أثناء التعذيب ؛ فإذا أبى أمكن تعذيبه من جديد . وحدث فى عام ١٢٨٦ أن بعث موظفو كركسون Carcassonne برسالة إلى فليب الرابع ملك فرنسا وإلى البابا نقولاس الرابع يشكون فيها من صعوبة التعذيب الذى يلجأ إليه المحقق چان جالان Jean Galand . فقد كان بعض مسجونى چان هذا يتركون زمناً طويلا فى السجن الانفرادى الحالك الظلام ، وكانت قيود بعضهم تبلغ من الضيق حداً يضطرون معه إلى الجلوس فى برازهم ، أولا يستطيعون إلا النوم على ظهورهم فوق الأرض الباردة[٧٣] . وقد شد بعضهم إلى العذراء شداً عنيفاً فقدوا معه استخدام أيديهم وأرجلهم ، ومنهم من مات فى أثناء التعذيب[٧٤] . وشنع فيلپ على هذه الوحشية وحاول البابا كلمنت الخامس (١٣١٢) أن يحد من التجاء المحققين إلى التعذيب ، ولكن سرعان ما أهملت أوامره[٧٥] .

وكان المسجونون الذين يأبون أن يفيدوا من الفرصتين اللتين تتاح لهم للاعتراف ثم يدانون بعدئذ ، والذين يرتدون إلى ضلالهم بعد توبتهم ، كان هؤلاء وأولئك يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة أو بالإعدام . وكان السجن مدى الحياة يخفف بمنح السجين شيئاً من الحرية فى التنقل ، والزيارة ، والألعاب ، أو يشدد بحرمانه من الطعام أو بتقييده بالأغلال[٧٦] . وكان الذين يدانون بعد أن يقاوموا يحكم عليهم بالإضافة إلى الأحكام الأخرى بمصادرة أملاكهم . وكان بعض هذه الأملاك المصادرة يعطى عادة لحاكم الإقليم الزمنى ، ويعطى بعضها للكنيسة ؛ وكان ثلث هذه الأملاك يعطى فى إيطاليا للذى يبلغ عن الضال ؛ أما فى فرنسا فكانت الأملاك المصادرة تذهب كلها للتاج . وكانت هذه الاعتبارات كلها

تغرى الدولة والأفراد بالاشتراك فى تعقب الضالين ، وفى محاكمة الموتى ؛ وكان من المستطاع فى أى وقت من الأوقات الاستيلاء على أملاك البريئين من الناس بحجة أن من أورثوهم إياها قد ماتوا وهم ضالون . وكان هذا من الشرور الكثيرة التى حاول البابوات أن يقضوا عليها ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح(٧٧) . وكان مما يفتخر به أسقف رودس أنه جمع مائة ألف « صول(*) » فى حملة واحدة على الضالين فى أسقفيته(٧٨) .

وكان المحققون يعلنون فى حفل رهيب يقام من آن إلى آن إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب . فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة فى وسط الكنيسة ، ثم يُقرأ اعترافهم ، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف ، وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال ؛ ثم يقوم المحقق الذى يرأس الاحتفال فيعفى التائب من الحرمان ، ويعلن سائر الأحكام المختلفة . فأما الذين « سيطلقون » أى يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم ؛ وأما الذين يعترفون ويتوبون ، ولو كانوا عند عمود الحرق ، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة ؛ وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء فى الميدان العام . وكان هذا الإجراء كله ، من حكم وتنفيذ ، يطلق عليه فى أسپانيا اسم « عمل الإيمان auto da fé » لأنه كان يقصد به أن يقوى عقائد الشعب الصحيحة ، ويؤيد الإيمان بالكنيسة . ولم تنطق الكنيسة قط بحكم الإعدام ، فقد كان شعارها القديم هو : إن الكنيسة تحجم عن إراقة الدماء « ecclesia abhorret a sanguine » ، ولهذا كان القسيسون يؤمرون بألا يسفكوا دماء ؛ ومن أجل ذلك فإن الكنيسة حين تبعث إلى السلطات الزمنية باللذين تدينهم لم تكن تطلب إلى ولاة رجال الدولة

(*) عملة فرنسية قديمة كانت قيمتها $\frac{1}{20}$ من الجنيه الفرنسى استبدل بها « الصلدى » . (المترجم)

أكثر من أن يوقعوا عليهم « العقاب الذى يستحقونه » وتنبههم إلى أن يتجنبوا « كل ما من شأنه سفك الدماء أو التعريض لخطر الموت » . ثم اتفقت الكنيسة والدولة بعد جريجورى التاسع على ألا يؤخذ هذا التحذير بمعناه الحرفى ، بل أن يقتل المذنبون دون أن تسفك دماؤهم أى أن يحرقوا عند عمود الإحراق [٧٩] .

وكان عدد من حكمت عليهم محكمة التحقيق الرسمية بالموت أقل مما كان يعتقده المؤرخون فى وقت من الأوقات [٨٠] . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن برنار ده كو Bernard de Caux وهو من المحققين المتحمسين ، قد خلف سجلا طويلا بالقضايا التى نظر فيها ؛ وليس فى هذا السجل قضية واحدة حكم فيها بإرسال المذنب إلى السلطات المدنية [٨١] . وحكم محقق يدعى برنار جوى Bernard Gui فى مدى سبعة عشر عاما على تسعمائة وثلاثين ضالا ، فلم يتجاوز من حكم عليهم بالموت من بين هذا العدد خمسة وأربعين [٨٢] . وكانت الأحكام الصادرة فى حفل عام بطولوز (طلوشة) عام ١٣١٠ هى أن أمر عشرون شخصاً بأن يخرجو للحج ، وحكم على ستة وخمسين بالسجن مدى الحياة ، وعلى ثمانية عشر بالإعدام . وفى عمل الايمانه الذى حدث فى عام ١٣١٢ أرسل واحد وخمسون إلى الحج ، وحكم على ثمانية وستين بالسجن مدداً مختلفة ، وأرسل خمسة إلى السلطات الزمنية [٨٣] . وقصارى القول أن شر مآسى محاكم التحقيق قد أخفتها السجون ولم تر الضوء عند أعمدة الإحراق .

الفصل الرابع

النتـــائج

لقد حققت محاكم التحقيق فى العصور الوسطى أغراضها العاجلة ، فقد قضت على الكثارية فرنسا ، ولم تبق من الولدنسيين إلا عددا قليلا من المتحمسين المتفرقين فى أماكن مختلفة ، وأعادت جنوبى إيطاليا إلى الدين القويم ، وأجلت تمزق المسيحية الغربية مدى ثلاثة قرون . وبها انتقلت زعامة أوربا الثقافية من فرنسا إلى إيطاليا ، ولكن الملكية الفرنسية المطلقة ، بعد أن قويت باستيلائها على لانجوبدك ، بلغت من السلطان مبلغاً استطاعت به أن تخضع البابوية لأمرها فى أيام بنيفاس الثامن ، وأن تزجها فى السجن فى عهد كلمنت الخامس .

ولم يكن لمحاكم التحقيق فى أسپانيا قبل عام ١٣٠٠ إلا شأن صغير ، وترجع نشأتها فيها إلى عام ١٢٣٢ حين استطاع ريمند الپنيا فورتى Raymond of Panafort الراهب الدمنيكى عند جيمس الأول ملك أرغونة ، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التحقيق فى بلده . ولعل هذا الملك أراد أن يقلل من شطط محاكم التحقيق فسنّ فى عام ١٢٣٣ قانوناً يجعل الدولة هى التى تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة ، وإن أصبح هذا العمل نفسه فى القرون التالية حافزاً قويا للملوك الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملان شديدا الاتصال أحدهما بالآخر .

وفى شمالى إيطاليا ظل الضالون كثيرى العدد ، فلم يكن أتباع الدين القويم يعنون كثيراً بالاشتراك فى اصطياد الضالين ، وكان الطغاة المستقلون أمثال إزلينو Ezzelino فى ڤيسنزا Vicenza وپلاڤيشينو Pallaviclno فى كرمونا وميلان يحمون الضالين سراً أوجهراً . وفى فلورنس أنشأ الراهب روچييرى Ruggieri

جماعة عسكرية من النبلاء المستمسكين بالدين لتأييد محكمة التحقيق ؛ واشتبك معهم اليتاريون فى معارك دموية فى الشوارع ولكنهم هزموا فيها (١٢٤٥) ؛ ثم أخفت الضلالة فى فلورنس رأسها فيما بعد ؛ وحدث فى عام ١٢٥٢ أن اغتال بعض الضالين الراهب پيرو دا ڤرونا Piero da Verona فى ميلان ، فلما قتل سلكته الكنيسة فى عداد القديسين الشهداء وأسمته الشهيد بطرس ؛ وكان لعملها هذا من الأثر فى مقاومة الضلالة فى شمالى إيطاليا أكثر مما كان لجميع فظائع المحققين . وشنت البابوية حروباً صليبية على إزلينو وپلاڤنسينو ، وقضى على أولها فى عام ١٢٥٩ وعلى الثانى فى عام ١٢٦٨ ، وبهذا كان انتصار الكنيسة فى إيطاليا نصراً حاسماً فى ظاهر الأمر .

ولم تثبت محكمة التحقيق قدمها فى إنجلترا . نعم إن هنرى الثانى حرص على إثبات تمسكه بدينه فى أثناء نزاعه مع بكت بأن جلد واحداً وعشرين من الضالين وكواهم بالنار فى أكسفورد عام ١٢٦٦[٨٤] . ولكننا لا نكاد نسمع عن ضلالة فى إنجلترا قبل أيام ويكلف Wycalf . وفى ألمانيا ترعرعت محكمة التحقيق وأقدمت على أعمال جنونية زمناً قصيراً ، ثم ماتت . فقد حدث فى عام ١٢١٢ أن أحرق هنرى أسقف استرسبرج ثمانين ضالا فى يوم واحد ، وكان معظمهم ولديين ؛ وأعلن زعيمهم القس يوحنا عدم إيمانه بالغفران ، وبالمطهر ، وببقاء رجال الدين بلازواج ، وقال إن رجال الدين يجب ألا تكون لهم أملاك . وفى عام ١٢٢٧ عيّن جريجورى التاسع كنراد Conrad قس ماربرج Marburg رئيساً لمحاكم التحقيق فى ألمانيا وأمره ألا يكتفى بالقضاء على الضلال ، بل أن يصلح أحوال رجال الدين بعد أن وصمهم البابا بالفساد ، وقال إن فسادهم هو أهم أسباب ضعف الإيمان بين الناس . واضطلع كنراد بكلا الواجبين بمنتهى القسوة ، وخيّر كل من اتهموا بالضلال بين واحدة من اثنتين : إما الاعتراف فالعقاب ، أو الإنكار فالموت حرقاً . ولما أن سار فى إصلاح رجال الدين على

هذا النحو من الجد ، انضم المستمسكون بدينهم والضالون بعضهم إلى بعض في مقاومته ، وانتهى الأمر بأن قتله أصدقاء ضحاياه (١٢٣٣) ؛ وتولى الأساقفة الألمان أعمال محاكم التحقيق ، وخففوا من غلوائها ، وجعلوا إجراءاتها أقرب إلى العدالة من ذى قبل . وبقيت بعض الشيع الدينية ، بعضها شيع ضالة وبعضها صوفية ، فى بوهيميا وألمانيا ، ومهدت السبيل إلى هوس Huss ولوثر Luther .

وبعد فإنا حين نصدر حكماً على محاكم التحقيق يجب أن ننظر إليها على ضوء عصر اعتاد الوحشية ، ولعل عصرنا الحاضر الذى قَتَل فى الحروب وأزهق من الأرواح البريئة دون أية محاكمة ، أكثر من أمثالهم بين أيام قيصر ونابليون ، أقدر من غيره على فهم هذه المحاكم . إن التعصب يلازم الإيمان القوى على الدوام ، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه ، أما اليقين فسيف بتّار . ولقد أقر أفلاطون التعصب فى « قوانينه » ، وأقره المصلحون فى القرن السادس عشر ، وإن بعض من ينتقدون محكمة التحقيق ليدافعون عن أساليبها إذا جرت عليها الدول الحديثة . ولقد تضمنت قوانين كثير من الحكومات الأساليب التى سارت عليها محاكم التحقيق ، ولعل ما يحدث من تعذيب المشتبه فيهم سراً فى هذه الأيام يسير على نمط محاكم التحقيق أكثر مما يسير على نمط القانون الرومانى . وإذا وازنّا بين اضطهاد المسيحيين للضالين فى أوربا من ١٢٢٧٠ إلى ١٤٩٢ ، وبين اضطهاد الرومان للمسيحيين فى الثلاثة القرون الأولى بعد المسيح ، حكمنا من فورنا بأن هذا أخف وطأة وأكثر رحمة من ذاك . وإذا ما أسقطنا من حسابنا كل ما يطلب إلى المؤرخ من اعتدال فى حكمه ، وما يسمح به للمسيحى من تمسك بدينه ؛ إذا أسقطنا من حسابنا هذا وذاك ، فلا بد لنا أن نضع محاكم التحقيق فى مستوى حروب هذه الأيام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كله ، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أى وحش من الوحوش .

الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب ، بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الديني والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلا طيباً من الإخلاص المطهر للنفوس .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ؛ وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هـذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الأتقياء أو ثقال الظهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلفى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس تومس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينذره أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه[٣] . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد[٤] ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن فى حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع فى يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثما .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب فى أثنائها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفى ذلك يقول الراهب قيصريوس الهيستر باخى Caesarius of Heisterbach إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهى أنه يخشى الحشرات التى فى ثياب (الرهبنة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »[٥] . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات فى الصلاة ؛ وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى فى العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصريوس بأن ديره وزع أثناء القحط الذى حدث فى عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام فى يوم واحد و « حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »[٦] وذبح دير للسسترسيين فى وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآنيته المقدسة ، ليطعم الفقراء[٧] ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت فى ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفنهم فى غمار الصلاحية الأنانيّة ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم(*) .

وفاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلا دير القديس ركويبه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت فى البلدة التى كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجريها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخصى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر نقدى معتدل لكل فرد ولكنه فى مجموعه كبير(٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهى أديرة مونتى كسينو Monte Cassino ، وكلونى Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis ؛ وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبجل رئيس دير كلونى ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند فى بيورى ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلطان سياسى واجتماعى عظيم ؛ وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة(٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يقول عالم من كبار العلماء ليس فى العادة ممن يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التى يذيعها السفلة وهى أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التى بقيت حتى اليوم ، والتى تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة فى إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادى لأوربا فى العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكا وزراعا أذكياء » تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى لطمسن Thomson, Eeouomic and Social History of the Midd e Ages ؛ ٦٣٠ ويقول رينان المتشكك : « إن أكمل أعمال المسيحية وأعظمها أثرا هى التى قامت بها طوائف الرهبان » طبعة مارك أوريل Marc Anrèle بباريس ٦٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية[٩] ، ولعل القديس برنار كان يعنى سوجر حين كتب يقول : « لو أننى قلت إنى لم أر رئيس دير يركب على رأس موكب مؤلف من ستين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »[١٠] . ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة والفخامة ليؤثر بذلك فى نفوس الشعب ! أما فى حياته الخاصة فكان يعيش عيشة التقشف والبساطة ، فى خلوة متواضعة مراعياً جميع قواعد طائفته بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلا صالحاً ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية فى الأديرة التابعة لدير كلونى — وهى التى كانت من قبل تتزعم حركة الإصلاح — إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أمكنتها موارده من الظهور ، وفى كل جماعة كبيرة أيا كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من إيمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفية لها ، ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً . وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعيّنه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا يستمتعون بالصيد ، والقنص ، وألعاب الفروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛ وسَرَت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدس كمبرنسس Giraldus Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إفشام Evesham بصورة مروعة فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه يخصون له ثمانية عشر ولداً ، وكان لا بد من خلعه آخر الأمر[١١] . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبّون على مباهج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفاً لسخرية الشعب وتشهير الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولتر ماب Walter Map(١٢) . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلا من الهناءة ، وفى وسعنا أن ندرك مقدار مللهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا يسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين(١٣) .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التى يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصريوس الهيستر باخى قصة تتكرر كثيراً فى العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت فى حياتى كلها »(١٤) . ويقول الزاهد بطرس داميان فى آخر أيام حياته الورعة المريرة :

فى وسعى وأنا الآن رجل طاعن فى السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجعّد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإنى أغضّ طرفى عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! — الذى لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التى قرأتها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تنمحى منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة(١٥) .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفسانى بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمفاتنهن ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقية فى بعض الأحيان يرطبها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبّرون عن رؤاهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمى(١٦)(*) . وكانت قصائد أوفد من الأشعار المحبوبة فى بعض الأديرة ،

(*) وإنا لنجد هذا بعينه فى أشعار الصوفية المسلمين . (المترجم)

ولم تكن مؤلفاته فى فن الحب بأقل منها تداولا بين الرهبان(١٧) . وكانت التماثيل المقامة فى بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة فى أثاثها ، بل الرسوم المصورة فى بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات — تمثل خنازير فى ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر فى كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة فى العصور الوسطى — ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعيم — سمحوا بأن تبقى هـــذه الرسوم الهزلية فى أماكنها ؛ ولكن رجال الدين هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكى تعيد الرهبان ورؤساء الأديرة إلى المثل العليا التى جاء بها المسيح .

الفصل الثانى

القديس برنار

عمت العالم المسيحى فى أواخر القرن الحادى عشر ، وفى نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتلأت القلوب تحمساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثنائها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسّس القديس يوحنا جلبيرتس St. John Galbertus (١٩) طائفة من القلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة ومواردها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هـذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكوّنوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطيين أو الأوسطيين Austins »(*) . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرثوزيين Corthusians ، وذلك بأن أسّس ديراً فه

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطيين أو الأوسطيين الذى أنشأهم الزهاد فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منعزلة تدعى كارتريز Chartreuse في جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرثوزية فى أماكن منعزلة بعد أن سئموا ما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب فى هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، فى خلوته الخاصة المنعزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل ، ويكاد يلازم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفى أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون فى الحديث ويُطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ ربرت المولسميسى Robert of Molesmes فى عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد فى مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Diion ، وذلك بعد أن أعيته الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التى كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسيين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرثوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsestershire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع عهد الحب Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمى الموحَّد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعليم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأُمروا أن يتجنبوا جميع مظاهر الأبهة فى الملابس الدينية ، والآنية ، والأبنية . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك فى الأعمال اليدوية فى الحدائق والمصانع التى تجعل الدير مستقلا عن العالم الخارجى ، فلا يكون لراهب ما

حجة فى مغادرة ديره . وامتاز السسترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ، رهبانية كانت أوغير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم فى الأعمال الزراعية ، وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم فى الأصقاع غير المسكونة ، وجففوا المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ، وكان لهم فضل كبير فى استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التى ألحقها وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السسترسيين فى هذه الجهود التى يبذلونها فى سبيل الحضارة إخوان علمانيون مهتدون نذروا أن يبقوا عزاباً ، صامتين ، أُميين[٢٠] ، يعملون زرّاعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس والمسكن[٢١] .

وبعثت هذه الصرامة الخوف فى قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس برنار فى الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها فى مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمى إلى طبقة الفرسان ، وكان فى صباه شاباً حيياً تقياً ، يؤثر العزلة ، ولم يجد راحة فى العالم الدنيوى ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة فى الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا معه ديرسيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفتيات الصالحات للزواج كانت ترتعد فرائصهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغرى أبناءهن أو عشاقهن بالتزام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن قبل فى دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ؛ وأفلح فيما بعد فى إقناع أمه وأخته بأن تترهبا ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب بعد أن توعده بأنه « إن لم يكفّر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر . . وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة »[٢٢] .

وأعجب استيفن هاردنج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً سسترسيا جديداً يكون هو رئيسه . واختار برنار لبيته الجديد بقعة شَجِرة على بعد تسعين ميلا من سيتو تعرف باسم **الوادى اللامع** Clara vallis أو Clairvaux ، ولم يكن فى هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط إنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتآخية أن بَنَت بأيديها « ديرها » الأول — وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعما ، وفى أعلاهما مكان للنوم يَصِلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون فى صناديق نثرت عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شيء . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلما كانوا يشربون نبيذاً ؛ فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغبون فى طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناوبون طهوه . وكان من القواعد التى وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكا ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون فى هذا الوادى الهادئ فى صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم ، ويجتمعون فى أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . ويصفهم وليم السانت تيرى William of St. Thierry بقوله : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقينى أنهم أعظم أتباع المسيح كمالا . . . لا ينقصون إلا قليلا عن الملائكة ، ولكنهم أرقى كثيراً من الآدميين »[٢٣] . وانتشرت أنباء هذا السلام المسيحى وهذا الاستقلال الذاتى حتى كان فى كليرفو قبل موت برنار سبعمائة من الرهبان . وما من شك فى أنهم كانوا سعداء فى ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيئة الشيوعية ليكونوا رؤساء أديرة ، أو **أساقفة** ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ؛ وكان برنار نفسه — وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها — يحن دائما للعودة إلى صومعته فى كليرفو « حتى تسبل أيدى أبنائى عينىّ ، وحتى يوارى جسدى فى كليرفو بجوار أجساد الفقراء » .

وكان رجلا متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه فى الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل فى الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى فى ضياء معجزات الوحى غير سائل أو متشكك ، مفضلا هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة فى رأيه بيداء من الشك الحالك الظلام ، وكلما أوغل الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له فى رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك فى العشاء الربانى ، وقال له : « اذهب واشترك فيه **بإيمانى أنا** » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجى روحه[٢٥] . وكان فى وسع برنار أن يكره ويطارد حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيائى لأنهم أضعفوا كنيسة تبدو له رغم أخطائها وعيوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان فى وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التى كان يعبدها بغيرة منقطعة النظير . ورأى يوماً لصا يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شمپانيا ووعده أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة(٢٦) . وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضاً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة فى واديه . وكان يتسامح فى أخطائهم ، ويهديهم بما يضربه لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل فى تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضطر رئيسه فى سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش فى صومعة واحدة ضيقة فى كليرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة فى الجدار(٢٧) . وكانت طيبات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شىء إذا قيست إلى التفكير فى المسيح ووعده . وكتب وهو فى هذه النشوة عدة ترانيم غاية فى البساطة والرقة الأخّاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،
هب القلب البهجة الحقة ؛
إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها
مشهده الحلو ،
وليس فى كل ما يُغنَّى شىء أجمل من ذكر عيسى ابن الله
ولا فيما يسمع شىء أحسن وقعاً على الأذن منه
ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .
أى عيسى يا أمل التائبين
ما أرقّ قلبك على المتسولين !
وما أقربك لطالبيك !
تُرى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعنى بغير الجمال الروحى رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يغطى

عينيه خشية أن تسرفا فى الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا[٢٩] . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلونى لكثرة ما ينفقه من المال فى بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول فى هذا : « إن الكنيسة تتلألأ جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارتها بالذهب وتترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التى تأخذها من البائسين »[٣٠] . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالفرسان المتكبرين المدرعين بدل العبّاد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش اللصوص »[٣١] . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسته ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن إصلاح الأديرة الذى سطع ضياؤه من كليرڤو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة ورؤساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذى لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر فى جميع الطبقات وفى خلال نصف القرن الذى عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينقضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف فى كليرڤو[٣٢] . وقد استطاع بعظاته — وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً — أن يؤثر فى نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله — وهى آيات خالدة فى الدعوة الحماسية الحارة — أن يؤثر فى المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياستى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس دير ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزلهم عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى حبر من الأحبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت فى العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طائفتان متنازعتان

أنكليتس الثانى وإنوسنت الثانى للجلوس على كرسى البابوية (١١٣٠) أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليتس على رومة دخل برنار إيطاليا وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛ وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره إرباً اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى فى ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرهما من الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كليرفو بعد انتصاراته الدبلوماسية جاءته جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعالى التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى كدحهم مرفوعى الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار فى عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسين قد زاد من ثلاثين ديراً فى عام ١١٣٤ (وهى السنة التى مات فيها استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها ستين ألفاً يقيمون فى ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة فى القرن الثانى عشر ، فأنشأ ربرت الأبرســولى Robert of Abrissol حوالى عام ١١٠٠ طائفة الفنتفرول Fontevroult فى أنجو ، وفى عام ١١٢٠ تخلى القديس نربر Norbert عن ثروة عظيمة آلت إليه وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود »(*) النظامية فى بريمنتريه Premontré بالقرب من ليون Leon . وفى عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) Premonstrateusian وتسمى أيضا طائفة النربيرتيين نسبة إلى منشئها . أما تسميتها بطائفة المرعى الموعود فسببها كما يقول نربير أن المكان الذى نشأوا فيه قد حدد له فى رؤيى ظهرت له وهو فى غاية كوسى Coucy بالقرب من ليون Leon فى مقاطعة ابن Aisne .

(المترجم)

السمبر نجهام Sempringham الجلبرتيين الإنجليز على غرار طائفة فنترفول . وفى عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلى وانتشروا فى جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ، وإنجلترا . وفى عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » وحضهم على افتداء المسيحيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة مشعلا أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الاصلاح فى الأديرة التى بلغت ذروتها على يد القديس برنار تضعف فى خلال القرن الثانى عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول ، غير أنه لم يكن من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على هذا النظام الصارم فى ذلك العهد السريع الخطى ؛ فأثرى السسترسيون — ومنهم أتباع برنار نفســه فى كليرفو — على مر الزمن بما انهال عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة من « التائبين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ(٣٣) ، وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين(٣٤) ، وكانت لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة فى منتجات صناعاتهم المشاعة ؛ وأثاروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة على نقل البضائع(٣٥) . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة شيوعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحى الصادق أن يبتعد عن الثروة والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ، وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس(*)

وُلد چيوڤني ده برنادون Giovanni de Bernadone فى أسيسى Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرپيترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع پروڤانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى پيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسى . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدّل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أى فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لپيكا . وشب الطفل وترعرع فى أجمل صقع فى إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسمائها الصافية . وتعلّم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعليم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم فى عمل أبيه ، وأغضب سرپيترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم يداً ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغانى الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجائلين المتعددة الألوان(٣٦) . وكان شابا وسيما ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت . ويقول المترجمون الأولون له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذ كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التى خلفتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض فى الصفحات التالية ونبهنا القارئ إلى طبيعته هذه فى كل مرة . وننقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Fiovetti » و « مرآة الكمال **Speculum Pertectiones** » من القصص الموضوعة . وعلى هذا النحو يجب أن يفسر ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما[٢٧] ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه فى تلك السنين التى يتشكل فيها خلقه شيئا عن الضالين الإلبچنسيين والولدنسيين فى جنوبى فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد إنجيل الدعوة إلى الفقر

وحارب فى عام ١٢٠٢ فى جيش أسيسى ضد پروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى فى الأسرسنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفى عام ١٢٠٤ تطوع فى جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينا هو طريح الفراش فى إسپوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمير إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربَّاه ماذا تريدنى أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل »[٢٨] . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى ، ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقلّ واهتمامه بالدِّين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينا كان فرانسس يصلى فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ما معه من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجذام ففر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لمدم إخلاصه للمسيح ، وعاد أدراجه وأفرغ ما كان فى كيسه من النقود فى يد المجذوم وقبَّل يده ، ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد فى حياته الروحية[٢٩] . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجذومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام فى المصلى أو بالقرب منها ، ويبدو أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام إلا القليل الذى لا يغنى من جوع ، فلما ظهر مرة أخرى فى أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال فى الميدان العام يصيحون

« پزو ، پزو ! pazzo ! pazzo, المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ، وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة ضيقة . ولما أن أطلقته أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولامه لأنه لم يفد شيئاً من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها ؛ وكان فرانسس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجيورى ، مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد چيوتو هذا المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسس إلى حجرة فى قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف بثيابه المحزومة وما كان باقيا معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظللت حتى هذه الساعة أدعو پيترو برنادون أبى ، أما الآن فإنى أحب أن أكون خادماً لله ، ولهذا فإنى أرد إليه هذا المال . . . هو وثيابى وكل ما حصلت عليه منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات »(٤٠) . وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرنسس المرتجف بمئزره ، وعاد فرانسس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوبا من أثواب النساك ، وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيها « أنتم ذاهبون أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات . اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزوداً في الطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ولا عصا » (متَّى ١٠ : ٧ — ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليه مباشرة ، وصمم على أن يطيع هذه الألفاظ وينفذها بنصها — أن يدعو إلى ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الوراء خلال المائتين والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف فى ربيع ذلك العام فى ميدان أسيسى متحدياً سخرية الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشمأزت نفسه مما كان سائداً فى هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه من ترف بعض رجال الدين وأبهتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس[٤١] ؛ وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء . واستمعت إليه جماعات قليلة فى دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو لى أن طريقتك فى الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس » أجابه فرانسس بقوله : « مولاى ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى الأسلحة للدفاع عنه »[٤٢] . وتأثرت به بعض النفوس ، وعرض عليه اثنا عشر ممن تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سننه ، فرحب بهم ، ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة يسيرون عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون كل يوم حفاة ، ليس معهم شىء من المال ، يعظون الناس . وكانوا فى بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام، وينامون فى مخازن الدريس، أو مستشفيات المجذومين، أو تحت أبواب الكنائس؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام.

وكانوا يحيون بعضهم البعض، ويحيون كل من يلتقون بهم فى الطريق، التحية الشرقية القديمة: «سلام الله عليكم» ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم «فرانسسكان»، فقد كانوا يسمون أنفسهم «الإخوان الصغار Minorites Fratres أو المينوريين Minores». ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأناً، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه، ولم يرسم إلاّ عدد قليل منهم فى الجيل الأول من نشأتهم قساوسة، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس، وكانوا فى جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً، ويشتغلون بالأعمال اليدوية، ولم يكونوا يسمحون بوجود متعطل منهم، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم، لأن فرانسس لم يكن يرى فى المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان: «وسيجد إخوانى الذين تغويهم الرغبة فى العلم أنهم صفر الأيادى فى يوم المحنة»(٤٣). وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال(٤٤). وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذى لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال: «ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذى يستخدمه فى العمل»(٤٥) ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما فى ذلك كتاب الترتيل نفسه؛ وكانوا فى عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجائلين فيكونون مطربى الله(٤٦).

وكان الإخوان أحياناً يُسخرمنهم ويُضربون، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير. وقد أمرهم فرانسس ألا يبدوا أية مقاومة. وكان المعتدون

فى كثير من الأحيان يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والملك ، وهو احتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه(٤٧) . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من **زهيرات القديس فرانسس** تاريخ حق أو خيال ، ولكنه فى كلتا الحالين يصوّر نشوة التقوى التى تسرى فى كل ما نسمعه عن القديس :

قال فرانسس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من پروچيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهذيب ، ومع هذا فاكتب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهمْ ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . وبعد أن واصل فرانسس السير فى طريقه بعض الشىء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوّموا المعوجّين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلة ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكتب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحذق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكتب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : ... « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتما ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلا : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران فى الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا فى خارجه نعانى آلام الجوع والبرد طوال الليل فى المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد فى ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا — ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردنا وهو غاضب ، وسبّنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبْعِدَا أيها اللصان السافلان ! — فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلبينا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعوناه بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعصا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلنسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا فى آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها فى صبر وسرور مدفوعين إليها بحب الله — فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفى هذا يوجد السرور الكامل »[٤١] .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكرة تبعث فى نفسه شعوراً بالخطيئة يؤرقه ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء فى **الزهيرات** فإنه كان فى بعض الأحيان يسائل نفسه فى حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه فى الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن فى وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتجل فرانسس ورداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تتهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة فى كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »[٤٩]. وحدث في مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نقه توًّا من الحمى ، أن طلب أن يُجَرّ وهو عار من الثياب أمام الناس في سوق أسيسي وأن يلقي أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أني ولي صالح ، ولكني أعترف لله ولكم أنني في ضعفي هذا أكلت لحماً وشربت مرق لحم »[٥٠] . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أخاً شاباً أبصر المسيح والعذراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمرضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذي يلبسه حتى كان مريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسياً . وتقول **مرآة الكمال** التي هي في أكبر الظن من نسج الخيال[٥١] :

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى في طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المئزر إلى صاحبه ، لأنا لم نأخذه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عُدَّ هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجماد نفسه ؛ وتعزو إليه **مرآة الكمال** التي لم تثبت صحتها تسبيحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس في الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمد الله الذي خلقها لننتفع بها ... وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذي أمدنا بأختنا النار التي تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد في إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض فى أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حى من أواشج القربى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثانى الذى كان مولعاً بصيد الطير) « لكى يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخوتنا القبرات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب فى خارج المدن والقصور فى يوم عيد الميلاد من كل عام حتى تجد أخواتنا القبرات وغيرها من الطير ما تأكله »(٥٢) والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قمريات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبنى القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ؛ وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الدير سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التى يطعم عليها أولئك الرهبان(٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب فى « أخواتى الصغار من الطير » وهو فى طريقه من كانورا Cannora إلى بيفانيا Bevagna ؛ فنزلت إليه الطيور التى على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكتة بينا كان فرانسس يختم عظته :

أخواتى الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مدينات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبكن أينما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التى تمكنكن من الذهاب أينما شئتن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهبكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ ويهبكن الجبال والوديان لتأوين إليها ؛ والأشجار الباسقة التى تبنين فيها أعشاشكن ، وإذ كنتن لا تستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتى الصغار أن ترتكبن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله(٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان چيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحنى احتراماً لفرانسس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهيرات Fioretta التى نقلنا منها هذه القصة هى تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهى أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد فى مستوى أجمل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة فى عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمى للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبنائى الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لى أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبى أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون »(٥٥) . وأصر فرانسس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر — خضعت القوة الممثلة فى شخص البابا إلى الإيمان الممثل فى شخص فرانسس — ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين فى مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيسى على مصلى القديسة مارى الملائكية St.Mary of the Angels ، وهى مصلى لا يزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم پورتى أنكولا Portiuncula — « أى الجزء الصغير » . وبنى الإخوان لهم أكواخا حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية فى الثامنة عشرة من عمرها هى كلارا دى اسكفى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج — فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقر ، والطهر ، والطاعة ، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس — هى الطائفة الثلاثية — من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة إنجيلها إلى بلدان أمبريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشىء عن الضلالة ، بل كانوا يعظون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقر ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه . . . وتوبوا إليه واستغفروه . . . فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون . . . تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أمبريا أن القديس فرانسس مقبل عليها ، فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد(٥٦) . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهوا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين(٥٧) . وكانت هذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالملاريا التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

بيد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهله بالإسلام قد شجعاه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحى . ولهذا أبحر فى عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلماشيا واضطرته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاصيص تقول إن « القديس فرانسس أدخل فى دينه سلطان بابل »[٥٨] . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر فى ذلك العام نفسه إلى أسبانيا ليدخل المسلمين فى دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطر مريديه أن يعودوا به إلى أسيسى . وتروى قصة أخرى مشكوك فى صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام فى صفوف جيش المسلمين الذى كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحى إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروع فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبحون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط[٥٩] ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزونا ، وأصيب وهو فى مصر ، فضلا عن مرض الملاريا ، برمد أوشك فى مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وازداد أتباع القديس فى أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم. ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون آن يفكروا فى الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخر من صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك فى أن انتشار الطائفة التى انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة فى أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه فى مباذله الصوفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث فى لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالهم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة[٦٠] . وتخلى فرانسس فى عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخى فى إطاعة المبادئ الأولى (١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة — هى « العهد » الذائع الصيت — أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التى أقسموا أن يراعوها، ونهى الرهبان عن الانتقال من أكواخهم عند اليورتى أنكولا إلى الأحياء الطيبة الهواء التى أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس الثالث فأحالها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت قد أخذت بنحو اثنتى عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلها من التعديلات المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس فى ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها فى التفكير ، والعزلة ، والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى حين بروئى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفى عام ١٢٢٤ غادر أسيسى مع ثلاثة من مريديه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزى Chiusi ، وأقام منفرداً فى كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ، وأمره ألا يأتى إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجىء إذا لم يتلق رداً على ندائه بأنه قريب منه . وفى اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضاها ساهراً مصلياً — فى هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية فى كفيه وظهرى يديه ، وفى أسفل قدميه وأعلاهما ، وفى جسمه كله شبيهة فى أماكنها

وفى لونها بالجروح التى أحدثتها فى ظن الناس المسامير التى يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح فى الصليب والحربة التى نفذت فى جنبه(*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسيسى ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً فى زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداناً تاما . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته فى دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه ألّف فى يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالنثر الإيطالى الموزون ، ولعله ألفها وهو فى نشوة الفرح أيام النقاهة من مرض عينيه[٦٣] :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،
إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛
إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خليق بها
وما من أحد يليق به أن يذكرك .
إليك الحمد يارب أنت وجميع مخلوقاتك ،
وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخينا الشمس
الذى يهبنا النهار ويضيئنا به
والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،
بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،
تسبّح بحمدك يا رب قمر السماء ونجومها ؛
فقد خلقتها فى السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقاقيع هو الملاريا الخبيثة . ومما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً فى الجلد من الدم الأرجوانى ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة[٦١] .

نُسبّح بحمدك يا رب الرياح ، والهواء ، والسحب ، والجواء كلها ،
الطيّب منها وغير الطيب ، وهي التي تهب بها القوت لمخلوقاتك .
تُسبّح بحمدك يا رب أختنا المياه
ذات النفع العظيم والتواضع الجم ، الثمينة النقية .
تُسبح بحمدك يا رب أختنا النار
التي أضأت بها دجى الليل ،
وهي جميلة ، ومبتهجة ، وشديدة وقوية ،
تُسبح بحمدك يا رب أختنا وأمنا الأرض ،
التي تمدنا بالغذاء وتسيطر علينا ،
وتخرج لنا الفاكهة المختلفة الأشكال والأزهار ،
والأعشاب ذات الألوان .
يُسبح بحمدك يا رب من يعفون عن الناس حبا فيك ،
ويحتملون آلام المرض والمحن ،
طوبى لمن يحتملونها فى هدوء ،
لأنك أنت يا ذا العظمة ستضع على رءوسهم التيجان .

ورأى بعض الأطباء فى ريتى أن يمروا بقضيب من الحديد المتوهج على جبهته ليعالجوا بذلك مرض عينيه بعد أن مسحوهما « ببول غلام لم يباشر قط النساء » . ويقال إن فرانسس نادى : « الأخ النار : إنك جميل فوق كل المخلوقات ؛ فمن على فى هذه الساعة ؛ وإنك لتعلم مقدار حبى العظيم الدائم لك » ؛ وقال فيما بعد إنه لم يحس قط بألم . واسترد من قوة البصر ما يكفيه لأن يبدأ رحلة أخرى يعظ فيها الناس ، ولكن متاعب السفر لم تلبث أن أنهكت قواه ؛ وأقعده داء الملاريا ومرض الاستسقاء ، فعادوا به إلى أسيسى .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد فى قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقيل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسبيحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من مننت علينا بأختنا مَيْتَةَ الجسد التى لا ينجو منها بشر .

فوا أسفى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع إرادتك المقدسة ،
لأن الميتة الثانية لن ينالهم منها أذى(٦٣) .

ويقال : إنه ندم فى تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم »(٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتى أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهى وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا فى بيوت لا تتفق مع الأيمان التى أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم(٦٥) :

وأدركته المنية فى اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان فى اللحظة الأخيرة ينشد أحد المزامير . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيمان آخران يسيطران على هذا العصر القوى الحركة هما إنوسنت الثالث وفردريك الثانى . فأما إنوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فردريك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسس قد بالغ فى فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة فى الدين المسيحى بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه فى قلوب الملايين من بنى الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التى أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت فى بلاد المجر ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . وكانت هى الدعامة التى تعتمد عليها الكنيسة فى عودة شمالى إيطاليا من الضلالة إلى الكثلكة . ولم تقبل إنجيل الفقر والأمية الذى كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوربا أصرّت على التخبط فى تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفى هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التى وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظَر من الناس أن يبقوا زمناً طويلا ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محتفظين بذلك المستوى العالى من الزهد الذى لا يكاد يقبله عاقل ، والذى عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشىء زاد عدد الإخوان الصغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتى ألف راهب يقيمون فى ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجال الدين بما ضربوه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برنردينو السينائى Bernardino of Siena والقديس أنطونى البدوانى Antony of Padua ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس Dun Scotus ومعلمون مثل اسكندر الهاليسى Alexander of Hales ، وأضحى بعضهم عمالا لمحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسى الأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية فى بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسس تلك الباسلقا الرائعة التى لا تزال تتوّج تل أسيسى وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيمابيو Cimabue وچيتو Giotto فى هذه الباسلقا أول نتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذى كان للقديس فرانسس ولتاريخه وقصصه فى الفن الإيطالى .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة فى جبال الأپنين يعيشون فيها زهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيسيين فقد آثروا الأديرة الرحبة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا ڤنتورا Bonaventura ، وصدّق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأى فى عام ١٢٧٩ ؛ غير أن البابا يوحنا الثانى والعشرين أعلن فى عام ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عدّ « الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدإ من الضالين ، وقمعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسس حرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لجأت إليه من إرهاب ؛ فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يجله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجلين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لايعمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الضالين أعظم أسلحتهم إقناعا — وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلا من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القحط بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطعم بثمنها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينيا نظاميا فى كنيسة أسما Osma ، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفئة الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسيا ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصح الأسقف ، والمثل الذى ضربه له بعض الضالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى .

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى فى منبلييه بثلاثة من مندوبى البابا — أرنلد Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنووى Peter of Castelnaw وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقرا به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يؤنبهم بجرأة لا تقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لا يردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحماسى ، وبالخشوع المماثل لخشوع الحواريين ، وبالتقشف ، والاستمساك بالدين »(٦٦) ويقال إن المندوبين استحوا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالهم .

وأقام دمنيك فى لانجويدك عشر سنين (١٢٠٥ — ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق(٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم — Persecutor Haere ticorum — وليس معنى هذا حتما أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويبث فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يجوسون خلال أوربا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهدوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقنع دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخوانا ، متسولين ، جوالين . ويصف ما يثوپاريس فى عام ١٢٤٠ طائفتهم فى إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد فى طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون فى الغد ، ولا يحتفظون بشىء ما للصباح التالى . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقى لديهم من الطعام الذى يتصدق بها الناس عليهم . يسيرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم(٦٨) .

واضطلعوا فى أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات فى مناصب رفيعة وأرسلوهم فى بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجلان جباران فى الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنس وتومس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنقذوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجلا مسيحيا . ولقد أحدثوا هم والفرنسيسيون ، وإخوان الكرمل وأوستن ثورة فى حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعامة الشعب كل يوم فى أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة فى القرن الثالث عشر فوهبوها من القوة والجلال ما لم تستمتع بمثله قبل.

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لاتؤيد إسراف علماء الأخلاق فى مدحها ولاسخرية شانئيها . وفى وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة تقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد نجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتهم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شامخة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روجر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى »(٦٩) . ولكن هذه ليست هى الصـــورة التى يصورها لنه الأخ سلمبين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فها هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جوا من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحياة الشاقة المكبوتة(٧٠) . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضفى مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمبين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيطاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا امر أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنج منه الإخوان ، لأنى هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صداه فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع القساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسميا أن يردوه إلى أمه التى خدعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيطرد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبى فى كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتى إليه ويخدمه فى ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفى هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس بيديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وجملة القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاما ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئا سالما كما تنام الزغبة(*) :

(*) وتسمى أيضاً الفأرة النوامة وهى حيوان بين الفأر والسنجاب **dormouse** .
(المترجم)

الفصل الخامس

الراهبـــات

كانت العادات المألوفة فى المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتى يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهن أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء فى القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شئون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، ونذرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافه . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر فى أنحاء أوربا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان السترسيين أول دير للنساء فى عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal فى عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان فى أوربا ٧٠٠ دير سسترسى للنساء(٧٢) . وكانت معظم الراهبات اللاتى دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا(٧٣) ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنســاء اللاتى تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتى لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرّم على الآباء التخلص من بناتهـم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة(٧٤) . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها(٧٥) . ولهذا

كان فى وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها فى أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدير أملاكاً واسعة هى مصدر إيراد ديرها : وكانت الراهبة فى تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » :

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً فى نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً فى نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara فى عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها فى أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشاها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين فى سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتى عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعنين بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التى لا تكاد تقل فى تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكى يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا فى خشوع عظيم ، وسألته أن يتفضل فيبارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصا ، إنى أحب أن تباركى أنت هذا الخبز ، وأن ترسمى فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذى وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أننى ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بى الجرأة أن أنطق بهذه البركة فى حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم » . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجرأتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى آمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتئذ مناصاً من أن تبارك الخبز فى خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملا بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا(٧٦) .

وماتت كلارا فى عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيسيون فى عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف الكلارية ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات فى أوربا لا يقل عن عدد الرهبان . ونزعت أديرة الراهبات فى ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفى فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتى « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتى أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو الثكل . ويكشف دستور الناسكات Ancren R wle ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به فى القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف پور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائى فى ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جوّ قاتم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الذم التجديفى لجسم المرأة(٧٧) . ولكن نغمة من الإخلاص الجميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبلها(٧٨) .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقى المألوف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن[٧٩] ووجدن متاعب فى حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحرما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات[٨٠] . وكتب إيفو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ — ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ — ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة فى أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت عدوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته فى جميع أنحاء الإقليم المجاور له[٨١] . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة فى أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشتبه فى أنهن يحترفنه ، « ولا تكاد رئيسة الدير تبتعد عن الخمر ليلة واحدة »[٨٢] . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية فى الأديرة فأمر بالتشديد فى عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن فى الإمكان تنفيذه[٨٣] ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار فى أحد أديرة النساء فى أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط[٨٤] ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه فى قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة فى أقاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج[٨٥] .

ولو أن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التى تخرق فيها هذه القواعد ، لاستطعنا فى أغلب الظن أن نذكر فى مقابل كل زلة آثمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة فى كثير من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليقة

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرثوزيات ، والسسترسيات أن يلتزمن الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام بد — وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات فى العادة يقمن بجميع ما يحتجنه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ، والحياطة ؛ ويصنعن الملابس للرهبان ، والفقراء ، والأغطية التيلية للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكنّ ينسجن السجف ، والأقمشة التى تزين بها الجدران ، وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ، نصف تاريخ العالم . وكن ينسخن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة فى الدير ، ويعلمنهم الأدب ، وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات فى المستشفيات ، وكن يقمن فى منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى فى ساعاتها المحددة . وكانت أيام كثيرة أيام صوم ، لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

وإنا لنأمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا ما رجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التى عاشتها المسيحية ، وإلى من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين ، صعب علينا أن نحصى كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحى كما اقتربت منه الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التى سعدت بفضل حياتهن التى تفيض بالخشوع الهادئ والعمل فى ابتهاج لخدمة بنى الإنسان . ولو أن آثام التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل ولكفرت عن كل ما اقترفه الجنس البشرى من ذنوب .

الفصل السادس

المتصوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكنّ قديسات لأنهن أحسسن بالألوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس فى العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثراً جعل الرؤى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شىء خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويكمن فيها — أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقدور ذروة العقل أن تمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملا فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتى علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الرؤيى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الرؤيى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوّته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وحبها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والألوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نفى طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افترقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعِد المسيحُ ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون فى كل عصر ، وفى كل دين ، وفى كل أرض ، وامتلأت بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلى ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذى نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقلما استطاع إنسان أن يطول تحدثه إلى الذات العلية كما طال تحدث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسى والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفى ليقاوما به النزعة العقلية التى كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبووى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ فى إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس فكتور St. Victor الأوغسطينى ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفتاه هيو Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهم ، فلم يقيما قواعد الدين على الحجة والبرهان ، بل أقاماها على الإحساس الصوفى بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى فى كل صورة من صور الخلق رمزاً قدسياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة پسكال ، ويصف بمنطق العالِم القدير السمو الصوفى للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تاقت نفس يواقيم الفلورائى Joachim of Flora — أو چيوڤنى دى يواقيمى دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori — أحد نبلاء كلابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده فى طريقه من بؤس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الذليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى فى سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن هالة عظيمة تبدت له فى يوم عيد القيامة ، وملأته نوراً إلهيا فهم به لساعته كل ما جاء فى الكتاب المقدس ، وكل ما فى المستقبل والماضى . فلما عاد إلى كلابريا أصبح راهبا وقسا سسترسيا ،

وتاقت نفسه إلى الزهد والتقشف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلستين الثالث Calestine III على ما وضعه لهم من دستور للفقر والصلاة . وبعث إلى إنوسنت فى عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحى من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليبحثها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت.

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية — التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم — القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الوارة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولاها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية يحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقر ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوبى عالمية من السلام والعدالة والسعادة(٨٦) .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة ، ما قاله يواقيم عن الوحى الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يغمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان **الإنجيل الخالد** وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثانى ، وإن الحاجة إلى العشاء الربانى وإلى القساوسة تنتهى فى العهد الثالث حين يسودْ الحب العالمى . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسيس يدعى جراردو دا بورجا Ghérards da Borga ظُن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يُتداول سرا ، وكان له أثر بالغ فى التفكير الصوفى وفى تفكير الطوائف الضالة فى إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتى — الذى جعل ليواقيم مكاناً فى الجنة .

وتأججت حول بروصة فى عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالى إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد فى ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسيرون فى مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقويهم ، يبكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب اللصوص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتا ما أن إيمانا جديداً صوفياً سيغمر أوربا بأجمعها متجاهلا الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت فى الأعماق النفسية التى خرجت منها(٨٧) .

وفى فلاندرز سارت حركة التصوف سيراً هادئاً متصلا . ذلك أن قسا من لييج يدعى لامبير له بيج Lambert le Beuge (أى المتهته) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse فى عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتى يردن أن يعشن معاً فى

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويعلن أنفسهن ينسج الصوف وعمل المخرمات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من بيوت الله مماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لافتنائها الأملاك ، وسلكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجزبرج عام ١٢٦٢ شيعة أخرى هى شيعية إخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحى الصوفى الذى يعفيها من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيها فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى(٨٨) . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى العمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهرة عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعة المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى وممن بعثوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، ففيها عاشت هلدجارد البنجنية Hildegarde of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سيبيلة الرين » the Sibyle of the Rhine كل حياتها البالغة اثنين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والرؤى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طبيبة وقديسة ؛ وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنغمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لاتينية رصينة قوية قوة لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الرؤى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ، وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لاذعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛ وستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن تترديا فى هوة الإلحاد . . . ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما . . وستضم الوثنيين ، واليهود ، وعبّاد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالمَ ربيعُ الدهر والسلام بعد مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واثقون إلى السكنى بين الآدميين[٨٩] .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إليصابات الثورنجيائية (١٢٠٧ — ١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التى قضتها زاهدة متبتلة . وإليصابات هذه ابنة الملك اندرو Andrew وقد تزوجت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها بأمير ألمانى ، وكانت أمًّا فى الرابعة عشرة ، وأرملة فى سن العشرين . ونهب أخو زوجها مالها وطردها فى فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ، وتغســـل جروحهن . وكانت هى الأخرى تتراءى لها رؤى سماوية ، ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت بكنراد الماربرجى Conrad of Marburge عضو محاكم التحقيق الشرس افتتنت افتتاناً وبيلا بقســـوته فى إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته المطيعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتقى ، فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضروباً شديدة من التقشف عجلت منيتها ولما تتجاوز الرابعة والعشرين من عمرها[٩٠] . وبلغ من اشتهارها بالتقوى أن من كان يسير فى جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنيها ، وحلمتى ثدييها ليتخذوها مخلفات مقدسة[٩١] . ودخلت إليصابات أخرى الدير النسائى البندكتى فى شنو Schonau القريبة من بنجن وهى فى الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت فى عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمى ، وإسرافها فى زهدها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تتلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقويباً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذبلت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلىّ أنا نفسى »[٩٢] .

وعلت موجة التصوف فى أواخر ذلك العهد فى ألمانيا ، وكان من متصوفتها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية فى ١٣٢٦ ، والذى حوكم و توفى فى عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذاه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحـــدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد الينابيع التى فاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة فى العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم فى كنفها . نعم إنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحد خروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو تجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالا مباشراً بالله عز وجل ، وتستمع فى غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومنهم ذوو المناصب العالية فى الكنيسة ، يعطفون على ناقديهم ، ويعترفون بما فى الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها فى الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما فى الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبتوا قواعد الدين المسيحى بين زعازع الإلهام الجنونى التى كانت تهدد العقول فى العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا فى دراسة أقوال متصوفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمساك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقى من انتشار الخرافات المعدية ، وأن الكنيسة من إحدى النواحى عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من الفوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكا بآداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهد واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حدا للحروب القائمة بينها ، وعمل على إن يختار رودلف هبسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ؛ ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجبلين Ghibellne فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسيهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جبلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون »[٩٣] . ودعا أحبار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلا لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسى البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودُعى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظير[٩٤] ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوربا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لاتزال أقوى الحكومات الأوربية ، وأحسنها تنظيما ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، فى هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن يختتم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والغطرسة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصا خاليا من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلوا من الفضائل الفاتنة : فقد كان محبا للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ؛ أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين چيتو Giorro وأرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرڤيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسنمه عرش البابوية بأن أقنع سلستين الخامس Celesrine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر — وكان هذا عملا لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط بنيفاس من بادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلستين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ؛ ولما فر سلستين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يجول فى أنحاء أپوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدرياوى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجيء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferintino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦)(٩٥) .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فردريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فردريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب[٩٦] ، واضطر بنيفاس فى آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه فى الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم فى فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب ڤالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا فى كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا .
وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم فى ولاياته البابوية فحاول أن يفض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن پيترو Pietro وجاكوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضاً عروضه ففصلهما ، وحرمهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعا على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية پلستينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمتهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينا كان بنيفاس يلاقى هذه المحن فى إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة فى فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذى يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها فى الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

فى حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجبهم أن يشتركوا بالمال فى الدفاع عن الدوله التى تحمى أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة فى فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة فى يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين فى فرنسا ؛ فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة فى الإدارة الحكومية وفى مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان السسترسيين فمنعوا عن فليب خمس إيرادهم الذى طلبه ليستعين به فى حرب إنجلترا ، وبعث رئيسُ الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابد لبنيفاس أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية فى كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادى لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيرادها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر فى شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابويا يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم فى التاريخ الكنسى كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأولين منه Clericis laicos ، وكانت جملته الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجورى السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديدو العداء لرجال الدين ؛ وتجاربنا لاتترك مجالا للشك فى صدق هذا القول فى الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أى جزء من إيراده أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا ، عرض نفسه للحرمان من الدين ... ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ، أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب فى اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان(٩٧) .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة فى فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها فى نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء فى فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيرادها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية فى الشرق . ولهذا نكص بنيفاس فى مرسومه ineffabirlis Amor (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين فى سبيل الدفاع الضرورى عن الدولة ، واعترف بحق الملك فى أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس — لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عاديا — حكما فى النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب فى معظم أوجه النزاع ؛ وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يملأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا(٩٨) . ونجح فى هذه الخطة نجاحاً تاماً ؛ فلم تشهد رومة من قبل جموعاً كالتى شهدتها فى ذلك الوقت . وفرضت حينئذ ، ولعلها فرضت للمرة الأولى ، قواعد المرور للإشراف على حركات الناس(٩٩) . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفورا وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا فى هذا الوقت عينه يسلون فليب بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث نزاع بين أعوان فليب وبرنارد سيسر Bernard Saisser المندوب البابوى . وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يحرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) . وارتاع بنيفاس للسرعة التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فيليب فى مرسومه المسمى **استمع يا ولدى** Ausculta fili (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية ، وأعلن أنه سيدعو الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك »[١٠٠]. وحينما عرض المرسوم على فليب ، اختطفه كونت أرتوا Artois من يدى رسول البابا وألقاه فى النار ، وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليب تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليب إلى بنيفاس تُبلغ « حماقتك العظيمة أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان[١٠١] .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « **استمع يا ولدى** » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليب أن يستبق المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع فى باريس فى شهر إبريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث — الأشراف ؛ ورجال الدين ، والعامة — فى هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه فى تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذى عقد فى شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذى حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلفت الأنظار . وجاء فى هذا المرسوم أنه لاتوجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد فى خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح وممثله البابا الرومانى ، وأن هناك سيفين أى قوّتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة ، والثانى يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس وبإذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدها إلى أسمى غاياتها ، وأن تحاكمها إذا ارتكبت إثماً . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضرورى للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الدينى الرومانى »[١٠٢] .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (فى شهرى مارس ويونية من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسميا بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر[١٠٣] ، وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك وليم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليبلغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ فى القصر البابوى بأنانى Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذى يحق له أن يدعو مجلساً عاما ، وأعد مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار وليم نوجارت وسيارا كولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة

واقتحما القصر ، وقدما إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »[١٠٤] إن سياراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ فى الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقى ثلاثة أيام سجيناً فى قصره والجنود المرتزقون ينهبونه . ولكن أهل أنانى يؤيدهم أربعمائة فارس من عشيرة أرسينى Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سجانيه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ؛ لأنه وهو واقف فى السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لى صدقة من النبيذ والخبز ، فإنى أمنحها بركة الله وبركتى » . وقاده فرسان الأرسينى إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وحرم خليفته بندكت الحادى عشر (١٣٠٣ – ١٣٠٤) نوجارت ، وسياراكولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رآهم يقتحمون القصر فى أنانى . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت فى بروجيا ، وربما كان أحد الجبلين الإيطالين قد دس له السم[١٠٥] . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسى البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عمن حرموا من الدين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبى من رجال الدين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة فى المائة مدة خمس سنين ، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم . وأن يشهر بذكرى بنيفاس[١٠٦] . ولسنا نعرف إلى أى حد وافق برتراند على هذه المطالب ؛ وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذره الكرادلة بأنه لن يكون آمناً على حياته فى رومة ، فنقل

كلمنت كرسى البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، فى خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مريح من فليب . وهكذا بدأ « الأسر البابلى » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة فى يد فليب الذى لا حد لمطامعه ؛ فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيرا (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدى مجمع كنسى عقد فى جروسو Groseau القريبة من أفنيون . وشهد ستة من رجال الدين فى التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل سنة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلكا حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة فى آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلا ، أو أن الله قد صار إنسانا ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلة . « هذا ما أومن به وما أعتقده ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوقة فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوقة ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال ، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيما بعد . ونقل رئيس دير القديس چيلز St. Giles القائم فى سان چمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيد هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحرى بـ « قوى الظلام »[١٠٧] .

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس ڤينا العام الذى سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثّل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدّين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحديين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التي قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذى كان يجرى فى الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل الصفعة — المادية أو السياسية — التي وجهت إلى بنيفاس فى أنانى بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، وللدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوفن وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، فى الوقت الذى زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويدك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلا على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت(١٠٨) ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط فى هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط فى استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراع ، وأن الحياة والتفكير قد نزعا نزعة زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضى سبعون سنة كانت الدولة قد طوت الكنيسه تحت جناحيها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع فى ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية فى العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها فى كل مكان انتشاراً أكسب أوربا

الغربية — أوربا غير الصقلبية ، وغير البيزنطية — وحدة فى العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف فى التاريخ كله نظاما فى غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم فى مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام پمپى الى أيام ألريك Alaric أى أربعمائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطورية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانيـــة فقد ظلت صاحبة السلطة العليا فى أوربا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه فى الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يوت رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من الهمج المسلوبى العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً فى ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس فى أوربا الغربية التعليم الوحيد المستطاع فى خلال القرون الخمسة التى كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة فى أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما ، محكمة عالمية تحكم فى فض المنازعات الدولية ، وتضييق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة فى نزعتها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت فى تلك القرون أحسن العقول تدريباً ، وكان فى وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة فى العالم المسيحى اللاتينى .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوربا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التى تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لا بد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قاريَّة ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس فى سلام ، وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوربا الغربية ويرون أنه خليفة الله فى أرضه ؟ وحسبنا دليلا على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية فى عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا فى مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع إنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقبيه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم(١٠٩) ، ولو أن الكنيسة اقتصرت فى استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع — وجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى شتات العالم المسيحى لقتال الاتراك ؛ فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدى البابوات الملطخة بدماء المسيحيين.

وكانت الكنيسة إذا لم يتهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم نكن نتوقعه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاضعة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوما منهم

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن ينبذوا عقيدتهم وكنيستهم(١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدرية ، وإن كثيراً من العناصر التي لم تكن مستمسكة بالدين الرسمي ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمي بحرية أوسع مما يظن الناس عادة(١١١) .

وجملة القول أن الصورة التي نرسمها في أذهاننا للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى هي أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما في وسعها ، رغم ما يتصف به أبناؤها وزعماؤها من عيوب كامنة في فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقي والاجتماعي ، ونشر العقيدة الدينية التي تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف ثائرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاهة .

لقد كانت أوربا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطا من الألسنة والعقـــائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التي لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقيا تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفي لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة في نفوس ذوي العنف من الناس ، ووهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوي المخطوطات القديمة ؛ وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها في المدارس والجامعات ، وذللت قيادة ملوك الأرض لتحمـــل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما في التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواه بين رجال مختلفي الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحمت الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلا ريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة في تاريخ أوربا خلال العصور الوسطى .

الباب الثلاثون

الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

٧٠٠ — ١٣٠٠

الفصل الأول

القانون الأخلاقى المسيحى

كان لابد للإنسان فى مرحلة سكنى الغاب أو فى مرحلة الصيد أن يكون شرهاً — حريصاً فى بحثه عن الطعام ، نهما فى ابتلاعه — لأنه إذا جاءه الطعام مرة لايدرى متى يأتيه مرة أخرى . وكان لا بد له أن يكون شديد الحساسية الشهوانية ، وكثيراً ما يطلق لهذه الشهوات العنان ، فلا يتقيد بزواج لأن ارتفاع نسبة الوفيات تحتم ارتفاع نسبة المواليد ، فكل امرأة يجب أن تصير أماً كلما كان ذلك مستطاعاً ، ولا بد أن تكون وظيفة الذكر حامية على الدوام . ولا بد له أن يكون مشاكساً دائم الاستعداد للقتال من أجل طعامه ورفيقته .

لقد كانت الرذائل فى وقت ما فضائل لا غنى عنها للمحافظة على البقاء ، فلما وجد الإنسان أن أحسن سبيل إلى البقاء — بقاء الفرد وبقاء النوع — هى سبيل التنظيم الاجتماعى ، وسع نطاق عصبة الصيد ، فجعلها هيئة من النظام الاجتماعى لا بد فيها من كبح جماح الغرائز التى كانت عظيمة النفع فى مرحلة الصيد عند كل خطوة يخطوها الإنسان ، حتى يستطاع بذلك قيام المجتمع . فليست كل حضارة إلا توازناً وتجاذباً بين غرائز الإنسان ساكن الغابة وقيود

القانون الأخلاقى ؛ فإذا وجدت الغرائز دون القانون الأخلاقى قضى على الحضارة ، وإذا وجدت القيود دون الغرائز قضى على الحياة ، فالمشكلة التى تواجهها الأخلاق هى أن تنظم القيود بحيث تحمى الحضارة دون أن توهن الحياة .

وكانت بعض الغرائز ، وأكثر ما تكون غرائز اجتماعية ، هى صاحبة السبق فى تهدئة العنف البشرى ، والاختلاط الجنسى الطليق ، والشره ؛ وكانت هى أساساً حيوياً للحضارة . فقد خلّق الحب الأبوى ، فى الحيوان والإنسان ، نظام الأسرة الاجتماعى الفطرى ، وما فيها من تأديب تعليمى ، ومساعدة متبادلة ؛ ونقلت السلطة الأبوية ، وهى مزيج من ألم الحب ومتعة الاستبداد ، قانون السلوك الاجتماعى المنقذ للحياة إلى الطفل صاحب النزعة الفردية . وأحاطت القوة المنظمة التى يمارسها الزعيم ، أو الشريف ، أو تمارسها المدينة أو الدولة ، أحاطت هذه القوة وداجت إلى حد كبير قوة الأفراد غير المنظمة . وأخضع حب الاستحسان النفس البشرية إلى إرادة الجماعة ؛ وهدت العادة والمحاكاة من حين إلى حين المراهق والمراهقة إلى السبل التى ارتضاها الناس بعد تجاربهم وأخطائهم . وأرهب القانون الغرائز بشبح العقاب ، وذلل الضمير الشاب بطائفة لا حصر لها من الموانع والمحرمات .

واعتقدت الكنيسة أن هذه المنابع الطبيعية أو الزمنية للأخلاق لا تكفى وحدها للسيطرة على الدوافع التى تحفظ الحياة فى الغابة ، بل تقضى على النظام فى المجتمع ، وقالت إن هذه الدوافع أقوى من أن تكبحها أية سلطة لا تكون لها فى كل مكان وفى وقت واحد قوة مانعة رهيبة . ولهذا فإن القانون الأخلاقى شديد الوقع على الجسم لابد له أن يكون مختوماً بخاتم قوة غير بشرية إذا أريد أن يطيعه الناس ، ولابد له أن يكون مؤيداً بقوة إلهية وذا مكانة فوق المكانة الآدمية تحترمها النفس فى غياب كل سلطة ، وفى أثناء لحظات الحياة وخباياها الخفية . إن السلطة الأبوية نفسها ، وهى عماد كل نظام أخلاقى واجتماعى ، لتنهار فى النزاع

القائم ضد الغرائز البدائية إلا إذا كان لها دعامة من العقيدة الدينية تُغرس فى قلب الطفل . فإذا أريد خدمة المجتمع ونجاته ، فلابد له من دين يقاوم الغرائز الملحة بأوامر ليست من عند البشر ولاتقبل قط نزاعاً ، بل هى أوامر من عند الله نفسه ، محددة واضحة لا تقبل جدلا . وإذ كان الإنسان شديد الإثم والشراسة فإن هذه الوصايا الإلهية يجب ألا يؤيدها الثناء والشرف اللذان يمنحهما الناس من يطيعونها ، أو الخزى والعقاب اللذان يلحقان بمن يخرج عليها ، بل يجب أن يؤيدها ، فضلا عن هذا ، الأمل فى نعيم السماء تناله الفضيلة التى لا تلقى جزاءها فى هذه الدنيا ، وخوف الجحيم التى يتردى فيها الآثمون الذين لايلقون على ظهر الأرض عقاباً . إن هذه الوصايا يجب ألا تأتى من عند موسى بل من عند الله .

وكانت عقيدة الخطيئة الأولى فى اللاهوت المسيحى هى التى مثلت بها النظرية القائلة إن الغرائز البدائية تجعل الإنسان غير صالح للحضارة . وكانت هذه النظرية ، كما كانت فكرة « كارما » فى الديانة الهندية محاولة قصد بها ما يحل بالناس من آلام هم فى الظاهر غير خليقين بها ؛ وهذا التفسير هو أن « الصالحين يقاسون الآلام فى هذه الحياة لأن أسلافهم ارتكبوا الإثم ؛ وتقول النظرية المسيحية إن الجنس البشرى على بكرة أبيه قد لوثته خطيئة آدم وحواء ؛ ويقول جراتيان Gratian فى كتابه Decretum « القرار » (حوالى عام ١١٥٠) الذى اتخذته الكنيسة بصفة غير رسمية جزءاً من تعاليمها : « كل آدمى وُلد نتيجة لاتصال الرجل بالمرأة يولد ملوثاً بالخطيئة الأولى ، معرّضاً للعقوق والموت ، ولهذا فهو طفل مغضوب عليه »[١] لا ينجيه من الخبث واللعنة إلا رحمة الله وموت المسيح الذى كفّر عن آثامه (ولا ينقذ الإنسان من العنف ، والشهوة ، والشره ، وينجيه هو والمجتمع الذى يعيش فيه من الهلاك إلا المثل الذى ضربه المسيح الشهيد فى الوداعة ودماثة الخلق) . وبعثت الدعوة إلى هذه العقيدة ، مضافة إلى الكوارث الطبيعية التى لم تستطع العقول فهمها إلا على أنها عقاب عن الخطايا ، بعثت هذه

الدعوة فى الكثيرين من الناس فى العصور الوسطى شعوراً بأنهم مفطورون على الدنس ، والانحطاط ، والإجرام ، وهو الشعور الذى غلب على كثير من أدبهم قبل عام ١٢٠٠ . ثم أخذ ذلك الشعور بالخطيئة والخوف من الجحيم يتناقص حتى جاء عهد الإصلاح الدينى ، وظهر بعدئذ بقوة ورهبة جديدتين بين المتطهرين المتزمتين .

وتحدث جريجورى الأول ومن جاء بعده من علماء الدين عن سبع خطايا — الكبرياء ، والبخل ، والحسد ، والغضب ، والشهوة ، والشره ، والكسل ، تقابلها فى رأيهم السبع الفضائل الرئيسية : أربع منها « فطرية » أو وثنية امتدحها فيثاغورس وأفلاطون — الحكمة ، والشجاعة ، والعدالة ، والاعتدال ؛ وثلاث فضائل « دينية » — الإيمان ، والأمل ، والإحسان . ولكن المسيحية لم تؤمن قط بالفضائل الوثنية وإن ارتضتها ؛ وكانت تفضل الإيمان عن العلم ، والصبر عن الشجاعة ، والحب والرحمة عن العدالة ، والتعفف والطهر عن الاعتدال . ورفعت من شأن الاتضاع ، ووصفت الكبرياء (وهو من أبرز صفات رجل أرسطو المثالى) بأنه أشنع الذنوب الشنيعة . وكانت المسيحية تتحدث أحياناً عن حقوق الإنسان ، ولكن أكثر ما كانت تؤكده هو واجبات الإنسان — واجباته نحو نفسه ، ونحو بنى جنسه ، ونحو كنيسته وربه . ولم تكن الكنيسة تدعو إلى الاقتداء بالمسيح الرقيق ، الوادع ، الرحيم ، لأنها كانت تخشى أن تجعل الرجال مخنثين . والحق أن رجال المسيحية اللاتينية فى العصور الوسطى كانوا أكثر رجولة من ورثتهم وخلفائهم فى هذه الأيام ، لأنهم كانوا يواجهون من الصعاب أكثر مما يواجهه هؤلاء . ذلك أن علماء الدين والفلاسفة ، كالرجال والدول ، يتصفون بما يتصفون به ، لأنهم فى زمانهم ومكانهم لم يكن لهم مما كانوا عليه بد .

الفصل الثانى

الآداب قبل الزواج

تُرَى إلى أى حد كانت آداب الناس فى العصور الوسطى تمثل أو تحقق المبادئ والنظريات الأخلاقية فى تلك العصور ؟ فلننظر أولا إلى الصورة التى كانت عليها تلك العصور دون أن يكون لدينا رأى سابق نريد إثباته .

لقد كانت أولى الحادثات التى تمت بصلة إلى الأخلاق فى الحياة المسيحية هى التعميد : به كان الطفل يندمج جدياً فى المجتمع وفى الكنيسة ، ويخضع — أو يخضع عنه من يعمدونه — إلى قوانينهما . وفى هذه الحفل يتلقى كل طفل « اسماً مسيحياً » — ويكون هذا الاسم فى العادة اسم أحد القديسين المسيحيين . أما الأسماء التى تضاف بعد هذا الاسم فكانت مختلطة الأصول ؛ ويمكن الرجوع بها خلال أجيال متعددة إلى القرابة ، أو المهنة ، أو المكان ، أو إلى شىء من معارف الجسم أو معالم الخلق ، بل يمكن الرجوع بها أحياناً إلى شىء من الطقوس الكنسية : ومن أمثلة هذه الأسماء سسلى ولكنز دوتر Cicely Wilkinsdoughter وجيمس اسمث James Smith ، ومرجريت فرى ومن Margaret Ferrywoman وماثيو باريس Matthew Paris ، وأجنيس ردهد Agnes Redhead ، وجون مريمان John Merriman ، وربرت لتانى Robert Litany ، وربرت بنديسيت Robert Benedicite أو بندكت Benedict .

وكان جريجورى الأكبر ، كما كان روسو ، يحث الأمهات على أن يرضعن أطفالهن(٣) ؛ وكانت معظم النساء الفقيرات يفعلن هذا ، أما نساء الطبقات العليا

فكانت الكثرة الغالبة منهن لا تفعلنه[٤] . وكان الأطفال محبوبين ، كما هم محبوبين الآن ؟ ولكنهم كانوا يضربون أكثر مما يضربون فى هذه الأيام ، وكانوا كثيرى العدد بالرغم من كثرة من يموتون منهم فى سن الطفولة وسن المراهقة . وكان بعضهم يؤدب البعض لاجتماعهم فى مكان واحد ، وقد تحضروا بسبب خوفهم من ارتكاب الذنوب . وتعلموا من أقاربهم ورفاقهم فى اللعب كثيراً من فنون القطر أو المدينة ، وتقدموا تقدماً سريعاً فى معارفهم وخبثهم . وفى ذلك يقول تومس من أهل سيلانو Celano فى القرن الثالث عشر : « لا يكاد الأولاد ينطقون حتى يتعلموا الخبث ، وكلما تقدموا فى السن زادوا سوءا على سوء حتى يصبحوا مسيحيين بالاسم لا أكثر »[٥] . ولكن الذين يكتبون فى الأخلاق مؤرخون غير صادقين ؛ فقد كان الأولاد يبلغون سن العمل وهم فى الثانية عشرة من عمرهم ويبلغون سن الرشد القانونى فى السادسة عشرة .

وكانت مبادئ الأخلاق المسيحية تتبع مع المراهقين سياسة الصمت بإزاء الأمور الجنسية : فقد كان النضج المالى أى القدرة على كفالة الأسرة يجئ بعد النضج الجنسى أى القدرة على الخلف ؛ وكان الاعتقاد السائد أن التربية الجنسية قد تزيد آلام العفة فى تلك الفترة من العمر ؛ وكانت الكنيسة تتطلب العفة قبل الزواج لتساعد بذلك على الاحتفاظ بالوفاء بعده وعلى النظام الاجتماعى والصحة العامة . ولكن الشاب فى العصور الوسطى كان فى أكبر الظن قد ذاق أنواعاً من الصلات الجنسية قبيل بلوغه السادسة عشرة من عمره . فقد عاد اللواط إلى الظهـــور فى أثناء الحروب الصليبية ، وفى أثر تيار الآراء الشرقية[*] ، وعزلة الرهبان والراهبات[٦] . وكانت المسيحية قد أفلحت فى مهاجمـــة هذا الداء فى العصور القديمة المتأخرة . وقد كتب هنرى رئيس دير كليرفو عن فرنسا فى عام

(*) كثيراً ما تظهر هذه المادة اللعينة فى الحروب ، وقد وجدت فى الغرب والشرق على السواء ، وإذا رجع القارئ إن الفصل الخامس باليونان من هذه السلسلة رأى ما ناله المؤلف عنها عند أولئك القوم . (المترجم)

١١٧٧ يقول : « إن سدوم(*) القديمة قد أخذت تقوم فوق أنقاضها »(٧) واتهم فليب الجميل رهبان المعبد بانتشار اللواط بينهم . وفى كتب التوبة الدينية التى تصف وسائل التكفير عن الذنوب ذكر لضروب الفحش من بينها البهيمية ، وكانت طائفة كثيرة التنوع عن البهائم موضع صلات جنسية بالآدميين(٨) . وكانت الصلات الجنسية من هذا النوع إذا كشفت عوقب الطرفان المشتركان فيها بالإعدام ؛ وفى سجلات البرلمان الإنجليزى ذكر لطائفة من الكلاب ، والمعز ، والبقر ، والخنازير ، والإوز ، حرقت حية هى ومن ارتكب معها الفحشاء من الآدميين . كذلك كثرت مضاجعة المحارم فى تلك الأيام .

ويبدو أن العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفى خارج نطاق الزواج ، كانت منتشرة انشارها فى أى وقت بين أقدم الأزمنة والقرن الثانى عشر ، ذلك أن غريزة الإنسان المختلطة كانت تتعدى الحدود التى تقيمها الشرائع الزمنية والكنسية ، وكانت بعض النساء يعتقدن أن ورعهن فى آخر الأسبوع يكفّر عن مرحهن وبطنتهن . وكان الاغتصاب شائعاً (٩) رغم ما يتعرض له المغتصب من أشد ضروب العقاب ، وكان الفرسان الذين يخدمون النساء أو الفتيات الكريمات المولد نظير قبلة أو لمسة من أيديهن يسلون أنفسهم بخادمات هؤلاء السيدات والفتيات ، ومن أولئك السيدات من لم يكن يستطعن النوم مرتاحات الضمائر إلا إذا هيأن بأنفسهن هذه التسلية(١٠) كان مما يأسف له فارس لاتور لاندرى La Tour Landry انتشار الفسق بين بعض الشبان من أبناء الأشراف ؛ وإذا أخذنا بأقواله فإن بعض رجال الطبقة التى ينتمى إليها كانوا يفسقون فى الكنائس بل « على المذبح » نفسه ؛ وهو يحدثنا عن « ملكتين استمتعتا ببهجتهن الآثمة وبلذتهن داخل الكنيسة فى أثنــاء الصلاة المقدسة فى يوم خميس الصعود

(*) بلدة لوط المذكورة فى الكتاب المقدس .   (المترجم)

أثناء الصيام »(١١) . ويصف وليم المالمزبرى William of Molmsbury أشراف النورمان بأنهم منهمكون فى البطنة والدعارة » وأنهم يتبادلون العاشقات بعضهم مع بعض(١٢) خشية أن يضعف الوفاء حدة الشهوة . وكان الأطفال غير الشرعيين منتشرين فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، وكانت سيرتهم موضوعاً لآلاف القصص ، وكان أولاد الزنا أبطال عدد من هذه القصص فمنهم كوشولان Cuchulain ، وآرثر Arthur ، وجاوين Gawain ورولان Roland ، ووليم الفاتح ، وكثيرون من الفرسان المذكورين فى تواريخ فرواسار Froissart .

وتمشى العهر مع مطالب ذلك الوقت ؛ فقد كان بعض النساء الذاهبات إلى الحج يكسبن نفقة الطريق ، كما يقول الأسقف بنيفاس ، ببيع أجسادهن فى المدن القائمة فى طريقهن(١٣) . وكان كل جيش يتعقبه جيش آخر من العاهرات لا يقل خطراً عن جيش أعدائه . ويحدثنا ألبرت من أهل إيكس Aix فيقول إن « الصليبيين كان بين صفوفهم جمع حاشد من النساء فى ثياب الرجال ، يسافرن معهم دون أن يميزن عنهم ، ويغتنمن الفرصة التى تتاح لهن مع الرجال »(١٤) . ويقول المؤرخ العربى عماد الدين إنه فى أثناء حصار عكا حضرت ثلثمائة من الفرنسيات الحسان ليروحن عن الجنود الفرنسيين . . . لأن هؤلاء أبوا أن يخرجوا للقتال إذا حرموا لذة النساء ». فلما رأى جنود المسلمين هذا طلبوا أن يهيأ لهم ما هيئ لهؤلاء(١٥) . ويقول چوانڤيل إن الأشراف الذين كانوا مع القديس لويس فى حربه الصليبية « أقاموا مواخيرهم حول خيمة الملك »(١٦) . وكان طلبة الجامعات ، وبخاصة فى باريس ، ممن استبدت بهم الحاجة إلى هذا الترفيه أو رغبوا فى محاكاة غيرهم فيه ، ولهذا أنشأت الفتيات مراكز لسد هذه الحاجة(١٧) .

وأباحت بعض المدن — أمثال طوأوز (طلوشه) ، وأڤنيون ، ومنبلييه ، ونورمبرج — هذه الدعارة قانوناً ، ووضعتها تحت إشراف البلدياب بحجة أنه بغير

هذا الدنس لا تستطيع النساء الصالحات أن يخرجن إلى الشوارع وهن آمنات على أنفسهن[١٨] . وكتب القديس أوغسطين يقول : « إذا منعت العاهرات والمواخير ، اضطربت الدنيا من شدة الشبق »[١٩] ، ووافقه على ذلك القديس تومس أكويناس[٢٠] . وكان فى لندن فى القرن الثانى عشر صف من « المواخير » بالقرب من جسر لندن . وقد أجاز أسقف ونشستر فى بادئ الأمر قيامها ، ثم صدق البرلمان على قيامها فيما بعد[٢١] . وقد حرم القانون الذى أصدره البرلمان عام ١١٦١ على صاحبات بيوت الدعارة أن يأوين فيها نساء يعانين آلام « الضعف الخطر من الاحتراق » — وهذا أول ما عرف من التشريع ضد انتشار الأمراض السرية . وقرر لويس التاسع فى عام ١٢٥٤ نفى جميع العاهرات من فرنسا ، ونفذ هذا القرار فعلا ، ولكن الدعارة السرية لم تلبث أن حلت محل التجارة العلنية ، حتى شكا أهل الطبقات الوسطى من أنه يكاد يكون من المستحيل حماية الفضيلة لدى زوجاتهم ونسائهم من إلحاح الجنود والطلاب . وعم انتقاد هذا القرار فى آخر الأمر حتى ألغى فى عام ١٢٥٦ . وحدد المرسوم الجديد الأماكن التى تستطيع فيها العاهرات أن يسكن ويمارسن مهنتهن فى باريس ، وحدد أيضاً ملابسهن وزينتهن ، وأخضعهن لرقابة رئيس من رؤساء الشرطة يسمى ملك القوادين أو المتسولين أو الأفاقين roi de ribauds[٢٣] . ونصح لويس التاسع وهو يحتضر ولده أن يعيد المرسوم الذى قضى بنفى العاهرات ، ونفذ فليب وصيته ، وكانت النتيجة هى النتيجة السابقة نفسها ؛ وبقى القانون مدوناً فى سجل الشرائع الفرنسية ولكنه لم ينفذ[٢٤] . وكان فى رومة ، كما يقول الأسقف دوران الثانى المندى Bishop Durand II of Mende (١٣١١) ، مواخير بالقرب من الفاتيكان ، وقد أجاز رجال البابا إقامتها نظير ما يتقاضون من الأجور[٢٥] . وكانت الكنيسة تظهر العطف على العاهرات ، وأقامت ملاجئ للتائبات من النساء ، ووزعت على الفقيرات الصدقات التى كانت تتلقاها من العاشقات التائبات[٢٦] .

الفصل الثالث

الزواج

كان الشباب فى عصر الإيمان قصير الأجل ، وكان الزواج يحدث فيه مبكرا ، وكان فى وسع الطفل وهو فى السابعة من عمره أن يوافق على خطبته ، وكان هذا التعاقد يتم فى بعض الأحيان ليسهل به انتقال الملكية أوحمايتها . ولقد تزوجت جراس صلبى Grace de Saleby فى الرابعة من عمرها بشريف عظيم يستطيع حماية ضيعتها الغنيـــة ، ثم مات هذا الشريف ميتة سريعة فتزوجت وهى فى السادسة من عمرها بشريف آخر ، وزوجت وهى فى الثالثـــة عشرة بشريف ثالث(٢٧) . وكان يستطاع حل هذا الرباط فى أى وقت من الأوقات قبل سن البلوغ ، وكان يفترض أن تكون هذه السن هى الثانية عشرة للبنت ، والرابعة عشرة للولد(٢٨) . وكانت الكنيسة ترى أن رضى الوالدين أو الأوصياء غير ضرورى للزواج الصحيح إذا بلغ الزوجان سن الرشد ، وتحرم زواج البنات قبل الخامسة عشرة ؛ ولكنها كانت تسمح بكثير من الاستثناءات ، لأن حقوق المِلْــكية فى هذه المسأله كانت تطغى على نزوات الحب ، ولم يكن الزواج إلا حادثا من حوادث الأعمال المالية . وكان العريس يقدم لوالدى الفتاة هدايا أو مالا ، ويعطيها « هدية الصباح » ويضمن لها حق بائنة فى مزرعته . وكان هذا الحق فى إنجلترا هو أن يكون للأرملة استحقاق مدى الحياة فى ثلث ما يتركه الرجل من الأرض . وكانت أسرة الزوجة تقدم الهدايا للزوج ، وتخصص لها بائنة تتكون من الثياب ، والأثواب الثمينة ، والآنية والأثاث ، والأملاك فى بعض الأحيان . وكانت الخطبة عبارة عن تبادل عهود أو مواثيق ، وكان العرس نفسه ميثاقا (واسمه

الإنجليزى Wedding مشتق من اللفظ الإنجليسكسونى Weddian ومعناه الوعد) وكان القرين spouse هو الشخص الذى أجاب responded « إنى أريد » .

وكانت الدولة والكنيسة معاً تعدان الزواج صحيحا إذا تم بناء على تبادل عهد شفوى بين الطرفين ولو لم يصحبه أى احتفال قانونى أو كنسى[٢٩] . وكانت الكنيسة تريد أن تحمى النساء بذلك من أن يهجرهن من يغويهن ، وتفضل هذا الاتحاد عن الفسق أو التسرى ؛ ولكنها كانت بعد القرن الثانى عشر تنكر شرعية الزواج الذى يتم دون مصادقة الكنيسة ، وأخذت بعد مجلس ترنت (١٥٦٣) تتطلب حضور قس فى هذا التعاقد . وكان القانون الزمنى يرحب بتنظيم الكنيسة لشئون الزواج ؛ فكان براكتن Bracton (المتوفى عام ١٢٦٨) يرى أن لا بد من إقامة احتفال دينى لكى يصبح الزواج صحيحا . ورفعت الكنيسة شأن الزواج إلى مقام القداسة ؛ وجعلته ميثاقا مقدساً بين الرجل والمرأة والله ؛ ثم بسطت سلطانها القانونى تدريجا على كل خطوة من خطوات الزواج ، من واجبات فراش الزوجية إلى وصية الزوج الأخيرة قبل الوفاة . وذكر قانونها ثبتاً طويلا من « موانع الزواج » ؛ فكان يجب أن يكون كلا الطرفين غير مقيد برباط زواج سابق ، أو بنذر أنذره أن يظل بغير زواج ، وكان الزواج بمن لم يعمد محرما ؛ غير أنه وجدت مع ذلك حالات من الزواج بين المسيحيين واليهود[٣٠] . وكان الزواج بين الأرقاء بعضهم وبعض ، وبين الأرقاء والأحرار ، المستمسكين بالدين الصحيح والضالين ، وحتى بين المؤمنين والمحرومين ، كان الزواج بين هؤلاء يعد صحيحا[٣١] . ويجب ألا يكون بين الطرفين صلة تصل إلى الدرجة الرابعة من القرابة — أى أنه يجب ألا يكون لهما جد مشترك فى خلال أربعة أجيال ؛ وفى هذه المسألة كانت الكنيسة ترفض القانون الرومانى وتقبل القانون البدائى قانون الزواج من خارج العشيرة خشية أن يؤدى الزواج بين الأقارب الأدنين إلى الانحطاط الناشئ من التناسل داخل دائرة الأسرة ؛ ولعلها كانت تعمل بذلك على منع تركيز الثروة

نتيجة للروابط الأسرية الضيقة . وكان من الصعب تجنب هذا التزاوج الداخلى فى القرى الريفية ؛ فكان لابد للكنيسة أن تتغاضى عنه ، كما كانت تتغاضى عن كثير من الثغرات الأخرى بين الحقيقة والقانون .

ويجىء بعد حفلة الزواج موكب العرس — بموسيقاه المدوية وثيابه الحريرية الفاخرة — يسير من الكنيسة إلى منزل العريس ، وتعقبه الحفلات فى هذا البيت طول النهار كله ونصف الليل . ولا يصبح الزواج صحيحا حتى يتم اتصال الزوجين . وكان منع الحمل محرما ، ويرى أكويناس أنه جريمة لا تزيد عنها شناعة إلا جريمة القتل العمد[٣٢] ، بيد أن وسائل مختلفة بعضها آلية ، وبعضها كيميائية وبعضها سحرية ، كانت تستخدم لهذا المنع ، وكان أكثر ما يعتمد عليه هو وقف الجماع[٣٣] . وكانت العقاقير المجهضة ، أو المؤدية إلى العقم ، أو إلى العجز الجنسى ، أو إلى الشبق ، تباع مع الباعة المتنقلين . وكانت العقوبات التى وضعها ربانس مورس **Rabanus Maurus** للتكفير عن الآثام تقضى على « من تخلط منى زوجها بطعامها حتى تحسن قبول حبه ، بالندم على فعلتها ثلاثة أعوام »[٣٤] . وكان وأد الأطفال نادراً ، وقد أنشأت الكنيسة من أموال الصدقات فى القرن السادس وما بعده ملاجئ للقطاء فى عدة مدن ؛ ودعا مجلس عقد فى رون **Rouen** فى القرن الثامن النساء اللاتى ولدن أطفالا فى السر أن يودعنهم عند باب الكنيسة ، وأعلنت أنها ستكفلهن ؛ وكان أولئك الأيتام يربون ليكونوا أرقاء أرض يعملون فى أملاك الكنيسة . وقرر قانون أصدره شارلمان أن الأطفال الذين يعرضون للجو فى الخلاء يصبحون عبيداً لمن ينقذوهم ويربونهم . وأنشأ راهب من منيلييه حوالى عام ١١٩٠ جماعة إخوان الروح القدس التى تخصصت فى حماية اليتامى وتعليمهم .

وكان عقاب الزنا قاسيا ، مثال ذلك أن أقل ما كان يحكم به القانون السكسونى على الزوجة التى تخون زوجها هو جدع أنفها وصلم أذنيها ، وأجاز لزوجها أن يقتلها . ولكن الزنا كان منتشرا رغم هذه العقوبات الشديدة وأمثالها[٣٥] ؛ وكان أقل ما يكون انتشاراً بين الطبقات الوسطى ، وأكثر ما يكون بين الأشراف . فكان سادة الإقطاع يغوون رقيقات الأرض ولا يحكم عليهم إلا بغرامة قليلة : فمن « وطئ » بنتاً « من غير شكرها » أى رغم إرادتها — أدى للمحكمة ثلاثة شلنات[٣٦] : ويقول فريمان Freeman إن القرن الحادى عشر « كان عصرا فاسقا » ، وكان يعجب من وفاء وليم الفاتح الظاهرى لزوجته[٣٧] وهو وفاء لا يستطيع أن يعزو مثله لأبيه ؛ ويقول تومس ريت Thomas Wright الأريب إن « مجتمع العصور الوسطى كان مجتمعا فاسد الأخلاق فاجراً »[٣٨] .

وكانت الكنيسة تجيز انفصال الزوجين بسبب الزنا ، أو الارتداد عن الدين ، أو القسوة الشديدة ، وكان هذا الانفصال يسمى divortium ولكن معناه لم يكن إبطال الزواج ؛ أما هـذا الإبطال فلم يكن يمنح إلا إذا ثبت أن الزواج قد خالف أحد الموانع الشرعية التى نص عليها قانون الكنيسة . ويبعد أن تكون هذه الموانع قد ضوعف عددها عن قصد لكى يستعين على الطلاق من يستطيعون أداء الرسوم والنفقات الضخمة التى يتطلبها إبطال الزواج ، بل إن الكنيسة كانت تستخدم هذه الموانع استخداماً حكيما مرناً فى الظروف الاستثنائية التى يرجى أن يؤدى الطلاق فيها إلى وجود وارث إلى ملك لم ينجب أبناء ، أو يكون من ورائه فائدة أخرى للسلم أو السياسة . وكان القانون الألمانى يجيز الطلاق فى حالة الزنا ، بل كان يجيزه فى بعض الأحيان إذا اتفق عليه الطرفان[٣٩] . وكان

الملوك يفضلون قانون أسلافهم على قانون الكنيسة الصارم ؛ وكان سادة الإقطاع وسيداته يعودون إلى القوانين القديمة فيطلق بعضهم بعضاً من غير إذن الكنيسة ؛ ولم تبلغ الكنيسة فى سلطانها واستمساكها بمقتضيات الذمة والضمير درجة من القوة تمكنها من تنفيذ قراراتها إلا بعد أن رفض إنوسنت الثالث أن يوافق على طلب الطلاق الذى تقدم به إليه فليب أغسطس ملك فرنسا القوى :

الفصل الرابع

النســاء

كانت نظريات رجال الكنيسة بوجه عام معادية للمرأة ؛ فقد تغالت بعض قوانين الكنيسة فى إخضاعها ؛ لكن كثيراً من مبادئ المسيحية وشعائرها رفعت من مكانتها . وكانت المرأة فى تلك القرون لا تزال فى نظر القساوسة وعلماء الدين كما كانت تبدو لكريسستوم — « شراً لا بدّ منه ، وإغواء طبيعيا ، وكارثة مرغوباً فيها ، وخطراً منزليا ، وفتنة مهلكة ، وشراً عليه طلاء »[٤٠] . وكانت لا تزال حواء مجسدة فى كل مكان ، حواء التى خسر بسببها الجنس البشرى جنات عدن ، وأداة الشيطان المحببة التى يقود بها الرجال إلى الجحيم . وكان تومس أكويناس ، وهو فى العادة رسول الرحمة ، يتحدث عنها كما يتحدث الرهبان ، فينزلها من بعض النواحى منزلة أقل من منزلة الرقيق :

إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها ، الجسمية والعقلية معاً[٤١]... والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها ، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه[٤٢] ... وقد فرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة ، أما العبد فليس كذلك[٤٣] ... ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم[٤٤] .

وأوجب قانون الكنيسة على الزوج حماية زوجته ، كما أوجب على الزوجة طاعة زوجها . وقد خلق الله الرجل لا المرأة ، فى صورته هو . ويعقب العالم بالقانون الكنسى على ذلك بقوله : « ويتضح من هذا أن الزوجة يجب أن تكون خاضعة لزوجها ، بل يجب أن تكون له أقرب ما تكون إلى الخادمة »[٤٥] . على أن فى هذه الفقرات نغمة الرغبات المرجوة لا الحقائق الواقعة . غير أن الكنيسة

كانت تحتم على الرجل ألا يتزوج بأكثر من واحدة ، وتصر على أن يكون القانون الأخلاقى ذا مستوى واحد للرجال والنساء على السواء ، وتكرم المرأة بعبادة مريم ، وتدافع عن حق المرأة فى وراثة الممتلكات .

وكان القانون المدنى أشد عداء للمرأة من القانون الكنسى . فقد كان كلا القانونين يجيز ضرب الزوجة(٤٦) ، ولما أن أمرت « قوانين بوفيه وعاداتها فى القرن الثالث عشر » الرجل ألا يضرب زوجته « إلا لسبب »(٤٧) كان ذلك خطوة كبرى إلى الأمام . وكان القانون المدنى ينص على ألا تُسمع للنساء كلمة فى المحكمة « لضعفهن »(٤٨) ، ويعاقب على الإساءة للمرأة بغرامة تعادل نصف ما يفرضه على الرجل نظير هذه الإساءة نفسها(٤٩) . وقد حرم القانون النساء ، حتى أرقاهن مولداً ، من أن يُمَثِّلن ضياعهن فى برلمان إنجلترا أو فى الجمعية العامة للطبقات بفرنسا . وكان الزواج يعطى الزوج الحق الكامل فى الانتفاع بكل ما لزوجته من متاع وقت الزواج والتصرف فى ريعه(٥٠) . ولم يكن يرخص للمرأة أن تكون طبيبة .

وكان فى حياتها الاقتصادية من التنوع بقدر ما كان فى حياة الرجل ، فكانت تتعلم وتباشر فنون البيت العجيبة المجهدة : تصنع الخبز والفطائر المتنوعة ، وتطهو اللحم ، وتصنع الصابون والشمع ، والزبد والجبن ، وتعصر الجعة ، وتستخرج الأدوية البيتية من الأعشاب ، وتغزل الصوف وتنسجه ، وتنسج الأقمشة التيلية من الكتان ، وتخيط الملابس لأسرتها ، والسجف والملاءات ، وأغطية الأسرة ، والأنسجة التى تزين بها الجدران . وكان عليها أن تزين بيتها وتحتفظ به نظيفاً إلى الحد الذى يسمح به من فيه من الرجال ، وأن تربى الأطفال . وكانت فى خارج الكوخ الزراعى تشترك بقوة وجلد فى أعمال المزرعة : تبذر ، وتزرع ، وتحصد ، وتطعم الفراخ الصغار ، وتحلب البقر ، وتجز الأغنام ، وتساعد على إصلاح البيت ونقشه وبنائه . وإذا كانت من سكان المدن ، كانت وهى فى

البيت أو فى الحانوت ، تقوم بغزل ما يلزم لنقابات المنسوجات الطائفية من غزل ونسيج . ولقد كانت شركة من « نساء الحرير » أول ما أنشأ فى إنجلترا فنون غزل الحرير وثنيه ونسجه(٥١) . وكان عدد النساء فى معظم نقابات الحرَف الإنجليزية مساوياً لعدد الرجال ، ويرجع معظم السبب فى هذا إلى أن الصناع كان يسمح لهم أن يستخدموا زوجاتهم وبناتهم ، ويسجلوا أسماءهن فى النقابات . وكانت بعض النقابات الطائفية المخصصة للصائغات من النساء تتألف من النساء وحدهن ، وكان فى باريس فى آخر القرن الثالث عشر خمس عشرة نقابة طائفية من هذا النوع(٥٢) . على أن النساء قلما كن رئيسات فى نقابات الحرف المكونة من الذكور والإناث ، وكن يتقاضين أجوراً أقل من أجور الرجال نظير الأعمال المتساوية . وكانت نساء الطبقات الوسطى يعرضن بملابسهن ثروة أزواجهن ، ويقمن بدور مثير فى الأعياد الدينية والحفلات الاجتماعية التى تقام فى البلدة . وقد ارتفعت نساء الأشراف الإقطاعيين ، باشتراكهن فى تحمل التبعات مع أزواجهن ، وتقبلهن فى ظرف وتمنع ما يقدمه الفرسان وشعراء الفروسية الغزلون من مراسم التبجيل والغرام ، ارتفعت أولئك النسوة إلى منزلة اجتماعية قلما ارتفعت إليها النساء من قبل .

وقد وجدت المرأة فى العصور الوسطى بفضل مفاتنها ، كما تجد عادة ، رغم أوامر الدين والقانون ، وسائل للتحرر من نتائج عجزها ؛ ولهذا فإن آداب ذلك العصر ملأى بأخبار النساء اللاتى حكمن رجالهن(٥٣) . ولقد كانت المرأة من وجوه كثيرة متفوقة على الرجل معترفاً لها بهذا التفوق ؛ فكانت فى أسر الأشراف تتعلم شيئاً من الأدب ، والفن ، والتهذيب ، بينما كان زوجها غير المتعلم يكدح ويحارب ؛ وكان فى وسعها أن تظهر بكل ما لصاحبات الندوات الأدبية فى القرن الثامن عشر من رشاقة ، وتتصنع الإغماء كما تتصنعه البطلة فى روايات رتشردسن Richardson . وكانت فى الوقت نفسه تنافس الرجل فى حريته البذيئة فى القول والفعل ، وتتبادل

وإياه قصص المغامرات ، وكثيراً ما كانت هى البادئة فى الغرام دون حياء(٥٤) . وأيا كانت الطبقة التى تنتمى إليها فقد كانت تتنقل بكامل حريتها ، وقلما كان معها محرم . وكانت تزحم الأسواق وتسيطر على الاحتفالات ، وتصاحب الرجال فى الحج ، وتشترك فى الحروب الصليبية ؛ ولم يكن شأنها فيها للتسلية فحسب ، بل كانت فى بعض الأوقات جنديا فى عدة الحرب الكاملة . وكان الرهبان الحوارو العود يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأن منزلتها دون منزلة الرجال ؛ ولكن الفرسان كانوا يقتتلون لنيل رضاها والشعراء يقرُّون بأنهم عبيد لها . وكان الرجال يتحدثون عنها بوصفها خادماً مطيعاً ، ويحلمون بها على أنها إلٰهة معبودة . وكانوا يصلون لمريم العذراء ولكنهم يقنعون إذا حصلوا على إليانور الأكتانية Eleanor of Aquitine .

ولم تكن إليانور هذه إلا واحدة من عشرات النساء العظيمات فى العصور الوسطى — أمثال جلا بلاسيديا Galla Plaidedia ، وثيودورا ، وإيرينه Irene ، وأنا كمينا Anna Commena ، وماتلده كونتة تسكانيا ، وماتلده ملكة إنجلترا ، وبلانش النبرية Blanche of Navarre ، وبلانش القشتالية ، وهلواز Héloïse ... وكان جد إليانور وليم العاشر الأكتانى ، أميراً وشاعراً ونصيراً للشعراء الغزلين وزعيما لهم . وكان يفد إلى بلاطه فى بوردو أحسن الفكهين والظرفاء وذوو الشهامة فى جنوبى فرنسا الغربى ؛ وقد تربّت إليانور فى هذا البلاط لتكون ملكة الحياة والآداب جميعاً . واتصفت بكل ما كان فى هذا الجو المشمس الحر من ثقافة وأخلاق : قوة فى الجسم ، ورشاقة فى الحركة ، وقوة فى العاطفة الخلقية والجسمية ، وحرية فى العقل والآداب والحديث ، وخيال شعرى ، وروح مشرقة ، وهيام لا حد له بالحب ، والحرب ، والملذات كلها ، يكاد يصل إلى الموت . ولما بلغت الخامسة عشرة من عمرها (١١٣٧) عرض عليها ملك فرنسا أن يتزوجها ، لأنه كان يتوق إلى ضم دوقيتها أكتين ،

وثغرها العظيم بوردو إلى تاجه وموارده المالية . ولم تكن تعرف أن لويس السابع بليد ورع ، منهمك أشد الانهماك فى شئون الدولة . فانتقلت إليه بمرحها ، وجمالها ، وتحررها من مقتضيات الضمير ، فلم يعجبه إسرافها ، ولم يهتم بالشعراء الذين تبعوها إلى باريس ليجزوها على رعايتها إياهم بالمدائح والقوافى .

وكانت شديدة الشوق إلى المغامرات ، فاعتزمت أن تصحب زوجها إلى فلسطين فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧) ، ولبست هى ووصيفاتها ملابس الرجال والحلل العسكرية ، وبعثن بمغازلهن فى ازدراء إلى الفرسان القاعدين فى أوطانهم ، وركبن فى مقدمة الجيش يلوّحن بالأعلام الزاهية ومن ورائهن الشعراء الغزلون(٥٥) . وأهملها الملك أو لامها ، فسمحت لنفسها فى أنطاكية وغيرها من الأماكن ببعض مغامرات الحب ، فأشيع مرة أنها تحب عمها ريمند البنتيرى Raymond of Pontiers ، ومرة أخرى أنها تحب عبداً مسلماً جميلا ، وقال النامون الجهلاء مرة ثالثة إنها تحب صلاح الدين التقىّ الورع نفسه(٥٦) . وصبر لويس على هـذا العبث ، وعلى لسانها السليط ، ولكن القديس برنار شهر بها فى العالم . وظنت أن الملك سيطلقها ، فقاضته فى عام ١١٥٢ تطلب الطلاق منه بحجة أن نسبهما متصل فى الدرجة السادسة . وابتسمت الكنيسة ساخرة من هذه الحجة ، ولكنها منحت الطلاق ، وعادت إليانور إلى بوردو ، واستعادت حقها فى ملك أكتين ، وفيها التفّت حولها طائفة كبيرة من الخاطبين ، اختارت منهم هنرى بلانتاجنت Henry Plantagenet ولىّ عهد إنجلترا ؛ وبعد سنتين من ذلك الوقت أصبح هنرى الثانى ، وعادت إليانور ملكة مرة أخرى (١١٥٤) — « ملكة إنجلترا بغضب الله » على حد قولها .

وجاءت إلى انجلترا بأذواق الجنوب ، وظلت فيها ، كما كانت فى فرنسا ، المشترعة العليا للشعراء القصّاصين والغزلين ، ونصيرتهم ، ومعبودتهم . وكانت وقتئذ قد بلغت السن التى تمكنها من أن تكون وفية ، ولم يجد هنرى ما يشينها ؛

ولكن الآية انعكست ؛ فقد كان هنرى أصغر منها بإحدى عشرة سنة ولم يكن ينقص عنها فى حدة المزاج وقوة العاطفة ؛ وسرعان ما أخذ يشبع حبه بين نساء البلاط . واستشاطت إليانور غضباً واكتوى قلبها بنار الغيرة ، وهى التى كانت من قبل تحتقر الرجل الغيور . ولما أنزلها هنرى عن عرشها هربت من إنجلترا ، تريد أن تحتمى بأكتين ؛ فأمر بتعقبها ، وقبض عليها ، وزجت فى السجن ؛ وظلت ستة عشر عاماً يذبل غصنها فيه وإن لم يفلّ ذلك من قوة إرادتها . وأثار الشعراء الغزلون عواطف أوربا على الملك ، وائتمر به أبناؤه ، بإيعاز منها ، لخلعه ، ولكنه ظل يقاومهم ويحاربهم إلى يوم مماته (١١٨٩) . وخلف رتشرد قلب الأسد أباه ، وأخرج أمه من السجن ، وعيّنها نائبه للملك إنجلترا حين خرج لقتال صلاح الدين فى الحرب الصليبية ، ولما أصبح ابنها چون ملكا ، آوت إلى دير فى فرنسا ، حيث ماتت « من الحزن ، وضعف العقل » فى الثانية والسبعين من عمرها . لقد كانت إليانور « زوجة فاسدة ، وأمًّا فاسدة ، وملكة فاسدة »(٥٧) ؛ ولكن منذا الذى يفكر فيها على أنها من جنس خاضع ذليل ؟

الفصل الخامس

الأخلاق العامة

ما فتئت الشرائع والحِكَم الأخلاقية فى كل عصر من العصور تقاوم ما درج عليه الآدميون من غش وخيانة . ولم يكن الناس فى العصور الوسطى الطيِّب منهم والخبث أكثر أو أقل من غيرهم فى هذه الناحية ، فكانوا يكذبون على أبنائهم وأزواجهم ، وطوائفهم ، وأعدائهم ، وأصدقائهم ، وحكوماتهم ، وربهم . وكان الرجل فى العصور الوسطى مولعاً أشد الولع بتزوير الوثائق ، يزوّر الأناجيل غير الصحيحة ، ولعله لم يقصد فى يوم من الأيام أن تؤخذ على أنها أكثر من قصص طريفة ؛ ويزوّر الأوامر البابوية ليتخذها سلاحاً فى السياسة الدينية ؛ وكان الرهبان الأوفياء يزوّرون العهود ليكسبوا بها منحاً لأديرتهم من الملوك(٥٨) . ولقد زوّر لافرانك رئيس أساقفة كانتربرى ، كما تقول المحكمة البابوية ، عهداً يثبت به قِدم كرسيه الدينى(٥٩) ؛ وزوّر المدرسون عهوداً يخلعون بها على بعض الكليات فى كيمبردج أقدمية زائفة ، وكثيراً ما أفسدت « الأكاذيب التقية » النصوص ، واخترعت ألف معجزة تعظم بها أصحابها . وكانت الرشوة منتشرة فى التعليم ، والتجارة ، والحرب ، والدين ، والحكومة ، والقانون(٦٠) ؛ وكان تلاميذ المدارس يرسلون الفطائر لممتحنيهم(٦١) ، ورجال الحكم يقدمون الرشا ليعيَّنوا فى المناصب العامة ، ويجمعون من أصدقائهم ما يلزمهم من المال(٦٢) . وكان من المستطاع تقديم الرشا للشهود لكى يقسموا أى قسم يراد منهم ، كما كان المتقاضون يقدمون الهدايا إلى المحلفين والقضاة(٦٣) ؛ وقد اضطر إدورد ملك إنجلترا أن يفصل معظم قضاته ووزرائه فى عام ١٢٨٩ لأنهم مرتشون (٦٤)

وكانت القوانين تتطلب أن يقسم الناس الأيمان فى كل صغيرة وكبيرة ، فكانوا يقسمون على الكتب أو المخلفات المقدسة ؛ وكان يطلب إليهم فى بعض الأحيان أن يقسموا بألا ينقضوا القَسم الذى يوشكون أن يقسموه (٦٥) ؛ ومع هذا فإن الحنث بالأيمان قد كثر إلى حد جعل الناس يلجئون إلى تحكيم القتال رجاء أن يظهر الله أى الجانبين أكثر كذباً من الجانب الآخر(٦٦) .

وكثيراً ما كان أرباب الحرف فى العصور الوسطى يخدعون المشترين ببيعهم بضائع قديمة بالية ، أو منقوصة الطول ، أو يحتالون عليهم ببيعهم سلعاً غير المرغوب فيها . وكان بعض الخبازين يسرقون أجزاء صغيرة من العجين أمام أعين ملاّكهم ، ويستخدمون لذلك الغرض باباً سرياً فى وعاء العجين ؛ وكانت أقمشة رخيصة توضع سراً فى مكان أقمشة غالية دفع ثمنها وتعهد البائعون بتوريدها ؛ وكان الجلد الرخيص « يزيَّن » لكى يبدو شبيهاً بأحسن أنواع الجلود(٦٧) ، وكانت الحجارة تخبأ فى أكياس الدريس والصوف التى تباع بالوزن(٦٨) ؛ واتهم الذين يعبثون اللحوم فى نورونش Norwich بأنهم « يشترون الخنازير المصابة بالحصبة ، ويصنعون منها وزما وفطائر مضرة بالصحة »(٦٩) . ويصف برثلد الرچنسبرجى Berthold of Regenesburg (حوالى ١٢٢٠) مختلف أنواع الغش التى تستخدم فى الحرف المتباينة ، والحيل التى يحتال بها التجار فى الأسواق على أهل الريف(٧٠) . وكان الكتّاب والوعّاظ ينددون بالجرى وراء الثروة ، ولكن حِكمة ألمانية من حِكم العصور الوسطى تقول : « إن كل الأشياء تطيع المال » ؛ وكان بعض الأخلاقيين فى تلك العصور يرون أن حب الكسب أقوى من الغريزة الجنسية(٧١) . ولسنا ننكر أن شرف الفروسية كثيراً ما كان من الحقائق الواقعة نظام الإقطاع ، ولكن يبدو أن القرن الثالث عشر لم يكن يقل ولعاً بالمادة عن أى عهد آخر من عهود التاريخ . تلك كلها أمثلة من الاحتيال والخداع جمعناها من أزمنة طويلة ومساحات واسعة ؛ وهى بلا ريب من الوقائع

الشاذة رغم كثرة عددها ؛ وليس من حقنا أن نستخلص منها نتيجة أكثر من أن الناس فى عصر الإيمان لم يكونوا خيراً منهم فى عصرنا هذا عصر الشك ، ومن أن القانون والأخلاق قلما أفلحا فى الاحتفاظ بالنظام العام ضد ما ركب من نزعة فردية فى طبيعة الناس الذين لم يقصد بهم بفطرتهم أن يكونوا مواطنين خاضعين للقانون .

وكانت معظم الدول تعاقب على جريمة السرقة الخطيرة بالإعدام ، كما كانت الكنيسة تحكم على مرتكبي السطو بالحرمان من الدين ؛ ومع هذا فإن السرقة بأنواعها — من النشل فى الطرق إلى الأشراف النهابين على ضفاف الرين — كانت من الجرائم الواسعـــة الانتشار . وكان مرتزقة الجنود الجياع ، والمجرمون الفارون والفرسان المفلسون ، يجعلون الطرق غير آمنة ؛ وكانت شوارع المدن تشهد فى ظلام الليل كثيراً من الشجار ، والسرقة ، والاغتصاب ، والاغتيال[٧٢] . وتدل سجلات أسباب الوفاة فى « إنجلترا الطروب » فى القرن الثالث عشر على « نسبة فى الاغتيال إذا حدثت فى هذه الأيام عُدّت من الفضائح »[٧٣] . ويكاد الاغتيال يبلغ ضعفى عدد حالات الموت بسبب الحوادث المفاجئة ، وقلما كان يقبض على المجرمين . وكانت الكنيسة تجاهد وهى صابرة للقضاء على حروب الإقطاع ، ولكن ما نالته من نصر متواضع فى هذه الناحية كان سببه أنها حولت الناس وخصامهم إلى الحروب الصليبية ، التى كانت من إحدى النواحى حروباً استعمارية تبغى الفتح والمكاسب التجارية ؛ فلما اشتبك المسيحيون فى الحرب لم يكونوا أكثر رضا بالهزائم أو أكثر وفاء بالعهود والمعاهدات من المحاربين المنتمين إلى الأديان والعهود الأخرى .

ويبدو أن القسوة والوحشية كانتا فى العصور الوسطى أكثر منهما فى أية حضارة قبل حضارتنا نحن . ذلك أن المتبربرين لم يتخلوا عن بربريتهم بمجرد أن صاروا مسيحيين . وكان رجال الأشراف ونساؤهم يصفعون خدمهم ويصفع

بعضهم بعضاً ؛ كما كان القانون الجنائى قاسياً قسوة وحشية ، ولكنه عجز مع ذلك عن قمع الوحشية والجريمة . فكثيراً ما كان التعذيب بالعذراء ، وبجفنة الزيت الملتهب ، وبعمود الإحراق ، وحرق الأحياء ، وسلخ جلودهم ، وتمزيق أطرافهم بشدها إلى الحيوانات ، كثيراً ما كانت هذه الوسائل الوحشية تستخدم فى العقاب . وكان القانون الأنجليسكسونى يعاقب الجارية السارقة بإرغام ثمانين جارية على أن تؤدى كل واحدة منهن غرامة ، وأن تأتى بثلاث حزم من الوقود وأن تحرق السارقة حية(٧٥) . ويقول سلمبينى Salimbene الراهب الإيطالى فى تاريخه الإخبارى ، وكان معاصراً للحروب التى شبت نارها فى إيطاليا الوسطى فى القرن الثالث عشر ، إن المسجونين كانـــوا يعاملون بوحشية لو أننا سمعنا بها فى شبابنا لما صدقناها :

فقد كانوا يربطون رءوس بعض الرجال بحبل ومخلة ، ويشدون الحبل بقوة تخرج عيونهم من أوقابها ، وتسقطها على خدودهم ؛ ومنهم من كانوا يربطونهم بإبهام يدهم اليمنى أو اليسرى وحدها ، تحمل ثقلهم كله بعد أن يرفعوا عن الأرض ، ومنهم من كانوا يعذبون بصنوف من العذاب أشنع من هذه وأشد منها رهبة أخجل من ذكرها ؛ وآخرون ... كانوا يجلسون وأيديهم مشدودة خلف ظهورهم . ويضعون تحت أقدامهم أوعية مملوءة بالفحم الملتهب . . . أو يربطون أيديهم بأرجلهم حول حفرة (كما يربط الحمل وهو ينقل إلى القصاب) ويبقونهم معلقين على هذا النحو طول النهار من غير ما طعام ولا شراب ؛ أو كانوا يحكون قصبات أرجلهم بقطعة خشنة من الخشب حتى يظهر عظم الساق عاريا من اللحم ، وهو عمل تكفى رؤيته وحدها لأن تبعث الأسى والألم فى النفوس(٧٦) .

وكان رجل العصور الوسطى يتحمل الألم بشجاعة ، ولعله كان أقل إحساساً به مما يبدو على رجال أوربا الغربية فى هذه الأيام . وكان الرجال والنساء من جميع الطبقات شهوانيين إلى حد بعيد ؛ وكانت أعيادهم ولائم شراب ، وميسر ،

ورقص ، وانطلاق فى العلاقات الجنسية ؛ وكانت فكاهاتهم صريحة فى بذاءتها صراحة لاتكاد تماثلها فيها فكاهات هذه الأيام[٧٧] ؛ وكانت أحاديثهم أكثر من أحاديث هذه الأيام حرية وأوسع منها مجالا[٧٨] ؛ وقلما كان رجل فى فرنسا يفتح فاه من غير أن يذكر الشيطان ، على حد قول چوانفيل[٧٩] . وكان الناس فى العصور الوسطى أقدر على سماع الفحش منا ، ولم يكونوا يبرمون من الإصغاء إلى أفحش الأقوال التى وردت فى مقالات ربليه Rabelais ؛ وحسبنا أن نذكر أن الراهبات فى كتب تشوسر كن يستمعن دون حياء إلى الأقذار الواردة فى قصة ملر Miller's Tale ؛ وفى أخبار سلمبينى الصالح أجزاء تبلغ من البذاءة والفحش درجة تعز على الترجمة[٨٠] . وكانت الحانات كثيرة العدد ، وكان منها ما يقدم « فطائر » بالجعة على طراز هذه الأيام[٨١] . ولقد حاولت الكنيسة أن تغلق الحانات فى أيام الآحاد ، ولكنها لم تلق إلا قدراً ضئيلا من النجاح . وكان من حق جميع الطبقات أن تسكر فى بعض الأوقات ، وقد وجد زائر لمدينة لوبك Lübeck نساء من طبقة الأشراف فى حجرة الخمور يدمنّ الشرب من تحت أقنعتهن[٨٣] . وكان فى كولونى جمعية يلتقى أعضاؤها لشرب النبيذ مجتمعين وقد اتخذت شعاراً لها : « اشرب وأنت مرح » ولكنها كانت تفرض على أعضائها قواعد صارمة من الاعتدال فى السلوك والأدب فى الحديث .

وكان رجل العصور الوسطى كغيره من الرجال مزيجا بشريا كاملا من الشهوانية والغرام ، والذلة ، والأنانية ، والقسوة ، والرقة ، والصلاح ، والشره ؛ فقد كان أولئك الرجال والنساء ، الذين يشربون ويسبون بكل ما فيهم من قوة ، رحماء رحمة تمس شغاف القلوب ، يخرجون آلاف الصدقات . وكانت القطط والكلاب وقتئذ كما هى الآن حيوانات مدللة ، وكانت الكلاب تدرب على قيادة المكفوفين[٨٥] ؛ وقد نمت فى قلوب الفرسان عاطفة الحب لخيلهم ، وصقور صيدهم ، وكلابهم . وبلغ تنظيم الصدقات مستوى رفيعاً جديداً فى القرنين الثانى

عشر والثالث عشر ، فكان الأفراد ، وكانت النقابات الطائفيـــة ، والحكومات ، والكنيسة تشترك كلها فى تخفيف آلام المنكوبين . وكان إخراج الصدقات واجبا عاما يؤديه الجميع ؛ فالذين يرجون دخول الجنة يوصون بالأموال للصدقات ، والرجال الأغنياء يتبرعون بمهور البنات الفقيرات ، ويطعمون العشرات من الفقراء فى كل يوم ، والمئات منهم فى الأعياد الكبرى . وكان الطعام يوزع عند كثير من أبواب بيوت الأشراف ثلاث مرات فى الأسبوع على كل من يطلبه(٨٦) . وكانت كل سيدة عظيمة ، إلا القليل النادر منهن ، تحس أن واجبها الاجتماعى ، إن لم يكن واجبها الأخلاقى ، أن تشترك فى تدبير شئون الصدقات ؛ ولقد دعا روجر بيكن فى القرن الثالث عشر إلى أن تنشئ الدولة رصيداً للإنفاق منه على الفقراء ، والمرضى ، والطاعنين فى السن(٨٧) ، ولكن القسط الأكبر من هذا العمل ترك تدبيره إلى الكنيسة ؛ فقد كانت الكنيسة من إحدى نواحيها مُنَظَّمة للصدقات تشمل القارة بأسرها ؛ وكان جريجورى الأكبر ، وشارلمان ، وغيرهم يحتمون أن يخصص ربع العشور التى تجبيها كل أبرشية لمعونة الفقراء والعجزة(٨٨) ؛ وقد نفذ هذا إلى حين ، ولكن استيلاء الرؤساء من رجال الدين والعلمانيين على إيرادات الأبرشيات ، أخل بإدارتها لمواردها فى القرن الثانى عشر ، وتحمل عبء هذه الصدقات أكثر من ذى قبل الأساقفة ، والرهبان ، والراهبات والبابوات . وكانت الراهبات كلهن ، إلا عددا قليلا من الخاطئات ، يهبن أنفسهن للتعليم ، والتمريض ، وأعمال البر ؛ وإن أعمالهن المطردة الاتساع فى هذه النواحى لتعد من أنصع الأعمال وأعظمها تقوية للعزائم فى تاريخ العصور الوسطى وتاريخ هذه الأيام .

وكانت الأديرة التى تستمد مواردها من الهبات والصدقات ، وإيراد الأملاك الكنسية ، تطعم الفقراء ، وتعنى بالمرضى ، وتفتدى الأسرى ؛ وكان آلاف من الرهبان يعلمون الشبان ، ويعنون بالأيتام ، ويعملون فى المستشفيات ؛ وكان دير كلونى العظيم يكفر عما له من ثراء واسع بالتصدق بالكثير من أمواله ؛

وكان البابوات يبذلون كل ما فى وسعهم لمساعدة فقراء رومة ، وواصلوا بطريقتهم الخاصة النظام الإمبراطورى القديم نظام توزيع الطعام على الأهلين.

ولكن التسول كان كثيراً بالرغم من هذا البر كله ؛ فقد كانت المستشفيات وبيوت الإحسان تحاول إطعام كل من يقصدها وإيواءهم ؛ وسرعان ما أحاط أبوابَها العُرج ، والمقعـدون ، والمقطوعو السيقان ، والمكفوفون ، والأفاقون ذوو الثياب البالية الذين يتنقلون من « مستشفى إلى مستشفى ويجوسون خلالها يتصيدون لقيمات الخبز وقطع اللحم » (٨٩) . وقد اتسع نطاق التسول فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى وزاد المتسولون إصراراً على مهنتهم ، وبلغ هذا الاتساع والإصرار حداً لا نظير له فى أفقر الأراضى فى الشرق الأقصى .

الفصل السادس

ملابس العصور الوسطى

تُرى أى صنف من الناس كان سكان أوربا فى العصور الوسطى ؟ ليس فى وسعنا أن نقسمهم عناصر ، فقد كانوا جميعاً من « العنصر الأبيض » إذا استثنينا منهم العبيد الزنوج ، ولكنهم كانوا مع هذا خليطا متنوعاً من الخَلْق لا يستطيع أحد تصنيفهم . كان منهم يونان بيزنطية وهلاس ؛ والإيطاليون أنصاف اليونان سكان إيطاليا الجنوبية ، وسكان صقلية اليونان — المغاربة — اليهود ؛ وكان منهم أهل إيطاليا الرومان ، والأمبريون ، والتسكان ، واللمبارد ، والجنويون ، والبنادقة ؛ وقد بلغ من تباين هؤلاء أن كانت كل طائفة منهم تنم عن أصلها بثيابها ، وشعر رأسها ، ولسانها ؛ وكان منهم البربر ، والعرب ، واليهود ، ومسيحيو أسپانيا ، وكان منهم الفرنسيون الغسقونيون ، والبرغنديون ، والباريسيون ، والنورمان ؛ ومنهم أهل الأراضى الوطيئة الفلمنكيون ، والوالون Walloons ، والهولنديون ؛ ومنهم أهل إنجلترا الكلت ، والإنجليز ، والسكسون ، والدنمرقيون والسلالات النورمانية ؛ وكلت ويلز ، وأيرلندة ، واسكتلندة ، والنرويجيون ، والسويديون ، والدنمرقيون ؛ ومنهم مئات القبائل الألمانية ؛ والفنلنديون ، والمجر والبلغار ؛ وصقالبة پولندة ، وبوهيميا ؛ والدول البلطية ، والبلقان ، والروسيا . وقصارى القول أن أوربا قد تجمع فيها خليط من الدماء والأجناس . والأنوف ، واللحى ، والثياب ، لا ينطبق على تباينه العظيم أى وصف من الأوصاف .

وكان الجنس الألمانى قد أصبحت له الغلبة فى الطبقات العليا فى جميع بلاد أوربا الغربية ما عدا جنوبى إيطاليا وأسپانيا ، وذلك بسبب الهجرات والفتوح

التى لا يحصى عديدها . وقد بلغ الإعجاب بشَعر الجنس الأشقر وعيونه مبلغاً اضطر القديس برنار أن يجاهد طوال موعظة كاملة لكى يوفّق بين هذا الإعجاب وبين العبارة الوارة فى نشيد الإنشاد القائلة : إنى أسود ولكن جميل ؛ وكان الفارس المثالى طويلا ، أشقر ، ملتحياً ؛ كما كانت المرأة المثالية فى الملاحم والروايات نحيلة ممشوقة القوام ، رشيقة ، زرقاء العينين ، ذات شَعر طويل أشقر أو ذهبى . وقد حل محل شَعر الفرنجة الطويل عند الطبقات العليا فى القرن التاسع رءوس مقصوصة الشعر من الخلف ، وليس عليها من الشعر إلا غطاء فى أعلاها ؛ واختفت اللحى بين الطبقات العليا من الأوربيين فى القرن الثانى عشر ؛ غير أن الذكور من الزرّاع ظلوا يطيلون لحاهم القذرة وشعر رأسهم إلى حد اضطروا معه أحياناً إلى جمعه فى جدائل(٩٠) . وكان أهل إنجلترا على اختلاف طبقاتها يطيلون شعر رأسهم ، وكان المتأنقون الفناجرة فى القرن الثالث عشر يصبغون شعرهم ويلوُونه بمكاوٍ من الحديد ، ويربطونه بالأشرطة(٩١) . وكانت النساء المتزوجات فى هذا القرن وذاك البلد يربطن شعرهن بشبكة من الخيوط الذهبية ، بينا كان الغلمان من الطبقات العليا يرسلونه على ظهورهم ، وكانت لهم فى بعض الأحيان بالإضافة إلى هذا ، جديلتان تنوسان على صدورهم منحدرتان فوق أكتافهم(٩٢) .

وكان أهل أوربا الغربية فى العصور الوسطى أكثر وأجمل ثياباً مما كانوا قبل ذلك الوقت أو بعده ؛ وكثيراً ما كان الرجال يفوقون النساء فى زينة الثياب وبهجة ألوانها . وكانت الجبة والعَباءة الرومانيتان الفضفاضتان فى القرن الخامس عشر تحاربان حرباً خاسرة مع السراويل القصيرة والمناطق التى كان الغاليون يلبسونها ويتمنطقون بها ؛ فقد كان جو الشمال الحار وأعماله الحربية يتطلبان ثياباً أضيق وأسمك مما أوحى به دفء الجنوب وما فيه من راحة ؛ ولما انتقل مركز القوة إلى شمال جبال الألب أعقب ذلك الانتقال ثورة فى الثياب . فكان الرجل العادى يلبس سروالا طويلا ضيقا يعلوه قباء ، أو قميص نصفى ، مصنوعان من

الجلد أو القماش المتين ، ويعلق فى منطقته سكينا ، وكيسا ، ومفاتيح ، وعدد الصانع إن كان من الصناع ؛ وكان يرسل فوق كتفيه لفاعة أو حرملة ، ويضع على رأسه قلنسوة أو قبعة من الصوف ، أو اللباد أو الجلد ؛ ويغطى رجليه بجوربين طويلين ، وينتعل حذاءين عاليين من الجلد ينحنيان إلى أعلى عند أصابع القدمين ، كيلا يتمزقا من الاصطدام . وازداد طول الجورب قرب أواخر العصور الوسطى حتى بلغ أعلى الفخذ ، وتطور منه السروال غير المريح الذى استبدله الرجل الحديث بقميص الشعر ثوب القديسين فى العصور الوسطى ، كأن هذا السروال كفارة غير منقطعة عن ذنوبه الماضية . وكانت أجزاء الثياب كلها تقريباً من الصوف إلا القليل منها المصنوع من الجلد المدبوغ وغير المدبوغ الذى كان يلبسه الفلاحون أو الصائدون ؛ وكانت كلها تقريباً تغزل وتنسج وتفصل وتخاط فى البيت ؛ ولكن الأغنياء كان لهم خياطون خاصون يسمون فى إنجلترا « المقصات » ، واستغنى قبل القرن التاسع عشر عن الأزرار التى كانت تستعمل من حين إلى حين فى العهد القديم ، ثم عادت إلى الظهور لتكون زينة لا ينتفع بها فى شىء ؛ ومن هنا جاءت عبارة « لا يساوى زرا Not worth a button » الإنجليزية[٩٣] . ونشأت فى ألمانيا فى القرن الثانى عشر بين الرجال والنساء على السواء عادة لبس جلباب ذى حزام فوق الحلة الألمانية الضيقة .

وكان الأغنياء يزينون هذه الأثواب الأساسية بمائة من الوسائل التى تفتق عنها خيالهم . فكانت حواشيها وأطرافها اللاصقة للعنق تسوى بالفراء ؛ وحل الحرير ، أو الأطلس ، أو المخمل محل التيل أو الصوف حيث يسمح بذلك الجو ؛ وغطى الرأس بقلنسوة من المخمل ، وانتُعِلت أحذية من القماش الملون تنطبق كل الانطباق على شكل القدمين . وكانت أجمل الفراء تستورد من الروسيا ؛ وأحسنها كلها الفراء الثمينة المتخذة من جلد القاقم الأبيض ؛ وكان يحدث أن يرهن الأشراف أرضهم ليبتاعوا جلد قاقم لزوجاتهم . وكان الأغنياء يلبسون سراويل

تحتية من التيل الأبيض الرفيع ، وجورباً طويلا ملوناً فى أغلب الأحيان ، ومصنوعا عادة من الصوف ، وفى بعض الأحيان من الحرير ؛ وقميصاً من التيل الأبيض ، ذا طوق فاخر وردن جميل ؛ وكان يلبس فوق هذا كله مئزراً ، ومن فوقها كلها فى الجو البارد أو المطير عباءة ، أو حرملة ، يمكن أن تمد حتى تغطى الرأس . وكانت بعض القلانس ذات قمة مستوية مربعة ؛ وقد اصطنع هذه القلانس المعروفة باسم « ألواح الملاط mortiers » المحامون والأطباء فى أواخر العصور الوسطى ، وبقيت الآن فى أثواب كبار رجال الكليات الجامعية . وكان المتأنقون فى الثياب يلبسون قفازين فى كل الجواء و« يكنسون الأرض المتربة بأذيال مآزرهم وجلابيبهم الطويلة » كما يقول الراهب أردركس ڤيتالس Ardericus Vitalis شاكيامتحسرا[٩٤] .

ولم يكن الرجال يزينون بالحلى أجسامهم وحدها ، بل كانوا يزينون بها أيضا ثيابهم — قلانسهم ، ومآزرهم ، وأحذيتهم . وكانت بعض الأردية تطرز عليها باللؤلؤ نصوص مقدسة أو عبارات بذيئة[٩٥] ؛ وأخرى تزين أطرافها بمخرمات منسوجة من خيوط الذهب أو الفضة ؛ ومنهم من كان يلبس ثيابا من خيوط الذهب . وكان على الملوك أن يميزوا أنفسهم بزينة أكثر من هذه كلها ؛ فكان إدورد المعترف يلبس مئزرا مزركشا بالذهب من صنع زوجته المهذبة إدجيثا Edgitha ، وكان شارل الجسور Charles the Bold صاحب برغندية يلبس مئزرا فخما مطعما بالحجارة الكريمة ومثقلا بها يقدر ثمنه بمائتى ألف دوقة (نحو ١٠٠٠ر٠٨٢ر١ دولار) . وكان الناس كلهم عدا الفقراء منهم يتختمون ، وكان لكل إنسان ذى شأن ولو ضئيل خاتم منقوش عليه رمزه الخاص ، وكانت أية علامة بهذا الخاتم تقبل على أنها توقيعه هو نفسه .

وكانت الملابس تعد دليلا على منزلة الإنسان أو ثرائه ، وكانت كل طبقة تحتج إذا قلدت أثوابها الطبقة التى دونها ، وقد سنت القوانين المالية — كما حدث

فى فرنسا فى سنتى ١١٤٩ و١٣٠٦ — لتنظم ما ينفقه الناس على ملابسهم حسب ثرواتهم وطبقاتهم . وكانت حاشية السيد العظيم ، أو جماعة الفرسان التابعين له ، تلبس فى المناسبات والأعمال الرسمية أثوابا يهديها هو إلى أفرادها مصبوغة باللون المحبب له أو الذى يميزه عن غيره ؛ وكانت هذه الحلل الخاصة تسمى بالفرنسية livrée (وبالإنجليزية livery) (ومعناها الموزَّعة) لأن السيد الكبير كان يوزعها (deliver) مرتين فى العام . على أن الأثواب الجيدة فى العصور الوسطى كانت تعمل لتبقى مدى الحياة ، ومنها ما كان يعنى أصحابه بالنص على من تؤول إليه فى وصيته .

وكانت نساء الطبقات العليا يلبسن قميصاً طويلا من التيل ، ومن فوقه جلباب أو مئزر ذو حواش من الفراء يصل إلى القدمين ويعلوه قميص نصفى يبقى منفرج الطرفين إذا لم يكن فى الدار غرباء ، ولكنه يربط طرفاه إذا جاء البيت زوّار ؛ وذلك لأن جميع النساء المتأنقات يتقن إلى أن يظهرن نحيلات القوام . وقد يتمنطقن بمناطق مرصعة بالجواهر ، ويمسكن بكيس من الحرير ، ويلبسن بأيديهن قفازاً من جلد الشاموا . وكثيراً ما كن يضعن الأزهار فى شعرهن ، أو يربطنه بخيوط من الحرير ذات الجواهر . وكانت بعض السيدات يثرن غضب رجال الدين ، وغضب أزواجهن بلا ريب ، بأن يلبسن قبعات طويلة مخروطية مزدانة بقرنين ؛ وقد جاء على النساء حين من الدهر كانت فيه المرأة غير ذات القرنين هدفاً لسخرية الساخرين[٩٦] . وأصبحت الكعاب العالية فى أواخر العصور الوسطى هى الطراز المحبب ؛ وكان الناقدون الأخلاقيون يشكون من أن النساء كثيراً ما يرفعن أطراف أثوابهن بوصة أو بوصتين ليظهرن أرساغهن وأحذيتهن الظريفة ؛ أما سيقان النساء فلم يكن يبصرها إلا الأخصاء ، وكانت رؤيتها غالية الثمن . وقد ندد دانتى بنساء فلورنس لظهورهن علناً فى ثياب « تكشف عن صدورهن وأثدائهن »[٩٧] . وكانت ثياب النساء فى حفلات

البرجاس موضعاً للتعليقات المثيرة من رجال الدين ؛ وقد وضع الكرادلة قوانين يحددون بها طول أثواب النساء ؛ ولما أمر رجال الدين أن تلبس النساء النقاب حرصاً على أخلاقهن « جعلن هذا النقاب يصنع من الموصلين الرقيق والحرير المشغول بالذهب ، فظهرن فيه أجمل عشرات المرات مما كن بغيره ، واستلفتن عيون النظارة وأغرينهم بالفساد أكثر من ذي قبل »[٩٨] ؛ وكان جويو البروفنسي Guyot of Provins يشكو من أن النساء يستخدمن المساحيق على وجوههن بكثرة لم يبق معها من هذه المساحيق شيء تلوّن به الصور والتماثيل فى الكنائس ، وأنذرهن بقوله إنهن حين يلبسن الشّعر المستعار ، أو يضعن الكمادات أو مسحوق الفول ولبن الخيل على وجوههن لتجميلها ، إنما يُضفن بذلك مئات السنين لمقامهن فى الأعراف[٩٩] . وقد عنّف برثلد الرچنسبرجي Berthold of Regenesburg حوالى ١٢٢٠ النساء بفصاحة ماكان أضيعها :

أيتها النساء ، إنكن ذوات حنان عظيم ، وإنكن لأسرع فى الذهاب إلى الكنيسة من الرجال . . . ومنكن من سينجون لولا شرَك واحد تقعن فيه : . . . ذلك أنكن تردن أن تنلن إعجاب الرجال فتصرفن جهودكن كلها فى زينة ثيابكن . . . والكثيرات منكن يؤدين للخياطة أجراً لا يقل عن ثمن الثوب نفسه ؛ فالثوب يجب أن يكون له وقايتان على الكتفين ، ويجب أن يثنى وتكون له أهداب حول أطرافه كلها ؛ وأنتن لا تكتفين بإظهار فخركن فى عُرَى أزراركن نفسها ، بل إنكن فوق هذا ترسلن أقدامكن إلى الجحيم بما تحملنها من أنواع العذاب الخاصة بها . . . وأنتن تشغلن أنفسكن ببراقعكن ! وتحولنها تارة إلى هذه الناحية وتارة أخرى إلى تلك ، وتطرزنها فى مواضع مختلفة بخيوط الذهب ، وتصرفن فيها كل جهودكن ، فتقضى إحداكن ستة أشهر كاملة فى صنع نقاب واحد ، وهو عمل آثم لا تبتغى به أكثر من أن يثنى الرجال على ثيابها فيقولون : « ربّاه ! ما أجمله ! هل وُجد من قبل ثوب يضارعه فى الجمال ؟ » . أما هن

فيقلن : « أيها الأخ برثلد ، إنا لا نفعل هذا إلا إكراما للرجل الصالح ، حتى تقل نظراته إلى غيرنا من النساء » . لا ، يا سيدتى ، صدقينى ؛ لو أن رَجُلك الصالح صالح بحق ، لفضل أن يستمع إلى حديثك الطاهر عن النظر إلى زينتك الخارجية ... إن فى وسعكم أيها الرجال أن تقضوا على هذا ، وتكافحوه بقوة ؛ بالقول الحسن أوّلا ، فإذا أصررن على عنادهن ، فأقدموا بشجاعة ... وانزعوه من فوق رءوسهن ، ولو اقتلعت معه أربع شعرات أو عشر ، وألقوه فى النار ! ولا تفعلوا هذا مرتين أو أربع مرات فحسب ؛ وسترون أنهن سرعان ما يرجعن عن غيهن(١٠٠) ».

وكانت النساء فى بعض الأحيان يتأثرن بهـذا الوعظ ، وحدث قبل أيام سفنرولا Savonarola بمائتى عام أن ألقين ببراقعهن وحليهن فى النار(١٠١) . ولكن أمثال هذه التوبة كانت لحسن الحظ نادرة وقصيرة الأجل .

الفصل السابع

فى المنزل

لم يكن منزل العصور الوسطى مريحاً كثيراً ؛ فقد كانت نوافذه قليلة ، وقلما كان بها ألواح زجاجية ؛ وكانت المصاريع الخشبية تغلقها لتمنع البرد ووهج الشمس . وكان موقد يدفئ المنزل أو أكثر من موقد ، وكانت التيارات الهوائية تدخله من مئات الثقوب التى فى الجدران ، وتجعل المقاعد ذات الظهور العالية نعمة كبرى . وكان من عادة سكانها أن يلبسوا فى الشتاء قبعات وفراء مدفئة فى داخل المنزل نفسه . وكان الأثاث قليلا ولكنه جيد الصنع ، والكراسى أيضاً قليلة ، وكانت فى العادة غير ذات ظهور ، ولكنها كانت فى بعض الأحيان محفورة حفراً جميلا ، ومنقوشاً عليها شارات أصحابها المميزة ، ومطعمة بالحجارة الكريمة . وكانت معظم المقاعد تحفر فى أبنية الجدران أو تبنى فوق صناديق فى مظلات البساتين . وكانت الطنافس نادرة الاستعمال قبل القرن الثالث عشر ، ولكن إيطاليا وأسپانيا كانتا تستعملانها ؛ ولما انتقلت إليانور القشتالية إلى إنجلترا فى عام ١٢٥٤ للزواج من إدورد الأول غطى خدمُها أرض جناحها فى وستمنستر بطنافس كما يفعل أهل أسپانيا — ومن ثم انتشرت هذه العادة فى إنجلترا . أما أرض البيوت العادية فكانت تنثر عليها الأعشاب أو القش ، فكانت بعض البيوت لهذا السبب كريهة الرائحة إلى حد يأبى معه قس الأبرشية أن يزورها . وكانت أنسجة مزركشة تغطى بعض الجدران ، لتزينها وتمنع عنها تيارات الهواء ، ولتقسم بهو المنزل الكبير إلى حجرات صغيرة . وظلت بيوت إيطاليا وپروڤانس تحتفظ بذكريات الترف الرومانى ، فكانت لذلك أوفر راحة وأكثر مراعاة

لشروط الصحة من بيوت شمال أوربا . وكانت بيوت الطبقات الوسطى فى ألمانيا تحصل على ما يلزمها من الماء من مضخات مركبة على آبار توصل الماء إلى المطبخ[١٠٢] . .

ولم تكن النظافة فى العصور الوسطى من الإيمان ؛ وكانت المسيحية الأولى قد نددت بالحمامات وقالت إنها بؤر للفساد والفسق ، وكان تحقيرها للجسم بوجه عام مما جعلها تهمل العناية بقواعد الصحة . ولم يكن استعمال المنديل على الطريقة الحديثة معروفاً فى ذلك الوقت[١٠٣] ؛ وكانت النظافة تتبع الثروة وتختلف باختلاف دخل الأفراد ؛ فكان السيد الإقطاعى ، ورجل الطبقة الوسطى المثرى ، يستحمان مرات معقولة فى أحواض خشبية كبيرة ، ولما انتشر الثراء فى القرن الثانى عشر انتشرت معه نظافة الجسم ؛ وكانت مدن كثيرة فى ألمانيا ، وفرنسا ، وإنجلترا فى القرن الثالث عشر تحتوى حمامات ؛ ويقول أحد الكتّاب إن أهل باريس كانوا يستحمون فى عام ١٢٩٢ أكثر مما يستحمون فى القرن العشرين[١٠٤] ، وكان من نتائج الحروب الصليبية إدخال حمامات البخار العامة من بلاد الإسلام إلى أوربا[١٠٥] ؛ وكانت الكنيسة تعارض وجود الحمامات العامة بحجة أنها تفسد الأخلاق ؛ وكان لهذه المخاوف ما يبررها فى كثير من تلك الحمامات ؛ وكان فى بعض البلدان حمامات معدنية عامة .

وكان بالأديرة ، وقصور سادة الإقطاع ، وبيوت الأغنياء ، مراحيض تفرغ محتوياتها فى بالوعات ، ولكن سكان معظم البيوت كانوا يقضون حاجتهم فى مراحيض خارج البيت ، وكان المرحاض الخارجى الواحد فى كثير من الحالات يفى بحاجة اثنى عشر منزلا[١٠٦] . وكانت الأنابيب التى تنقل الفضلات من ضروب الإصلاح التى أدخلت إلى إنجلترا فى عهد إدورد الأول (١٢٧١ — ١٣٠٧) وكانت أوعية حجرات النوم فى بيوت باريس فى القرن الثالث عشر تفرغ من النوافذ فى شوارع المدينة ، ولا يصحب هذا العمل إلا تحذير للمارة :

احذروا الماء ! Gar l'eau — وظلت هذه الحوادث المفاجئة السيئة يتكرر ذكرها فى المسالى إلى أيام موليير . وكانت المراحيض العامة ترفاً نادر الوجود ؛ وقد وجد بعضها فى سان جمنيانو San Gimignano عام ١٢٥٥ ، ولكن فلورنس لم يكن فيها وقتئذ شيء منها[١٠٧] ، فكان الناس يقضون حاجتهم فى فناء المنزل ، وعلى درج السلم ، وفى الشرفات ؛ وكان ذلك يحدث فى قصر اللوفر نفسه . وقد صدر مرسوم بعد وباء ١٥٣١ يحتم على أصحاب البيوت فى باريس أن ينشئوا مرحاضاً فى كل بيت ، ولكن هذا الأمر كثيراً ما كان يخالف[١٠٨] .

وكان أفراد الطبقات العليا والوسطى يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، لأنهم كانوا يتناولون معظم الطعام بأصابعهم ؛ ولم تكن هناك إلا وجبتان منتظمتان فى اليوم ، إحداهما فى الساعة العاشرة صباحا ، والأخرى فى الرابعة مساء ؛ غير أن كلتا الوجبتين قد تدوم عدة ساعات ؛ وكان موعد الوجبة فى البيوت الكبيرة يعلن بالنفخ فى بوق الصيد . وقد تكون مائدة الطعام ألواحاً خشنة تقام على قوائم من الخشب ، وقد تكون أحيانا خوانا عظيما متين الصنع من الخشب الثمين المحفور حفراً يدعو إلى الإعجاب ، وكان من حولها مقاعد أو دكك ، والدكة تسمى بالفرنسية banc ومنها اشتق لفظ banquet للوليمة . وكانت فى بعض البيوت الفرنسية آلات عجيبة ترفع مائدة كاملة الإعداد من طبقة سفلى أو تنزلها من طبقة عليا ، ثم تزيلها من فورها حين يفرغ الجالسون من تناول الطعام[١٠٨] ، وكان الخدم يحملون أباريق الماء لكل طاعم يغسل فيها يديه ويجففهما فى قطائل يأخذها أولئك الخدم ، ولم تكن هذه القطائل تستخدم فى القرن الثالث عشر ، ولكن الطاعمين كانوا يجففون أيديهم فى غطاء المائدة[١١٠] . وكان الطاعمون يجلسون أزواجا ، كل زوج مكون من رجل وامرأة ، وكان كل اثنين يأكلان عادة من صفحة واحدة ، ويشربان من كوب واحد[١١١] . وكان كل فرد يعطى ملعقة ؛ وكانت الشوك معروفة فى القرن الثالث عشر ، ولكنها قلما كانت تقدم

للطاعمين ؛ وكان الآكل يستخدم سكينه الخاصة . وكانت الأكواب ، وأطباقها ، والصحاف تصنع عادة من الخشب[١١٢] ، ولكن سادة الإقطاع والأغنياء من الطبقة الوسطى كانت لهم صحاف من الخزف أو من مزيج القصدير والرصاص ، ومنهم من كان يضع على المائدة أدوات من الفضة ، بل إنها كانت تتخللها آنية من الذهب فى بعض الأحيان[١١٣] . وقد تضاف إلى هذه الآنية صحاف من الزجاج ، وصفحة أخرى كبيرة من الفضة فى صورة سفينة ، تحتوى أنواعا من التوابل ، وسكين صاحب الدار وملعقته . وكان كل اثنين من الآكلين يعطيان قطعة كبيرة من الخبز ، مستوية ، ومستديرة ، وسميكة ، يضع عليها كل واحد اللحم والخبز يأخذهما بأصابعه من الصحفة العامة التى يدار بها عليه . وكان الطاعم يأكل هذه القطعة بعد نهاية الطعام أو تعطى إلى الكلاب والقطط التى يغص بها المكان ، أو ترسل إلى الفقراء من الجيران . وكانت الوجبة العظيمة تختتم بالتوابل والحلوى ، ثم بالنبيذ .

وكان الطعام موفوراً ، أو متنوعا ، وحسن الإعداد ، إلا أن انعدام وسائل التبريد سرعان ما كان يفسد اللحم ، ويعلى من شأن التوابل التى يستطاع بها حفظه أو إخفاء تلفه . وكانت بعض هذه التوابل تستورد من بلاد الشرق ولكن غلو ثمنها كان يجعل الناس يزرعون غيرها فى حدائق البيوت — ومن هذه البقدونس ، والخردل ، والقصعين ، واليانسون ، والثوم ، والشبت . . . وكانت كتب الطهو كثيرة ومعقدة ؛ وكان الطاهى فى المنزل العظيم رجلا عظيم الشأن يحمل على كتفيه كرامة البيت وسمعته . وكانت لديه طائفة كبيرة من الأوعية النحاسية ، وآنية الغلى ، والقدور ؛ وكان يفخر بما يقدمه من الأصناف التى تسر العين وتلذ الفم . وكان اللحم ، والدجاج ، والبيض رخيصا[١١٤] ، وإن كان ثمنها مع ذلك يضطر الفقراء إلى الاقتصار على الخضر وهم كارهون[١١٥] . وكان الفلاحون يطعمون الخبز الأسمر الخشن المصنوع من دقيق الشعير ، والشوفان ،

أو الشيلم كاملا ، يخبز فى البيت ؛ أما سكان المدن فكانوا يفضلون الخبز الأبيض - يصنعه الخبازون - يظهرون بذلك علوهم عن أهل الريف. ولم تكن هناك بطاطس ، أو بن ، أو شاى ؛ ولكن اللحوم والخضر التى تؤكل الآن فى أوربا - ومنها ثعابين الماء ، والضفادع ، وحيوانات القواقع البحرية - كانت كلها تقريبا مما يطعمه رجل العصور الوسطى[١١٦] . وقبل أن يحل عهد شارلمان كان الأوربيون قد أتموا ، أو كادوا يتمون ، أقلمة الفواكه وأنواع النقل الأسيوية ؛ غير أن البرتقال كان لا يزال نادراً فى القرن الثالث عشر فى شمال جبال الألب والبرانس . وكان أكثر اللحوم انتشاراً هو لحم الخنزير ؛ فقد كانت الخنازير تقتات بالفضلات التى تلقى فى الشوارع ، ثم يأكل الناس الخنازير . وكان من الاعتقادات الشائعة أن لحم الخنزير يسبب الإصابة بالجذام ، ولكن هذا الاعتقاد لم يقلل من رغبة الناس فيه ، وكان الوزم والفصيد(*) من الأطعمة المحببة فى العصور الوسطى ؛ وكان المضيف من العظماء يضع على المائدة فى بعض الأحيان خنزيراً كاملا ، ويقطعه أمام ضيوفه ؛ وكان هذا يعد من الأطعمة الشهية التى لا تقل فى ذلك عن لحوم الحجل ، والسمان ، والدج ، والطاووس ، والكركى . وكان السمك من الأطعمة الأساسية ، والرنكة من الأطعمة التى يعمد إليها الجنود ، والبحارة ، والفقراء ؛ أما منتجات الألبان فكان استعمالها أقل منه فى هذه الأيام ، ولكن جُبن برى Brie اشتهر منذ ذلك الوقت البعيد[١١٧] . ولم تكن أنواع السلطة قد عرفت ، وكانت الحلوى نادرة . وكان السكر لا يزال يستورد من الخارج ، ولم يكن قد حل بعد محل عسل النحل فى التحلية ؛ وكانت الحلوى بعد الطعام هى الفاكهة والنقل ، وكانت الفطائر لا حصر لأنواعها ؛ يشكلها الخبازون هى والكعك بألطف ما يتصوره الخيال من أشكال ولا يلومهم على هذا أحد رجلا كان أو امرأة[١١٨] . وقد يبدو من الأمور الغريبة التى

(*) دم يوضع فى معى ويشوى . (المترجم)

لا يصدقها العقل أنهم لم يكونوا يدخنون بعد الطعام ، وكان الرجال والنساء يستبدلون بهذا شرب الخمر .

وإذ كان الماء غير المغلى مما لا تؤمن عاقبته فقد كانت جميع الطبقات تجد فى الجعة والنبيذ بديلا منه ، ولهذا كان من الأسماء النادرة اسما Drinkwater و Boileau « اشرب الماء » وفى هذا دليل على عدم الميل إلى شربه . وكان من أنواع الخمور خمر التفاح والكمثرى ، وكانا من المسكرات الرخيصة التى يتناولها الفلاحون . وكان السُّكْر من الرذائل المحببة للرجال والنساء فى العصور الوسطى ، وكانت الحانات يخطئها الحصر ، والجعة رخيصة الثمن ، فكانت هى شراب الفقراء المعتاد يتناولونه فى جميع الأوقات حتى فى الفطور . وكان يسمح للأديرة والمستشفيات القائمة شمال جبال الألب بجالون من الجعة لكل شخص فى اليوم[١١٩] . وكان لكثير من الأديرة ، والقصور ، وبيوت الأغنياء ، معاصرها الخاصة ، لأن الجعة فى البلاد الشمالية كانت من ضرورات الحياة لا يزيد عليها فى ذلك إلا الخبز . وكان الأغنياء فى كل الأمم ، وجميع الطبقات فى أوربا اللاتينية ، يفضلون عليها النبيذ ؛ وكانت فرنسا تعصر أشهر أنواعه ، وتتغنى بمديحه فى مئات الأغانى الشعبية . وكان الفلاحون فى وقت قطف الكروم يعملون أكثر مما يعملون فى سائر أيام العام ، وكان رؤساء الأديرة الصالحون يجزونهم على جدهم بإجازة من القواعد الأخلاقية . وتحتوى أغنية كان يتغنى بها نزلاء دير القديس بطرس فى الغابة السوداء بعض عبارات رقيقة :

فإذا وضع الفلاحون العنب ، جىء بهم إلى الدير وقدم لهم اللحم والشراب بكثرة . ووضعت هناك خابية كبيرة ، وملئت بالنبيذ . . . ليشرب منها كل واحد منهم . . . فإذا لعب الشراب برءوسهم وضربوا الخازن أو الطاهى ، لم يؤدوا غرامة من أجل هذا العمل ، وظلوا يشربون حتى لا يستطيع كل اثنين منهم أن يحملا الثالث إلى العربة[١٢٠] .

وكان رب البيت عادة يسلى المدعوين بعد الوليمة بضروب من الشعوذة ، والشقلبة ، والغناء ، والتهريج . وكان لبعض سادة الإقطاع طائفة خاصة بهم من هؤلاء المسلمين ؛ وكان لبعض الأغنياء مازحون فى وسعهم أن يوجهوا وقاحتهم المرحة وفكاهاتهم البذيئة دون أن يخشوا عقاباً أو تأنيباً . وإذا أراد المدعوون أن يقوموا هم بتسلية أنفسهم كان فى وسعهم أن يرووا القصص ، أو يستمعوا إلى الموسيقى أو يعزفوها ، أو يرقصوا ، أو يتغازلوا ، أو يلعبوا النرد ، والشطرنج ، الألعاب الداخلية الأخرى ؛ وحتى الأشراف أصحاب الألقاب من الرجال والنساء كانوا يتراهنون ويلعبون الغميضاء . ولم تكن ألعاب الورق قد عرفت بعد ، وقد حرمت القوانين الفرنسية الصادرة فى عام ١٢٥٦ و ١٢٩١ صنع النرد أو لعبه ، ولكن لعب الميسر بالنرد كان واسع الانتشار رغم هذا التحريم ، وكان رجال الأخلاق يتحدثون عن ثروات فقدت ونفوس ضلت نتيجة للعب الميسر . ولم يكن هذا اللعب محرماً على الدوام بمقتضى القانون ؛ وكانت سينا Siena تهيئ له أمكنة فى الميدان العام(١٢١) ؛ وقد حرم بأمر من مجلس عقد فى باريس (١٢١٣) وبمرسوم أصدره لويس التاسع (١٢٥٤) ؛ ولكن أحداً لم يكن يهتم بهذا التحريم : وأضحت هذه اللعبة من ضروب التسلية التى ينهمك فيها الأشراف ويقضون فيها أوقاتاً طوالا ، وهى التى اشتق منها اسم خازن بيت مال الملك exchequer من المنضدة أو لوحة الشطرنج المختلفة الألوان Chequered table أو Chessboard التى كان إيراد الدولة يعد عليها(١٢٢) . وقد ذهل أهل فلورنس فى أيام دانتى من لاعب مسلم كان يلعب على ثلاث لوحات مختلفة فى وقت واحد مع أمهر لاعبى المدينة ؛ فقد كان ينظر بعينيه إلى إحدى اللوحات ، ويحتفظ بوضع اللوحتين الأخريين فى عقله ، وقد كسب لعبتين وتعادل مع اللاعب الثالث(١٢٣) .

وكانت لعبة الداما معروفة فى فرنسا وإنجلترا ، وتسمى فى الأولى dames وفى الثانية draughts .

وكان الواعظون من رجال الدين يحرمون الرقص ، ولكن الناس كلهم تقريبا كانوا يمارسونه إلا من وهبوا أنفسهم للدين . وكان تومس أكويناس ذو النزعة المعتدلة يبيح الرقص فى حفلات العرس ، أو فى الاحتفال بقدوم صديق من خارج البلاد أو بنصر قومى ؛ وقد بلغ من أمر هذا القديس الطيب القلب أن قال : إن الرقص إذا كان فى حدود الأدب رياضة بدنية مفيدة للصحة(١٢٤) ؛ وأظهر ألبرتس مجنس مثل هذا التسامح ، ولكن رجال الأخلاق فى العصور الوسطى كانوا بوجه عام يعترضون على الرقص ويعدونه من اختراع الشيطان(١٢٥) ؛ ولم تكن الكنيسة ترضى عنه ، لأنها تراه مغريا بالفساد(١٢٦) ؛ ولقد بذل شباب العصور الوسطى الجرىء كل ما فى وسعه لتبرير مخاوفها(١٢٧) . وكان الفرنسيون والألمان بنوع خاص مولعين بالرقص ، وابتدعوا كثيراً من ضروبه الشعبية ؛ يمارسونها فى مواسم السنة الزراعية ، أو فى الاحتفال بالنصر ، أو لتقوية روح الشعب المعنوية إذا ألمت به كارثة أو انتشر بينه وباء . ويصف أحد الكتاب رقص البنات فى الحقول بقوله : إنه أبهج ملذات الربيع ، وإذا ما احتفل بمنح لقب فارس لأحد الشبان اجتمع كل الفرسان المجاورون له بعدتهم الحربية كاملة ، وقاموا بضروب من الألعاب على ظهور الخيل أو راجلين ، والعامة من حولهم يرقصون على نغمات الموسيقى العسكرية . وكان الناس أحياناً يسرفون فى الرقص حتى يصبح وباء : فقد حدث فى عام ١٢٣٧ أن فرقة من الأطفال الألمان ظلت ترقص على طول الطريق من إرفورت Erfurt إلى أرنستادت Arnstadt ؛ حتى مات كثيرون منهم فى الطريق ، وظل بعض من نجا منهم يعانون مرض الرقاص St Yttus'Dance(*) أو غيره من الاضطرابات العصبية الأخرى طول حياتهم(١٢٨) .

وكان معظم الرقص يدور أثناء النهار وفى الهواء الطلق ؛ ذلك بأن البيوت لم تكن جيدة الإضاءة بالليل — فقد كانت تنار بمصابيح مرتكزة أو معلقة ذات

(*) اضطراب عصبى مصحوب بتشنجات متقطعة . (المترجم)

فتائل وبها زيت ، أو بمشعل من شحم الضأن ؛ وإذ كان الشحم والزيت كلاهما غاليا فقد كان العمل والقراءة قليلين بعد غروب الشمس . ولهذا كان الضيوف يتفرقون بعد الظلام بزمن قليل ، ويأوى أصحاب البيت إلى حجراتهم الخاصة . وقلما كانت حجرة النوم كافية ، وكان يحدث أحياناً أن يجد الإنسان فراش نوم إضافى فى بهو المسكن أو فى حجرة الاستقبال . وكان الفقراء ينامون مستريحين على فرش من القش ، والأغنياء ينامون متعبين على وسائد معطرة ، وحشيات من الريش . وكانت فرش العظماء تغطى بكلة تقيهم البعوض ويستعان على تعليقها بكراسى . ولم يكن ثمة ما يمنع نوم عدد من الأفراد ذكوراً كانوا أو إناثاً صغاراً أو كبارا فى حجرة واحدة . وكان الناس من جميع الطبقات فى إنجلترا أو فرنسا ينامون عشرة[١٢٩] .

الفصل الثامن

المجتمع والألعاب

لقد كانت الغلظة التى تتصف بها آداب العصور الوسطى بوجه عام يخففها بعض ما فى التأديب والمجاملات الإقطاعية من ظرف . فقد كان الرجال إذا التقوا يسلم بعضهم على بعض باليد ، كأن هذا عهد منهم بالمسالمة وعدم الاستعداد لاستلال السيف . وكانت ألقاب الشرف لا حصر لها وكانت متفاوتة المنزلة تبلغ المائة عدا ؛ وكان من العادات الظريفة أن يخاطب كل كبير بلقبه واسمه الأول أو اسم ضيعته . وقد سن قانون للآداب يتبعه أفراد المجتمع الراقى فى الظروف المختلفة – فى البيت ، وفى أثناء الرقص ، وفى الشوارع ، وفى ألعاب البرجاس ، وفى بلاط الملك ، وكان على السيدات أن يتعلمن كيف يمشين ، ويحيين ، ويركبن الخيل ، ويلعبن ، ويحملن الصقور برشاقة على معاصمهن ... ؛ وكانت هذه الآداب كلها وأخرى مثلها للرجال تؤلف ما يعرف باسم آداب البلاط Courtoisie . وقد نشرت فى القرن الثالث عشر إرشادات كثيرة الآداب اللياقة(١٣٠) .

وكان المسافر ينتظر المجاملات والضيافة من أبناء طبقته . فكان المسافرون يستضافون أثناء سفرهم فى أديرة الرجال إن كانوا ذكوراً والمسافرات يستضفن فى أديرة النساء ، على سبيل الصدقة إن كانوا فقراء أو نظير أجور أو هبات إن كانوا أغنياء . وقد أنشأ الرهبان منذ القرن الثامن مضايف عند ممرات جبال الألب ، وكان لبعض الأديرة بيوت كبرى للضيوف تتسع لثلثمائة من المسافرين ، وبها اصطبلات لخيولهم(١٣١) . على أن معظم المسافرين كانوا ينزلون فى « نُزُل » أنشئت على الطريق ؛ وكانت رخيصة الأجور ، وفى استطاعته الرجل أن يجد فيها مومساً بأجر

معتدل إذا حافظ على كيس نقوده من السرقة . وكان الكثيرون يتحدون أخطار السفر — لما يجدونه فى الطريق من أسباب الراحة السالفة الذكر — ومن هؤلاء التجار ، وأصحاب المصارف ، والقساوسة ، والدبلوماسيون ، والحجاج ، وطلاب العلم ، والرهبان ، والسائحون ، والأفاقون . وكانت طرق العصور الوسطى ، على ما فيها من متاعب وأخطار غير مشجعة على الأسفار ، غاصة بالكثيرين من الناس ذوى التشوف والآمال الذين يظنون أنهم سيكونون أسعد حالاً إذا بدلوا مكانهم .

وكانت الفروق بين الطبقات شديدة فى الأسفار كما هى فى التسلية والألعاب . ولكن الخاصة والسوقة كانوا يختلطون من حين إلى حين : إذا عقد الملك جمعية عامة من أتباعه الإقطاعيين ، ووزع الطعام على المجتمعين ، وإذا قام فرسان الأشراف بحركات عسكرية ، وإذا دخل أمير أو أميرة ، أو ملك أو ملكة إحدى المدن كامل العدة فى موكب فخم واصطف الناس على جانبى الطريق العام ليمتعوا أنظارهم بموكبه ، وإذا أقيم يرجاس أو عقدت محاكمة بالاقتتال وسمح للجمهور بحضورها . وكانت المشاهد المنظمة جزءاً أساسياً من الحياة فى العصور الوسطى ؛ فقد كانت المواكب الدينية ، والاستعراضات العسكرية ، والاحتفالات التى تقيمها نقابات الحرف ، تملأ الشوارع بالأعلام ، والمشاعل ، وصور القديسين من الشمع ، والتجار السمان ، والفرسان المتبخترين ، والفرق الموسيقية العسكرية ، وكان الماجنون المتنقلون يمثلون مسرحيات قصيرة فى القرية أو ميدان المدينة ؛ والمغنون الجائلون يغنون ويلعبون ؛ ويقصون قصص الغرام ، والمشعوذون والقفازون يعرضون ألعابهم ، والرجال والنساء يمشون أو يرقصون على حبال مشدودة فوق هاويات سحيقة خطرة ؛ وكنت ترى أحياناً رجلين معصوبى العيون يمارس كلاهما بعض الحيل على زميله ؛ أو كان يؤتى بطائفة من الوحوش إلى البلدة حيث تعرض حيوانات غريبة ورجال عجيبون ، وحيث يقتتل حيوان مع حيوان حتى يقتل أحدهما :

وكان الصيد رياضة ملكية يعمد إليها الأشراف ولا تقل شأناً عندهم عن المثاقفة . وكانت قوانين الصيد تحدد مواسمه بفترات قليلة فى العام ، وكانت للأشراف أملاك يصيدون فيها ويُعَدُّ الاعتداء عليها سرقة بحكم القانون . وكانت غابات أوروبا لا تزال مسكناً لوحوش لم تعترف بعد بفوز الإنسان فى حربه من أجل الاستيلاء على الكوكب الذى تعيش فيه ؛ وحسبنا أن نذكر أن مدينة باريس مثلا قد هاجمتها الذئاب عدة مرار فى العصور الوسطى . وكان الصائد من ناحية ما يعمل للاحتفاظ بسيادة الآدمى المزعزعة على هذه الأرض ، كما كان يعمل من ناحية أخرى لزيادة موارد الطعام ؛ ولم يكن أقل من هذين العملين شأناً أنه كان يُعد نفسه للحرب التى لا مفر منها بتقوية جسمه وروحه وتعويدهما ملاقاة الأخطار ، والقتال ، وسفك الدماء . وكان فى الوقت عينه يجعل من عمله هذا مهرجاناً . فكانت القرون العظيمة المصنوعة من العاج والمطعمة أحياناً بالذهب تدعو النساء ، والرجال ، والكلاب : النساء يجلسن فى رشاقة على الجياد المتبخترة وأرجلهن على جانب واحد من السروج ؛ والرجال فى حلل زاهية وعدَّة حربية متباينة — القوس والسهم ، والبلطة الصغيرة ؛ والحربة ، والسكين ؛ وكلاب الصيد على اختلاف أنواعها تجذب مقاودها . وإذا ما أدى الطراد إلى عبور حقول الفلاحين ، كان من حق السيد وأتباعه ، وضيوفه أن يعبروا هذه الحقول مهما يكن التلف الذى يصيب البذور والمحاصـيل ، ولم يكن يشكو من الفلاحين إلا المتهورون الذين لا يحسبون للعواقب حساباً[١٣٢] . وقد نظم الفلاحون الفرنسيون الصيد فجعلوا له قواعد ، وسموه الطراد ، ووضعوا له مراسم وآداباً معقدة .

وكانت السيدات يشتركن بنوع خاص فى أكثر ضروب الصيد أرستقراطية — وهو الصيد بالبزاة ، فقد كان فى جميع الضياع الكبرى أقفاص تحوى أنواعاً كثيرة من الطيور ، أغلاها ثمناً هى البزاة . وكان البازى يعلَّم الجلوس على معصم السيد أو السيدة فى أى وقت ؛ وكانت بعض السيدات المتأنقات يحتفظن بها وهن

يستمعن إلى الصلاة فى الكنائس . وقد ألف الإمبراطور فردريك الثانى كتاباً ممتازاً فى الصيد بالبزاة بلغت عدد صفحاته ٥٨٩ صفحة ، وكان هو الذى جاء إلى أوربا من بلاد الإسلام بعادة السيطرة على أعصاب البازى وتشوُّفه بتغطية رأسه بغطاء من الجلد . وكانت أنواع مختلفة من البزاة تدرّب على الطيران العالى ، ومهاجمة أنواع مختلفة من الطيور ، وقتلها أو جرحها ، ثم العودة إلى معصم الصائد ، حيث يقربها ويقدم لها قطعة من اللحم جزاء لها على صنعها فتسمح له بأن يضع رجليها فى شرك حتى يبصر فريسة أخرى . ويكاد يكون البازى الحسن التدريب أحسن ما يهدى للشريف أو الملك ؛ وقد افتدى أحد أدواق برغندية ولداً له بأن أرسل اثنى عشر صقراً أبيض لأسرة السلطان بايزيد . وكان منصب حافظ البزاة الأكبر فى فرنسا من أعلى المناصب وأكبرها مرتبا فى المملكة .

وكانت كثيراً من الألعاب الأخرى تخفف عن الناس حر الشمس وبرد الشتاء ، وتحول عواطف الشباب ونشاطه إلى ضروب من المهارة الحيوية . فقد كان كل صبى تقريباً يتعلم السباحة ، وكان الناس كلهم فى شمالى أوربا يتعلمون الانزلاق على الثلج ، وكان سباق الخيل من الألعاب المحبوبة الواسعـــة الانتشار وبخاصة فى إيطاليا ؛ وكانت كل الطبقات تمارس الرمى بالقوس والسهام ؛ ولكن طبقات العمال وحدها هى التى كانت تجد فسحة من الوقت لصيد السمك ؛ وكانت فى العصور الوسطى ضروب مختلفة من ألعاب الكرة ، ولعبة الكرة والصولجان hockey ، ورمى القرص quoits ، والمصارعة والملاكمة ، والتنس Tennis ، وكرة القدم ... وقد نشأت لعبة التنس فى فرنسا ، ولعل منشأها هناك من أصل إسلامى ؛ ويلوح أن اسمها مشتق من لفظ Tenezi الفرنسى أى « العب » — وهو اللفظ الذى كان اللاعب يعلن به بدايه لعبه[١٣٣] . وقد انتشرت هذه اللعبة فى فرنسا وإنجلترا انتشاراً بلغ منه أن كانت تلعب أحياناً أمام جماهير كبيرة فى دور التمثيل أو الهواء الطلق[١٣٤] . وكان الأيرلنديون يلعبون لعبة الكرة والصولجان

منذ القرن الثانى الميلادى ، ويصف مؤرخ بيزنطى من رجال القرن الثانى عشر وصفاً حياً ممتعاً مباراة فى الجحفة (البولو) استخدمت فيها مضارب ذات أوتار من الحبال شبيهة بلعبة لاكرس Lacrosse الكندية[١٣٥] . ويقول أحد مؤرخى العصور الوسطى الإخباريين[*] وهو مروع وجل إن كرة القدم « لعبة بغيضة يدفع فيها الشبان كرة ضخمة ، لا يقذفها فى الهواء ، بل يضربها بالقدم »[١٣٦] . ويبدو أن هذه اللعبة جاءت من بلاد الصين إلى إيطاليا[١٣٧] وإنجلترا حيث انتشرت فى القرن الثالث عشر انتشاراً واسعاً ، وقد بلغ من عنفها أن حرمها إدورد الثانى لأنها تؤدى إلى تعكير السلم (١٣١٤) .

وكان الناس وقتئذ أكثر ميلا إلى التآلف والاشتراك فى الحياة مما هم الآن وكانت أنواع النشاط الجماعية تهز المشاعر فى أديرة الرجال والنساء ، وفى الجامعات ، والقرى ، ومراكز نقابات الحرف . وكانت الحياة بهجة مرحة فى أيام الآحاد والأعياد بنوع خاص ؛ فى تلك الأيام كان الفلاحون ، والتجار ، وكبار الملاك يلبسون أحسن ما عندهم من الثياب ، ويطيلون الصلاة أكثر من المعتاد ، ويشربون أكثر ما يستطيعون[١٣٨] وكان الإنجليز إذا حل أول يوم من شهر مايو يقيمون عمود هذا اليوم ، ويضيئون المشاعل ، ويرقصون حولها ، وكأنهم يعيدون وهم نصف واعين ذكريات أعياد الخصب الوثنية . وكانت كثير من البلدان والقصور فى أيام عيد الميلاد تعين « سيداً لسوء الحكم » ينظم للجماهير ضروب التسلية والمناظر . وكان المهرجون يلبسون الأقنعة ، واللحى المستعارة ، والأثواب المضحكة ، ويسيرون فى الطرقات يمثلون مسرحيات ، أو ألعاباً ، أو ينشدون أغانى عيد الميلاد ؛ وكانت البيوت والكنائس تزدان بشرابة الراعى واللبلاب « وبكل ما هو أخضر فى هذا الفصل من السنة[١٣٩] » . وكانت هناك

(*) المؤرخون الإخباريون هم الذين يكتفون فى تواريخهم بإيراد الحوادث وتواريخها مع وصف لما يشاهدونه فى بعض الأحيان أمثال الجبرتى . Chronicler (المترجم)

أعياد للفصول الزراعية ، وللانتصارات القومية أو المحلية ، وللقديسين ، ولنقابات الحرف ، وقلما كان يوجد فى تلك الأيام رجل لا يملأ معدته بالشراب . وكان لإنجلترا المرحة أسواق تنساب فيها الأموال وتجرى فيها الجعة جرياناً سريعاً ولكنه ليس بالمجان ؛ وكانت الكنيسة فى القرن الثالث عشر تندد بهذه الاحتفالات ، ولكنها هى نفسها اتخذتها أعياداً لها فى القرن الخامس عشر[١٤٠] .

وقد كيفت بعض الأعياد حفلات الكنيسة فجعلتها جدية فى قالب هزلى ، صخابة تختلف من الفكاهة الساذجة إلى الهجاء الشائن المقذع ، وكانت مدينتا بوڤيه Beauvais ، وسان Sans ، وغيرهما من البلدان الفرنسية تحتفل فى اليوم الرابع عشر من شهر يناير بعيد الحمار fête a l'âne : فتركب فتاة جميلة حمارا ، ويخيل إلينا أنها تمثل بهذه الطريقة مريم أم المسيح أثناء فرارها إلى مصر ، ثم يقاد الحمار إلى كنيسة ، وينحنى ويثنى ركبته اليمنى احتراما وعبادة ، ويوضع بجانب المذبح ؛ ويستمع إلى قداس وترانيم يتغنى فيها بمديحه ، فإذا انتهت الصلاة نهق القس والمصلون ثلاث مرات تكريما لهذا الحيوان الذى أنجى أم المسيح من هيرودس وحمل عيسى إلى أورشليم[١٤١] . وكانت أكثر من عشر مدائن فى فرنسا تحتفل فى كل عام — ويكون ذلك عادة فى يوم عيد الختان — بعيد البلهاء fête de fous . وكان يسمح فى هذا اليوم للطبقة الدنيا من القساوسة أن تثأر لخضوعها إلى كبار القسيسين والأساقفة طول العام بالسيطرة على الكنيسة والقيام بالشعائر الدينية ؛ وكانوا يلبسون فى ذلك اليوم ملابس النساء أو الملابس الكهنوتية مقلوبة ، ويختارون واحدا منهم ليكون أسقف البلهاء episcopus fatuorum ، ثم ينشدون أناشيد بذيئة ، ويأكلون الوزم على المذبح ، ويلعبون النرد عند أسفله ، ويحرقون أحذية قديمة فى المبخرة ، ويلقون مواعظ مرحة[١٤٢] . وكانت

كثير من البلدان فى إنجلترا ، وألمانيا ، وفرنسا ، فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر تختار من أهلها أسقف صبيان **episcopus puerorum** ، ليرأس زملاءه فى تقليد فكه للحفلات الكهنوتية[١٤٣] . وكان رجال الدين المحليون يبسمون لهذه المهازل الشعبية ويتسامحون فيها ، وظلت الكنائس وقتاً طويلا تغض النظر عنها ، ولكنها حين رأتها تنزع إلى الإسراف فى التحقير والبذاءة اضطرت إلى مقاومتها حتى اختفت آخر الأمر فى القرن السادس عشر(*) .

وكانت الكنيسة بوجه عام متسامحة لينة الجانب إزاء فكاهات عصر الإيمان الوقحة ، وذلك لعلمها أن الناس لا بد لهم أن يتحللوا بين الفينة والفينة من القواعد الأخلاقية ، وأن تفك القيود التى تعد فى الأوقات العادية ضرورية للمجتمع المتمدين . ولقد يغضب بعض أشداء المتزمتين أمثال القديس يوحنا كريسستوم **St. John Chrysostom** وينادون : « أتضحكون وقد صلب المسيح ؟ » ولكن « الفطائر ، والجعة لم تنقطع ، والنبيذ ظل يجرى ساخنا فى الأفواه » ، وكان القديس برنار يرتاب فى المرح والجمال ، ولكن معظم رجال الدين كانوا فى القرن الثالث عشر أكولين ، يستمتعون باللحم والشراب ، ولا يرون فى هذا ما يؤنبهم عليه ضميرهم ، ولا يغضبون إذا سمعوا فكاهة حلوة أو رأوا ساقا جميلة ؛ ذلك أن عصر الإيمان لم يكن عصر جد وكآبة ، بل كان عصراً مليئاً بالحيوية والمرح الشديد ، والعاطفة الرقيقة ، والسرور الساذج من نعم الأرض . ولقد كتب طالب مفكر على ظهر كتاب المفردات اللغوية أمنية له يتمناها لنا جميعاً :

(*) بيد أن أسقف غلمان لا يزال ينتخب فى كل عام فى أدلستون **Addlestone** من أعمال سرى **Surrey** بإنجلترا .

وإنى لأرغب أن تكون الأيام كلها إبريل ومايو ، وأن يجدد كل شهر جميع الفواكه مرة بعد مرة ، وأن تنبت فى كل يوم أزهار الزنبق ، والمنثور ، والبنفسج ، والورد فى كل مكان يطرقه الإنسان ، وأن تظل أشجار الغابات مورقة ، والمروج خضراء ، وأن ينال كل محب محبوبته ، وأن يحب كلاهما الآخر حباً صادقا أكيداً يمتلئ به قلبه ، وأن يستمتع كل إنسان بما يحب من اللذة وأن يمتلئ القلب مرحاً وغبطة(١٤٥) .

الفصل التاسع

الأخلاق والدين

ترى هل تؤيد الصورة العامة لأوربا فى العصور الوسطى الاعتقاد بأن الدين يبعث على مكارم الأخلاق ؟ .

إن الصورة التى تنطبع فى أذهاننا بوجه عام لتوحى بأن الثغرة الفاصلة بين نظرية الخلق الطيب وحقيقته فى العصور الوسطى أوسع منها فى أى عصر آخر من عصور الحضارة . ذلك أن العالم المسيحى فى تلك العصور لم يكن يقل عنه فى عصرنا اللاديني الحاضر امتلاء بالشهوات الجنسية ، والعنف ، وإدمان الخمر ، والقسوة ، والفظاظة ، والدنس ، والشره ، والسطو ، والخيانة ، والتزوير . ويلوح أنه يفوق عصرنا الحاضر فى استعباد الأفراد ؛ ولكنه لم يكن يضارعه فى الاستعباد الاقتصادى للأقاليم المستعمرة أو الدول المغلوبة . وقد فاقنا فى إذلال النساء ، ولكنه لا يكاد يضارعنا فى عدم الاحتشام ، وفى الفسق ، والزنا ، وفى الحروب الضروس ، وفى كثرة من يقتلون فيها . وإذا وازنا بين مسيحية العصور الوسطى والإمبراطورية الرومانية من نيرڤا إلى أورليوس ، حكمنا أن هذه المسيحية قد رجعت بالناس إلى الوراء من الناحية الأخلاقية ؛ غير أن كثيراً من أجزاء الإمبراطورية كانت فى عهد نيرڤا قد استمتعت بقرون كثيرة من الحضارة ، على حين أن العصور الوسطى تمثل فى معظم مداها كفاحاً بين المبادئ الأخلاقية المسيحية والهمجية القوية التى كانت تحمل إلى حد كبير المبادئ الأخلاقية لدين لم تهتم هى بتلقى تعاليمه . ولقد كان يسع البرابرة أن يسموا بعض رذائلهم فضائل تستلزمها أحوال زمانهم ؛ فعنفهم تطرف فى الشجاعة ،

وشهوانيتهم زيادة فى الصحة الحيوانية ، وخشونتهم وصراحتهم فى الحديث ، وعدم حيائهم إذا تحدثوا عن الأشياء الفطرية ليست شراً من الخفر المصطنع الذى ينطوى عليه شبابنا .

ولقد يكون من الأمور السهلة أن ندين مسيحية العصور الوسطى بالاعتماد على أقوال من كتبوا فى الأخلاق من أبنائها . فلقد كان القديس فرانسس يندب سوء أحوال القرن الثالث عشر ويصفه بأنه « زمان الخبث والظلم اللذين لا حد لهما[١٤٦] » ؛ وكان إنوسنت الثالث ، والقديس بوناڤنتورا ، وفنسنت البوڤيزى ، ودانتى يرون أن أخلاق ذلك « القرن العجيب » هى الفظاظة التى لا أمل فى إصلاحها ؛ وقال الأسقف جروستستى Grosseteste ، وهو من أكثر أحبار ذلك العصر حصافة ، للبابا « إن الكاثوليك فى جملتهم أحلاف الشيطان »[١٤٧] . وحكم روجر بيكن (١٢١٤ ؟ — ١٢٤٩) على العصر الذى يعيش فيه حكما متطرفا كعادته فقال :

لم يوجد قط ، ما يماثله فى الجهل . . . لأن فيه من الرذائل ، ما لا مثيل له فى أى عصر سابق ... فيه الفساد الذى لا حد له ... والعهر ... والنهم ... ومع هذا فإن لدينا التعميد ولدينا وحى المسيح . . . اللذين لا يستطيع الناس أن يؤمنوا بهما حق الإيمان أو يجلوهما حق الإجلال . . . وإلا لما سمحوا لأنفسهم بأن يقعوا فى هذا الفساد كله . . . ولهذا فإن كثيرين من العقلاء يعتقدون أن أوان المسيح الدجال قد آن ، وأن نهاية العالم قد اقتربت[١٤٩] .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه العبارات وأمثالها إنما هى مغالاة ضرورية يعمد إليها المصلحون ، وأن فى وسع الإنسان أن يجد أمثالها فى كل عصر من العصور .

ويبدو أن أثر خوف الجحيم فى رفع المستوى الخلقى كان أقل من أثر الرأى العام أو القانون فى أيامنا هذه أو فى ذلك الوقت ؛ ولكن جديراً بنا أن نذكر أن

المسيحية هى التى خلقت الرأى العام فى تلك الأيام ، وأنها هى التى أوجدت القانون إلى حد ما ؛ وأكبر الظن أنه لولا القانون الأخلاقى الذى خلقته المسيحية ، وما كان له من أثر ملطف ، لكانت الفوضى التى أوجدتها خمسة قرون من الغزو ، والحرب ، والتدمير والتخريب أشد مما كانت . ولقد يكون الباعث الذى حملنا على اختيار الأمثلة التى ذكرناها فى هذا الفصل هو التحيز غير المقصود ، فإن لم يكن فإن أحسن ما توصف به أنها جزئية غير وافية ؛ ذلك أن الإحصاءات معدومة وإن وجدت فهى غير موثوق بها ، ومن شأن التاريخ أن يسقط من حسابه على الدوام الرجل العادى . وما من شك فى أنه كان فى العالم المسيحى فى العصور الوسطى آلاف من السذج الأخيار أمثال أم الأخ سلمبين Salimbene التى يصفها بأنها : « سيدة متواضعة تقية مخلصة ، تكثر من الصوم ، ويسرها أن توزع الصدقات على الفقراء »[١٤٩] ؛ ولكن كم مرة نعثر فى صفحات التاريخ على مثيلات هذه السيدة ؟

ولقد كانت للمسيحية فى الأخلاق آثار رجعية وآثار تقدمية معاً . فلقد كان من الطبيعى أن تضمحل الفضائل الذهنية فى عصر الإيمان ؛ وحلت الغيرة والحماسة ، والإعجاب بالصلاح والطهارة ، والتقوى غير المستندة إلى الضمير ، فى بعض الأحيان ، حلت هذه محل الذمة العقلية (النزاهة فى النظر إلى الحقائق) والبحث عن الحقيقة . وبدا للناس أن « الأكاذيب التقية » الممثلة فى تبديل النصوص ، وتزوير الوثائق آثام عرضية بسيطة يتجاوز عنها . وتأثرت الفضائل المدنية بقصر الاهتمام على الحياة الآخرة ، وتأثرت أكثر من هذا بانحلال الدولة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أن حب الوطن ، مهما يكن حبا محليا ، لم ينعدم من قلوب الرجال والنساء الذين شادوا هذه الكنائس الكبرى الكثيرة ، وبعض الأبهاء العظيمة فى المدن . ولعل النفاق ، الذى هو من مستلزمات الحضارة ، قد زاد فى العصور الوسطى ، إذا نظرنا إليه فى ضوء نزعة القدماء الدنيوية الصريحة ،

أو الوحشية الجماعية السافرة التى نشاهدها فى هذه الأيام .

على أن هذه الرذائل وغيرها تقابلها كثير من الفضائل . فلقد كافحت المسيحية ببسالة وإصرار سيل الهمجية القوى الجارف ؛ وبذلت جهوداً جبارة لتقليل الحروب والمنازعات ، والالتجاء إلى القتال والتحكيم الإلٰهى فى المحاكمات ؛ وأطالت فترات الهدنة والسلام ؛ وسمت بعض السمو بعنف الإقطاع ومنازعاته فجعلتهما وفاء وفروسية ؛ وقاومت القتال فى المجتلدات ، ومنعت استرقاق المسجونين ، وحرمت اتخاذ المسيحيين عبيداً ، وافتدت عدداً لا حصر له من الأسرى ، وعملت على تحرير أرقاء الأرض أكثر مما عملت على استخدامهم فى أراضيها ، وغرست فى النفوس احتراما جديداً للحياة والأعمال البشرية ، وحرمت وأد الأطفال ، وقللت من الإجهاض ، وخففت أنواع العقاب التى كان يفرضها القانون الرومانى وقانون القبائل المتبربرة ؛ ولم تقبل مطلقاً أن يكون مستوى الأخلاق عند النساء مختلفاً عنه عند الرجال ؛ ووسعت مجال الصدقات وأعمالها ، ووهبت الناس طمأنينة عقلية وسط ألغاز العالم المحيرة للعقول ، وإن كانت بعملها هذا قد ثبطت البحوث العلمية والفلسفية . وآخر ما نذكره لها أنها علمت الناس أن الوطنية إذا لم يقاومها ولاء أسمى منها تصبح أداة للشره والنهم الجماعيين . وقد فرضت على جميع المدن والدول الصغرى الأوربية المتنافسة قانوناً أخلاقيا واحداً ، وحافظت عليه ؛ واستطاعت أوربا بهديها ، وبشىء من التضحية التى لا بد منها ببعض حريتها ، أن تستمتع مدى قرن من الزمان بالمبادئ الأخلاقية الدُّوَلية التى تتمناها وتكافح من أجلها فى هذه الأيام — نعنى بها أن يكون لها قانون يخرج الدول من قانون الغابة ، ويوفر على الناس جهودهم لينفقوها فى معارك السلام وانتصاراته .

الباب الحادى والثلاثون

بعث الفنون

١٠٩٥ — ١٣٠٠

الفصل الأول

يقظة حاسة الجمال

ترى لأى سبب بلغت أوربا الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر درجة عليا فى الفنون تضارع ما بلغته أثينة فى عصر بركليز وروما فى عهد أغسطس ؟

الحق أن لهذه النهضة الفنية أسباباً كثيرة . لقد صدت أوربا غارات أهل الشمال وغارات العرب ؛ ولقد بعثت الحروب الصليبية فى نفوس أهلها نشاطا مبدعاً قوياً ، وجاءت إلى أوربا بألف فكرة وفن من الشرق البيزنطى والإسلامى . ونشأت من إعادة فتح البحر المتوسط وفتح المحيط الأطلنطى لتجارة الأمم المسيحية ، ومن الأمن والتنظيم اللذين استمتعت بهما التجارة المنقولة فى أنهار فرنسا وألمانيا ، والبحار الشمالية ، واتساع نطاق الصناعة والشئون المالية ، نقول نشأت من هذا كله ثروة لم تعرفها أوربا منذ أيام قسطنطين ، وقامت فيها طبقات جديدة فى مقدور كل منها أن تساعد الفن بالمال ، ومدن غنية ذات حكم ذاتى تعمل كل منها جاهدة لكى تشيد كنيسة كبرى أجمل من آخر كنيسة فيها . وكانت خزائن رؤساء الأديرة ، والأساقفة ، والبابوات تفيض بالمال الذى يأتيها من العشور وعطايا التجار ، وهبات النبلاء والملوك . وكانت حركة تحطيم الصور

قد قضى عليها ، ولم يعد الفن يومم كما كان يومم من قبل بأنه عودة إلى عبادة الأصنام ؛ ووجدت فيه الكنيسة ، التى كانت من قبل تخشاه ، وسيلة نافعة تغرس بها عقائدها ومثلها العليا فى نفوس غير الجهلاء ، وتبث فيها ذلك الورع الذى جعلها ترفع الأبراج إلى السماء كأنها أدعية وأوراد صاعدة إلى عرش الله . يضاف إلى هذا أن دين مريم الجديد ، المنبعث من قلوب الناس من تلقاء نفسه ، قد أفرغ ما ينطوى عليه من حب وثقة فى معابد فخمة يستطيع آلاف من أبنائها أن يجتمعوا فيها دفعة واحدة يقدمون لها فروض الولاء ويطلبون إليها العون . لقد اجتمعت هذه المؤثرات وأخرى كثيرة لتغمر نصف قارة من الأرض بسيل جارف من الفن لم يسبق له مثيل .

وكانت الفنون قد بقيت فى أماكن متفرقة لم تقض عليها أعمال البرابرة المخربة ، ولم يمح معالمها ما طرأ على البلديات من ضعف وانحلال ، فالمهارات القديمة التى اشتهر بها أهل الإمبراطورية الشرقية لم تضع قط ؛ وكانت بلاد الشرق اليونانية وإيطاليا البيزنطية هى البلاد التى دخلت منها كثرة الفنانين والموضوعات الفنية فى حياة الغرب الذى بعث من جديد . ولقد أدخل شارلمان فى خدمته فنانين يونان فروا من وجه محطمى الصور البيزنطيين ، وهذا هو الذى جعل فن آخن يقرن الرقة والنزعة الصوفية البيزنطية بالصلابة والنزعة الدنيوية الألمانية . وبدأ رهبان دير كلونى الفنانون فى القرن العاشر عهداً جديداً فى فن العمارة الغربية وزينتها ، وكان أول ما فعلوه أن نقلوا النماذج البيزنطية . وكان معلمو مدرسة فن الأديرة التى أقامها فى منتى كسينو Mante Cassino الرئيس دزدريوس Abbot Desederius (١٠٧٢) من اليوناس يسيرون على الأساليب البيزنطية ؛ ولما أراد هونويوس الثالث (١٢١٨) أن يزين جدران سان بولو بالنقوش الجدارية بعث بطلب صناع نقوش الفسيفساء من البندقية ، وكان الذين جاءوا متشبعين بالتقاليد البيزنطية . وكان من المستطاع وجود جاليات من الفنانين البيزنطيين فى كثير من

المدن الغربية ؛ وكان طرازهم فى التصوير هو الذى شكل طراز دوتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue وطراز چيتو Giotto نفسه فى بداية عهده . وجاءت الموضوعات البيزنطية أو الشرقية – كالنقوش المركبة من خوص النخل أو ما يشبهه ، وأوراق الأقنتا(*) ، والحيوانات التى فى داخل الرصائع – جاءت هذه الموضوعات إلى بلاد الغرب على المنسوجات ، وعلى العاج ، وعلى المخطوطات المزخرفة ، وعاشت مئات السنين فى طراز النقوش الرومانى . وعادت أشكال العمارة السورية ، والأناضولية ، والفارسية – العقد ، والقبة ، والواجهة المحوطة بالأبراج ، والعمود المركب الجامع لعدة طرز مختلفة ، والشبابيك المجتمعة مثنى أو ثلاثاً تحت قوس يربطها – عادت هذه الأشكال إلى الظهور فى عمارة الغرب . ألا إن التاريخ لا يعرف الطفرات ولا شىء قط يضيع .

وكما أن تطور الحياة يتطلب الاختلاف كما يتطلب الوراثة ، وكما أن تطور المجتمع يحتاج إلى التجديد التجريبى وإلى العادة التى تعمل على الاستقرار ، كذلك لم يكن تطور الفن فى أوربا الغربية يتضمن استمرار التقاليد القديمة فى المهارات والأشكال ، والحافز الناشئ من المُثُل البيزنطية الإسلامية ، بل كان يتضمن بالإضافة إلى هذا عودة الفنان المرة بعد المرة من المدرسة الفنية التى ينتمى إليها إلى الطبيعة ، ومن الأفكار إلى الأشياء ، ومن الماضى إلى الحاضر ، ومن تقليد النماذج إلى التعبير عن الذات . لقد كان من خصائص الفن البيزنطى القتام المقبض والسكون ، ومن خصائص النقش الغربى الرشاقة الهشة النسائية ، وليس فى مقدور هذه الصفات أن تمثل ما فى الغرب وقتئذ من رجولة حيوية ، وما عاد إليه من نزعة همجية ، ونشاط قوى . وكانت الأمم الخارجة من العصور المظلمة إلى ضياء القرن الثالث عشر تفضل رشاقة نساء چيتو النبيلة عن صور ثيودور الجامدة

(*) ويسمى أيضاً شوكة اخملى أو شوك اليهود أو الكنكر وهو نبات شوكى اتخذت رسوم أوراقه فى الزينة المعمارية . (المترجم)

المنقوشة فى الفسيفساء البيزنطية ؛ وتسخر من خوف السامين من الصور والتماثيل ؛ ولهذا حولت الزخارف المحضة إلى صور الملاك الباسم التى تشاهد فى كنيسة ريمس الكبرى ، وإلى صورة العذراء الذهبية فى أمين Amiens ؛ وهكذا غلبت بهجة الحياة خوف الموت فى الفن القوطى .

وكان الرهبان هم الذين حافظوا على الأساليب الفنيـــة فى الفن الرومانى ، واليونانى ، والشرقى ، ونشروها ، كما حافظوا على الآداب اليونانية والرومانية القديمة . ذلك أن الأديرة لحرصها على أن تستقل بذاتها دربت النازلين فيها على فنون الزخرفة كما دربتهم على الحرف العملية . فقد كانت كنيسة الدير تتطلب مذبحا ، وأثاثاً للمحراب ، وكأساً للقربان ، وصندوقا وعلبا لحفظ المخلفات ، وأضرحة ، وكتباً للصلاة ، وماثلات ؛ وقد تتطلب نقوشا من الفسيفساء ، وصوراً على الجدران ، وتماثيل وصوراً تبعث التقى فى القلوب ، وكان الرهبان يصنعون معظم هذا بأيديهم ؛ بل إنهم هم الذين يخططون الدير ويبنونه ، كما فعل البندكتيون بدير مونتى كسينو الذى لا يزال قائما إلى اليوم شاهداً على ما بذلوه فى بنائه من جهود . وكانت فى معظم الأديرة مصانع واسعة ؛ مثال ذلك أن برنارد تيرون Bernard de Tiron أنشأ بيتاً دينيا جمع فيه على ما يقولون « صناعا فى الخشب والحديد ، ونحاتين ، وصائغين ، ونقاشين ، وبنائين ... وغيرهم من العمال الحاذقين جميع الأعمال الدقيقة »[1] . ولقد كانت المخطوطات المزخرفة التى كتبت فى العصور كلها تقريباً من عمل الرهبان ، وكانت أرق المنسوجات من صنع أيدى الرهبان ، والراهبات ، وكان المهندسون المعماريون الذين شادوا الكنائس على الطراز الرومانى فى عهدها الأول رهبانا[2] ، وأمد دير كلونى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر وبداية القرن الثانى عشر بالمهندسين المعماريين وبكثير من المصورين والمثالين[3] ؛ وكان دير القديس دنيس فى القرن الثالث عشر مركزاً جم النشاط لمختلف الفنون ؛ بل إن أديرة السسترسيين نفسها ، وهى التى أوصدت أبوابها دون أعمال الزخرفة فى

أيام برنار اليقظ ، سرعان ما استسلمت لمغريات الأشكال وبهجة الألوان ، وشرعت تبنى أديرة لا تقل فى زينتها عن دير كلونى أو دير القديس دنيس ؛ وإذ كانت الكنائس الإنجليزية الكبرى فى العادة كنائس أديرة ، فإن رجال الدين النظاميين أو الرهبان ظلوا إلى آخر القرن الثالث عشر أصحاب السيطرة على عمارة الكنائس فى إنجلترا ؛

لكن الدير ، مهما بلغ من صلاحيته لأن يكون مدرسة وملجأ للروح ، مقضى عليه بسبب عزلته أن يكون مستودعا للتقاليد لا مسرحا للتجارب الحية ، فهو أصلح للحفظ منه للابتكار ؛ ولم تجد حياة العصور الوسطى التعبير الخصب الغزير فى أشكال لم تمل التكرار ، وصلت بالفن القوطى إلى درجة الكمال ، لم تجد تلك الحياة هذا التعبير إلا بعد أن أمدت المطالب الواسعة لذوى الثراء من غير رجال الدين الفنون الدنيوية بحاجتها من الغذاء . ثم تجمع العلمانيون المتخصصون المحررون فى إيطاليا أولا ، ثم تجمعت كثرتهم فى فرنسا وقلتهم فى إنجلترا ، فى نقابات الحرف ، وانتزعوا الفنون من أيدى معلمى الأديرة وصناعها ، وشادوا هم الكنائس الكبرى .

الفصل الثانى

زينــة الحياة

ومع هذا فإن راهباً هو الذى كتب أكمل وأوضح موجز فى فنون العصور الوسطى وحرفها ، ذلك هو ثيوفيلس Theophilus — حبيب الله — الراهب فى دير هلمرزشوزن Helmershausen القريب من پادربورن Paderborn والذى كتب حوالى عام ١١٩٠ موجزاً فى مختلف الفنون يقول فيه :

ثيوفلس ، القس الوضيع . . . يوجه كلماته إلى كل من يرغب فى أن ينفض عنه كل غبار الكسل وشرود الروح . . . بالعمل اليدوى النافع ، وبالتفكير السار فيما هو جديد . . . (هنا يجد الناس) كل ما عند بلاد اليونان من ألوان ومركبات مختلفة ، وكل ما عرفته تسكانيا من فنون الميناء . . . وكل ما تستطيع بلاد العرب أن تعرضه من الأعمال التى تتطلب الليونة ، والصهر ، والنقش ، والحفر ، وكل المزهريات الكثيرة والجواهر المحفورة ، والعاج الذى تزينه إيطاليا بالذهب ، وكل ما تقومه إيطاليا من أنواع الشبابيك المختلفة الغالية ، وكل ما يثنى عليه الناس من أعمال الذهب ، أو الفضة ، أو النحاس ، أو الحديد ، أو العمل الدقيق فى الخشب أو الحجر ،

فها نحن أولاء فى هذه الفقرة نشهد ناحية أخرى من نواحى عصر الإيمان ، نشهد رجالا ونساء ، ونشهد بنوع خاص رهباناً وراهبات ، يعملون لإشباع الرغبة الغريزية فى التعبير ، ويجدون متعة فى التناسب ، والتناسق ، والأشكال ، ويحرصون على أن يجعلوا النافع جميلا . ولقد كانت أهم ما تحتويه المناظر التى صوّرت فى العصور الوسطى صوراً للرجال والنساء وهم يعملون ، وإن غلبت عليها

النزعة الدينية ، وكان الغرض الأول والأساسي الذي يهدف إليه فنهم هو تجميل أعمالهم ، وأجسامهم ، وبيوتهم . وكان آلاف من صناع الخشب يستخدمون السكين ، والمثقب ، والأزميل المقعر ، والمنحت ، ومواد الصقل ، لحفر النضد ، والكراسي ، والمقاعد ، والصناديق ، والعلب ، والخزائن ، وأعمدة الدرج ، والوزرات ، والأسرّة ، والأصونة ، وخزانات الطعام والشراب ، والصور والتماثيل المقدسة ، وأجزاء المذابح الكنسية ، وأماكن المرتمين . . . وتزيينها بما لا يحصى من أنواع الأشكال والموضوعات ، بارزة وغير بارزة ، وكثيراً ما كانوا يضفون عليها الفكاهات الخبيثة التي لاتعرف الفوارق بين ما هو مقدس وما هو دنس . وفي وسعنا أن نجد على الخناجر أشكالا للبخلاء ، والنهمين ، والثرثارين ، والحيوانات والطيور الغريبة ذات الرءوس الآدمية . وكان ناحتو الخشب من أهل البندقية يصنعون في بعض الأحيان براويز أجمل من الصور التي في داخلها وأعظم منها قيمة ، وفي القرن الثاني عشر بدأ الألمان في صناعة حفر الخشب العجيبة التي أضحت من الفنون الكبرى في القرن السادس عشر(*) .

ولم يكن الذين يعملون في المعادن أقل شأناً من العاملين في الخشب . فقد كانوا يصنعون الحديد المشغول الرشيق للنوافذ ، والأفنية ، والأبواب الخارجية ، والمفصلات قوية تمتد في عرض الأبواب الضخمة ذات أشكال نباتية متنوعة (كالتي نشاهدها في كنيسة نتردام Notre Dame في باريس) ، وكان مايصنع منه لمقاعد المرتمين في الكنائس الكبرى « صلباً كالحديد » ورقيقاً كالمخرمات . وكان الحديد ، أو البرنز ، أو النحاس يصهر أو يطرق لتصنع منه أجمل المزهريات ، والقدور ، والأباريق ، والماثلات ، والمباخر ، والعلب ، والمصابيح ؛ وكانت صفائح البرنز تغطي كثيراً من أبواب الكنائس . وكان صناع الأسلحة يحبون أن

(*) انظر سورة « الصلّب » الباقية من القرن الثاني عشر في متحف هلير ستادت أو تمثال چيمس الأصغر James the Less الباقي من القرن الثالث عشر والمحفوظ بالمتحف الفني في نيويورك .

يضفوا شيئاً من الزينة على السيوف وأغمادها ، والخوذ ، والتروس والدروع ؛ وحسبنا شاهداً على مقدرة صناع المعادن الألمان الثريا البرنزية الضخمة التى أهداها فردريك الثانى لكنيسة آخن الكبرى ، وعلى مقدرة أمثالهم الإنجليز الماثلة البرنزية الضخمة (المصنوعة حوالى ١١٠٠) المنقولة من جلوسستر Gloucester والمحفوظة فى متحف فكتوريا وألبرت Victoria and Albert Museum ؛ وإن ولع صناع العصور الوسطى بأن يجعلوا من أبسط الأدوات تحفاً فنية ليتجلى فى مزاليج الأبواب ، وأقفالها ومفاتيحها ؛ وحتى دوارات الهواء نفسها قد عنوا بزخرفتها بالنقوش الجميلة التى لا تستطاع رؤيتها إلى بالمرقب .

وازدهرت فنون المعادن النفيسة والأحجار الكريمة وسط مظاهر الفاقة العامة ، فقد كان للملوك المروفنجيين صحاف من الذهب ، وقد جمع شارلمان فى آخن كنزاً من المصنوعات الذهبية . وكانت الكنيسة تحس ، ومن حقها أن نغفر لها هذا الإحساس ، أنه إذا كان الذهب والفضة يزينان موائد الأشراف وأصحاب المصارف ، فإن من الواجب أن يسخرا أيضاً لخدمة ملك الملوك . ولهذا صنعت بعض المذابح من الفضة المنقوشة ، وبعضها من الذهب المنقوش ، كما نشاهد فى كنيسة القديس أمبروز St. Anbrose بميلان وفى كنيستى پستويا Pistoia وبازل . وكان الذهب هو المعدن الذى تصنع منه عادة الحُقـَّةُ التى يوضع فيها الخبز المقدس ، ويصنع منه الوعاء الذى يعرض فيه على المؤمنين ليعظموه ، والكأس التى تحتوى النبيذ المقدس ، والعلب التى تحفظ فيها المخلفات المقدسة . ولقد كانت هذه الآنية فى كثير من الأحيان أجمل صنعا من أغلى الكؤوس التى تهدى للفائزين فى المباريات فى هذه الأيام . وكان الصياغ فى أسپانيا يصنعون الخيام البديعة التى يحمل فيها الخبز المقدس أثناء سير موكبه فى الشوارع . وفى باريس استخدم الصائغ بنار Bonnard (١٢١٢) ١٥٤٤ أوقية من الفضة وستين أوقية من الذهب ليصنع منها ضريحاً لعظام القديس چنيڤييڤ Genevieve . وحسبنا دليلا على

اتساع مجال فنون الصياغة الفصول التسعة والسبعون التى خص بها ثيوفيلس هذا الفن فى كتابه . فيها نجد أن كل صائغ فى العصور الوسطى كان ينتظر منه أن يكون هو وقلينى Cellini سواء — يصهر ، وينحت ، ويطلى بالميناء ، ويركب الجواهر ، ويطعم . وكان فى باريس فى القرن الثالث عشر نقابة قوية للصياغ وتجار الجواهر ، وذاعت منذ ذلك الحين شهرة قاطعى الجواهر الباريسيين فى عمل الجواهر الصناعية(٥) . وكانت الأختام التى يبصم بها الأغنياء الشمع الموضوع على رسائلهم أو مظاريفها تصمم وتحفر بعناية فائقة ؛ وكان لكل رئيس دينى خاتم رسمى ، وكان كل رجل ظريف أو متظرف يتباهى بخاتم ، إن لم يتباهَ بأكثر من خاتم ، فى يده . ألا إن الذين يقدمون لبنى الإنسان أسباب غرورهم قلما يعدمون قوتهم .

وكانت النقوش البارزة الصغيرة على المواد الثمينة شائعة بين الأغنياء . وكان لهنرى الثالث ملك إنجلترا نقش من هذا النوع قدرت قيمته بمائتى جنيه (٤٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، وجاء بولدوين الثانى بنقش أعظم من هذا قيمة من القسطنطينية ليضعه فى سنت شابل Sainte Chapelle بباريس . وكان العاج يحفر بأعظم عناية ويبذل فى حفره جهد كبير طوال العصور الوسطى ، وتصنع منه أمشاط ، وعلب ، ومقابض ، وقرون للشرب ، وتماثيل مقدسة ، وجلود للكتب ، ومحافظ لأوراق الكتابة مزدوجة الثنايا أو مثلثها ، وعصى ، وصوالج الأساقفة ، وعلب وأضرحة ... وفى متحف اللوفر مجموعة من الأدوات العاجية من مخلفات القرن الثالث عشر تقرب من الكمال قربا يثير الدهشة ، وتمثل النزول عن الصليب . وقد غلب الخيال وغلبت الفكاهة على التقى فى أواخر هذا القرن ، فظهرت فى بعض الأحيان نقوش دقيقة لمناظر غاية فى الدقة فى بعض الأحيان على علب المرايا وصناديق الزينة المعدة للنساء اللاتى لا يستطعن أن يعكفن على التقى فى جميع الأوقات .

وكان العاج إحدى المواد التى استخدمت للتطعيم ، وهو الذى يسميه الإيطاليون intarsia (وهى كلمة مشتقة من اللفظ اللاتينى interserere ومعناه يدخل أو يحشر) ويسميه الفرنسيون تلبيساً Marquetry (من Marquer أى يعلم) . وكان الخشب نفسه يطعم به غيره من أنواع الخشب : كأن يحفر رسم فى قطعة من الخشب ثم تدخل فيها قطع من خشب آخر وتضغط وتغرى فى مواضع الحفر . وكان من أدق الفنون فى العصور الوسطى عمل الميناء السوداء (النيلو Niello من اللفظ اللاتينى Nigellus أى أسود)— فكان السطح المعدنى يحفر ويطعم بعجينة سوداء مكونة من مسحوق الفضة ، والنحاس ، والكبريت ، والرصاص ؛ فإذا جفت العجينة بُرِد سطحها حتى تلمع الفضة التى فى المزيج . وقد اصطنع فنجويرا Finiguerra من هذا الفن فى القرن الخامس عشر صناعة النقش على ألواح النحاس .

وقامت صناعة الخزف مرة أخرى من صناعة الفخار حينما أيقظ الصليبيون العائدون من الشرق أوربا من العصور المظلمة . وجاءت صناعة الميناء ذات الحزوز إلى بلاد الغرب من بيزنطية فى القرن الثامن . ولدينا من القرن الثانى عشر لوحة مصورة تمثل يوم الحساب(*) ، حفرت فيها الأجزاء المحصورة بين خطوط الشكل المرسوم على أرضية من النحاس ثم ملئ الفراغ بعجينة الميناء . وكانت مدينة ليموج Limoge الفرنسية تصنع الآنية المطعمة بالميناء منذ القرن الثالث ، فلما كان القرن الثانى عشر أضحت هى المركز الرئيسى فى غربى أوربا لصناعة الميناء ذات الحزوز والميناء المصبوبة فوق النحاس . وكان الفخرانيون المسلمون فى أسپانيا المسيحية فى القرن الثالث عشر يغطون الآنية بطبقة لامعة من القصدير لا ينفذ فيها الضوء ، أو من الميناء ، ويتخذونها قاعدة

(*) وهى الآن فى متحف فكتوريا وألبرت .

للزخارف المصورة ؛ وفى القرن الخامس عشر استورد التجار الإيطاليون هذه الآنية من أسبانيا فى سفن مملوكة لأهل جزيرة ميورقة وسموا هذه الآنيـــة ميوليقة ، فاستبدلوا بحرف r حرف l على طريقتهم فى الترخيم .

وعاد فن الزجاج ، الذى كاد يبلغ حد الكمال فى رومة القديمة ، إلى مدينة البندقية من مصر وبيزنطية ؛ فنحن نسمع منذ عام ١٠٢٤ لا بعد عن اثنى عشر مصنعاً فى تلك المدينة ، بلغ من تنوع منتجاتها أن بسطت الحكومة حمايتها على هذه الصناعة . واقترحت أن يطلق على صانعى الزجاج اسم « السادة » . وفى عام ١٢٧٨ نقل صناع الزجاج إلى حى خاص فى جزيرة مورانو **Murano** ليكونوا هناك آمنين من جهة ، وللاحتفاظ بسرية الصناعة من جهة أخرى . وسنت قوانين صارمة تحرم على صناع الزجاج الانتقال إلى خارج الجزيرة أو الكشف عما فى هذه الصناعة من أسرار خفية . وظل البنادقة أربعة قرون يسيطرون من هذه البقعة الأرضية الضيقة على فن الزجاج وصناعته فى العالم الغربى ، وارتقى فنا طلاء الزجاج بالميناء وتذهيبه ؛ وكانت أليڤو ده ڤينزيا **Olivo de Venezia** تصنع منسوجات من الزجاج ؛ كما كانت مورانو تخرج مقادير كبيرة من الفسيفساء والخرز ، والقنينات ، والأكواب ، وأدوات المائدة ، المصنوعة كلها من الزجاج ، بل كانت تخرج مرايا زجاجية أخذت فى القرن الثالث عشر تحل محل المرايا المصنوعة من الصلب المصقول . وكانت فرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا تصنع هى الأخرى زجاجاً فى هذه الفترة ذاتها ، ولكنه كان يستخدم كله تقريباً فى الأغراض الصناعية ، ما عدا الزجاج الملون البراق الذى كان يستخدم فى الكنائس الكبرى .

وكانت النساء على الدوام يُغمط فضلهن فى تاريخ الفن فلا ينلن ما هن خليقات به من التقدير . إن الزينة الشخصية والمنزلية من العناصر الجليلة الشأن فى فن الحياة ، ولقد هيأت أعمال النساء فى تصميم الأزياء ، وزينتها الداخلية ،

وزخرفها ، ونسجها ، والتصوير عليها ، هيأت أعمالهن فى هذا أكثر مما هيأت معظم الفنون من أسباب المتعة غير لحسة التى نستمدها من وجود الأشياء الجميلة الصامتة معنا أو بالقرب منا . وكان للمنسوجات الرقيقة المغزولة بحذق وعناية ذات المنظر الجميل والملمس اللطيف قيمة عالية فى عصر الإيمان ؛ فقد كانت تغطى مذابح الكنائس ، ومخلفات الأولياء ، والآنية المقدسة ، ويرتديها القساوسة ، وأفراد الطبقة الراقية فى المجتمع رجالا كانوا أو نساء . وكانت هذه المنسوجات نفسها تلف فى ورق ناعم لطيف رقيق ، اشتق اسمه من اسمها فسمى « ورق النسيج » واستطاعت فرنسا وانجلترا فى القرن الثالث عشر أن تنزلا القسطنطينية عن عرشها بوصفها أكبر منتج للتطريز الفنى ؛ فنحن نسمع فى عام ١٢٥٨ عن نقابات المطرزين فى باريس ؛ ويحدثنا ماثيو باريس Matthew Paris تحت عنوان سنة ١٢٤٦ أن البابا إنوسنت الرابع ذهل حين رأى الأحبار الإنجليز الذين زاروا رومة يرتدون ملابس مطرزة بالذهب وأمر أن تصنع مثل هذه الزخارف الإنجليزية الفخمة لحرامله وحلله التى يلبسها فى أوقات القداس . وكانت بعض ملابس رجال الدين مثقلة بالجواهر ، وخيوط الذهب ، واللوحات المصورة المصنوعة من الميناء إلى حد يصعب عليهم معه المشى وهم يرتدونها[٦] ؛ ولقد اشترى ثرى أمريكى ثوباً كهنوتياً يعرف باسم حبريه أسكولى Cope of Ascoli[*] بستين ألف دولار . وكان أشهر ثوب مطرز فى العصور الوسطى هو « ثوب شارلمان الدلماشى » وكان . الاعتقاد السائد أنه صنع فى دلماشيا ، ولكن يغلب على الظن أنه صنع فى القسطنطينية فى القرن الثانى عشر ، وهو الآن من أثمن التحف فى كنوز الفاتيكان .

(*) ولما عرف أنها مسروقة أعادها إلى الحكومة الإيطالية ، واكتفى بمدلاة جزاة له على أمانته .

وحلت السجف أو الأقمشة المطرزة التي تزين بها الجدران محل الصور الملونة في فرنسا وإنجلترا ، وبخاصة في الأبنية العامة . وكان يحتفظ بعرضها كاملة لأيام الأعياد ، فكانت في تلك الأيام تعلق تحت العقود بين أعمدة الكنائس ، وفي الشوارع ، وعلى القوارب في المواكب ؛ وكانت تنسج عادة من الصوف أو الحرير بأيدي « المُتْعَبات » أي الوصيفات اللاتي يخدمن قصور سادة الإقطاع تحت إشراف أمينة القصر . وكان عدد كبير منها تنسجه الراهبات ، وبعضه ينسجه الرهبان . ولم تكن المنسوجات التي تزدان بها الجدران تطاول الصور الدقيقة الملونة في جمالها ؛ وكان يقصد بها أن ترى عن بعد ، وكان يضحى فيها بدقة الخطوط والظلال في سبيل وضوح الصورة ولألاء اللون وثباته . وكان يقصد بها تخليد ذكرى حادثة تاريخية أو قصة خيالية ذائعة الصيت ، أو تفريج هم من في داخل البيوت بتمثيل المناظر الطبيعية ، أو الأزهار ، أو البحر . وقد ورد ذكرها في فرنسا منذ القرن العاشر ، ولكن أقدم نموذج لها باق إلى اليوم لا يكاد يرجع عهده إلى ما قبل القرن الرابع عشر . وكانت فلورنس في إيطاليا ، وشنشيلا في أسبانيا وبواتييه ، وأراس ، وليل في فرنسا ، تتزعم مدائن الغرب في فن أقمشة الجدران والطنافس . هذا وليست أقمشة بايو Bayeux الذائعة الصيت في العالم كله من نوع هذه الأقمشة إذا أردنا الدقة في التعبير ، لأن النقوش التي عليها مطرزة على سطحها وليست جزءاً من النسيج . وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى كنيسة بايو التي ظلت تحتفظ بها زمناً طويلا ؛ وتعزوها الرواية المتواترة إلى ماتلدة زوجة وليم الفاتح وإلى السيدات اللاتي كن في بلاط ملوك النورمان ؛ ولكن العلماء الذين لا يبالون بإغضاب كرائم العقائل يفضلون أن يعزوها إلى صناع غير معلومين ، وإلى عصر أحدث من عصر وليم (٨) . وهذه الزينات تُنَافس المؤرخين الإخباريين في كونها مصدراً من مصادر الفتح النورماندي . فقد نقش على قطعة من نسيج التيل الأسمر ، عرضها تسع عشرة بوصة وطولها إحدى وسبعون ياردة ،

ستون منظراً تصور على التوالى الاستعداد إلى الغزو ، وسفائن النورمان تشق القناة الإنجليزية بجآجئها العالية المصورة ، ومعركة هيستنج الوحشية ، وهارولد Harold يتلقى الطعنة ويموت ، وهزيمة الجنود الأنجليسكسون وتبدد شملهم ، وانتصار القوة المباركة . وهذه الأغطية أمثلة من أعمال التطريز الناطقة بالصبر الطويل ، ولكنها ليست من أجمل ما صنع من نوعها ؛ وقد اتخذها نابليون فى عام ١٨٠٣ وسيلة يثير بها الفرنسيين إلى غزو إنجلترا(٩) ، ولكنه نسى أن يستعين على هذا الغزو ببركة الآلهة .

الفصل الثالث

التصـــوير

١ – الفسيفساء

اتخذ فن التصوير فى عصر الإيمان ثلاثة أشكال رئيسية : الفسيفساء ، والتحلية الصغيرة للكتب ، والصور الجدارية ، والزجاج الملون .

فأما فن الفسيفساء فكان وقتئذ فى عهد الشيخوخة ، ولكنه كان فى خلال الألفى عام التى مرت عليه قد أثمر كثيراً من الدقة ؛ فقد كان صانعوه ، إذا أرادوا عمل الأرضية الذهبية التى يحبونها حباً جماً ، يلقون ورقة رقيقة من الذهب حول مكعبات من الفضة ، ويغطون هذه الورقة بغشاء رقيق من الزجاج ليمنعوا تلوث الذهب وقتامه ، ثم يضعون المكعبات المذهبة فى سطوح غير مستوية بعض الشىء ليمنعوا بذلك بريق السطوح . وكان الضوء ينعكس من هذه المكعبات فى زوايا مختلفة وبذلك يكسب القطعة كلها نسيجاً حياً .

وأكبر الظن أن فنانين بيزنطيين هم الذين غطوا القباء الشرقى فى إحدى الكنائس القديمة فى ترشلو Torcello — وهى جزيرة صغيرة قريبة من البندقية — وجدارها الشرقى بنقوش من الفسيفساء تعد من أروع ما خلفته العصور الوسطى(١٠) . وتمتد أعمال الفسيفساء فى كنيسة القديس مرقص على مدى سبعة قرون ، وتمثل أنماطها تلك القرون السبعة ؛ فقد أمر الدوج دمنيكو سلفو Domenico Selvo بعمل أولى نقوش الفسيفساء الداخلية فى عام ١٠٧١ ؛ ويظن أنه استخدم فى هذا العمل فنانين بيزنطيين ؛ كذلك تمت فسيفساء عام ١١٥٣ تحت إشراف فنانين بيزنطيين ؛ ولم يكن للفنانين الإيطاليين الشأن الأكبر فى

تزيين كنيسة القديس مرقس بالفسيفساء قبل عام ١٤٥٠ ؛ وإن الرسم الفسيفسائى المنقوش فى القبة الوسطى فى القرن الثانى عشر ، والذى يمثل صعود المسيح لهو أسمى ما بلغه هذا الفن ، ويقرب منه فى روعته النقش الفسيفسائى الذى يمثل يوسف والموجود فى قبة البهو . ولقد ظل النقش الفسيفسائى الرخامى الموجود فى طوار الكنيسة مدى سبعمائة عام يقاوم خطى بنى الإنسان .

وفى الطرف الآخر من إيطاليا اتحد الفنانون اليونان والمسلمون فى صنع آيات النقش الفسيفسائى فى صقلية النورمانية — فى الكاپلا پلاتينا Capella Palatina وفى كنيسة مرترانا Martorana بمدينة پالرم Palermo ، وفى دير منريال Monreale وكنيسة كفالو Cefalu (١١٤٨) . وربما كانت حروب البابوية التى شبت نارها فى القرن الثالث عشر قد عاقت تقدم الفن فى رومة ؛ ولكن نقوشاً فسيفسائية متألقة صنعت فى ذلك القرن لتزدان بها كنائس سانتا ماريا مجيورى Santa Matia Maggiore ؛ وسانتا ماريا فى ترستفيرى Trastevere والقديس يوحنا فى لاتران « والقديس بولس خارج الجدران » . وكان فنان إيطالى هو الذى وضع تصميم النقش الفسيفسائى لكنيسة التعميد فى فلورنس ، ولكن هذا النقش لا يبلغ من الروعة ما بلغته أعمال الفنانين اليونان فى البندقية أو صقلية . وكان لدير سوجر فى سانت دنيس (١١٥٠) أرضية فسيفسائية فخمة احتفظ ببعض أجزائها فى متحف كلونى ؛ وإن طوار دير وستمنستر (حوالى عام ١٢٨٨) لمزيج من الظلال الفسيفسائية يثير الدهشة والإعجاب . غير أن فن الفسيفساء لم يزدهر قط فى شمال جبال الألب ، فلقد طغى عليه فى تلك البلاد الزجاج الملون كما طغت عليه فى إيطاليا نفسها حتى كادت تخرجه منها الصور الجدارية حين أقبل على هذا الفن دتشيو Duccio وسيمابيو Cimabue ، وچيتو .

٢ — نقوش المخطوطات

ظل تزيين المخطوطات بالرسوم والنقوش الصغيرة بالفضة المذابة والذهب المذاب ، وبالمداد الملون ، فناً محبوباً يوائم تقوى الأديرة وجوها الهادئ . وقد بلغ هذا الفن ذروته فى بلاد الغرب فى خلال القرن الثالث عشر ، شأنه فى هذا شأن كثير من أوجه النشاط فى العصور الوسطى ، ولم يبلغ بعدئذ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى خلال ذلك القرن من دقة وابتكار وكثرة ، فقد حلت فى ذلك العهد محل الصور والكسى الجامدة ، والألوان الخضراء والحمراء القاسية التى كانت سائدة فى القرن الحادى عشر ، حلت محلها بالتدريج أشكال رشيقة رقيقة فى ألوان جمة العدد ، على أرضية زرقاء أو ذهبية ؛ وغلبت صور العذراء على هذه النقوش ، كما أخذت من ذلك الوقت تكثر فى الكنائس الكبرى .

ولقد أتلفت كتب كثيرة فى العصور المظلمة ، وتضاعف قيمة ما بقى منها لأنها كانت فى نصها وفنها خيطا رفيعاً من خيوط الحضارة إذا صح هذا التعبير(١١) . وكان الناس فى تلك الأيام يعتزون بكتب الترانيم ، وبالأناجيل ، والتراتيل ، وكتب القداس ، وكتب الصلوات ، وأدعية الساعات ، ويحسبونها الأدوات الحية التى تنقل إليهم الوحى الإلهى ، ولم يكونوا يرون أن أى مجهود يبذل فى تزيينها الزينة اللائقة بها أكثر مما تستحق . فكان الواحد منهم يبذل يوما كاملا فى كتابة الحرف الأول من كلمة ، وأسبوعا كاملا فى كتابة عنوان صفحة ، ولا يرى فى هذا خروجاً على المعقول ، وقد حدث فى عام ٩٨٦ أن أقسم هارتكر Hartker أحد رهبان القديس جول Gall أن يظل ما بقى من حياته الدنيوية داخل جدران أربعة ، ولعله كان يتوقع انتهاء العالم فى ذلك القرن . وظل فى صومعته الصغيرة حتى مات بعد خمسة عشر عاما من دخولها ، وفيها زين بالصور والنقوش **تراتيل القديس جول**(١٢) .

وكان فن المنظور وعمل القوالب وقتئذ أقل شأناً مما كانا عليه أيام ازدهارهما في عصر الكارولنجيين ، فقد كان أصحاب النقوش الصغيرة يعنون بعمق اللون وبهائه ، وازدحام الصور وحيويتها ، أكثر من عنايتهم بأن يخدعوا الناظر حتى يظن أن ما أمامه فضاء ذو ثلاثة أبعاد . وكانت أكثر موضوعاته تؤخذ من الكتاب المقدس ، أو من الأناجيل غير القانونية ، أو من أقاصيص القديسين ، ولكن صوراً للنبات والحيوان كانت تستخدم أحياناً في تلك الزينة ، وكان يسر صاحبها أن يصور نباتات وحيوانات خيالية كما يصور نباتات وحيوانات حقيقية . وكانت القواعد الكنسية المفروضة على الموضوعات وطريقة معالجتها في الكتب المقدسة نفسها أقل دقة وتحديدا في الغرب منها في الشرق ؛ وكان يسمح للمصور أن ينتقل ويلهو حرا في مجاله الضيق . وكانت رءوس بشرية مركبة على أجسام حيوانات ، ورءوس حيوانات على أجسام بشرية ، وكان قرد في زى راهب ، وقرد يختبر في وقار كوقار الطبيب قنينة ملأى بالبول ، وموسيقى يطرب سامعيه بحك فكى حمار — كانت هذه هى الموضوعات التى ازدان بها كتاب صلوات ساعات العذراء(١٣) . ونشأت نصوص غير هذه مقدسة ودنسة ، واتخذت لها مكانا في مناظر الصيد ، أو البرجاس ، أو الحرب ؛ وكان من الصور التى اشتمل عليها كتاب ترانيم من القرن الثالث عشر صورة تمثل داخل مصرف إيطالى ، ذلك أن العالم الدنيوى ، وقد استفاق من رهبة الأبدية ، أخذ يغزو أرباض الحياة الدينية .

وكانت الأديرة الإنجليزية موفورة الإنتاج في هذا الفن السلمى ، فقد أخرجت مدرسة أنجيليا الشرقية كتب مزامير واسعة الشهرة : منها كتاب محفوظ في مكتبة بركسل ، وآخر (« الأورمبزى Ormbsy ») في أكسفورد ، وثالث (القديس أومر Omer) في المتحف البريطانى . ولكن خير ما أنتجه هذا الفن كان في فرنسا ؛ فقد بدأت كتب التراتيل التى زينت للويس التاسع طرازاً من النقوش الجامعة المركزة ، وتقسما إلى مدليات داخل إطارات ، نُقلت

بلا ريب عن زجاج الكنائس الملون . واشتركت الأراضى الوطيئة فى هذه الحركة ، فبلغ رهبان لييج وغنت فى فن تزيين الكتب بعض ما بلغه فن النحت فى أَمْيَن Amiens وريمس Reims من الشعور الحماسى والرشاقة الفياضة ؛ وأخرجت أسپانيا أعظم آية مفردة من آيات هذا الفن فى القرن الثالث عشر فى كتاب ترانيم للعذراء هو تسابيح (ألفونسو العاشر) الملك الحكيم (حوالى عام ١٢٨٠) . وإن نقوشه الصغيرة البالغ عددها ١٢٢٦ نقشاً لتشهد بما كان يبذل فى كتب العصور الوسطى من كد وإخلاص . ولا حاجة إلى القول بأن هذه الكتب كانت كتب خط كما كانت كتب تصوير ، وكان الفنان الواحد فى بعض الأحيان ينسخ أو يؤلف النصوص ويكتبها ، ثم يرسم النقوش بيده . وإن الإنسان ليتردد ، إذا أراد أن يحكم على كثير من الكتب ، أيهما أجمل زينتها أو نصها . ألا إننا قد خسرنا بالطباعة الشىء الكثير .

٣ – النقوش الجدارية

من العسير علينا أن نقول إلى أى حد أثرت زخارف الكتب من حيث موضوعها وأشكالها فى نقوش الجدران واللوحات المصورة ، والصور المقدسة ، ونقوش الخزف ، والنحت البارز ، والزجاج الملون ، وإلى أى حد أثرت هذه فى زخارف الكتب . لقد كان بين هذه الفنون تبادل كثير فى موضوعاتها وأنماطها ، وتفاعل مستمر ، وكان الفنان الواحد بعض الأحيان يمارسها جميعا ؛ وإنا لنظلم الفن والفنان معاً إذا ما فصلنا أحد هذه الفنون عن بقيتها فصلا تاما ، أو فصلنا الفنون عن الحياة القائمة فى أيامها ؛ ذلك أن الحقيقة أكثر ارتباطا فى أجزائها من تواريخنا ؛ وإذا ما جزأ المؤرخ عناصر الحضارة التى يجرى تيارها مجتمعاً فى مجرى واحد ، فإنما يفعل ذلك لسهولة البحث والإيضاح لا غير . وليس من حقنا أن نفصل الفنان عن الثقافة المعقدة التى ربته وعلمته ، وأمدته بالتقاليد والموضوعات —

وأثنت عليه أو عذبته ، واستخدمته ، ودفنته ، ونسيت اسمه أكثر مما ذكرته .

وكانت العصور الوسطى تقاوم الفردية ، وتعدّها من العقوق المفلس ، وتأمر العبقرى أن يغمر نفسه فى أعمال زمانه ومجرى حوادثه . وكانت الكنيسة ، والدولة ، والمدينة المستقلة ، ونقابة الحرف فى عرف ذلك الوقت هى الحقائق الخالدة ؛ وكانت هى الفنانين أنفسهم ، ولم يكن الأفراد إلا أيدى الجماعة ، وإذا ما قامت الكنيسة الكبرى على قواعدها كان جسمها وروحها يمثلان جميع ما قدسه واستنفده تصميمها ، وبناؤها ، وتزيينها من أجسام وأرواح . ومن أجل هذا ابتلع التاريخ جميع أسماء الرجال الذين نقشوا جدران عمائر العصور الوسطى قبل القرن الثالث عشر ، ولم يبق من هذه الأسماء إلا القليل ، وكادت الحروب ، والثورات ، والرطوبة التى توالت مدى الدهور . تبتلع أعمالهم . ترى هل كان فى أساليب ناقشى الجدران عيوب ؟ لقد كانوا يستخدمون أساليب المظلمات وأدهنة الجدران القديمة ، فيضعون الألوان على الجدران قبل أن يجف بياضها ، أو يرسمون على الجدران الجافة بألوان يجعلونها لزجة بما يدخلونه فيها من المواد الغروية . وكانوا يقصدون بكلتا الوسيلتين أن يخلدوا ما يرسمون ، إما بنفاذ الألوان فى الجدران أو بتماسكها ؛ ومع هذا كله كانت الألوان تتطاير على مر السنين ، ولذلك لم يبق لدينا إلا القليل من الرسوم الجدارية التى عملت قبل القرن الرابع عشر(*) . ويصف ثيوفيلس (١١٩٠) طريقة تحضير الألوان الزيتية ، ولكن هذه الصناعة لم تبلغ كثيراً من الرقى قبل عهد النهضة .

ويلوح أن تقاليد النقش الرومانى القديم على الجدران قد قضت عليها غارات القبائل المتبربرة وما أعقبها من فقر دائم عدة قرون . ولما أن بُعث فن النقش الجدارى الإيطالى ، لم يسترشد باعثوه بالتقاليد القديمة ، بل استرشدوا بأساليب

(*) لهذا يدهش الإنسان من براعة المصريين الأقدمين لأنه يرى الألوان على بعض آثارهم وكأنها قد خرجت تواً من تحت أيديهم . (المترجم)

بيزنطية النصف اليونانية والنصف الشرقية ؛ وإنا لنجد فى أوائل القرن الثالث عشر مصورين يونان يعملون فى إيطاليا — ثيوفانيس فى البندقية ، وأپلونيوس فى فلورنس وملورمس Melormus فى سينا . . . وتحمل أقدم لوحات الفن الإيطالى الموقع عليها من راسميها فى ذلك العهد أسماء يونانية ؛ وقد جاء هؤلاء الرجال معهم بموضوعات وأنماط بيزنطية — بصور رمزية ، دينية — صوفية ، وهم لا يدعون قط أنهم يمثلون مواقف أو مناظر طبيعية .

ولما زاد الثراء وارتقى الذوق تدريجاً فى إيطاليا خلال القرن الثالث عشر ، واجتذبت الهبات العالية التى كان يعطاها الفنانون رجالا من ذوى المواهب العالية ، شرع المصورون الإيطاليون—جيونتا پيزانو Giunta Pisano فى پيزا ، ولابو Lapo فى پستويا ، وجيدو Guido فى سَيِنا ، وپيترو كڤلينى Pietro Cavallini فى أسيسى وروما ؛ شرع هؤلاء المصورون يهجرون الطريقة البيزنطية الخيالية الحالمة ، وينفثون فى رسومهم اللون الإيطالى والعاطفة الإيطالية . ولهذا نقش جيدو (١٢٧١) فى كنيسة سان دمنيكو فى سينا صورة للعذراء بزت بصورة « وجهها الصافى الحلو »(١٤) أشكال الرسوم البيزنطية الضعيفة التى لا حياة فيها ، والتى كانت سائدة فى ذلك العصر وتكاد هذه الصورة تكون بداية عصر النهضة الإيطالية .

وبعد جيل من ذلك الوقت دفع دتشيو دى بيونسنيا Duccio di Bouninsegna (١٢٧٣—١٣١٩) مدينة سينا فى سورة مدنية جمالية بصورة « الجلالة » Maesta التى تمثل العذراء فوق عرشها. وتفصيل ذلك أن المواطنين ذوى الثراء قرروا أن الأم المقدسة، ملكتهم الإقطاعية، يجب أن ترسم صورتها فى حجم رائع بيد أعظم فنان يعثرون عليه فى أى مكان ، وسرهم أن يختاروا لهذا الغرض دتشيو ابن بلدتهم ، ووعدوه بأن يقدموا له الذهب ، ووفروا له الطعام والوقت، وراقبوا كل خطوة يخطوها فى عمله . ولما أتم الصورة بعد ثلاث سنين

(١٣١١) وأضاف إليها ذلك التوقيع المؤثر : — « أى أم الإله المقدسة ، هى سينا السلام ودتشيو الحياة لأنه صورك فى هذه الصورة » — حملت الصورة (وكان طولها أربع عشرة قدماً وعرضها سبع أقدام) إلى الكنيسة يحف بها موكب من الأساقفة ، والقساوسة ، والرهبان ، والموظفين ، ونصف سكان المدينة ، وسط دوى الأبواق ودق النواقيس ، وكانت الصورة لا تزال نصف بيزنطية فى طرازها ، تهدف إلى التعبير الدينى لا التصوير الواقعى ، فقد كان أنف العذراء أطول وأكثر اعتدالا مما يجب أن يكون ، وكانت عيناها أكثر قتاماً ، ولكن الصور المحيطة بها كانت ذات رشاقة وصفات أخلاقية واضحة ، وكانت المناظر المأخوذة من حياة مريم والمسيح ، والمرسومة على منصات المذابح والأبراج ذات فتنة جديدة وجلية . وجملة القول أن هذه الصورة كانت أعظم ما صور قبل چيتو Giotto(*) .

وكان چيوڤنى سيمابو Giovanui Cimabue (١٢٤٠ ؟ — ١٣٠٢) قد بدأ وقتئذ فى فلورنس أسرة من المصورين قُدّر لها أن تسيطر على الفن الإيطالى ما لا يكاد يقل عن ثلاثة قرون . وقد ولد چيوڤنى لأسرة شريفة ، وما من شك فى أنه قد أحزنها حين هجر القانون إلى الفن ؛ وكان ذا روح عالية متكبرة ، لا يتردد فى أن يطرح وراء ظهره أية صورة يجد فيها هو أو غيره من الناس عيباً ما . ومع أن مدرسته الفنية ، كمدرسة دتشيو ، فرع من المدرسة الإيطالية — البيزنطية ، فإنه قد أفرغ كل كبريائه وكل نشاطه ، فى فنه ؛ وأثمرت جهوده هذه ثمرة أوفت على الثورة ؛ وقد عمل هو ، أكثر مما عمل دتشيو الذى يعلو عليه فى مكانته الفنية ، على إبطال الطراز البيزنطى وشق طريق للرقى جديد . فثنى ورق الخطوط الجامدة التى كان يرسمها أسلافه ، وكسا الروح لحما ، ووهب اللحم دماً ودفئاً ، والآلهة والقديسين حناناً آدمياً ، واستخدم فى تصويره الألوان الزاهية

(*) والصورة الرئيسية محفوظة الآن فى « الأبرا » أى متحف كنيسة سينا .

الحمراء ، والقرنفلية ، والزرقاء ، فنفث فى صوره حياة ولألاء لم تعرفهما إيطالية العصور الوسطى قبل أيامه ، على أننا مضطرون إلى قبول كل ما ذكرناه عنه مستندين إلى شهادة معاصريه ؛ لأن الصور التى تعزى له ليس فيها صورة واحدة موثوق بأنها من صنع يده ، وأكبر الظن أن صورة **العذراء والطفل مع الملائكة** المرسومة بالطلاء المائى لمصلى روشلاى Rucellai فى كنيسة سانتا ماريا نوڤلا Santa Maria Novella بمدينة فلورنس ، أكبر الظن أن هذه الصورة من صنع دتشيو[١٥] . وتعزو رواية يشك فيها بعضهم ، ولكنها فى أغلب الظن صادقة ، إلى سمابيو صورة **العذراء والطفل بين أربعة ملائكة** الموجودة فى كنيسة سان فرانسسكو السفلى فى أسيسى . وهذا المظلم الضخم الذى يُرجع المؤرخون تاريخه عادة إلى عام ١٢٥٦ والذى أعيد فى القرن التاسع عشر ، هو أولى الآيات الفنية الباقية حتى الآن من روائع فن التصوير الإيطالى . وصورة القديس فرانسس التى فيه واقعية إلى حد يشهد بجرأة راسمها — فهى تمثل رجلا روعته رؤية المسيح إلى حد هزل معه جسمه ؛ وصورة الملائكة الأربعة هى بداية التآلف بين الموضوعات الدينية والجمال النسوى .

وعُيِّن سمابيو فى آخر سنى حياته كبير أساتذة الفسيفساء فى كنيسة پيزا ؛ وفيها ، كما يقولون ، وضع لقبا الكنيسة تصميم فسيفساء **المسيح فى المجد بين العذراء والقديس يوحنا** . ويروى ڤسارى Vassari قصة لطيفة يقول فيها إن سمابيو وجد فى يوم من الأيام غلاماً من الرعاة فى العاشرة من عمره يسمى چيتو دى بندونى Giotto di Bondone ، يرسم بقطعة من الفحم صورة حمل على أردواز ، فأخذه إلى فلورنس وجعله تلميذاً له[١٦] . وليس ثمة شك فى أن چيتو عمل فى مرسم سمابيو ، وأنه شغل منزل أستاذه بعد موته . وهكذا بدأت أعظم أسرة من المصورين فى تاريخ الفن .

٤ – الزجاج الملون

سبقت إيطاليا شمالى أوربا بمائة عام كاملة فى النقوش الجدارية والفسيفساء ، وتأخرت عن تلك البلاد مائة عام فى العمارة والزجاج الملون . وكان فن تلوين الزجاج معروفا عند الأقدمين ، ولكن أكثر ما عرف منه كان فى صورة الفسيفساء الزجاجية ؛ فقد ملأ جريجورى التورى Gregory of Tours (٥٣٨ ؟ – ٥٩٣) نوافذ كنيسة القديس مارتن بزجاج « مختلف الألوان » ؛ وتحدث بولس المنظم(*) Paul the Silentiary عن جمال ضوء الشمس حين يمر خلال الشبابيك المختلفة الألوان فى كنيسة أياصوفيا بالقسطنطينية . ومبلغ علمنا أنه لم تبذل فى هذه الحالات أية محاولة لرسم صور بالزجاج الملون ، لكن أدلبيرو Adalbero أسقف مدينة ريمس زين كنيسته حوالى عام ٩٨٠ بشبابيك « تحتوى تواريخ »[١٧] ، وتحتوى أخبار القديس بنينيس St. Benignus على وصف لـ « شباك مصور قديم جدا » يمثل القديس باسكاسيوس St. Paschasius ، فى كنيسة بديجون[١٨] . لقد كان هذا زجاجاً مؤرّخاً ؛ ولكن يبدو أن اللون هنا قد وضع على الزجاج ولم يصهر فيه . ولما أن قلل فن العمارة القوطية من الثقل الذى تتحمله الجدران وهيأ بذلك مكاناً للنوافذ الواسعة ، سمح الضوء الكثير الذى يدخل الكنيسة بهذه الوسيلة – أو بالأحرى تطلب هذا الضوء – تلوين ألواح الزجاج ، وبهذا وجدت الحوافز القوية الكثيرة عن وسيلة لتلوين الزجاج تلويناً أبقى على الزمن من الوسيلة القديمة .

والراجح أن الزجاج ذا الألوان المصهورة قد تفرع من الزجاج المطلى بالميناء. ويصف ثيوفيلس فى عام ١١٩٠ هذه الصباغة الفنية الجديدة فيقول إن « رسما» أو تصميما يوضع على منضدة ويقسم أقساما صغيرة ، ويميز كل منها برمز للون

(*) المنظم هنا بمعنى الذى يحفظ النظام فى الاجتماع . (المترجم)

المرغوب فيه . ثم تقطع قطع من الزجاج قلما يزيد طولها أو عرضها على بوصة واحدة بقدر مساحة الرسم . وتلون كل قطعة من الزجاج باللون المطلوب وذلك بصبغة مكونة من مسحوق الزجاج المخلوط بأكاسيد معدنية مختلفة — الكوبلت للون الأزرق ، والنحاس للون الأحمر أو الأخضر ، والمنجنيز للأرجوانى . . . ثم يحرق الزجاج المطلى بعدئذ لتنصهر الأكاسيد والطلاء فى الزجاج ، وتوضع الأجزاء بعد تبريدها على التصميم ، وتلحم بعضها ببعض بقطع رفيعة من الرصاص . وإذا نظر الإنسان لشباك مصنوع من هذا الزجاج الفسيفسائى فإن العين لا تكاد تلاحظ قطع الرصاص ، بل تحسب أجزاءه سطحاً ملوناً متصلا . وكان أكبر ما يهتم به الفنان فى هذه الحال هو اللون ، وكان هدفه هو مزج الألوان ؛ ولم يبحث فى عمله عن الواقعية ، ولم يعن بالمنظور ؛ وكان يظهر الأشياء المرسومة فى صورته بأغرب الألوان — ففيها جمَالة خضر ، وآساد قرنفلية ؛ وفرسان زرق الوجوه[١٩] . ولكنه حصل على النتيجة التى يبتغيها : حصل على صورة متلألئة مخلدة اللون ، وعلى تخفيف الضوء الداخل فى الكنيسة وتلوينه ، وعلى تعليم العابدين والسمو بنفوسهم .

وكانت الشبابيك — حتى « الورود » العظيمة منها — تقسم فى معظم الأحوال إلى لوحات مصـــورة ، ورصائع ، ودوائر ، ومعينات ، ومربعات ، وذلك لكى يمثل الشباك الواحد عدة مناظر فى سيرة أو موضوع ما . فكان أنبياء العهد القديم يصورون أمام نظائرهم فى العهد الجديد أو أمام نبوءاتهم التى تحققت فيه . وكان العهد الجديد تضاف إليه أجزاء من الأناجيل غير القانونية ، وقد كان ما تحتويه هـــذه الأناجيل الأخيرة من الأقاصيص ذات الخيال الجميل عزيزا على عقل العصور الوسطى محبباً له . وكانت القصص المأخوذة من حياة القديسين أكثر فى النوافذ من الحوادث المستقاة من الكتاب المقدس ؛ مثال ذلك أن مغامرات القديس يوستاس St. Eustace كانت تروى على شبابيك تشارتر ،

وعلى شبابيك سان Sens ، وأوكسير Auxerre ولمـــان Le Mans ، وتور . وقلما كانت حوادث التاريخ غير الديني تظهر على الزجاج الملون .

ولم يمض نصف قرن على ظهور أول مثل للزجاج الملون فى فرنسا حتى وصل إلى درجة الكمال فى تشارتر ، وكانت شبابيك تلك الكنيسة الكبرى نماذج ينسج على منوالها أو أهدافا يسعى لبلوغها فى سان Sens، وليون Leon ، وبورج Bourges ، ورون . ومن هنا انتقل الفن إلى إنجلترا ، وأوحى إلى صناع زجاج كنتربرى ولنكلن ، وقد نصت معاهدة عقدت بين فرنسا وإنجلترا على أن يسمح لأحد المصورين على الزجاج عند لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠) بأن يأتى إلى إنجلترا[٢٠] . وفى القرن الثالث عشر كبرت الأجزاء التى يتكون منها لوح الزجاج وفقد اللون بعض ما كان فى الأعمال الأولى من دقة واهتزاز ، وحلت فى أواخر ذلك القرن الزخارف المكونة من خطوط خارجية رفيعة حمراء أو زرقاء اللون على قاعدة من لون واحد رمادى محل الألوان المتناسقة فى الكنائس العظمى ، وكان لفواصل الشبابيك نفسها ، وقد أخذت أشكالها تزداد تعقيداً على مر الأيام ، شأن أكبر فى الصورة ؛ ومع أن الزخارف السالفة الذكر أضحت على مر الزمان فنا جميلا ، فإن مهارة المصور على الزجاج أخذت تضعف تدريجا . ذلك أن روعة الزجاج الملون جاءت مع الكنائس القوطية الكبرى ، فلما زال مجد القوط ، زالت معه نشوة الألوان .

الفصل الرابع

النحت

لقد دُمر الكثير من أعمال النحت لأن البرابرة نهبوه على أثر انتصارهم في غزواتهم ، ولأن المسيحية الناشئة حسبته من قبيل عبادة الأوثان الدنيئة ؛ ولكن قليلا منه نجا من هذا الدمار وبخاصة في فرنسا ، فأثار خيال البربرية بعد أن روضت ، والثقافة المسيحية بعد أن نضجت . واحتفظت الدولة الرومانية الشرقية في هذا الفن ، كما احتفظت في غيره من الفنون ، بالنماذج والمهارات القديمة ، وأضافت إليها أساليب العرف والتصوف الأسوية ، وعادت فوزعت على الغرب البذور التي جاءت إليها قبل من رومة ؛ وانتقل النحاتون اليونان إلى ألمانيا بعد أن تزوجت ثيودورا من أتو الثاني (٩٧٢) ؛ وانتقلوا كذلك إلى البندقية ، ورافنا ، وروما ، ونابلي ، وصقلية ، ولعلهم انتقلوا أيضا إلى برشلونة ومرسيليا ؛ وليس ببعيد أن يكون المثالون الذين كانوا يعملون عند فردريك الثاني قد أخذوا فنهم عن هؤلاء الرجال وعن الفنانين المسلمين الخاضعين لسلطانه ؛ ولما أثرت البربرية كان في وسعها أن تجمع بين الهمجية والجمال ؛ ولما أثرت المسيحية ، سخَّرت النحت كما سخرت غيره من الفنون لخدمة عقائدها وشعائرها الدينية ، وكانت هذه في آخر الأمر هي الطريقة التي نمت بها الفنون الكبرى في مصر ، وآسية ، وبلاد اليونان ، ورومة ؛ ذلك بأن الفن العظيم وليد الإيمان المنتصر .

ولم يكن النحت يفكر فيه على أنه فن مستقل بذاته ، بل كان يعد مرحلة من فن شامل ، لتيس له اسم في لغة من اللغات — ذلك هو زخرفة العبادة ،

وشأنه فى هذا شأن الصور الجدارية ، والفسيفساء والزجاج الملون . فكانت مهمة المثال الأولى هى تجميل بيت الله بالتماثيل والنقوش البارزة ؛ وكانت مهمته الثانية هى صنع الصور والتماثيل الدينية لبث روح التقى فى البيت ؛ فإذا بقى بعد ذلك وقت ومال كان فى وسعه أن ينحت تماثيل لأشخاص دنيويين ، أو يزين أشياء لا تمت بصلة إلى الدين . وكانت المادة المفضلة فى النحت الخاص بالكنيسة هى التى تتسم بالبقاء كالحجر ، والرخام ، والمرمر ، والبرنز ؛ أما التماثيل فكانت الكنيسة تفضل أن تصنعها من الخشب ، ذلك بأن هذه التماثيل يستطيع حملها من غير مشقة المسيحيون السائرون فى المواكب الدينية . وكانت التماثيل تلون كما كان يحدث فى الفن الدينى القديم ، وكانت فى أكثر الأحيان واقعية أكثر منها مثالية ، تهدف إلى أن يشعر العابد بالنظر إلى صورة القديس أنه بين يديه ؛ وقد بلغ من نجاح المثالين فى بلوغ هذه الغاية أن كان المسيحى ، كما كان العابد فى الأديان القديمة ، ينتظر أن يصنع التمثالُ نفسُه المعجزات ، وقلما كان يخامره الشك إذا سمع أن ذراع المسيح المصنوعة من المرمر قد تحركت لتبارك إنساناً ، أو أن ثدى عذراء من الخشب قد در اللبن .

وخليق بكل من يدرس فن النحت فى العصور الوسطى أن يستشعر الندم حين يبدأ هذه الدراسة . ذلك أن قسما كبيراً من آثاره دمرها المتطهرون المتعصبون فى إنجلترا ، وكان البرلمان فى بعض الأحيان هو الآمر بهذا التدمير ، كما دمر الكثير من هذه الآثار فى فرنسا أثناء الإرهاب الذى تعرض له الفن أيام الثورة . وكان ذلك العمل الرجعى فى إنجلترا موجها إلى ما بدا لمحطمى الصور الجدد أنه زخرفة وثنية للأضرحة المسيحية ؛ أما فى فرنسا فكان يهدف إلى مهاجمة قبور الأشراف المكروهين وما لديهم من مجموعات فنية ودمى . ولهذا نجد فى جميع أنحاء البلدين تماثيل بلا رءوس ، وأنوفاً مكسورة ، وتوابيت مهشمة ، ونقوشاً بارزة ، وطنفاً ، وتيجان عمد محطمة . ذلك أن ثورة جامحة من الحقد الدفين

الذى ظل يغلى زمناً طويلا فى الصدور على الاستبداد الكنسى والإقطاعى قد انفجر مرجلها آخر الأمر فى صورة تخريب شيطانى لهذه الآثار — وكأن الزمن وأتباعه من العناصر الجوية قد أجمعت أمرها فى ثورة من التدمير ، فاكتسحت ظاهر التماثيل ، وأذابت الحجارة ، ومحت النقوش ، وشنت على أعمال الإنسان حرباً باردة صامتة ، لم تتخللها قط هدنة ؛ وشن الإنسان نفسه على هذه الآثار ألف حرب سعى فيها إلى النصر بالتنافس فى التدمير ، فكان من أثر ذلك أننا لا نعرف النحت فى العصور الوسطى إلا من حطامه .

وإذا ما نظرنا بين عناصره المتناثرة فى المتاحف ، أضفنا إلى الأذى سوء الفهم . ذلك أن الفن الذى تمثله هذه العناصر لم يكن يقصد به أن ينظر إليه متفرقاً على هذه الصورة ، فقد كان فى أصله جزءاً لا يتجزأ من موضوع دينى ، وكان صرحاً معمارياً كاملا ، ولهذا فإن ما قد يبدو لنا فجاً قبيحاً وهو بمفرده ، قد يكون موائما أحسن مواءمة لما يحيط به من الحجارة . لقد كان التمثال القائم فى الكنيسة الكبرى عنصراً فى مجموعة ، موضوعاً فى المكان اللائق به ، وكأنه يستطيل ليطاول علو الكنيسة الشامخ : فقد كانت الساقان متلاصقتين ، والذراعان ملتصقتين بالجسم ؛ وكان تمثال القديس فى بعض الأحيان يدق ويمتد حتى يصل إلى أعلى قائمة كتف الباب . وكان المثال يهدف فى أحيان قليلة إلى تقوية الأثر الأفقى لا الرأسى فى نفس المُشاهد ؛ فكان يجعل التماثيل المقامة فوق الأبواب بدينة مفلطحة ، كالتى نشاهدها فوق مدخل تشارتر ؛ أو كان رجل أو حيوان يحشر فى تاج عمود كما كان يحشر الإله اليونانى قوصرة الباب أو الشباك ، وبهذا انصهر فن النحت القوطى فأصبح جزءاً لا يتجزأ من فن العمارة الذى يزينه .

وكان خضوع النحت للعمارة فى طرازها وهدفها الهدف الذى يمتاز به فن القرن الثانى عشر بنوع خاص . ثم شهد القرن الثالث عشر ثورة جامحة من

جانب المثال فخرج وقتئذ من النزعة الشكلية إلى الواقعية ، ومن الصلاح إلى الفكاهة والهجاء وتذوّق الحياة الأرضية . فبينا نرى تماثيل القرن الثانى عشر الموجودة فى تشارتر مكتئبة جامدة ، إذ نرى تماثيل القرن الثالث عشر فى ريمس وقد فاجأها المثال أثناء حديثها الطبيعى أو عملها التلقائى . فعارفها فردية ، وفى وضعها رشاقة ملحوظة ؛ وإن كثيراً من هذه التماثيل القائمة فى كنائس تشارتر وريمس لتشبه الفلاحين الملتحين الذين لا نزال نلتقى بهم فى القرى الفرنسية ، وتمثال الراعى الذى يدفئ نفسه بالنار والقائم فوق باب أمين Amiens الغربى قد يكون له نظير فى حقل بنورمندية أو جسپيه Gaspé فى هذه الأيام . وليس فى التاريخ كله نحت يضارع النقوش القوطية الكنسية فى واقعيتها الغريبة . ففى رون نجد تمثال فيلسوف مفكر له رأس خنزير محشوراً فى أزهار من ذوات الورقات الأربع ، وطبيباً نصفه آدمى والنصف الآخر إوزة ، يدرس أنبوبة أخرى مليئة بالبول ، ومعلم موسيقى نصفه آدمى ونصفه ديك يلقى درسا على عضو غنطروس ، ورجلا أحاله ساحرٌ كلبا ، وظلت قدماه تلبسان حذاءيه[٢١] . وهناك صورة صغيرة مضحكة جاثمة تحت التماثيل فى تشارتر ، وأمين ، وريمس . وفى كنيسة استرسبرج تاج عمود أعيد إلى وضعه الأول منذ قليل يمثل دفن رينارد الثعلب Reynard the Fox : يحمل نعشه خنزير وجدى ، ويحمل الصليب ذئب ، وينير الطريق أرنبٌ بشمعة ، ويرش دب الماء المقدس ، وينشد القداسَ وعلٌ ، ويتلو حمار صلاة الجنازة من كتاب مستند إلى رأس قطة[٢٢] . وفى كنيسة بڤرلى Beverley ثعلب على رأسه قلنسوة راهب يرتقى منبراً ويعظ طائفة من الإوز التقية المتدينة[٢٣] .

وتمثل الكنائس فيما تمثله حدائق حيوانات من الحجارة ، تكاد تجمع كل ما عرفه الإنسان من الحيوان ، وإن كثيراً من الحيوانات التى لم تمر إلا بمخيلة رجال العصور الوسطى لتجد لها مكاناً فى هذه المجموعات الضخمة التى لا تحصى

عديدها . ففى ليون Leon ستة عشر ثوراً تخور فوق أبراج الكنيسة الكبرى ، ويقولون لنا إنها تمثل الوحوش القوية التى ظلت السنين الطوال تنقل جلاميد الحجارة من المحاجر إلى الكنيسة القائمة على رأس التل . وتقول إحدى القصص الظريفة : إن ثوراً كان فى يوم من الأيام يصعد بمشقة فوق التل فوقع على الأرض من فرط الإعياء ، وظل الحمل متزناً اتزاناً مزعزعاً على منحدر التل حتى ظهر ثور بمعجزة من المعجزات ، وانزلق تحت عدة الثور الملقى على الأرض ، وجر العربة إلى قمة التل ، ثم اختفى فى الهواء السماوى الإعجازى(٢٤) . وإنا لنبتسم ساخرين من هذه القصص الخيالية ، ونعود إلى قراءة قصصنا التى تحدثنا عن الجرائم وعن العلاقات الجنسية .

واتسعت الكنائس أيضاً لحدائق النبات ، وهل ثمة بعد العذراء والملائكة ، والقديسين ، زينة لبيت الله أحسن من النباتات ، والفاكهة ، وأزهار الريف الفرنسى ، أو الإنجليزى ، أو الألمانى ؟ ولقد بقيت الزخارف النباتية القديمة — التى تمثل أوراق الكنكر والكرم — فى فن العمارة الرومنسية (٨٠٠ — ١٢٠٠) ؛ ثم حلت محل هذه الزخارف الشكلية العرفية فى الفن القوطى طائفة تدهش الإنسان لكثرتها من النباتات المحلية ، منقوشة على قواعد الأعمدة وتيجانها ، والأجزاء الشبه المثلثة التى بين العقود ، والعقود نفسها ؛ وفى الطنف ، والعمد نفسها ، والمنابر ، ومقاعد المرنمين ، وقوائم الأبواب ، والمصاطب ... وليست هذه الأشكال مما حدده العرف ، بل هى فى كثير من الأحيان أنواع فردية ، محبوبة فى البيئة التى صورتها ، وبعث فيها المؤلف الحياة . وتراها فى بعض الأحيان زينات مركبة من نباتات مختلفة جمعت بعضها إلى بعض ؛ وذلك أيضا مما ابتدعه الخيال القوطى ، ولكنها مع ذلك ظلت تُشعِر الناظر إليها بأنها من صنع الطبيعة . ترى هناك الأشجار ، والغصون ، والعساليج ، والأوراق ، والبراعم ، والأزهار ، والفاكهة ، والسرخس ، والشقيق الأصفر ، والطلح ، والكرسون المائى ، وعود الريح ، وأشجار الورد ،

والشليك ، والحسك ، والقصعين ، والبقدونس ، والسريس ، والكرتب ، والكرفس ، تساقط من مستودع الكنيسة الذى لا ينضب معينه ، لقد كان المثال ثملا ببهجة الربيع ، فهدت يده الإزميل فى الحجر . وليس الربيع وحده هو الذى تمثله هذه النباتات والأزهار المنحوتة ، بل إن جميع فصول السنة ممثلة فيها ؛ وهى فوق هذا تطالعك بكل ما فى أعمال البذر ، والحصاد ، وعصر الخمر ، من كدح ومتعة ، وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل فى نوعه من « تاج عصر العنب » فى كنيسة ريمس الكبرى(٢٥) .

ولكن هذا العالم كله — عالم النبات والزهر ، والحيوان والطير — كان فى المرتبة الثانية إذا قيس إلى الموضوع الرئيسى فى فن النحت أثناء العصور الوسطى — وهو حياة الإنسان وموته . ففى تشارتر ، ولاءون ، وليون Lyons ، وأكسير ، وبورج نقوش أولية تروى قصة الخَلْق . وفى لاءون يعد الخالق على أصابعه ما بقى له من الأيام حتى يتم عمله ، وتراه فى مناظر متأخرة عن هذا المنظر ، وقد أجهده كدحه فى خلق الكون ، متكئاً على عصاه ، وجالساً ليستريح ، ونائماً . ذلك إله يسع كل فلاح ساذج أن يفهمه . وثمة نقوش بارزة فى كنائس أخرى تصور أشهُر العام وما اختص به كل شَهْر منها من عمل وبهجة ؛ وتبين نقوش غير هذه وتلك مختلف أعمال الإنسان فتصور الفلاحين فى الحقل أو عند معصرة الخمر ؛ وترى بعضهم يقودون الخيل أو الثيران وهى تشق الأرض أو تجر العربات ؛ ومنهم من يجز الضأن ، أو يحلب البقر . وهناك طحانون ، ونجارون ، وحمالون ، وتجار ، وفنانون وطلاب علم ، بل إن هناك أيضاً فيلسوفاً أو فيلسوفين . ويصور المثال المعنويات المجردة عن طريق الأمثلة : فدونارتس Donartus يمثل النحو ، وشيشرون الخطابة ، وأرسطو الجدل ، وبطليموس الفلك . وتجلس الفلسفة ورأسها فى السحب ، وفى يمناها كتاب ، وفى يسراها صولجان ، فهى ملكة العلوم . وثمة نقوش ترمز إلى الإيمان وعبادة الأوثان ، والأمل واليأس ، والصدقات والبخل ،

والعفة ، والدعارة ، والسلام ، والشقاق ؛ وفى لاءون نقش على باب عال يصور معركة بين الفضائل والرذائل ؛ وعلى الواجهة الغربية من كنيسة نوتردام فى باريس صورة امرأة رشيقة معصوبة العينين تمثل المعبد ، وأمامها امرأة أجمل منها فى ثياب ملكية وعليها سيماء من اعتادت الأمر والنهى وتمثل الكنيسة بوصفها عروس المسيح . أما المسيح نفسه فيبدو تارة رحيما وتارة أخرى رهيباً ؛ وتمثله بعض الصور وأمه تنزله من الصليب ؛ أو يقوم من القبر وبالقرب منه رسم رمزى يمثل أسداً يعيد الحياة بأنفاسه إلى أشباله ؛ أو يقضى فى رهبة بين الأحياء والأموات . وترى صور يوم الحساب فى كل مكان منحوتة أو مرسومة ملونة فى الكنائس ؛ ذلك أنه لم يكن يسمح للإنسان أن ينساها ؛ وهنا أيضاً لم يكن يستطاع الاعتماد إلا على شفيع واحد لغفران الذنوب ، ذلك هو مريم العذراء التى تبدو لهذا السبب فى الصور المنحوتة ، كما تبدو فى الأوراد ، صاحبة المكان الأول ، ومنبع الرحمة اللانهائية ، التى لا تسمح لابنها أن يفسر تفسيراً حرفياً تلك الكلمات القائلة إن الكثيرين يُدْعَون والقليلين يُختارون .

إن فى فن النحت القوطى لعمقاً فى الشعور ، وتنوعاً ونشاطاً فى الحياة ، وتعاطفاً مع أشكال عالَم النبات والحيوان جميعاً ، وإن فيه لرقة ، وظرفاً ، ورشاقة ؛ فهو معجزة من الحجارة لا تكشف عن اللحم بل عن الروح ؛ وهذه كلها تحركنا وتشبعنا بعد أن فقدت روعة أجسام التماثيل اليونانية بعض ما كان لها من جاذبية . ولعل سبب ضياعها هو أننا بلغنا سن الشيخوخة . وتبدو الآلهة الثقيلة القائمة فى قوصرة البارثنون إذا وضعت إلى جانب الصور الحية التى أخرجها إيمان العصور الوسطى باردة ميتة . ولسنا ننكر أن النحت القوطى معيب من الناحية الفنية ، فليس فيه ما يضارع كمال إفريز البارثنون ، أو جمال آلهة بركستليز والإلاهاته الشهوانية ، أو سيدات نقش السلام وشيوخه فى رومة ؛ وما من شك فى أن صور أولئك الشبان ذوى الوسامة ، وصور أفروديتى اللينة العريكة ، كانت تمثل فى وقت ما

متعة الحب والحياة السليمة . ولكن آراءنا الدينية المبتسرة ، إذ تذكرما فيها من جمال وتغفل عما فيها من رهبة ، تعود بنا المرة بعد المرة إلى الكنائس الكبرى وترجِّح كفة الإله الجميل المصور فى أمين والملاك الباسم المصور فى ريمس ، وعذراء شارتر .

وكان المثال فى العصور الوسطى كلما زادت مهارته فى فنه قوى أمله فى تحرره من فن العمارة وفى أن يعمل فيه أعمالا توائم الذوق الدنيوى المتزايد عند الأمراء والأحبار ، والأشراف ، والطبقة الرأسمالية المتوسطة . ففى إنجلترا كان نحاتو الرخام فى پربك Purbeck يستخدمون النوع الممتاز الذى يقطعونه من نتوء دورسسترشير Dorestershire ، واشتهر فى القرن الثالث عشر بالعمد والتيجان الجاهزة ، وبالدمى المضطجعة التى ينحتونها على توابيت الأموات الأغنياء — وصب وليم تورل William Torel وهو صائغ من أهل لندن حوالى عام ١٢٩٢ تمثالين من البرنز لهنرى الثالث وإليانور القشتالية زوجة ولده ليوضعا فى قبرهما الرخاميين فى دير وستمنستر ؛ ويبلغ هذان التمثالان من الجمال والدقة ما تبلغه أية تحفة برنزية فى ذلك العصر . واجتمعت فى ذلك الوقت مدارس للنحت عظيمة الشأن فى ليبچ ، وهلسدهايم Hildesheim ونومبرج Naumburg . ونحت مثّال غير معروف حوالى عام ١٢٤٠ التمثالين القويين البسيطين — ذوى الأثواب الفخمة — لهنرى الأسد ولبوئته القائمين فى كنيسة برنزويك Brunswick . وتزعمت فرنسا أوربا بأجمعها فى جمال تماثيلها الرومنسية (فى القرن الثانى عشر) والقوطية (فى القرن الثالث عشر) ولكن معظم هذه التماثيل قائمة فى كنائسها الكبرى ، ولهذا فإن خير مكان تدرس فيه هو هذه الكنائس .

ولم يكن النحت فى إيطاليا وثيق الصلة بالعمارة ، ولا بالمدن ذات الحكومات المستقلة ، ولا بنقابات الحرف كما كان فى فرنسا ؛ ولهذا فإنا فى القرن الثالث عشر

نجد فنانين منفردين تسيطر شخصياتهم على أعمالهم وتخلد أسماءهم . من هؤلاء نيقولو بيزانو Niccolo Pisano الذى اجتمعت له عدة مؤثرات مختلفة انصهرت كلها فخرجت منها شخصية مركبة فذة . فقد ولد هذا الفنان فى أبوليا عام ١٢٢٥ ، واستمتع فيها بالجو الحافز الذى يحيط بحكم فردريك الثانى ؛ ويبدو أنه درس فيها بقايا الفن الإيطالى القديم وآثاره المعادة(٣٦) . ثم انتقل إلى بيزا وورث فيها التقاليد الرومنسية ، وسمع بالطراز القوطى الذى بلغ وقتئذ ذروة مجده فى فرنسا . ولما أن نحت منبراً لمكان التعميد فى بيزا اتخذ له نموذجاً تابوتاً فى عهد هدريان . وقد تأثر أشد التأثير بالخطوط القوية الرشيقة التى تمتاز بها الأشكال القديمة ؛ ولهذا فإن معظم الأشكال التى فى منبره ذات ملامح وثياب رومانية وإن كانت أقواسه رومنسية وقوطية ؛ فوجه مريم الذى نراه فى لوحة المخاض وثيابها هما بعينهما وجه امرأة رومانية وثيابها ، ونرى فى إحدى الزوايا صورة لشخص رياضى عار شاهدة على الروح اليونانية القديمة التى كان يتأثر بها هذا الفنان . ودبت الغيرة من هذه التحفة فى قلب سينا (١٢٦٥) فاستخدمت نقولو وابنه چيوڤنى ، وتلميذه أرنلفو دى كمبيو Arnolfo di Cambio فى صنع منبر أجمل من هذه لكنيستها ، وحالفهم التوفيق فى هذه المهمة . ويقوم المنبر الجديد المصنوع من الرخام الأبيض على عمد ذات تيجان تمثل أوراق النبات ، وتتكرر فيه الموضوعات التى فى منبر بيزا مع لوحة مزدحمة تمثل الصلب . وهنا يتغلب التأثير القوطى على التأثير الرومانى القديم ، ولكن المزاج القديم يظهر فيما يسبغه الفنان على الصور النسائية التى تتوج الأعمدة من صحة سابغة لا خفاء فيها . وكأنما أراد نقولو أن يؤكد عواطفه الرومانية القديمة فنحت فوق قبر القديس دمنيك الناسك فى بولونيا صوراً كاملة الرجولة على الطراز الوثنى مليئة ببهجة الحياة . وانضم فى عام ١٢٧١ إلى ابنه وأرنلفو لينحتوا الواجهة الرخامية التى لا تزال حتى اليوم قائمة فى ميدان پروجيا العام . ومات بعد سبع سنين من ذلك الوقت ، وهو لا يزال إلى

حد ما فى سن الشباب، ولكنه مهد فى أثناء حياته السبيل إلى دناتلو Donatello وإلى بعث فن النحت القديم فى عصر النهضة .

وكان ابنه چيوڤنى پيزانو (حوالى ١٢٤٠ إلى حوالى ١٣٢٠) يضارعه فيما تعرض له من تأثير متعدد النواحى، ولكنه يفوقه فى مهارته الفنية . وقد عهدت إليه پيزا بناء مقبرة تليق بالرجال الذين كانوا فى ذلك الوقت يقتسمون البحر المتوسط الغربى مع چنوى . وجىء بالتراب المقدس للميدان المقدس Compo Santo من جبل كلفارى . وأقام الفنان حول مستطيل كلىء عقوداً رشيقة امتزج فيها الطرازان الرومنسى والقوطى . وجيئت بروائع النحت لتزيين البوائك ، وظل الميدان المقدس قائما يخلد ذكرى چيوڤنى پيزانو حتى حطمت الحرب العالمية الثانية نصف عقوده وتركته أنقاضاً مهملة(*) .

ولما منى الپيزيون بالهزيمة على أيدى الجنويين (١٢٨٤) لم يعد فى مقدورهم أن يمدوا چيوڤنى بما يحتاجه من المال ، فانتقل إلى سينا . ونحت فى عام ١٢٩٠ بعض النقوش البارزة لواجهة كنيسة أرڤيتو Orvieto الغربية غير المألوفة . ثم عاد فانتقل شمالا إلى پستونيا Pistonia ونحت لكنيسة سانتا أندريا Santa Andrea منبراً صوره أقل اكتمالا فى رجولتها من صور منبر والده فى پيزا ، ولكنة يفوق منبر أبيه فى رشاقته وفى اتفاقه مع الطبيعة ، والحق أن هذا المنبر لهو أجمل ما أخرجه فن النحت القوطى فى إيطاليا .

وظل أرنلفو دى كمبيو (١٢٣٢ — ١٣٠٠) ثالث هؤلاء الثلاثة الذائعى الصيت يمارس عمله على الطراز القوطى برعاية البابوات، وكانت لمعظمهم روابط سابقة بفرنسا . فقد اشترك وهو فى أرڤيتو فى قطع واجهة كنيستها ، وصنع تابوتاً جميلا للكردنال ده براى Cardinal de Braye . وكان شبيهاً بفنانى النهضة فى

(*) والعمل يجرى الآن فى إعادة الميدان المقدس إلى ما كان عليه .

تعدد مهاراتهم ؛ وبهذه المهارات المتعددة صمم ، وشرع ينفذ ، ثلاثة من الأعمال المجيدة التى تفخر بها فلورنس : كنيسة سانت ماريا دل فيورى **Santa Maria del Fiori** ، وكنيسة سانتا كروس **Santa Croce** (الصليب المقدس) والبلازو ڤتشيو **Plazzo Vecchio** (قصر ڤتشيو)

ولكننا حين نتحدث عن أرنلفو وعن هذه الأعمال ننتقل بالقارئ من النحت إلى العمارة . فقد عادت كل الفنون وقتئذ إلى الحياة وإلى الصحة ؛ ولم ترجع المهارات القديمة إلى سابق عهدها وكفى ، بل أخذت تغامر فى اتجاهات وصياغات فنية جديدة تكاد لكثرتها تبلغ حد التهور ؛ وتآلفت الفنون وتوحدت ، كما لم تتآلف أو تتوحد من قبل ولا من بعد ، فى المغامرة الواحدة وفى الرجل الواحد . وكان كل شىء قد أعد لتلك الدرجة الرفيعة التى بلغها فن العصور الوسطى ، فتجتمع الفنون كلها وتتعاون أكمل تعاون وأعظمه ، ويطلق اسم فنها الجامع على طراز ذلك العصر وفنه .

الباب الثانى والثلاثون

ازدهار الفن القوطى

١٠٩٥ – ١٣٠٠

الفصل الأول

الكتدرائيات(*)

نرى لم شادت أوربا هذا العدد الجم من الكنائس فى الثلاثة القرون التى أعقبت عام ١٠٠٠ بعد الميلاد ؟ وأية حاجة دعت إلى أن تنشأ فى أوربا التى لا يكاد سكانها فى ذلك الوقت يصلون إلى خمس سكانها الحاليين معابد قلما تمتلئ لسعتها بالمصلين فى أكثر الأيام قدسية ؟ وكيف استطاعت حضارة زراعية أن تنشئ بمواردها تلك الصروح الكثيرة النفقة التى تكاد الحضارة الصناعية تعجز عن الاحتفاظ بها ؟

لقد كان السكان قليلين ، ولكنهم كانوا مؤمنين ؛ وكانوا فقراء ، ولكنهم كانوا يبذلون بسخاء عظيم . ويقول سوجر رئيس دير القديس دنيس إن العابدين فى أيام الأعياد ، وفى الكنائس التى يؤمها الحجاج ، كانوا من الكثرة بحيث « تضطر النساء إلى الجرى إلى المذبح متخذات من رءوس الرجال طوارا »[1]، ولسنا ننكر أن الرئيس العظيم كان يجمع المال لبناء تلك الآية الفنية ، وأنه

(*) الكتدرائية هى الكنيسة الرئيسية فى الأسقفية وفيها يكون مقر الأسقف أو عرشه . (المترجم)

خليق لهذا السبب بأن نغفر له بعض مغالاته . ولكن أسبابا كثيرة كانت تدعو إلى بناء الكنائس بهذه الكثرة وتلك السعة : لقد كان من المرغوب فيه أن يجتمع سكان بعض المدن مثل فلورنس ، وپيزا ، وتشارتر ، ويورك ، فى صرح واحد فى بعض المناسبات . كذلك كان لا بد أن تتسع كنيسة الدير المزدحم للرهبان والراهبات ولغير رجال الدين . وكان لا بد من أن تحفظ المخلفات المقدسة فى أضرحة خاصة تتسع أيضا للصفوة من العابدين ، وكانت الحاجة تدعو إلى وجود بناء مقدس رحب تقام فيه الطقوس الكبيرة ، وإلى مذابح جانبية فى الأديرة والكتدرائيات التى ينتظر أن يتلو قساوستها الكثيرون القداس فى كل يوم ؛ وكان الاعتقاد السائد أن مذبحا أو مصلى يخصص لكل قديس محبوب قد يدعوه إلى إجابة طلبات من يتوسلون إليه ؛ وكان لا بد أن يبنى لمريم « مصلى نسائية » إذا لم تكن الكنيسة كلها ملكا لها .

أما نفقات هذه الصروح فقد كان معظمها يؤخذ مما يجمع من الأموال فى كرسى الأبرشية ؛ وكان الأساقفة فضلا عن هذا يطلبون العطايا من الملوك والنبلاء ، والمدن ذات الحكم الذاتى ، والنقابات الطائفية والأبرشيات ، والأفراد . وكانت المنافسة الطيبة تثار بين المدن التى أضحت الكتدرائية فيها رمزا لثرائها وسلطانها ، تتحدى بهما غيرها من المدن ؛ وكان المتبرعون يوعدون بأن تغفر لهم ذنوبهم ، كما كانت المخلفات المقدسة يطاف بها فى الأبرشية لتحفز الناس إلى العطاء ، وقد يحدث فى بعض الأحيان أن يحرض الناس على البذل والسخاء بمعجزة من المعجزات(٢) . وكان التنافس فى بذل المال للبناء شديداً ؛ وكان الأساقفة يعارضون فى جمع المال من أبرشياتهم لإقامة منشآت فى غيرها ، ولكن أساقفة من أجزاء أخرى ، ومن بلاد أجنبية فى بعض الأحيان ، كانوا يمدون بالمعونة مشرعات فى غير بلادهم كما حدث فى مدينة تشارتر . ولسنا ننكر أن بعض هذه الطبقات كانت تقرب أحيانا من الإلزام ، ولكنها قلما تصل إلى قوة

المؤثرات التى تعبأ لتمويل الحروب الحديثة من الأموال العامة . وقد استنفدت هيئات القساوسة فى الكتدرائيات الفرنسية أموالها الخاصة ، وكادت تفلس من أجل ذلك الكنيسة الفرنسية فى خلال سورة البناء القوطية . ولم يكن الناس أنفسهم يشعرون وهم يتبرعون بالمال بأنهم يُستَغلون ، وقلما كانوا يحسون بفقد القليل الذى يبذله كل فرد منهم ، لأن هذا القليل كان يرد إليهم فيما يعود عليهم من عزة جماعية وعمل جليل عظيم ، وفيما يكون لهم من بيت للعبادة ، ومكان رحب يجتمعون فيه ، ومدرسة يتعلم فيها أبناؤهم ، ومدرسة للفنون والحرف تتلقاها فيها نقاباتهم الطائفية ؛ وكانت فى نظرهم كتاباً مقدسا من الحجارة يقرءون فى تماثيله وصوره بعين بصيرتهم قصة إيمانهم . وقصارى القول أن بيت الله كان أيضاً بيت الشعب .

ومن هم الذين خططوا الكتدرئيات ؟ إذا كانت العمارة هى فن تخطيط البناء وتجميله ، وتوجيه القائمين بتشييده فإن علينا أن نرفض — فى حالة الفن القوطى — الرأى القديم القائل إن القسيسين أو الرهبان هم مهندسو هذه للصروح . لقد كانت مهمتهم هى أن يصوغوا حاجتهم ، وأن يتقدموا بفكرة عامة عن البناء المطلوب ، ويحصلوا على مكان يقيمونه فيه ، ويجمعوا ما يلزمه من المال . وقد جرت عادة رجال الدين وبخاصة رهبان دير كلونى قبل عام ١٠٥٠ أن يصمموا البناء ، ويضعوا خطته ، ويشرفوا على بنائه . أما الكتدرائيات الكبرى — كلها بعد عام ١٠٥٠ — فقد كان لا بد فيها من استخدام مهندسين محترفين ، كانوا كلهم — إلا قلة منهم لا تذكر — من غير الرهبان أو القسيسين . ولم يكن المهندس المعمارى يلقب بهذا اللقب قبل عام ١٥٦٣ ، بل كان يسمى فى العصور الوسطى « رئيس « البنائين » وأحيانا رئيس المشيدين » ، وتدلنا هذه التسمية على منشئه . فقد كان يبدأ حياته بنَّاء يعمل بيده فى البناء الذى يشرف عليه . فلما استهل القرن الثالث عشر وعظم الثراء ، فشيدت بفضله الصروح الكبيرة ، وزاد

التخصص ، لم يبق « رئيس البنائين » رجلا يشترك بنفسه فى العمل اليدوى ، بل أصبح رجلا يضع الخطط ويعرض المناقصات ؛ ويقبل المشارطات ، ويخطط الأرض ، ويضع الرسوم ، ويحصل على المواد ، ويؤجر العمال والفنانين ، ويؤدى إليهم أجورهم ، ويشرف على أعمال البناء من البداية إلى النهاية . وإنا لنعرف أسماء الكثيرين من هؤلاء المهندسين الذين عاشوا بعد عام ١٠٥٠ ، نعرف أسماء ١٣٧ من المهندسين القوط فى أسبانية العصور الوسطى بله غيرها من البلاد . ومن هؤلاء من كانوا ينقشون أسماءهم على ما يشيدونه من الأبنية ، ومنهم قلة ألفت كتباً فى مهنتها . وقد ترك ڤلار ده هنكور Villard de Honnecourt (حوالى عام ١٢٥٠) سجلا من المذكرات والرسوم التخطيطية المعمارية توضح ما قام به من الأسفار وهو يمارس مهنته من ليون وريمس إلى لوزان وبلاد المجر .

ولم يكن للفنانين الذين يقومون بأعمال أقل درجة من البناء — أى الذين يحفرون الصور ، والنقوش ، أو يدهنون النوافذ والجدران ، أو يزينون المذبح أو مكان المرتلين — لم يكن لهؤلاء الفنانين اسم خاص يمتازون به من الصناع ؛ لقد كان الفنان رئيس صناع ، وكانت كل صناعة تحاول أن تكون فنا . وكانت معظم الأعمال توزع بمقتضى عقود ومشارطات على النقابات الطائفية التى ينتمى إليها الصناع والفنانون على السواء . أما العمل الذى لا يحتاج إلى مهارة فكان يقوم به أرقاء الأرض أو عمال متنقلون مأجورون ؛ وإذا ما طلب العمل الإسراع جندت الحكومة رجالا — وصناعا ماهرين إذا لزم الأمر — لإنجازه[٣] . وكانت ساعات العمل تدوم فى الشتاء من مطلع الشمس إلى مغيبها ، وفى الصيف من بعد مطلع الشمس إلى قبيل الغروب ، مع السماح للعمال بوقت يتناولون فيه وجبة الغداء . وكان المهندسون الإنجليز يتقاضون فى عام ١٢٧٥ اثنى عشر بنسا فى اليوم (١٢ سنتاً أمريكيا) تضاف إليها أجور الانتقال وهدايا فى بعض الأحيان .

وكان تخطيط أرض الكتدرائية فى جوهره هو تخطيط الباسلقا الرومانية : فهو صحن مستطيل ينتهى بمحراب وقبا ، ويرتفع فوق طرقتين وبينهما إلى سقف قائم على جدران وعمد . وطرأ على هذه الباسلقا البسيطة تطور معقد ولكنه فاتن خلاب ، فأضحت هى الكتدرائية الرومنسية أولا والقوطية فيما بعد ، فقطع الصحن والطرقتين صحنٌ عَرْضى يجعل التصميم فى شكل صليب لاتيني . وأخذت مساحة أرض الكتدرائية تزداد بفضل المنافسة أو الحماسة الدينية ، حتى أضحت مساحة كنيسة نوتردام فى باريس ٦٣ر٠٠٠ قدم مربعة ، ومساحة كنيسة تشارتر أو ريمس ٦٥ ألفاً ، وكنيسة أمين ٧٠ ألفاً ، وكولونى ٩٠ ألفاً والقديس بطرس ١٠٠ ألف . وكانت الكنيسة المسيحية تبنى بحيث يكاد رأسها أو محرابها يكون على الدوام متجهاً نحو الشرق — أى نحو بيت المقدس .

ومن أجل هذا كان المدخل الرئيسى فى الواجهة الغربية التى تستقبل زخرفتها الخاصة ضوء الشمس الغاربة . وكان كل مدخل فى الكتدرائيات العظيمة يتألف من باكية ذات « تجويفات داخلة » : أى أن أبعد العقود من الداخل يعلوه عقد أكبر منه يمتد إلى الخارج ، من فوقه هو أيضاً عقد يعلوه عقد ثالث أكبر من الثانى ، ويتكرر هذا الوضع حتى تبلغ العقود فى بعض الأحيان ثمانى طبقات يتكون منها كلها غلاف قابل للاتساع . وهناك « طبقات ثانوية » شبيهة بها تزيد جمال عقود الصحن وأكتاف الشبابيك . ويتسع كل رباط حجرى من العقد المعمارى لتماثيل أو غيرها من الزخارف المنحوتة ، وبذلك يصبح مدخل الكتدرائية ، وبخاصة فى الواجهة الغربية ، وكأنه فصل شامل واف فى كتاب القصص المسيحى الحجرى .

ومما زاد روعة الواجهة الغربية ومهابتها أن أقيم حولها من الجانبين برجان ؛ ذلك أن الأبراج قديمة قدم السجلات التاريخية ؛ ولم تكن تستخدم فى الطرازين الرومنسى والقوطى مكاناً للأجراس فحسب ، بل كانت تستخدم فوق ذلك

لتحمل ضغط الواجهة الجنوبى ؛ وضغط طوب الأجنحة . وكان فى المبانى النورمندية والإنجليزية برج ثالث ذو نوافذ كثيرة ، إذا لم يكن جزوءه الأكبر مفتوحاً عند قاعدته ، وكان هذا البرج بمثابة « فانوس » ينفذ منه الضوء الطبيعى إلى وسط الكنيسة . وقد أراد المهندسون القوط المولعون بالأوضاع الرأسية أن يضيفوا برجا رفيعاً مستدق الطرف لكل واحد من هذين البرجين ، غير أنهم لم يسعفهم المال ، أو المهارة الفنية ، أو الحماسة ؛ وسقطت بعض هذه الأبراج المستدقة كما حدث فى بوفيه ؛ ولم تقم فى كتدرائيات نوتردام ، أو أمين ، أو ريمس أبراج من هذا النوع ، ولم يُبن فى تشارتر إلا برجان من الثلاثة الأبراج المستدقة التى كان فى النية إقامتها ، كما لم يُبن فى لاون إلا واحد من خمسة ، وقد دمر هذا البرج المستدق فى أثناء الثورة الفرنسية . وكان برج الجرس يشرف على المدن الإيطالية ، كما كان البرج المستدق يشرف على برارى البلاد الأوربية والشمالية . وكانت هذه الأبراج فى تلك الجهات الشمالية منفصلة عادة عن بناء الكنيسة ، تشبه من هذه الناحية برج بيزا Pisa المائل ، أو برج چيتو فى فلورنس . ولعل من شادوها قد تأثروا بالمآذن الإسلامية ، ثم عادوا فنشروا هذا الطراز فى فلسطين وسوريا ، وأصبحت هى أبراج الأجراس فى المدن الشمالية .

وإذ كانت العمد التى على جانبى الطرقة الوسطى فى داخل الكنيسة تعتمد عليها عقود تنحنى حتى تلتقى فى قبة السقف ، فإن هذه الطرقة تبدو للناظر كأنها هيكل المركب من الداخل فى وضع مقلوب ، ومن هذا الوضع اشتق اسمها nave(*) . وكان طولها ينقص تأثيره فى نفس الناظر إليه أحياناً ، وبخاصة فى إنجلترا ، بإضافة شباك من الرخام أو الحديد المشغول منحوت أو مصبوب نحتاً أو صباً جميلا يعترض الصحن ليقى المحراب من تطفل العلمانيين أثناء الصلاة .

(*) الاسم الإنجليزى **nave** الذى يطلق على صحن الكنيسة أى جزئها الأوسط الهام مشتق من كلمة **net** الفرنسية المأخوذة من كلمة **navis** اللاتينية ومعناها السفينة . (المترجم)

وكان فى المحراب مقاعد للمرنمين كلها تحف فنية على الدوام ، ومنبران ، ومقاعد للقساوسة الذين يصلون بالناس ، والمذبح الرئيسى الذى يحتوى فى أغلب الأحيان على ستار خلفى مزخرف . ومن حول المحراب ممشى دائرى يصل صحن الكنيسة بقبابها ، ويسمح للمواكب بأن تطوف بالبناء كله . وكانت بعض الكنائس تنشئ تحت المذبح قبواً تحفظ فيه مخلفات القديس الشفيع ، أو عظام الأموات الممتازين ، وكأنها بذلك تذكرنا بحجرات الدفن فى مقابر الرومان .

وكانت المشكلة الكبرى فى العمارة الرومنسية أو القوطية هى طريقة ارتكاز السقف . لقد كانت الكنائس الأولى المقامة على الطراز الرومنسى ذات سقف خشبية مصنوعة فى العادة من خشب البلوط الجيد الجفاف ؛ وإذا ما أحسنت تهوية هذا الخشب ومنعت عنه الرطوبة فإنه يبقى إلى ما شاء الله ، وشاهد ذلك أن الطرقة الجنوبية المستعرضة فى كتدرائية ونشستر لا تزال محتفظة بسقفها الخشبى المصنوع فى القرن الثانى عشر . وأكبر عيب فى هذه السقف هو تعرضها لخطر الحريق ، فإذ ما شبت النار فيها كان من الصعب الوصول إليها لإطفائها . ولهذا فإنه لم يستهل القرن الثانى عشر حتى كانت الكنائس الكبرى كلها تقريباً قد بنيت سقفها . وكان ثقل هذه السقف هو الذى وجه تطور العمارة الأوربية فى العصور الوسطى ؛ فكان لابد من أن يرتكز قسم كبير من هذا الثقل على العمد المقامة على جانبى الصحن ؛ وإذن فقد كان لا بد من تقوية هذه العمد أو مضاعفة عددها ، وقد تحقق هذا الغرض بضم عدد من العمد فى مجموعة أو إحلال دعامات ضخمة من البناء محل هذه العمد . وكانت مجموعة العمد أو الدعامة الضخمة يعلوها تاج ، وربما كانت لها أيضا عصابة يتسع بها سطحها لتحمل ما يعلوها من ثقل . وكانت مروحة من العقود تقوم فوق كل مجموعة من العمد أو الدعامة : منها عقد مستعرض فى الصحن يمتد إلى الدعامة المواجهه ، وعقد مستعرض آخر يمر فوق الطرقة إلى دعامة فى الجدار ، وعقـــدان طوليان يمتدان إلى الدعامتين التاليتين

الخلفية منهما والأمامية ، وعقدان ممتدان على طولى القطرين ويصلان بين إحدى الدعامات ودعامتين مقابلتين لها فى عرض الصحن ؛ وقد يكون هناك عقدان آخران ممتدان إلى دعامتين مقابلتين يعلوان فوق عرض الممشى . وقد جرت العادة أن يكون لكل عقد ركيزته الخاصة فوق عصابة الدعامة أو تاجها . وكان يحدث أحياناً ما هو خير من هذا فيكون مستطيل كل عقد فى خط غير منقطع حتى يصل إلى الأرض ليكون طائفة من العمد المتجمعة أو الدعامات المركبة . وكان الأثر الذى ينتج من هذه العمد والدعامات الرأسية من أجمل خصائص الطرازين الرومنسى والقوطى . وكان كل مربع من الدعامات القائمة فى الصحن أو الطرقات يكون فرجة ترتفع منها العقود منثنية انثناء رشيقاً نحو الداخل ليتكون منها قسم من القبة . وكان هذا السقف يغطى من الخارج بسطح هرمى من الخشب تستره وتقيه طبقة من الاردواز أو القرميد .

وكانت قبة السقف أعظم ما أنتجته عمارة العصور الوسطى . وقد سمح مبدأ العقود بإيجاد فضاء يغطى أوسع رقعة من السطح الذى ييسر وجوده السقف الخشبى أو العوارض المرتكزة على العمد . وبهذا أصبح من المستطاع توسيع عرض الصحن حتى يوائم طوله الكبير ؛ فلما زاد هذا العرض تطلب ذلك زيادة ارتفاعه حتى يتناسب الارتفاع مع سعته ؛ وييسر هذا ارتفاع المستوى الذى تقوم فوقه الدعامات أو الجدران ؛ وهذه الاستطالة الجديدة فى العمد زادت هى الأخرى من علو الكتدرائية . وزاد تناسق أجزاء القبة لما أنشئت فى حافاتها « ضلوع » من الآجر أو الحجارة تمتد من زوايا تقاطع العقود . وأدت هذه الضلوع هى الأخرى إلى تحسينات كبرى فى البناء والطراز . فقد عرف البناءون كيف يبدأون القبة بإنشاء ضلع بعد ضلع فوق إطار خشبى يسهل تحريكه ونقله ؛ ثم ملأوا المثلثات التى بين كل ضلعين بالبناء الخفيف مثلثاً بعد مثلث ، وجعلوا هذه الشبكة الرقيقة من البناء مقعرة ؛ وبهذا نقل الجزء الأكبر من ثقله إلى الضلوع

نفسها ، وجعلت هذه الضلوع قوية حتى يلقى الضغط السفلى على نقط معينة — هى دعامات الصحن أو الجدار . ولقد أضحت القبة ذات الأضلاع والعقود المتقاطعة من أهم ما تمتاز به عمارة العصور الوسطى فى أعلى درجاتها .

وعولجت مشكلة ارتكاز البناء العلوى فوق هذا بجعل صحن الكنيسة أعلى من طرقاتها ؛ وبهذا كان سقف الطرقة ، هو والجدار الخارجى ، بمثابة دعامة لقبة الصحن ؛ وإذا ما بنيت فوق الطرقة نفسها قبة ، فإن عقودها المضلعة تلقى نصف ثقلها إلى الداخل لتقاوم بذلك الضغط الخارجى للقبة الوسطى عند أضعف نقط فى دعامات الصحن . يضاف إلى هذا أن جزء الصحن الذى يعلو عن سقف الطرقات يصبح فى الوقت نفسه بمثابة طابق أعلى ترتفع نوافذه فوق مستوى البناء المجاور له ، فتكون بذلك غير محجوبة وتضىء صحن الكنيسة . وكانت الطرقات نفسها تقسم عادة إلى طابقين أو ثلاثة أطباق تكون أعلاها شرفة ، وتسمى التى أسفل منها ذات الأبواب الثلاثة لأن المسافات التى بين العقود والتى تواجه بها الصحن كانت تقسم عادة إلى « ثلاثة أبواب » بعمودين يقومان فيها . وكان ينتظر من النساء فى الكنائس الشرقية أن يصلين فى ذلك المكان وأن يتركن الصحن كله للرجال .

وهكذا قامت الكتدرائية مرحلة فى إثر مرحلة خلال عشرة أعوام أو عشرين عاما أو مائة عام ، تتحدى قوة الجاذبية لتمجد الله سبحانه : فإذا تمت وأصبحت معدّة للصلاة دشنت باحتفال دينى فخم ، يجتمع فيه كبار الأحبار وذوو المقام العالى ، والحجاج ، والنظارة ، وجميع أهل المدينة ما عدا القرويين غير المتدينين . وتمضى عدة سنوات بعد ذلك لتكملة ما تحتاج إليه من الإضافات فى الداخل والخارج وإضافة ألف من الزخارف وضروب التحلية . ويظل الناس قروناً طوالا يقرأون على أبوابها ، ونوافذها ، وتيجان أعمدتها وجدرانها ما حفر أو صور عليها من تاريخ دينهم وقصصه — يقرأون قصة خلق العالم ، وسقوط آدم ، ويوم

الحساب ، وسير الأنبياء والبطارقة وما تعرض له أولياء الله الصالحون من صنوف العذاب وما قاموا به من المعجزات ، والقصص ذات المغزى التى تدور حول عالم الحيوان ، وعقائد رجال الدين التحكمية ، بل وآراء الفلاسفة التجريدية . كل هذه نجدها فى الكنيسة تتكون منها موسوعة حجرية كبيرة فى الدين المسيحى . وكان المسيحى الصالح يرجو حين يموت أن يدفن بالقرب من تلك الجدران التى تمتنع الشياطين عن الجولان حولها . ويأتى الناس جيلا بعد جيل للصلاة فى الكتدرائية ، ويخرجون جيلا بعد جيل من الكنيسة إلى المقابر التى حولها . وتطل الكتدوائية الشهباء عليهم فى غدوهم ورواحهم بهدوء الحجارة الساكنة حتى يجىء الموت الأعظم ، ويموت الدين نفسه ، فتستسلم هذه الجدران المقدسة إلى الدهر الذى لا يبقى على شىء ، أو حتى تهدم هذه الكتدرائية لتبنى من أنقاضها هياكل جديدة لآلهة جدد .

الفصل الثانى

الطراز الرومنسى القارى : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لو أننا قلنا إن هذا الوصف العام الذى وصفنا به بناء الكتدرائية يصدق على جميع الكنائس فى العالم المسيحى اللاتينى لأخطأنا خطأً كبيراً فى شأن تنوع العمارة الغربية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ذلك أن تأثير الفن البيزنطى قد بقى قائماً فى مدينة البندقية ؛ وقد أضيفت إلى كنيسة القديس بطرس زخارف بعد زخارف ، وأبراج بعد أبراج ، وغنائم تلو غنائم ، ولكنها كانت على الدوام على نمط مثيلاتها فى القسطنطينية ممتزجة بأخرى من بغداد . وأكبر الظن أن طراز القباب البيزنطى ذا المثلثات التى بين العقود القائمة فوق قاعدة يونانية على شكل الصليب ، قد دخل فرنسا عن طريق جنوى أو مرسيليا ، وظهر فى كنيستى سانت إتين St. Etienne وسانت فرونت St. Front فى برجويه Perigucx وفى كتدرائيتى كاهور Cahors وأنجوليم Angoulême . ولما أن اعتزمت البندقية إعادة بناء قصر الدوج وتوسيعه عمدت فى عام ١١٧٢ إلى خليط من الطرز المعمارية — الرومانية ، واللمباردية ، والبيزنطية ، والعربية — وجمعتها كلها فى آية من آيات الفن وصفها ڤيلهاردون Villehardouin فى عام ١٢٠٢ بأنها جد غنية وجميلة ، ولا تزال حتى الآن أكبر مفاخر القناة الكبرى فى تلك المدينة .

وليس ثمة تعريف لأى طراز معمارى يسلم من الشواذ ، ذلك بأن أعمال الإنسان ، كأعمال الطبيعة نفسها ، تأبى التعميم ، وتـلـوِّح بفرديتها فى وجه كل قاعدة . فلنقل إذن إن العقد المستدير ، والجدران والدعامات السميكة ، والنوافذ الضيقة ، ومساند الجدران المتصلة بعضها ببعض أو انعدام هذه المساند ، والخطوط الأفقية فى الغالب ، لنقل إن هذه الصفات هى التى يمتاز بها الطراز الرومنسى ،

ولنكن مستعدين مع هذا إلى قبول بعض الانحراف عن هذا الوصف فى هذا الطراز .

وقد طلبت پيزا بعد ما يقرب من قرن من إقامة كنيستها إلى ديوتيسلڤى Diotisalvi أن يبنى مكاناً للتعميد فى عرض مربع من مربعات الكتدرائية (١١٥٢) . فصمم البناء على شكل دائرة وجعل ظاهر البناء من الرخام ، وشوهه بالبواكى الخالية من النقوش ، وأحاطه بالعمد ، وأقام فوقه قبة لولا أنه جعل أعلاها مخروطى الشكل لكانت كاملة . ثم أقام بونانو Bonanno من پيزا ووليم من إنزبروك Innsbruck البرج المائل ليكون برجا للأجراس (١١٧٤) . وقد تكرر فيه طراز واجهة الكتدرائية — فهو سلسلة من البواكى الرومنسية بعضها فوق بعض وفى طبقته الثامنة علقت الأجراس . وهبط البرج فى ناحيته الجنوبية بعد أن بنيت ثلاث طبقات فوق الأساس الذى لم يزد عمقه على عشر أقدام ؛ وأراد المهندس أن يعوض هذا الميل بأن أمال الطبقات الأخرى نحو الشمال . وينحرف البرج الآن عن الوضع العمودى ست عشرة قدماً ونصف قدم فى ارتفاع ١٧٩ قدماً — وقد زاد هذا الانحراف قدماً واحدة بين عامى ١٨٢٨ و ١٩١٠ .

وجاءت الأنماط الرومنسية مع الرهبان الإيطاليين الذين هاجروا إلى فرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، ولعل هؤلاء الرهبان هم الذين طبعوا معظم الأديرة الفرنسية بالطابع الرومنسى ، ولهذا فقد أصبح طراز الأديرة اسماً ثانياً لهذا الطراز فى فرنسا . وقد شاد رهبان دير كلونى البندكتيون فيها ديراً فخماً (١٠٩٨ — ١١٣١) يحتوى على أربع طرقات جانبية وسبعة أبراج ، ونحتوا طائفة كبيرة من تماثيل الحيوانات أثارت غضب القديس برنار وأنطقته بقوله :

ماذا تريدون أن تفعل هذه الوحوش السخيفة المضحكة فى أروقة الدير تحت سمع الرهبان وبصرهم ؟ وما معنى وجود هذه القردة النجسة ، وتلك

التنينات ، والقنطروسات ، والنمورة ، والآساد . . . وأولئك المقاتلين ، ومناظر الصيد التي تغطي الجدران ؟ . . . وماذا تعمل تلك المخلوقات التي نصفها وحوش ونصفها أناسي ؟ . . . إنا لنرى هنا عدة أجسام تحت رأس واحد ، وعدة رؤوس فوق جسم واحد ، ونرى في مكان ما حيواناً من ذوات الأربع له رأس ثعبان ، وفي مكان آخر سمكة لها رأس حيوان من ذوات الأربع ؛ ونرى في مكان غيره جواداً من الأمام وماعزاً من الخلف(٤) .

وقد دمر دير كلوني في أثناء اضطرابات الثورة الفرنسية ، ولكن أثره المعماري انتشر في الألفين من الأديرة المنتسبة إليه . ولا يزال جنوبي فرنسا غنياً بالكنائس الرومنسية ، فقد كانت التقاليد الرومانية فيها قوية في الفن كما كانت قوية في القوانين ، وظلت زمناً طويلا تقاوم الطراز « البربري » القوطي الذي أقبل عليها من الشمال . وإذ كان الرخام نادراً في فرنسا فقد عوضت نقص البريق الخارجي بكثرة الصور المنحوتة ، وإن ما تمتاز به التماثيل من قوة التعبير لما يثير الدهشة — ففيها يتبين الناظر العزم على نقل الإحساس بدل نقل المنظر ؛ ولهذا فإن صورة القديس بطرس القائمة عند باب دير مواساك Moissac (١١٥٠) بوجهها المعذب وساقيها العنكبوتيتين لم تكن تهدف بلا ريب إلى إبراز خطوط البناء بقدر ما كانت تهدف إلى التأثير في خيال الناظر إليها وبث الرعب في قلبه . وتدل صور النبات الدقيقة الواقعية في تيجان أعمدة مواساك على أن المثالين قد عمدوا عن قصد إلى تشويه ما يرسمون من الصور . وخير ما يوجد من هذه الواجهات الرومنسية في فرنسا هو المدخل الغربي لكنيسة القديس تروفيم St. Trophime في آرل (١١٥٢) ، المزدحمة بصور الحيوانات والأولياء الصالحين .

وشادت أسپانيا ضريحاً رومنسياً فخماً في كنيسة سنتياجو ده كمپستسيلا (١٠٧٨ — ١٢١١) الذي يحتوي « باب المجد » Portico de Gloria فيها

أجمل نحت رومنسي فى أوربا كلها . وشادت كوامبرا Coimbra ، التى أضحت بعد زمن وجيز مدينة البرتغال الجامعية ، كتدرائية رومنسية فى القرن الثانى عشر ، ولكن الطراز الرومنسي لم يبلغ ذروته إلا فى البلاد الشمالية التى هاجر إليها . لقد نبذته إيل ده فرانس Ile de France ولكن نورمندية أحسنت استقباله ، لأن قوتها الخشنة كانت توائم أحسن مواءمة شعباً كان من عهد قريب من بحارة الشمال المغيرين ، ولم يزل حتى ذلك الوقت من القراصنة . ولهذا شاد رهبان چوميج Jumièges البندكتيون وهى بلدة قريبة من رون — فى عام ١٠٤٨ ديراً اشتهر بأنه أكبر من أى دير سواه شيد فى أوربا الغربية منذ أيام قسطنطين ، ذلك بأن العصور الوسطى كانت تفخر أيضاً بضخامة مبانيها . وقد دمر هذا الدير نصف تدمير على أيدى المتعصبين من رجال الثورة ، ولكن واجهته وأبراجه الباقية حتى الآن تحتفظ بتصميمه الجرىء القوى . والحق أن الفرع النورمندى من الطراز الرومنسي قد تكوّن فى ذلك المكان ، وكان يعتمد فى تأثيره على الحجم وشكل البناء أكثر مما يعتمد على الزينة .

وأراد وليم الفاتح أن يكفر عن ذنبه بزواج ماتلدة أميرة فلندرز فقدم فى عام ١٠٦٦ المال اللازم لبناء كنيسة سانت إتين فى كائن Caen وهى المعروفة بدير الرجال Abbays aux Homme ؛ وقدمت ماتلدة ، لهذا الغرض عينه فيما نظن ، ما يلزم من المال لبناء كنيسة الثالوث La Trinité المعروفة بدير النساء Abbys aux Dames ولما أريد إعادة بناء دير الرجال فى عام ١١٣٥ قسمت كل فرجة بين العمد فى صحن الكنيسة بعمود إضافى فى كل ناحية ، وربط العمودان الجديدان بقوس مستعرضة ، وبهذا أضحت القبة الرباعية قبة سداسية ، وهو شكل انتشر فى أوربا فى القرن الثانى عشر .

وانتقل الطراز الرومنسي من فرنسا إلى فلاندرز وأنشئت على هذا الطراز كتدائية جميلة فى تورناى (١٠٦٦) ؛ ومن فلاندرز ، وفرنسا ، وإيطاليا انتقل

إلى ألمانيا . وكانت مدينة مينز قد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٠٠٩ ، وترير Trier فى عام ١٠١٦ واسپاير Speyer فى ١٠٣٠ ، ثم أعيد بناء هذه الكنائس قبل عام ١٣٠٠ ، واحتفظ فيها حين إعادتها بالطراز المستدير ، وشادت كولونى في ذلك الوقت فى كپتول Kapitol كنيسة القديسة مارية التى اشتهرت بجمالها من الداخل وكنيسة القديسة مارية الشهيرة بأبراجها . وقد دمرت الكنيستان فى الحرب العالمية الثانية . ولا تزال كتدرائية ورمز التى افتتحت فى عام ١١٧١ وأعيد بناؤها فى القرن التاسع عشر تشهد بعظمة فن نهر الرين الرومنسى . وكان لكل واحدة من هذه الكنائس قبا فى كل طرف ، وقلما كان يعنى فيها بالواجهات ذات التماثيل المنحوتة ، بل كانت تزدان من الخارج بالعمد وتدعم بأبراج أخرى صغيرة رفيعة ذات أشكال مختلفة . وإن الناقد غير الألمانى ليمتدح هذه الأضرحة بالاعتدل المنبعث من نزعته الوطنية ، ولكن الألمانى يرى فيها جمالا فاتنا يوائم كل المواءمة جمال بلاد الرين الجذاب .

الفصل الثالث

الطراز النورمندى فى إنجلترا : ١٠٦٦ — ١٢٠٠

لما جلس إدورد المعترف على العرش فى عام ١٠٤٢ جاء معه بكثير من الأصدقاء والأفكار من بلاد نورمندية التى قضى فيها أيام شبابه . وبدأ دير وستمنستر فى أيامه كنيسة نورمندية ذات عقود مستديرة وجدران ثقيلة ؛ وقد دفن هذا البناء تحت الدير القوطى الذى شيد فى عام ١٢٤٥ ؛ ولكنه كان بداية انقلاب معمارى خطير ؛ وكان الإسراع فى استبدال الأساقفة النورمنديين بالسكسون والدنمرقيين مما أكد غلبة الطراز النورمندى فى إنجلترا . ونفح وليم الفاتح وخلفاوه الأساقفة بكثير من الثروة المصادرة من الإنجليز الذين لم يقـدروا فتح بلادهم حق التقدير وأضحت الكنائس أداة لتهدئة العقول ؛ وما لبث الأساقفة الإنجليز النورمنديون أن بلغوا من الثراء ما بلغه النبلاء الإنجليز النورمنديون ؛ وتضاعف عدد الكتدرائيات والقصور ، وتحالفت بعضها مع بعض فى البلاد المفتوحة . وكتب فى ذلك وليم المالمزبرى William of Malmsbury يقول : « وأخذوا كلهم ينافس بعضهم بعضا فى إقامة العمائر الفخمة على الطراز النورمندى ؛ لأن النبلاء كانوا يشعرون بأن اليوم الذى يحتفلون فيه بعمل فخم عظيم يوم ضائع »(٥) . والحق أن إنجلترا لم تشهد قط سورة جنونية فى البناء كالتى شهدتها فى ذلك الوقت .

وتفرعت العمارة النورمندية الإنجليزية من الطراز الرومنسى وكانت مغايرة له فى بعض أجزائه . فقد حذت حذو المثل الفرنسية فى ارتكاز السقف بعقود مستديرة على دعامات سميكة وجدران ثقيلة — وإن كانت سقفها قد صنعت فى العادة

من الخشب . وإذ كانت القبة من الحجارة فقد كان سمك الجدران يتراوح بين ثمان أقدام وعشر . وكانت معظم الكنائس أشبه بالأديرة فى أنها تقام فى أماكن نائية لا فى المدن . ولم يكن فى الكنيسة إلا قليل من التماثيل الخارجية ، لأن القائمين عليها كانوا يخشون على هذه التماثيل من مناخ البلاد الرطب ، وحتى تيجان الأعمدة كانت تُنحت نحتاً بسيطاً غير دقيق ؛ والحق أن إنجلترا لم تبلغ فى النحت ما بلغته بلاد القارة الأوربية ؛ وإن لم تكن فى تلك البلاد أبراج كثيرة تضارع الأبراج العظيمة التى تشرف على القصور النورمندية أو تحرس وجهات الكنائس النورمندية — أو ملتقى الطرقات المغطاة فيها .

ولا يكاد يبقى إلى وقتنا هذا فى إنجلترا كلها بناء كنسى رومنسى خالص . فقد ارتفعت فى كثير من الكتدرائيات العقود والقباب فى القرن الثالث عشر ، ولم يبق فيها إلا الشكل الأساسى النورمندى ؛ وقد دمرت النار كتدرائية كنتربرى القديمة فى عام ١٠٦٧ ، ثم أعاد لافرانك بناءها (١٠٧٠ — ١٠٧٧) على نمط دير الرجال الذى له فى كائن ، ولم يبق من كنيسة لافرانك إلا قطع قليلة من البناء فى المكان الذى سقط فيه بكت . ثم أقام الرئيسان إرنلف وكنراد سردابا جديداً ومكاناً للمرتمين ، واحتفظا بالعقد المستدير ولكنهما نقلا الضغط على نقط تقويها مساند خارجية . وكان الانتقال إلى الطراز القوطى قد بدأ قبل ذلك الوقت .

واختفت فى عام ١٢٩١ كنيسة يورك التى شيدت فى عام ١٠٧٥ على قواعد نورمندية ، وكان اختفاؤها تحت صرح قوطى ، وأعيد بناء كتدرائية لكلن ، التى كانت فى الأصل (١٠٧٥) نورمندية الطراز ، على الطراز القوطى ، وكان ذلك بعد أن دمرها زلزال عام ١١٨٥ ؛ ولكن الكنيسة النورمندية الأولى بقى منها البرجان الكبيران والأبواب الفخمة النحت ، ومنها يستبين الإنسان ما يمتاز به الطراز القديم من حذق وقوة . وفى ونشستر بقيت من الكتدرائية القديمة التى

أقيمت بين عامى ١٠٨١ و ١١٠٣ طرقاتها المتقاطعة وسردابها . وهذه الكنيسة هى التى بناها الأسقف ولكلين Walkelin لاستقبال الوفود التى كانت تحج إلى قبر القديس إسويثين(*) . وقد لجأ إسويثين إلى ابن عمه وليم الفاتح ليمده بالخشب اللازم لسقف صحنها العظيم الاتساع ؛ وأجاز له وليم أن يأخذ من غابة همپاچ Hempage كل ما يستطيع قطعه من الأشجار فى ثلاثة أيام ، فما كان من أتباع ولكلين إلا أن قطعوا جميع أشجار الغابة ونقلوها فى اثنتين وسبعين ساعة . ولما تم بناء الكتدرائية شهد تدشينها رؤساء الأديرة الإنجليزية وأساقفتها كلهم تقريبا ؛ وليس من العسير علينا أن نتصور ما أثاره هذا الصرح الضخم من منافسة قوية فى البناء .

وفى وسعنا أن نتصور كذلك اتساع مجال التنافس فى الأبنية النورمندية إذا لاحظنا أن دير سانت أولبنز بادئ فى عام ١٠٧٥ ، وأن كتدرائية إلى Ely بدئت فى عام ١٠٨١ ، وروشستر فى عام ١٨٠٣ ، وكنيسة وورسستر فى عام ١٠٨٤ ، وكنيسة القديس بولس القديمة فى عام ١٠٨٧ ، وكنيسة جلوسستر فى ١٠٨٩ ، ودرهام فى ١٠٩٣ ، ونوروك فى ١٠٩٦ وتشيشستر فى ١١٠٠ ، وتوكسبرى Tewkesbury فى ١١٠٣ ، وإكستر فى ١١١٢ ، وپيتربرو Peterborough فى ١١١٦ ، وكنيسة دير رمزى Romsey فى ١١٢٠ ، ودير فونتن Fountains فى ١١٤٠ ، وكنيسة القديس داڤد بويلز فى ١١٧٦ . وليست هذه الكنائس مجرد أسماء بل هى كلها آيات فنية ؛ وإنا لنستحى أن نخرج من هذه الكنائس ولما نقض فيها إلا بضع ساعات ، أو أن نفرغ من الكلام عليها فى بعض السطور . وقد أعيد بناؤها أو بُدّلت كلها ما عدا واحدة على الطراز القوطى ، ذلك أن كنيسة درهام لاتزال نورمندية

(*) وهو أسقف من أساقفة ونشستر عاش فى القرن التاسع . وتقول إحدى القصص إن المطر قد أخر نقل جثته إلى الضريح الذى أعد له فى عام ٩٧١ مدة أربعين يوما ؛ ومن ثم نشأ القول المأثور إن نزول المطر فى يوم القديس اسويثين (١٥ يوليه) ينبىء باستمراره أربعين يوما .

فى معظم أجزائها ، ولا تزال أعظم الصروح الرومنسية فى أوربا روعة .

ودرهام بلدة صغيرة من بلدان التعدين يبلغ عدد سكانها نحو عشرين ألفاً . ويقوم عند ثنية من ثنايا نهر وير Wear نتوء صخرى ، ويقوم على على هذا المرتفع ذى الموقع المنيع صرح الكتدرائية الضخم « نصفه كنيسة لله ونصفه الآخر حصن منيع لصد غارات الاسكتلنديين »[٦] . وقد أقام جماعة من رهبان جزيرة لندسفارن Lindisfarne فارين من المغيرين الدنمرقيين كنيسة من الحجر فى ذلك المكان عام ٩٩٥ ، ثم هدّم أسقفها الثانى وليم السانت كارليفى of St. Carilef هذا البناءفى عام ١٠٩٣ وشاد الصرح القائم مكانه إلى هذا اليوم بشجاعة نادرة الوجود وثروة لا يعرف مصدرها حتى اليوم . وظل العمل فيها قائما حتى عام ١١٩٥ ، ولهذا فإن الكتدرائية تمثل آمال من شادوها وجهودهم مدى مائة عام كاملة . وصحن الكنيسة الشامخ نورمندى الطراز ، له صفان من البواكى ذات العقود المستديرة المرتكزة على تيجان غير منقوشة ودعامات ضخمة قوية . وقد أدخلت قبة درهام فى إنجلترا فكرتين جديدتين غاية فى الخطر : أولاهما أن ملتقى العقود والأقبية تخرج منه ضلوع ، وهذا يساعد على تركيز الضغط فى مواضع خاصة ؛ والثانية أن العقود المستعرضة مستدقة الرءوس على حين أن الأقطارمستديرة ؛ ولو أن العقود المستعرضة كانت مستديرة لما وصلت تيجانها إلى الارتفاع الذى بلغته الأقطار وهى أطول من العقود ، ولأصبحت قمة القبة خطا مضطرباً غير متساو فى الارتفاع . فلما رفعت تيجان العقود المستعرضة لتلتقى فى شكل زاوية أمكن إيصالها إلى الارتفاع المطلوب . ويبدو أن هذه الحاجة المعمارية لا الاستجابة إلى حاسة الجمال هى منشأ أهم المظاهر البارزة فى الطراز القوطى .

وأضاف الأسقف بدسى Pudsey فى عام ١١٧٥ إلى الطرف الغربى من

كتدرائية درهام طنفا جميلا جذابا أطلق عليه لسبب لا نعرفه اسم **الجليل** (*) والعقود القائمة فى هـــذا المكان — الذى يحتوى قبر بيد الأب الموقر — مستديرة ، ولكن العمد الرفيعة تقترب من الشكل القوطى . وقد تهدمت القبة القائمة فوق موضع المرنمين فى أوائل القرن الثالث عشر ، فلما أعيد بناؤها دعم المهندسون باكية الصحن بسنادات تربط الأجزاء العليا والوسطى من البناء بالسنادات الرأسية التى بالجدران الخارجية ، وتختفى تحت البواكى التى فى الصحن والطرقات . وأضيف إليها بين عامى ١٢٤٠ ، ١٢٨٠ ضريح ذو تسعة مذابح ليحتفظ فيه بمخلفات القديس كثبت Cuthbett ، وكانت العقود التى فى هذا الضريح مستدقة وبذلك تم الانتقال إلى الطراز القوطى .

(*) لعل الذى أوحى بهـــذا الإسم هو الآية السابعة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل مرقس . (المترجم)

الفصل الرابع

نشوء العمارة القوطية وارتقاؤها

يمكن تعريف هندسة العمارة القوطية بأنها حصر ضغط البناء فى أماكن خاصة ، وتوازن هذا الضغط ، وتوكيد الخطوط الرأسية ، والقباب المضلعة ، والأشكال المستدقة . وقد نشأ هذا الفن عن طريق حل المشاكل الآلية التى أوجدتها حاجة المبانى الكنسية والأمانى الفنية . ذلك أن خوف احتراق البناء أدى إلى إقامة القباب من الحجارة والآجر ، وأن ازدياد ثقل السقف أوجب بناء الجدران السميكة والدعامات السمجة ، ووجود الضغط السفلى فى كل مكان حدد سعة النوافذ ، وأن الجدران السميكة ظللت النوافذ الضيقة ، ولهذا أصبح داخل الكنيسة شديد الظلمة لا يتناسب مع جو البلاد الشمالية . وقد قلل اختراع القبة المضلعة ثقل السقف فأمكن بذلك إقامة العمد الرفيعة ، وحصر التوتر فى أماكن محددة ؛ كما أن تركيز الضغط وتوازنه قد أكسبا البناء استقراراً من غير زيادة فى الثقل ؛ وحَصْرَ الارتكاز بطريق المساند قد سمح بوجود نوافذ طويلة فى الجدران القليلة السمك ؛ وكانت النوافذ مجالا مغريا لممارسة فن الزجاج الملون الذى كان موجوداً فى ذلك الوقت ، كما أن الإطارات الحجرية التى تعلو النوافذ المركبة قد شجعت على قيام الفن الجديد فن النقوش الغائرة أو الرسوم السطحية ، وجعلت عقود القباب مستدقة ليمكن بها إيصال العقود ذات الأطوال المختلفة إلى تيجانها بارتفاع واحد لها جميعاً ، ثم جعلت العقود الأخرى وأشكال النوافذ مستدقة كذلك لتكون متناسقة مع عقود القبة . ولما تحسنت طرق احتمال الضغط على هذا النحو أمكن زيادة ارتفاع صحن الكنيسة ؛ وأبرزت الأبراج

الكبيرة ، وأبراج الأجراس الرفيعة ، والعقود المستدقة أهمية الخطوط الرأسية وأنتجت ما يمتاز به الطراز القوطى من علو شامخ ورشاقة تبعث البهجة فى النفوس . هذه الخصائص مجتمعة جعلت الكتدرائية القوطية أعظم ما أنتجته النفس البشرية وأجل ما عبرت به عن مشاعرها .

لكننا نعدو طورنا إذا ادعينا أن فى وسعنا أن نفرغ من وصف تطور العمارة فى فقرة من فصل ؛ ذلك أن بعض خطوات من هذا التطور جديرة بالبحث الهادئ على مهل . مثال ذلك أن مشكلة التوفيق بين الرشاقة الرفيعة والصلابة المستقرة قد حلتها العمارة القوطية أحسن مما حلها أى فن معمارى قبل وقتنا الحاضر ؛ ولسنا نعرف إلى متى يستطيع تحدينا لقوة الجذب أن ينجو من قدرة الأرض على تسوية أعلاها بأسفلها . على أن المهندس القوطى لم يصب التوفيق والنجاح على الدوام ؛ فإن تكن كنيسة تشارتر لا تزال قائمة سليمة من الشروخ ، فإن موضع المرنمين فى كتدرائية بوفيه تهدم بعد اثنى عشر عاما من بنائه ، ولقد كان أهم ما يمتاز به الطراز القوطى هو الأضلاع فى أجزاء البناء المختلفة : أضلاع العقود المستعرضة والممتدة على طول أقطارها ، والتى ترتفع من كل فرجة بين أعمدة صحن الكنيسة ، وتجتمع لتكون شبكة خفيفة رشيقة يمكن أن ترتكز عليها قبة رقيقة من البناء . وقد أضحت كل فرجة فى الصحن وحدة بنائية قائمة بذاتها تتحمل النقل والدفع الناشئين من العقود القائمة على دعاماتها ، واللذين تساعد على تحملهما ضغوط أخرى مقابلة لها تحدثها الفرجات المقابلة لها فى طرقات البناء وضغوط المساند الخارجية المركبة على الجدران فى النقط التى يبدأ منها كل عقد مستعرض .

والمساند استنباط قديم ، فقد كان لكثير من الكنائس التى شيدت قبل عهد القوط عمد مبنية تضاف إليها من خارجها عند النقط التى يقع عليها ضغط خاص . على أن الدعامات المقوسة التى تصل جدران الأجزاء الداخلية والوسطى من البناء بالدعامات الرأسية للجدران الخارجية تنقل الدفع أو التوتر فوق فراغ

إلى مسند عند القاعدة وإلى الأرض . وقد كانت بعض الكتدرائيات النورمندية تستخدم فى البواكى التى بين الصحن والطرقات الجانبية أنصاف عقود تدعم عقود الصحن ، غير أن هذه المساند الداخلية تصل جدار الصحن فى نقطة منخفضة لا تهب القوة للطبقة العليا المضيئة التى يكون ضغط القبة عليها بالغ الشدة ، والتى يعرضها هذا الضغط إلى الانهيار . ولهذا فإن تقوية البناء فى هذه النقط العالية كان يحتم إخراج المساند من مخابئها ، وإقامتها فوق الأرض الصلبة والانتقال بها فى الفراغ فوق سقف الممشى لتدعم بذلك جدار الطبقة العليا المضيئة مباشرة . وكان أقدم ما عرف من استخدام هذا النوع من المساند فى كتدرائية نوايون **Noyon** حوالى عام ١١٥٠[٧] ، ولم يختتم ذلك القرن حتى أضحت من الاختراعات المحببة . على أنها لم تكن تخلو من أخطاء ذات خطورة : فقد كانت فى بعض الأحيان توحى إلى الناظر بأنها هيكل بنائى ، أو محالات أهملت إزالتها ، أو مهرب لجأ إليه المصمم فيما بعد لأن بناءه هبط من وسطه ، وأن « للكتدرائية عكازات » كما يقول ميشليه **Michelet** . ولهذا نبذ عصر النهضة هذا الضرب من المساند ورآها حواجز قبيحة المنظر ، واخترع أساليب أخرى لحمل أثقال قبة القديس بطرس . لكن المهندس القوطى كان على غير هذا الرأى ؛ فقد كان يجب أن يعرض على الأنظار خطوط فنه وحيله الآلية ؛ وقد أولع بالمساند ولعله ضاعف عددها من غير حاجة إلى هذا التضعيف ؛ وجعلها مساند مركبة حتى تدعم بذلك البناء فى نقطتين أو أكثر من نقطتين ، أو تدعم إحداها الأخرى ؛ ثم جمل الدعامات التى تعمل على استقرارها بما أضافه إليها من « الشماريخ »(*) . وأثبت أحياناً — فى ريمس — أن ملكا واحداً فى القليل يستطيع الوقوف على قمة الشمروخ .

(*) الأبراج المستدقة المرتفعة **pinnacles**.   (المترجم)

وكان توزيع التوتر أعظم أهمية فى العمارة القوطية من العقد المستدق ، ولكن هذا العقد أصبح هو السمة الخارجية الظاهرة للرشاقة الداخلية . وكان العقد المستدق هذا من الأشكال القديمة ، فهو يظهر فى ديار بكر بتركيا مقاماً فوق عمد رومانية لا يعرف لها تاريخ ، وأقدم مثل له معروف التاريخ فى قصر ابن وردان ببلاد الشام ، ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦١[٦] ، ويوجد هذا الشكل فى قبة الصخرة فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وهو من مبانى القرن السابع ، كما يوجد فى مقياس للنيل بمصر أنشئ فى عام ٨٦١ ، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة الذى أنشئ فى عام ٨٧٩ ، وكثيراً ما كان يقيمه الفرس ، والعرب ، والأقباط ، والمغاربة المسلمون قبل أن يبدأ ظهوره فى أوربا الغربية فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر[٩] . ولعله جاء إلى فرنسا الجنوبية من أسپانيا الإسلامية ، ولعله جاء به الحجاج العائدون من بلاد الشرق ؛ أو لعله نشأ فى بلاد الغرب من تلقاء نفسه ليحل مشاكل آلية فى تصميم العمارة . على أننا يجب أن نلاحظ أن مشكلة الوصول بعقود ذات أطوال مختلفة إلى تاج مستو يمكن أن تحل من غير الالتجاء إلى العقد المستدق ، وذلك بتعلية النقطة التى يبدأ عندها من الدعامة أو الجدار فى الداخل . وقد كان لهذه الطريقة أيضاً أثرها الجمالى لأنها تبرز الخطوط الرأسية ، ولهذا استخدمت على نطاق واسع ، وقلما كانت تتخذ بديلا من العقد المستدق بل كانت كثيرة الاستعمال مع هذا العقد لتقويته ومساعدته على أداء وظيفته . وحل العقد المستدق مشكلة أخرى : ذلك أنه لما كانت الطرقات الجانبية أضيق من صحن الكنيسة فإن فرجة الطرقة كان يزيد طولها على عرضها ، ولهذا فإن تيجان عقودها المستعرضة تكون أقصر كثيراً من عقود قطريها ، إلا إذا كانت العقود المستعرضة مستدقة أو إذا رفعت النقطة التى تبدأ عندها هذه العقود من الداخل ارتفاعاً يحول بين تناسقها مع القطرين . وقد كان العقد المستدق حلا لتلك العملية الصعبة عملية إقامة قبة من عقود ذات تاج

مستو على ممشى القبا ، حيث يكون الجدار الخارجى أطول من الجدار الداخلى ، وحيث تكون كل فرجة شبه منحرف لا يمكن تصميم قبته تصميما مقبولا بغير العقد المستدق . ومما يدل على أن هذا الشكل لم يستخدم فيها لرشاقته فى أول الأمر كثرة المبانى التى استخدم فيها لحل تلك المشكلات ، مع أن العقود المستديرة ظلت تستخدم فى النوافذ ومداخل الأبنية فى الوقت عينه . ثم انتصر العقد المستدق تدريجاً لارتفاعه العمودى ، وقد يكون للرغبة فى تناسق الشكل أثر فى هذا الانتصار . وإن التسعين عاماً من الكفاح المتواصل بين العقد المستدير والعقد المستدق — أى منذ ظهور العقد المستدق فى الكتدرائية الرومنسية بدرهام (١١٠٤) إلى البناء النهائى لكتدرائية تشارتر (١١٩٤) — هى فترة الانتقال إلى هذا الطراز المعمارى فى الهندسة القوطية الفرنسية .

وقد أوجد استخدام العقد المستدق فى النوافذ مشاكل جديدة ، وحلولا لها جديدة ، ومفاتن جديدة ؛ فقد قضى نقل التوتر عن طريق الأضلاع من القبة ومن الدعائم إلى نقط خاصة فى البناء تدعمها سنادات ، قضى هذا على حاجته إلى الجدران السميكة . ذلك بأن المكان الذى بين كل نقطة ارتكاز والنقطة التى تليها ، لم يكن يتحمل إلا ضغطا قليلا نسبيا ، وإذن فقد كان من المستطاع جعل الجدار بين النقطتين رفيعاً ، بل إن من المستطاع إزالته . وكن ملء هذا الفراغ الكبير بلوح واحد من الزجاج غير مأمون العاقبة ، ولهذا قسم هذا إلى نافذتين مستدقتين (مقصدين) أو أكثر من نافذتين يعلوهما عقد من الحجارة . وبهذا أصبح الجدار الخارجى سلسلة من العقود أو البواكى شأنه فى ذلك شأن صحن الكنيسة . وقد كان « الدرع » البنائى ذو الأربع القمم المتروك بين الأطراف العليا للنوافذ المزدوجة والمستدقة وبين قمة العقد الحجرى المحيط بهذه النوافذ كان هذا الدرع فراغا قبيح المنظر يتطلب الزخرف . وقد حقق المهندسون الفرنسيون حوالى عام ١١٧٠ هذا المطلب بلوحات من النقوش الخطية : فقد ثقبوا الدرع بحيث

يتركون فيه قضباناً حجرية أو فواصل ذات أشكال زخرفية — مستديرة ، أو مسننة أو منتفخة ؛ ثم ملأوا الفجوات والنوافذ بالزجاج الملون . وعمد المثالون فى القرن الثالث عشر إلى قطع أجزاء مطردة الزيادة من الحجارة ، ووضعوا فى الفتحات قضباناً حجرية صغيرة منحوتة على صورة أقداح أو غيرها من الأشكال . وأخذت أشكال هذه الحلى التى على شكل العصى تزداد كل يوم تعقيداً ، ونشأت من هذا التعقيد طرز وعصور من العمارة القوطية أُخذت أسماؤها من الخطوط الرئيسية فى هذه الزخارف : كالعقد الرمحى ، والطراز الهندسى ، والمستدير الخطوط ، والعمودى ، والكثير الألوان . وأنتجت عمليات أخرى شبيهة بهذه العمليات وطبقت على سطوح الجدران فوق مداخل البناء ، أنتجت ما يسمى « بالنوافذ الوردية » ، كانت زخارفها الخطية سبباً فى إطلاق لفظ « المشمع » على الطراز الذى بدأ فى كنيسة نتردام عام ١٢٣٠ ، وبلغ درجة الكمال فى كنيستى ريمس ، وسانت شابل Sainte Chapelle . وما من شىء يفوق جمال النوافذ « الوردية » . فى الكتدرائيات القوطية سوى العقود العليا التى فى القبة .

وانتقلت الزخارف الخطية ، بمعناها الواسع ، أى ثقب الحجارة بأشكال زخرفية من أى نوع كان ، من الجدران إلى غيرها من أجزاء الكتدرائية القوطية — إلى شماريخ المساند ، وإلى السقف الهرمية التى فوق المداخل ، وإلى « بطنيات » العقود ، والأجزاء المثلثة المحصورة بين كل اثنين منها ، وإلى البواكى التى تعلو العقود بين الصحن والطرقات الجانبية ، وإلى ستائر المعبد ، والمنبر والحظار الزخرفى الذى خلف المذبح ؛ ذلك أن المثال القوطى ، لابتهاجه بفنه ، قلما كان يمس سطحاً دون أن يزخرفه ؛ ولهذا كان يزحم واجهات المبانى ، والطنف ، والأبراج ، بصور الرسل والشياطين ، والأولياء ، والناجين والملعونين . وصوّر ما يمليه عليه خياله تيجاناً للعمد ، ورفارف للزينة ، وحليات من خشب أو حجارة ،

وعتبات للأبواب والنوافذ العليا ، وحليات شبكية ، وقوائم أكتاف الأبواب والنوافذ . وكان يمثل بالحجارة ضحكه مع الحيوانات العجيبة والمرعبة التى ابتدعها خياله لتكون ميازيب(*) تبعد المطر الذى يلوث المبانى عن الجدران ، أو تجره إلى الأرض خلال المساند . ولم تجتمع فى غير هذا الفن الثروة ، والمهارة ، والتقى ، والفكاهة العارمة ، لتوجد مثل هذه الكثرة من الزخارف التى تتكشف عنها الكتدرائية القوطية . ولسنا ننكر أن هذه الزخارف كانت فى بعض الأحيان مسرفة فى كثرتها ، وأن الخطوط الزخرفية قد أسرف فيها هى الأخرى إسرافاً جعلها هشة ، وأن التماثيل وتيجان العمد كانت بلا ريب براقة بطلائها الذى محاه كر الدهور . ولكن هذه هى سمات الخصوبة الحيوية التى تكاد تُغتفر معها كل الأخطاء . ولقد يلوح لنا ونحن نجول بين هذه الآجام والحدائق الحجرية أن الفن القوطى كان ، على الرغم من خطوطه وأبراجه الرفيعة الشامخة ، فنا مغرما بالأرض ؛ فنحن نستشف بين أولئك القديسين الذين ينادون بباطل الأباطيل ، وهول يوم الحساب القريب ، صورة فنان العصور الوسطى ، المعجب بحذقه ، المبتهج بقوته ، الساخر من اللاهوت والفلسفة ، الذى يستمتع بشرب كأس الحياة المترعة ذات الحبب حتى الثمالة .

(*) gargoyles أو حلوق صغيرة . (المترجم)

الفصل الخامس

الطراز القوطى الفرنسى (١١٣٣ — ١٣٠٠)

ترى لم بدأ الانقلاب القوطى فى فرنسا وبلغ غايته فيها ؟

نقول أوّلا إن الطراز القوطى لم يبدأ من لاشىء ، بل إن تقاليد تبلغ المائة عداً قد اجتمعت كلها لتمهّد له السبيل : الباسلقا الرومانية ، والعقود ، والقباب ، والطبقات العليا ذات النوافذ ، وموضوعات الزخرف البيزنطية ، والعقد الستينى الأرمنى ، والسورى ، والفارسى ، والمصرى ، والعربى ؛ والقباب ذات الزوايا المتقاطعة ، والدعامات المتجمعة ، والأساليب الغربية ، والنقوش العربية ؛ والقباب المضلعة ، وأبراج الواجهات ؛ والنزعة الألمانية لما هو فَكِه أو شاذ غريب . . ولكن لم اجتمعت هذه المؤثرات كلها فى فرنسا ؟ لقد كان فى وسع إيطاليا التى امتازت بين بلدان غربى أوربا بثرائها وتراثها أن تحمل لواء ازدهار الفن القوطى ، ولكنها كانت سجينة فى تراثها القديم . لقد كانت فرنسا ، بعد إيطاليا ، أغنى أمم الغرب وأكثرها تقدماً فى القرن الثانى عشر ؛ وكانت هى التى قدمت للحروب الصليبية أكثر الأموال والرجال ، والتى أفادت من حوافزها الثقافية ، وكانت هى التى تزعمت أمم أوربا فى التعليم ، والآداب ، والفلسفة ، وكان العالم يعترف بأن صناعها أمهر الصناع فى الناحية الغربية من بيزنطية وقبل أن يجلس على عرشها فليب أغسطس (١١٨٠ — ١٢٢٣) ، كانت السلطة الملكية قد انتصرت على نزعة التفكك الإقطاعية ؛ وكان رخاء فرنسا وقوّتها ، وحياتها العقلية قد أخذت تتجمع فى أملاك الملك الخاصة — وهى الأملاك المعروفة بجزيرة فرنسا ، والتى يمكن تحديدها تحديداً غير دقيق بالإقليم الممتد عند مجرى السين الأوسط . وكانت فيها تجارة رابحة رائجة تنتقل فى أنهار

السين والواز Oise ، والمارن ، والأين Aisns ، وتخلف وراءها ثروة استحالت حجارة فى الكتدرائيات التى شيدت فى باريس ، وسانت دنيس ، وسنليس Senlis ، ومانت Mantes ، ونوايون Noyen ، وسواسون Soissons ، ولاؤون ، وأمين ، وريمس . وأخصب المال التربة التى نما فيها الفن .

وكانت أولى روائع طراز عهد الانتقال هى كنيسة دير سانت دنيس فى ضاحية باريس المسماة بهذا الاسم . وكانت هذه الآية من عمل أكمل الشخصيات وأكثرها توفيقاً فى التاريخ الفرنسى . لقد كان سوجر (١٠٨١ — ١١٥١) رئيس أحد الأديرة البندكتية ، ونائب الملك فى فرنسا ، رجلا حسن الذوق ، لم تمنعه بساطة عيشه أن يرى أنه ليس من الإثم أن يحب الأشياء الجميلة وأن يجمعها ليزخرف بها كنيسته . ولما أخذ عليه القديس برنار هذا الحب رد عليه بقوله : « إذا كانت الشرائع القديمة قد أمرت أن تستخدم الكؤس الذهبية فى شرب القربان وتَلَقِّى دماء الضأن . . . فإن أولى من هذا أن يخصص الذهب ، والحجارة الكريمة ، وأندر المعادن لصنع الآنية المعدة لتلقى دم سيدنا »[١٠] . وهو لهذا يحدثنا مزهواً عن جمال الذهب والفضة ، والجواهر وقطع الميناء ، والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون ، والثياب والآنية الغالية ، التى جمعها أو صنعها لكنيسته ، وعما كلفته من مال . ففى عام ١١٣٣ جمع الفنانين والصناع « من جميع البلاد » ليشيد ويزين بيتاً جديداً للقديس دنيس شفيع فرنسا ، وليكون مقراً لعظام الملوك الفرنسيين . وأقنع لويس السابع ملك فرنسا وحاشيته بتقديم المال اللازم لهذا البناء « فتمثلوا بنا » على حد قوله « وخلعوا الخواتم من أصابعهم » ليقدموا المال اللازم لمشروعه الكثير الأكلاف[١١] . وفى وسعنا أن نتصوره وهو يستيقظ فى الصباح الباكر ليشرف على أعمال البناء ، من تقطيع الأشجار التى اختارها ليأخذ منها حاجته من الخشب ، إلى تركيب الزجاج الملون الذى اختار له موضوعاته وألف له نقوشه . ولما أن دشن هذا الصرح فى عام ١١٤٤

قام بهذه العملية عشرون مطرانا ، وشهد الحفل ملك فرنسا ، وملكتها ، ومئات من الفرسان ، وحق لسوجر أن يشعر بأنه نال بهذا العمل تاجا أجل من تاج أى ملك من الملوك .

ولم يبق فى الصرح القائم فى هذه الأيام إلا أجزاء من كنيسته : وهى الواجهة الغربيـــة ، وفرجتان فى الصحن ، والمصليات التى على جانب الطرقات ، وقبو الكنيسة . أما الجزء الأكبر من داخل الكنيسة فهو بناء معاد قام به بيير ده منتريه Pierre de Montreux بين عامى ١٢٣١ ، ١٢٨١ . والقبو من الطراز الرومنسى ، أما الواجهة الغربية فتختلط فيها العقود المستديرة والمستدقة ، ومعظم تماثيلها المنحوتة من عهد سوجر ، وتشمل ما لا يقل عن مائة صورة ، كثير منها فردى الطابع ، وكلها تدور حول أحسن فكرة عن المسيح القاضى نشاهدها فى كل ما أنتجه فن العصور الوسطى .

وبعد اثنتى عشرة سنة من وفاة سوجر كرمه الأسقف موريس ده سلى Maurice de Sully بأن أدخل التحسين على ما تركه من قواعد ، وقامت كنيسة نتردام ده پارى Notre Dame de Paris على جزيرة فى نهر السين . وإن التواريخ المتصلة ببنائها لتوحى بضخامة العمل الذى استلزمه تشييدها ؛ فقد بنى موضع المرنمين والأجنحة التى على جانب الطرقات بين عامى ١١٦٣ و ١١٨٢ . وبنى الصحن من ١١٨٢ إلى ١١٩٦ ؛ وأقيمت الأجزاء التى بين الأعمـــدة والأبراج فيما بين ١٢١٨ و ١٢٢٣ ؛ وتم بناء الكتدرائية كلها فى عام ١٢٣٥ . وكان يقصد فى تصميمها الأول أن تكون البوائكى القائمة فوق العقود التى بين الصحن والطرقات على الطراز الرومنسى ، ولكن البناء كله اتخذ عند إتمامه الطراز القوطى . والواجهة الغربية أكثر استواء مما تتطلبه الكتدرائية القوطية ، ولكن سبب هذا أن الشماريخ التى كان فى النية إقامتها فوق الأبراج لم تبن قط ؛ ولعل هذا هو منشأ ما فى الواجهة من هيبة ذات بساطة وقوة جعلت العلماء الأفذاذ

يضعونها فى مصاف « أنبل ما أنتجته أفكار الإنسان من آراء فى فن المعمار »[١٢] . والشبابيك الوردية فى كنيسة نتردام ده پارى آية فى النقوش الخطية وجمال التلوين ، ولكنها لم يكن يقصد بها أن توصف بالقول أو بالكتابة . والتماثيل التى بها ، وإن عدا عليها الزمان أو أضرت بها الثورة ، تبرز أحسن ما أنتجه الفن بين عصر قسطنطين وبناء كتدرائية ريمس . وقد نحتت فى قلب المقص القائم فوق المدخل الرئيسى صور يوم الحساب بتؤدة أعظم مما نقش بها هذا الموضوع الذى نراه فى كل مكان ؛ فصورة المسيح هنا ذات جلال هادئ ؛ والمَلَك الذى عن يمينه من أعظم الانتصارات التى أحرزها فن النحت القوطى . وخير من هذا كله صورة عذراء العمود La Vierge de trumeux القائمة فوق المدخل الشمالى : إن فى هذه الصورة لدقة فى التنفيذ ، وفى صقل السطح الخارجى ، وفى الثياب المنسجمة مع الطبيعة ؛ ويسراً جديداً ورشاقة فى أوضاع الوقوف ، وإلقاء ثقل الجسم على إحدى القدمين ، وتحرره بذلك من الوضع العمودى المتصلب . ويكاد فن النحت القوطى يعلن فى هذه الصورة الجميلة استقلاله عن فن العمارة وينتج آية خليقة بأن تنتزع مما حولها ، وتقام بمفردها تعلن عن فوز هذا الفن . وانتهى فى كندوائية نتردام ده پارى طور الانتقال وحل عصر الفن القوطى .

وتُلقِى قصة كتدرائية تشارتر ضوءاً على ما كان عليه موضعها فى العصور الوسطى وعلى خصائص تلك العصور . فقد كانت تشارتر بلدة صغيرة فى الجنوب الغربى من باريس وعلى بعد خمسين ميلا منها ، على أطراف الممتلكات الملكية . وكانت سوقا السهل بوس Beauce « هُرى فرنسا » . ولكن قيل إن العذراء نفسها زارت هذا المكان ، واتخذها الصالحون من العرج ، والمكفوفين . والمرضى ، والثاكلين ، والثاكلات ، مكاناً يحجون إليه ، ومنهم من شفى أو نزلت فى قلبه الطمأنينة عند ضريحها ، وبذلك أضحت تشارتر هى بعينها لورد Lourde . يضاف إلى هذا أن أسقفها فلبير Fulbert ، وهو رجا جمع بين الطيبة ،

والذكاء ، والإيمان ، قد جعلها فى القرن العاشر كعبة للتعليم العالى وأ تا حنونا لطائفة من أنبه الشخصيات ذكراً فى الفلسفة المدرسية . ولما أن احترقت فى عام ١٠٢٠ كتدرائية فلبير التى شيدت فى القرن التاسع ، أخذ على عاتقه من فوره أن يعيد بناءها ، وطال عمره حتى شاهد تمام هــذا البناء . ولما دمرته النار للمرة الثانية فى عام ١١٣٤ ، جعل الأسقف ثيودريك إقامة كتدرائية جديدة بمثابة حرب صليبية حقة ، فبعث فى قلوب الناس من التحمس لإنجاز هذا العمل ما جعلهم يغدقون عليه من المال والجهد ما وصفه شاهد عيان هو هيمون Haimon رئيس أحد الأديرة النورمندية فى عام ١١٤٤ بقوله :

رأيت الملوك ، والأمراء ، وذوى القوة والسلطان من رجال العالم المزهوين بألقاب الشرف وبالثراء ، والرجال والنساء من أبناء الأسرة الشريفة ، رأيت هؤلاء يطوقون أعناقهم المنتفخة المنبثة بالعظمة والكبرياء بالأرسان ، ويشدون أنفسهم إلى العربات يجرونها كما تجرها الدواب ، وهى محملة بالنبيذ ، والحبوب ، والزيت ، والجير ، والحجارة ، وكتل الخشب وما إليها من الأشياء اللازمة لحياة الناس أو لبناء الكنائس ... يضاف إلى هذا أنا نشاهد تلك المعجزة تقع فى الوقت الذى يجرون فيه العربات : وهى أن ألفا من الرجال والنساء . . . يشدون أحيانا إلى حبال العربات . . . ومع ذلك فإنهم يتقدمون وهم صامتون لا يسمع لهم صوت ولا همس . . . . فإذا وقفوا فى الطريق لا تسمع منهم ألفاظاً إلا اعترافاً بخطاياهم . . . وضراعة ودعاء طاهرا . . . ويعظهم القسيسون ويدعونهم إلى السلام ، وتسل السخائم والأحقاد من الصدور وتزول أسباب الفرقة والانقسام ، وينزل الدائنون عن ديونهم وتعود الوحدة إلى الصفوف[١٣] .

ولم تكد كتدرائية الأسقف ثيودريك تتم (١١٨٠) حتى شبت فيها النار فى عام ١١٩٤ فدمرت الصحن وهدمت قبته وجدرانه ، ولم يبق من الكنيسة إلا القبو السفلى والواجهة الغربية ببرجيها وشمروخيها متفرقة منعزلة . ويقال إن

كل بيت فى البلدة قد دمر فى هذا الحريق المروع الذى لا تزال آثاره باقية تشاهد حتى اليوم فى بقايا الكتدرائية . وفقد الأهلون شجاعتهم إلى حين وفقدوا بفقدها إيمانهم بالعذراء ، وأرادوا أن يغادروا المدينة ؛ ولكن مليور Melior الرسول البابوى الذى لا تلين له قناة قال إن الله قد أصابهم بهذه الكارثة عقاباً لهم على ذنوبهم ، وأمرهم أن يعيدوا بناء كنيستهم وبيوتهم ، وتبرع رجال الدين فى الأسقفية بدخلهم كله تقريباً مدى ثلاث سنين ، وتناقل الناس أخبار معجزات جديدة لعذراء تشارتر ، وبُعث الإيمان فى القلوب من جديد ، وأقبلت الجماعات مرة أخرى كما أقبلت فى عام ١١٤٤ لتساعد العمال المأجورين على جر عربات النقل ووضع الحجارة فى أماكنها ، وتبرعت بالمال كل كتدرائية فى أوربا[١٤] ، ولم يحل عام ١٢٢٤ حتى كان الكدح والأمل قد أتما الكتدرائية التى جعلت تشارتر مرة أخرى مقصد الحجاج من جميع الأنحاء .

وكان التصميم الذى وضعه المهندس المجهول يقضى بألا يقيم الأبراج على جناحى الواجهة الغربية وحدها ، بل أن يقيمها أيضاً على الأبواب التى عند ملتقى الطرقات المتعامدة على الصحن وعند القبا ، غير أنه لم يُبن من هذه الأبراج إلا برجان فوق واجهة الكنيسة . وارتفع برج الناقوس القديم (١١٤٥ — ١١٧٠) بشمروخه إلى علو ٣٥١ قدماً فى الطرف الجنوبى من الواجهة ؛ وهذا البرج بسيط غير مزخرف يفضله المهندسون المحترفون على غيره من الأبراج المزخرفة[١٥] . أما البرج الشمالى — المعروف ببرج الجرس الجديد فقد أحرقت النار شمروخه الخشبى مرتين ؛ ثم أعاد جان له تكسييه Jean le Texier بناءه بالحجارة على الطراز القوطى الكثير الألوان المزدحم بالزخارف الدقيقة ؛ حتى حسبه فرجسون Fergusson « أجمل الشماريخ المنقوشة فى القارة الأوربية »[١٦] ، ولكن المتفق عليه بوجه عام أن هذا الشمروخ الكثير الزخرف لا يتفق مع الوحدة التى تتطلبها الواجهة الكالحة المجردة من الزينة[١٧] .

وتعتمد شهرة كنيسة تشارتر على ما تحويه من تماثيل منحوتة وزجاج ، فهذا القصر ، قصر العذراء ، تسكنه عشرة آلاف شخصية منحوتة أو مصورة — من رجال ، ونساء ، وأطفال ، وقديسين ، وشياطين ، وملائكة ، وأشخاص الثالوث . وفى مدخل الكنيسة وحده ألفا تمثال(١٨) ، تضاف إليها تماثيل أخرى مستندة إلى الأعمدة المقامة فى داخل البناء ؛ وإن الزائرين الذين يصعدون إلى السقف على المدرج البالغ عددها ٣١٢ درجة لتعتريهم الدهشة حين تقع أعينهم على تماثيل منحوتة بعناية وبالحجم الطبيعى فى ذلك المكان الذى لا يبصرها فيه إلا الطَّلِعَةَ المتشوف . وتقوم فوق الباب الأوسط صورة رائعة للمسيح ليست كغيرها من الصور التى نحتت فيما بعد عابسة تحكم على الموتى ، بل يرى فيها جالساً فى جلال هادئ بين طائفة كبيرة من الناس السعداء ، وقد مدت يده كأنه يبارك العباد الداخلين . ويتصل بالتجويف الداخلى لعقد الباب تسعة عشر تمثالا للأنبياء والملوك ، والملكات ، وهى نحيلة ، متصلبة توائم بشكلها هذا عملها بوصفها عمد الكنيسة ؛ وكثير من هذه التماثيل غير متقنة وناقصة ، ولربما كانت تلفت أو بليت لقدم عهدها ، ولكن وجوه بعضها تطالع الناظر إليها بطابع فلسفى عميق ، وبراحة لطيفة ، أو برشاقة العذارى التى بلغت درجة الكمال فى ريمس .

وواجهات الأجنحة والطرقات الجانبية أجمل ما يوجد من نوعها فى أوربا . ولكل منها ثلاثة أبواب على جانبيها عمد وقوائم منحوتة نحتا جميلا تفصل كلا منها عن الأخرى ، وتكاد تغطيتها تماثيل كل منها منفرد بملامح خاصة إلى حد جعل الناس يطلقون على عدد كبير منها أسماء من أهل تشارتر . وتجتمع تماثيل الباب الجنوبى البالغ عددها ٧٨٣ تمثالا حول المسيح الجالس على عرشه فى يوم الحساب . وهنا توضع عذراء تشارتر فى مركز أقل من مركز ولدها . ولكنها تعوض عن هذا ، كما عوضها ألبرتس ماجنس Albertus Magnus ، بالعلوم كلها وبالفلسفة ؛ وترى فى خدمتها على هذا الباب الفنون الحرة السبعة — الموسيقى ويمثلها

فيثاغورس ، والجدل ويمثله أرسطو ، والبلاغة ويمثلها شيشرون ، والهندسة ويمثلها إقليدس ، والحساب ويمثله نيقوماخوس ، والنحو ويمثله بريشيان Prician ، والفلك ويمثله بطليموس . وقد أمر القديس لويس أن يتم الباب الشمالى : « بسبب إخلاصه الشديد لكنيسة عذراء تشارتر ، ولنجاة روحه وأرواح آبائه » كما جاء بالنص فى عهده الصادر عام ١٢٥٩[١٩] . وحدث فى عام ١٧٩٣ أن رفضت جمعية الثورة الفرنسية بأغلبية قليلة اقتراحا يقضى بتدمير التماثيل المقامة فى كتدرائية تشارتر باسم الفلسفة واسم الجمهورية ؛ وارتضت الفلسفة بعدئذ ألا تدمر هذه التماثيل واكتفت بتحطيم بعض أيديها[٢٠] . وهذا الباب الشمالى هو باب العذراء ، وهو يروى قصتها رواية ملؤها الحب والإجلال . والتماثيل المجسمة المقامة هنا تمثل فن النحت فى نضوجه ، والثياب التى عليها لا تقل فى رشاقتها ومواءمتها للطبيعة عن مثيلاتها فى أى نحت يونانى ، وصورة « الطهر » تمثل الأنوثة الفنية كأحسن ما يمثلها الفن الفرنسى ، ففيها يكسب الطهر الجمال قوة على قوته ؛ وليس فى تاريخ النحت كله ما هو أجمل من هذه الصورة ، وفى ذلك يقول هنرى أدمز Henry Adams : « وهذه التماثيل هى أحسن ما صوره الفن الفرنسى فى الرخام »[٢١] .

وإذا ما دخل الإنسان الكنيسة انطبعت فى نفسه أمور أربعة تمتزج بعضها ببعض : الخطوط البسيطة الممثلة فى الصحن والقبة ، التى لا تكاد تبلغ فى حجمها أو جمالها ما يبلغه صحن كنيسة أمين أو ونشستر ؛ وستار مكان المرنمين المزخرف الذى بدأه فى عام ١٥١٤ چان ده تكسيبه المولع بكثرة الألوان ؛ وصورة المسيح الهادئه المقامة على عمود عند ملتقى الصحن بالطرقات الجانبية من جهة الجنوب ، والتى تغمر المكان كله بلون هادئ وزجاج ملون منقطع النظير . ويرى الناظر فى نوافذ هذا المكان البالغ عددها ١٧٤ نافذة ٣٨٨٤ صورة مأخوذة من الأقاصيص أو التاريخ ، تختلف من الأساكفة إلى الملوك ، وتمثل فرنسا فى العصور

الوسطى ؛ يراها الناظر فى أبهى ما أخرجه الفن من ألوان — حمراء داكنة ، وزرقاء خفيفة ، وخضراء زمردية ، وزعفرانية ، وصفراء ، وبنية ، وبيضاء . وفيها ترى مجد تشارتر أكثر مما تراه فى أى مكان سواه . وليس من حقنا أن نتطلب أن تكون الصور التى فى هذه النوافذ صوراً واقعية ؛ ذلك أنها مشوهة ، بل إنها لتبلغ حد السخف فى بعض الأحيان . فرأس آدم فى الحلية الوسطى التى تمثل طرده من الجنة معوج اعوجاجاً يؤلم النظر إليه ، وإن العابد ليصعب عليه إذا ما أبصر مفاتن حواء أن لا يميل إلى شهوته الجنسية . لقد كان هؤلاء الفنانون يظنون أن حسبهم أن تروى الصورة قصة ، بينا تمثل الصورة بألوانها ، التى يختلط بعضها ببعض ويفنى بعضها فى بعض فى عين الناظر ، جو الكتدرائية ، وما أجمل صورة نافذة « الابن المتلاف » ؛ وما أعظم الألوان والخطوط فى صورة « شجرة يسى » الرمزية(*) ؛ ولكن أجمل من هذه كلها صورة « عذراء النافذة الجميلة » . وتقول الرواية المأثورة إن هذه اللوحة البديعة أنقذت من النيران التى اندلعت فى الكنيسة عام ١١٩٤ .

وإذا وقف الإنسان عند تقاطع الطرقات الجانبية والصحن رأى نوافذ تشارتر الكبرى الوردية الشكل . وتمتد النافذة الوسطى فى الواجهة الرئيسية أربعين قدماً كاملة ، وتكاد تضارع فى اتساعها الصحن الذى تطل عليه ، ولقد وصفها بعضهم بأنها أجمل تحفة من الزجاج عرفها التاريخ[٢٣] .

وتغمر النافذة المعروفة باسم « وردة فرنسا » ملتقى الطرق بالصحن من جهته الشمالية بفيض من الضوء . وكان زجاج هذه النافذة قد أهدى إلى لويس التاسع وبلانش القشتالية ، ثم أهدياه هما إلى العذراء ؛ ويواجهها فى الناحية المقابلة لها من الكنيسة « وردة دريه Dreux » القائمة عند تقاطع الطرقات بالصحن فى الواجهة الجنوبية وهى التى أهداها پيير موكلير Pierre Mauclere من دريه عدو بلانش ،

(*) شجرة تسلسل يسوع من يسى والد داود . (المترجم)

والتى تضع ابن مريم مواجهاً « لأم الإله » فى نافذة بلانش . وثمة خمس وثلاثون وردة أصغر من هذه واثنتا عشرة وريدة أصغر من هذه أيضاً ، وبها تتم مجموعة زجاج تشارتر الدائرى ؛ وإذا ما وقف صاحب النزعة الحديثة ، الذى تمنعه سرعته واضطراب أعصابه من أن يتطلب الكمال المحتاج إلى الصبر والهدوء ، أمام هذه المناظر ، أخذته الدهشة والحيرة من هذه الأعمال التى يجب أن تُعْزَى إلى ما يتصف به الشعب والجماعة ، والعصر ، والعقيدة الدينية ، من سمو فى العاطفة وجد فى العمل لا إلى عبقرية أفراد معدودين .

ولقد اخترنا كنيسة تشارتر لتمثيل العمارة القوطية الناضجة أو المتشعبة ، وليس من واجبنا أن نعمد إلى هذه الإطالة نفسها فى الحديث عن كنائس ريمس ، وأمين ، وبوڤيه . ولكن منذا الذى يستطيع أن يمر مسرعاً بالواجهة الغربية من كنيسة ريمس ؟ ولو أن الشماريخ الأصلية ظلت حتى الآن قائمة فوق الأبراج لكانت هذه الواجهة أعظم ما قام به الإنسان من أعمال ؛ وإنا لتدهشنا وحدة الطراز وأجزاء الكنيسة المختلفة وتناسقها فى بناء أقامته ستة أجيال من الناس . فقد دمرت النار فى عام ١٢١٠ الكتدرائية التى أتمها هنكمار Hincmar فى عام ٨٤٠ ؛ وبدئت فى يوم الذكرى الأولى لهذا الحريق كتدرائية جديدة من تصميم ربرت دى كوسى Robert de Coucy وچان دوربيه Jean d'orbais تليق بأن يتوج فيها ملوك فرنسا . ودام العمل أربعين عاماً نفد بعدها المال ، فوقف البناء (١٢٥١) ، ولم تتم الكنيسة العظيمة إلا فى عام ١٤٢٧ . ودمرت النار فى عام ١٤٨٠ شماريخ الأبراج ، واستخدمت أموال الكتدرائية المدخرة فى ترميم البناء الرئيسى ، أما الأبراج فلم يجدد بناؤها . ودمرت القنابل فى الحرب العالمية الأولى عدداً من مساند الجدران وأحدثت فجوات كبيرة فى السقف وفى القبة ، ودمرت النار السقف الخارجى وحطمت كثيراً من التماثيل ؛ ودمرت جماعات من المتعصبين عدداً آخر

من الصور ، وعدا الزمان على بعضها الآخر فأبلاه ، ذلك أن التاريخ صراع بين الفن وعوادى الأيام .

وتمثل روائع النحت فى كنيسة ريمس ، كما تمثل واجهتها ، أرقى ما وصل إليه الفن القوطى ؛ فبعضها عتيق فج ولكن الموجود منها فى المدخل الأوسط منقطع النظير ؛ وإنا لنلتقى فى عدة أماكن على أبواب الكنيسة ، وقمم أبراجها المستطيلة ، وفى داخلها ، بتماثيل تكاد تضارع فى صقلها ما نحت فى عصر بركليز . ولسنا ننكر أن منها ما هو مفرط فى الرشاقة كتمثال العذراء القائم على عمود المدخل الأوسط ، وأنها توحى إلى الناظر بضعف قوة القوط ، ولكن تمثال « عذراء التطهير » القائم عن يسار هذا المدخل نفسه ، وتمثال « عذراء زيارة الملاك » القائم عن يمينه ليعدان من حيث التفكير والتنفيذ من الأعمال الجليلة التى يعجز القلم واللسان عن وصفها . وأوسع من هذين التمثالين شهرة ، وإن لم تبلغ مبلغهما من الكمال ، تماثيل الملائكة الباسمة فى مجموعة تماثيل البشارة القائمة فى هذه الواجهة . ألا ما أعظم الفرق بين هذه الوجوه المستبشرة وبين تمثال القديس بولس القائم عند المدخل الشمالى ! وإن كان هذا التمثال من أقوى الصور التى نحتت فى الحجر .

وتفوق التماثيل المنحوتة فى كتدرائية أمين تماثيل ريمس فى رشاقتها وصقلها ، ولكنها تقل عنها فى جلال التفكير وعمق الإيحاء . فهنا نرى فوق الباب الغربى تمثال الإله الجميل Beau Dieu الذائع الصيت ، وهو تمثال تقيد صانعه بعض الشىء بالتقاليد ، وخلا بعض الشىء من الحياة ، وهما عيبان يطالعاننا بعد أن نشاهد تماثيل ريمس الحية الناطقة . وهنا أيضاً تمثال القديس فرمين Firmin وهو لا يمثله زاهداً فزعاً بل يمثله رجلا هادئاً صلباً لم يُشك فى يوم من الأيام بأن الحق سوف ينتصر ؛ وهنا أيضاً عذراء تحتضن طفلها بين ذراعيها ، ويبدو عليها كل ما تتصف به الأمومة الصغيرة السن من استغراق فى الحنان . وفى الباب الجنوبى

نرى العذراء الذهبية تبتسم وهى ترقب طفلها يلعب بكرة ، وقد جملها المثَّال قليلا ، ولكنها أكثر رشاقة من أن تستحق ما وصفها به رسكن Ruskin فى غير كياسة بأنها « مدللة پيكاردى » (soubrette of Picardy) . وما ألذ أن يرى الإنسان المثَّالين القوط يكتشفون الرجال والنساء ، بعد أن ظلوا مائة عام فى خدمة الأغراض الدينية ، وينحتون بعد هذا الكشف متع الحياة على واجهات الكنائس . وغضت الكنيسة النظر عن هذا الكشف بعد أن عرفت هى أيضاً كيف تستمتع بالحياة الدنيا ، ولكنها رأت من الحكمة أن تصور منظر يوم الحساب على الواجهة الرئيسية .

وبنيت كتدرائية أمين فيما بين ١٢٢٠ و ١٢٨٨ ؛ وقام ببنائها سلسلة متتابعة من المهندسين : ربرت ده لوزارك Robert De Luzarches ، وتومس ده كورمنت Thomas de Cormonte وابنه رنيول Regnault . ولم يتم بناء الأبراج إلا فى عام ١٤٠٢ . وداخلها هو أكثر الصحون القوطية نجاحا ؛ فهو يرتفع فى قبة علوها ١٤٠ قدما ؛ ويخيل إلى الناظر أنها تجتذب الكنيسة إلى أعلى ، وليست تتحمل ثقلا . وترتبط بواكى الصحن ذات الثلاث الطبقات جذوع متصلة ممتدة من الأرض إلى القبة فتجعل منها وحدة فخمة ذات عظمة وجلال . وتعد القباب القائمة فوق القبا انتصاراً للتصميم المتناسق على اختلال النظام الباعث على الحيرة والارتباك ؛ وإن المرء ليذهل وتقف دقات قلبه حين تقع عيناه أول مرة على نوافذ الطابق الأعلى وعلى ورود أمكنة تقاطع الطرقات والصحن وعلى الواجهة .

وفى كندرائية بوفيه عدا هذا الولعُ القوطى بالقباب طورَه وبلغ مصيرَه المحتوم وهو السقوط . ذلك أن فخامة كتدرائية أمين أثارت الغيرة فى قلوب أهل بوفيه ، فبدءوا البناء فى عام ١٢٢٧ وأقسموا ليرفعن قبة كنيستهم أعلى من قبة أمين بثلاث عشرة قدما . ووصلوا بموضع المرنمين إلى الارتفاع المطلوب ؛ ولكنهم

ما كادوا يضعون سقفه حتى انهار ، واستفاق جيل آخر من هذه الكارثة فأعاد بناء موضع المرنمين إلى ارتفاعه السابق ولكنه انهار مرة أخرى فى عام ١٢٨٤ . وأعيد البناء للمرة الثالثة وعلوا به هذه المرة إلى ارتفاع ١٥٧ قدماً فوق الأرض ؛ ولما نفد ما عندهم من المال تركوا الكنيسة قرنين كاملين من غير جناحين أو صحن . ولما أفاقت فرنسا آخر الأمر من حرب المائة السنين فى عام ١٥٠٠ ، بدئ الجناحان الضخمان ، ثم أقيم فوق ملتقى الجناحين برج فانوس بلغ ارتفاعه خمسمائة قدم ليعلو بذلك على شمروخ كنيسة القديس بطرس فى رومة . وانهار هذا البرج أيضاً فى عام ١٥٧٣ وانهار معه جزء كبير من الجناحين ومكان المرنمين . ثم قنع أهل بوفيه الأبطال آخر الأمر بحل وسط : فرمموا موضع المرنمين وبلغوا به علوه غير الأمين ، ولكنهم لم يضيفوا إليه صحناً ، ولهذا فإن كتدرائية بوفيه كلها رأس بلا جسم ؛ فهى من خارجها واجهتان لجناحين جميلين قيمين ، وقبا تحيط به وتخفيه السنادات ؛ ومن داخلها موضع للمرنمين كالكهف يتلألأ بالزجاج الفخم الملوّن . ويقول أحد الأمثال الفرنسية القديمة إنه لو استطاع الإنسان أن يضم موضع المرنمين فى كنيسة بوفيه إلى صحن كنيسة أمين ، وإلى واجهة ريمس وشماريخ تشارتر ، لو استطاع ذلك لكانت كتدرائية قوطية تبلغ حد الكمال .

وإذا ما عاد الناس بخيالهم فى العصور المقبلة إلى ذلك القرن الثالث عشر فسوف تتملكهم الحيرة فلا يدرون من أين كان لأهل هذا القرن ذلك الثراء الذى أقاموا به على الأرض تلك الصروح الفخمة المجيدة . ذلك أنه ما من أحد يستطيع أن يعرف ما صنعته فرنسا فى ذلك الوقت — بالإضافة إلى جامعتها ، وشعرائها ، وفلاسفتها ، وحروبها الصليبية — إلا إذا وقف بنفسه أمام واحدة تلو واحدة من تلك الصروح القوطية الجريئة التى لا تعدو أن تكون هنا مجرد أسماء : نتردام ، وتشارتر ، وريمس ، وأمين ، وبوفيه ، وبروج (١١٩٥—١٣٥٠)

ذات الصحن الرحب ، والطرقات الأربع ، والزجاج الذائع الد
والملاك الجميل النحت ذى الميزان ؛ وجبل سانت ميشيل وديره العج
(١٢٠٤ — ١٢٥٠) القائم فى حصن مشرف على صخرة فى وسط ماء البحر
بالقرب من نورمندية ؛ وكنستانس (١٢٠٨ — ١٣٢٨) وشماريخها النبيلة ؛
ورون (١٢٠١ — ١٥٠٠) وبابها الأمامى باب ناشرى الكتب ؛ وسانت
شابل فى باريس — « صندوق جواهر » الزجاج القوطى التى شادها
(١٢٤٥ — ١٢٤٨) بيرده منتريه لتكون ضريحاً متصلا بقصر القديس
لويس يضم المخلفات التى ابتاعها ذلك الملك من بلاد الشرق . ومن الخير
أن نتذكر فى عصور الدمار أن فى مقدور الناس إذا شاءوا أن يبنوا كما
بنوا فى فرنسا يوما من الأيام .

الفصل السادس

الطراز القوطى الإنجليزى (١١٧٥ — ١٢٨٠)

وزحف الطراز القوطى من تشارتر و « جزيرة فرنسا Ile de Franec » إلى الأقاليم الفرنسية . ثم عبر الحدود إلى إنجلترا ، وبلاد السويد ، وألمانيا ، وأسبانيا ، ثم انتقل أخيراً إلى إيطاليا . وكان المهندسون والصناع الفرنسيون يقبلون ما يكلفون به من أعمال فى البلاد الأجنبية ، وكان الفن الجديد يسمى أينما حل **العمل المولود فى فرنسا** opus Francigenum ؛ ورحبت به إنجلترا لأنها كانت فى القرن الثامن عشر نصف فرنسية ، ولم تكن القناة الإنجليزية إلا نهراً بين ناحيتين من مملكة بريطانية تشمل نصف فرنسا ، وكانت رون العاصمة الثقافية لتلك المملكة . واستمد الفن القوطى أصله من نورمندية لا من إيل ده فرانس . واحتفظ بالضخامة النورمندية فى إطار قوطى . وحدث الانتقال من الطراز الرومانسى إلى الطراز القوطى فى فرنسا وإنجلترا فى وقت واحد تقريباً ؛ ففى الوقت الذى كان العقد المستدق يستخدم فى كنيسة القديس دنيس (١١٤٠) أخذ هذا الطراز يعود إلى الظهور فى كتدرائيتى درهام وجلوسستر ، وفى دير الفوارات Fountains Abbey ، والملمزبرى Malmsbury[٢٤] . وكان هنرى الثالث (١٢١٦ — ١٢٧٢) يعجب بكل ما هو فرنسى ويحسد المجد المعمارى الذى بلغته فرنسا فى عهد القديس لويس . وفرض على رعاياه من الضرائب ما أفقرهم ليعيد بناء دير وستمنستر ، ولينفق على مدرسة الفنانين — البنائين ، والمثالين ، والمصورين ، والمزخرفين ، والصياغ — الذين جمعهم قرب بلاطه لينفذوا مشروعاته . وسنقصر وصفنا هنا على الطراز الأول من الطرز التى تنقسم إليها العمارة القوطية الإنجليزية — وهى الطراز الإنجليزى المبكر (١١٧٥ — ١٢٨٠) ،

والطراز المنقوش (١٢٨٠ — ١٣٨٠) ، والطراز العمودى (١٣٨٠ — ١٤٥٠) . وقد اتخذ هذا الفن من النوافذ والعقود الإنجليزية له اسماً آخر فسمى « بالريشة »(*) . وكانت الواجهات والأبواب فى هذا الطراز أبسط من مثيلاتها فى فرنسا ، وإن كانت كنيستا لنكلن وروشستر قد حوتا بعض التماثيل المنحوتة ، وحوت منها كنيسة ولز Wells أكثر من هاتين الكنيستين ؛ ولكن هذه لم تكن هى القاعدة المتبعة ، ولا يمكن على كل حال مقارنة هذه التماثيل ، فى نوعها وعددها ، بالتماثيل المقامة على أبواب كنائس تشارتر ، أو أمين ، أو ريمس . أما الأبراج فكانت تمتاز بالفخامة لا بالارتفاع ، وإن كانت أبراج سالزبرى ، ونوروك ، ولتشفيلد تدل على ما يستطيع البنّاء الإنجليزى أن يفعله إذا ما آثر الرشاقة والارتفاع على الروعة والفخامة . كذلك عجز ارتفاع الكنيسة من الداخل عن أن يغرى المهندسين الإنجليز : لقد حاولوه أحياناً كما فعلوا فى وستمنستر وسلزبرى ، ولكنهم فى الأغلب الأعم كانوا يتركون القبة منخفضة انخفاضاً مقبضاً للنفس ، كما تراها فى جلوسستر ، وإكستر . يضاف إلى هذا أن طول الكتدرائيات الإنجليزية الكبير لم يكن يشجع على بذل الجهود التى تجعل ارتفاعها يتناسب مع هذا الطول ؛ فطول كنيسة ونشستر ٥٥٦ قدماً ، وطول كنيسة إلى Ely ٥١٧ ، وكنتربرى ٥١٤ ، ودير وستمنستر ٥١١ ؛ أما كنيسة أمين فطولها ٤٣٥ ، وريمس ٤٣٠ ، وحتى كنيسة ميلان نفسها لا يزيد طولها على ٤٧٥ . لكن ارتفاع كنيسة ونشستر من الداخل لم يكن يزيد على ٧٨ قدماً . وهو فى كنيسة كنتربرى لا يزيد على ٨٠ . وفى لنكلن لا يتجاوز ٨٢ . وفى وستمنستر لا يتجاوز ١٠٣ ؛ أما أمين فترتفع إلى ١٤٠ قدماً .

(*) والنوافذ التى سمى بها هذا الطراز عالية ضيقة تنتهى بعقد مستدق كثيراً : مزدوج الفتحات أو ثلاثيها . وهو كثير الوجود فى مبانى النصف الأول من القرن الثالث عشر . (المترجم)

وظل الطرف الشرقى للكنيسة القوطية الإنجليزية هو القبا المربع المعروف فى الطراز الإنجليسكسونى ، متجاهلا فى ذلك التطور الفرنسى السهل الذى أنتج القبا الكثير الأضلاع أو النصف الدائرى . وكان الطرف الشرقى يوسع فى كثير من الحالات ليكون مصلى خاصة لعبادة العذراء ، وإن كانت عبادة مريم لم تبلغ من الحماسة الدرجة التى بلغتها فى فرنسا . وكثيراً ما كان موضع اجتماع القساوسة فى الكتدرائية وقصر الأسقف متصلين بالكنيسة يكونان معها « حرم الكنيسة » ، وكان يحيط به فى العادة سور . وكان انتشار عنابر النوم ، وقاعات الطعام ، والدير ، والطرقات المنعزلة فى الأديرة القوطية بإنجلترا واسكتلندة — كما هى الحال فى فوانتينز ، ودرايبرج Dayburgh ، وملروز Melrose ، وتنتيرن Tintern داخل محيط واحد مما جعلها تكون مجموعة فنية ذات جلال وروعة .

ويبدو أن المبدأ الأساسى فى العمارة القوطية — مبدأ توازن الضغوط وتصريفها لتقليل ضخامة الدعائم والمساند — وما ينشأ عن هذه الضخامة من قبح المنظر — لم يحز قط قبولا تاماً فى إنجلترا ، ولم يعدّل سمك الجدران الذى يمتاز به الطراز الرومنسى القديم إلا تعديلا يسيراً فى الطراز القوطى الإنجليزى ، حتى فى الحالات التى يتحتم فيها تكييف التصميم ليوائم القاعدة الرومنسية كما حدث فى سلزبرى . وكان المهندسون الإنجليز ينفرون من المساند المتنقلة نفور المهندسين الطليان . نعم إنهم لجأوا إليها فى بعض الأماكن ، ولكنهم فعلوا ذلك فى غير مبالاة ؛ وكانوا يشعرون بأن دعائم البناء يجب أن يحتويها البناء نفسه ، لا أن تكون فى الزوائد التى تضاف إليه ؛ ولعلهم كانوا فى هذا على حق ؛ وإن لكتدرائياتهم لقوة وصلابة ورجولة تسمو فوق الجمال إلى العظمة والجلال ، وإن كانت تنقصها الرشاقة التى نشاهدها فى روائع الفن الفرنسى .

وبعد أن مضت أربع سنين على مقتل بكت فى كنتربرى احترق موضع المرنمين فى الكتدرائية (١١٧٤) . وروع أهل البلدة لهذه الكارثة ، وأخذوا

يضربون الجدران برؤوسهم فى غضب وحيرة لأن العلى العظيم لم يمنع حلولها بضريح أصبح قبل وقوعها كعبة الحجاج المتدينين(٢٥) . وعهد الرهبان بناء الكنيسة إلى مهندس من أهل سان Sens يدعى وليم ، وهو رجل فرنسى ذاع صيته على أثر بنائه كتدرائية لمدينته . وظل وليم يعمل فى كنتربرى من ١١٧٥ إلى ١١٧٨ ؛ ثم عجز عن العمل لسقوطه من فوق محالة ، فواصل العمل « وليم الإنجليزى William the Englishman » وهو رجل « ضئيل الجسم » كما يقول الراهب جرفاز Gervase ولكنه دقيق أمين فى أعمال كثيرة مختلفة الأنواع(٢٦) . وقد بقيت أجزاء كثيرة من الكتدرائية الرومنسية التى شيدت فى عام ١٠٩٦ ؛ بقيت العقود المستديرة بين التجديدات القوطية بصفة عامة ؛ ولكن السقف الخشبى الذى كان يغطى موضع المرنمين قد استبدلت به قبة من الحجر مضلعة ، وكذلك استطالت العمد فعلت إلى ارتفاعها الكامل الرشيق ، ونحتت تيجانها نحتا بديعا ، وملئت النوافذ بالزجاج الملون البراق . وإن كتدرائية كنتربرى المتجمعة فى محيطها الكتدرائى ، والتى تشرف مع ذلك على بلدتها الجميلة العجيبة لهى اليوم من أكثر مناظر الأرض إيحاء وإلهاما للنفوس .

ونشر الأحبار والحجاج الذين لا يحصى عددهم الطراز القوطى فى أنحاء بريطانيا بما أقيم من كنائس على نمطها . فأقامت بيتر برو Peterborough فى عام ١١٧٧ رواقا فخما ذا عمد فى واجهة الجناح الغربى من كتدرائيتها ، وشيد الأسقف هيو ده لاسى Hugh de Lacy فى عام ١١٨٩ الامتداد الجميل لكتدرائية ونشستر خلف مكان القربان على هذا الطراز . وحدث فى عام ١١٨٦ زلزال تصدعت منه كتدرائية لنكلن من أعلاها إلى أسفلها ؛ وبعد ست سنين من تصدعها شرع الأسقف هيو يعيد بناءها على تصميم قوطى قام به جوفرى ده نوايير Geoffrey de Noyers ؛ وأتمها جروستست Grossete الشهم النبيل حوالى عام ١٢٤٠ . وهى قائمة على ربوة تطل على ريف إنجليزى يتمثل فيه

جمال هذا الريف أصدق تمثيل . وقلّ أن يشاهد الإنسان ما يشاهده فى هذه الكنيسة من روعة الحجم قد وفق بينها وبين رقة التفاصيل ؛ فأبراجها الثلاثة العظيمة ، وواجهتها العريضة ببابها ذى التماثيل المنحوتة وبواكيها المعقدة ، وصحنها الفخم الذى يبدو خفيفاً رغم ضخامة حجمه وسعته ، وجذوع أعمدتها الرشيقة وما على دعاماتها من نقوش لا تقل عن هذه الجذوع رشاقة ، ونوافذها المشععة ، وقبوة بيت القساوسة الشبيهة بالنخلة ، وعقود الصوامع الفخمة الرائعة — هذه تكفى وحدها لأن تجعل كتدرائية لنكلن مما يشرف بنى الإنسان ، ولو لم يكن فيها « مرنمة الملائكة » . فقد حدث فى عام ١٢٣٩ أن سقط برج نورمندى قديم وحطم المرنمة التى شادها الأسقف هيو ، فلما سقطت شيدت مرنمة جديدة فى الفترة التى بين ١٢٥٦ — ١٢٨٠ على الطراز المزخرف الوليد ، منقوشة ولكنها بديعة . وتعزو الأقاصيص اسمها إلى الملائكة الذين أقاموها — كما تقول القصة — لأن أيدى بنى الإنسان تعجز من أن تقيم عملا يبلغ هذا المبلغ من الكمال ؛ ولكن أغلب الظن أن هذا الاسم قد اشتق من الملائكة الموسيقيين الباسمين المنحوتة صورهم على الفرج المسدودة حول أقواس طاقات البواكى القائمة فوق العقود بين الصحن والجناحين . وأوشك المثالون الإنجليز أن يبلغوا فى تماثيلهم القائمة على باب المرنمة الجنوبى ما بلغه المثالون فى ريمس وأمين . فهناك أربعة تماثيل قد أزال رؤوسها وشوّهها المتطهرون المتزمتون تبلغ فى الجمال مبلغ تماثيل ريمس وأمين ، ومن هذه تمثالان يرمز أحدهما إلى الهيكل وآخر إلى الكنيسة هما أجمل التماثيل الإنجليزية التى نحتت فى القرن الثالث عشر . ويظن السير وليم أسلر Sir William Osler وهو من كبار العلماء ، أن مرنمة الملائكة هذه أجمل روائع الفن البشرى على الإطلاق .

واستأجر الأسقف پور Poore فى عام ١٢٢٠ إلياس ده درهام Elias de Derham ليصمم ويبنى كتدرائية سلزبرى ؛ وقد تم بناؤها فى الفترة القصيرة

المعتادة التى لا تزيد على خمس وعشرين سنة . وهى فى جميع أجزائها على الطراز الإنجليزى المبكر ، وتشذ عن القاعدة المتبعة فى الكتدرائيات الإنجليزية وهى جمعها بين عدة طرز مختلفة . وإن ما تمتاز به من وحدة فى التصميم ، وتناسق فى الحجم والخطوط ، وجلال ساذج فى برج الجناح وشمروخه ، ورشاقة فى القبة المقامة على معبد العذراء ، وجمال فى نوافذ بيت القساوسة ، إن ما تمتاز به من هذا كله ليعوضها عن ثقل دعامات الصحن وضيق القبة المقبض . ولا يزال لكتدرائية إلى Ely سقف من الخشب ، ولكنه سقف غير منفر ، فإن فى الخشب من صفات الدفء والحيوية ما لا يوجد له مثيل فى العمارة الحجرية . وقد أضاف المهندسون القوط إلى الحصن النورمندى بابا غريبا جميلا هو « باب الجليل » (حوالى عام ١٢٠٥) ، وبيتا للقساوسة به مجموعة من العمد الجميلة منحوتة من رخام بربك Purbeck ، كما أضافوا إليها فى القرن الرابع عشر على الطراز القوطى المزخرف مصلى للعذراء ، ومرنمة ، ثم أقاموا عند ملتقى الجناحين بالسقف برج ناقوس ضخم هو « مُثَمَّن إلى » . وكانت كتدرائية ولز (١١٧٤ - ١١٩١) من أقدم أمثلة الطراز القوطى الإنجليزى ؛ ولم يكن صحنها جيد التصميم ، ولكن الواجهة الشمالية التى أضافها الأسقف جوسلين Jocelyn (١٢٢٠ - ١٢٤٢) « أوشكت أن تكون أجمل ما شيد فى إنجلترا »(٢٨) . ولقد كان فى كوى الواجهة ٣٤٠ تمثالا ؛ فقد منها ١٠٦ كانت من ضحايا تزمت المتطهرين ، والتخريب ، وعوادى الزمن ، وتكون البقية الباقية أكبر مجموعة من الصور المنحوتة فى بريطانيا . وليس فى وسعنا أن نقول عن صفاتها مثل ما نقوله عن عددها ...

وكانت آخر العمائر التى شيدت على الطراز القوطى الإنجليزى المبكر كنيسة ديروستمنستر . وكان سبب بنائها أن هنرى الثالث الذى اتخذ إدورد المعترف قديسه الشفيع أحس بأن الكنيسة النورمندية التى بناها إدورد (١٠٥٠)

غير جديرة بأن تحوى عظام هذا الشفيع ، فأمر فنانيه أن يستعيضوا عنها بصرح قوطى على الطراز الفرنسى ، وجبى لهذا الغرض ضرائب بلغ مقدارها ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه يمكننا أن نقدرها تقديراً تقريباً بما يعادل ٩٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى حسب قيمة الدولار فى هذه الأيام . وبدأ العمل فى عام ١٢٤٥ ، وظل قائماً حتى توفى هنرى فى ١٢٧٢ . وكان تصميمها على غرار تصميم كنيستى ريمس وأمين لا يستثنى من هذا الجناحان الكثيرا الأضلاع اللذان هما من مميزات الطراز القارى : ولقد تأثرت النقوش المنحوتة فى الباب الشمالى ، والتى تصور يوم الحساب ، بالنقوش التى فى الواجهة الغربية لكتدرائية أمين . وفى الفرج المسدودة فى البواكى القائمة فوق العقود التى بين الصحن والجناحين نقوش بارزة مدهشة تمثل الملائكة ، منها ملك فى الفرجة الجنوبية يطل على الزمان بوجه حنون رحيم يضارع ملك كنيسة ريمس . وفوق مدخل بيت القساوسة صورتان تمثلان البشارة وتشير فيهما العذراء إشارة فاتنة تجمع بين التوسل والتواضع . وأجمل من هذا كله على جماله القبور الملكية التى فى الدير ، وأجمل من هذه كلها تمثال هنرى الثالث نفسه ؛ وقد جمل فيه صانعه الملك البدين القصير فجعله مثلا أعلى فى الجمال وتناسب الأعضاء . ولقد أنست الناس هذه القبور الفخمة جرائم عشرين من الحكام ، وكادت تعوضهم عنها العبقرية الإنجليزية المدفونة تحت حجارة توابيت الملوك .

الفصل السابع

الطراز القوطى الألمانى (١٢٠٠ - ١٣٠٠)

استوردت فلاندرز الطراز القوطى من فرنسا فى تاريخ مبكر . فقد بدأت كنيسة القديس جودول Gudule التى ترفع هامتها كبرياء على تلها ببركسل فى عام ١٢٢٠ ، وأهم ما تفخر به هو زجاجها الملون . وأقيمت فى كنيسة القديس باڤون Bavon بغنت مرنمة قوطية فى ١٢٧٤ ؛ وكانت كنيسة القديس رمبولت Rombault فى مكلن Mechlin تشرف على الريف من أبراجها الضخمة المفرطة فى الزخرف وإن كانت لم تتم فى يوم من الأيام . ذلك أن فلاندرز كانت تهتم بالنسيج أكثر مما تهتم بالدين ، وكانت عمارتها مدنية لادينية ، وكان أعظم ما فيها من العمائر القوطية هو قاعات الأقمشة فى إيبر Ypres وبروج وغنت . وكانت قاعة إيبر (١٢٠٠ - ١٣٠٤) أفخم هذه القاعات : فقد كان لها واجهة ذات ثلاثة أطباق من البواكى طولها ٤٥٠ قدماً دمرت فى أثناء الحرب العالمية الأولى . ولا تزال قاعة النسيج فى بروج (١٢٨٤ وما بعدها) تشرف بقبة ناقوسها الفخمة التى طبقت شهرتها العالم كله على الميدان الذى تقوم فيه . وتوحى هذه المبانى الجميلة هى ومبانى غنت (١٣٢٥ وما بعدها) بما كانت عليه نقابات الحرف الفلمنكية من ثراء ، وما كانت تتيه به من كبرياء هى خليقة به ، وهى بعض ما فى هذه المدن السارة الهادئة فى هذه الأيام من فتنة وروعة .

ولقى الفن القوطى فى انتشاره نحو الشرق إلى هولندة وألمانيا مقاومة متزايدة ؛ ذلك أن رشاقة الطراز القوطى لم تكن تتفق بوجه عام مع النزعة العقلية التيوتونية ، وأن الطراز الرومنسى أكثر مواءمة لهذه النزعة ، ولهذا استمسكت

به ألمانيا حتى القرن الثالث عشر . وتعد كتدرائية بمبرج Bamberg العظمى (١١٨٥ — ١٢٣٧) مرحلة انتقال : فالنوافذ فيها صغيرة وذات عقود مستديرة وليست فيها مساند متنقلة ، ولكن القبة ذات ضلوع من الداخل وذات شكل مستدق . وإنا لنجد هنا فى مطلع عهد الفن القوطى الألمانى تطوراً فى النحت ذا بال : فقد كان فى بادئ الأمر يحذو حذو النحت الفرنسى ، ولكنه سرعان ما خطا نحو طراز من النزعة الطبيعية البديعة والقوة . والحق أن الصورة التى تمثل المعبد فوق كنيسة بمبرج لأوقع فى النفس من الصورة المماثلة لها فى ريمس[٢٩] . وتمثالا اليصابات ومريم اللذان فى المرنمة أقرب إلى أن يكونا نسختين من الموضوعين المماثلين لهما فى فرنسا . ذلك أن تمثال اليصابات ذو وجه وشكل يشبهان وجه عضو من أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى يرتدى الجبة الرومانية (الطوغة) ، وأما مريم فقد مثلت فى صورة امرأة ذات قوة وصــلابة وهما الصفتان اللتان تحبهما ألمــانيا على الدوام .

وتكاد كل كتدرائية ألمانية باقية من ذلك العهد تحتوى تماثيل تستلفت الأنظار ، أحسنها كلها التى فى كتدرائية نومبرج Naumburg (حوالى ١٢٥٠) . ففى المرنمة القريبة من هذه الكنيسة اثنا عشر تمثالا متعاقبة تمثل طائفة من علية القوم المحليين ، فى واقعية حازمة ، وتوحى بأن الفنانين لم ينالوا حقهم من الأجر كاملا ؛ وكأنما أرادوا أن يكفّروا عن هذا الخطأ فكانت صورة يوتا Uta زوجة الأمير تمثل المرأة الألمانيه كما يتوق إليها التفكير الألمانى . وعلى ستار المرنمة نقش يمثل يهوذا يتناول المال ليغدر بالمسيح . والصور هنا مزدحمة وذات قوة ولكنها قوة لا تضر بفرديتها ، فيهوذا قد مثل بحيث يبدو متصفاً بشىء من العطف ، والفريسيون شخصيات ذوات قوة . تلك هى آية فن النحت الألمانى فى القرن الثالث عشر .

وفى عام ١٢٤٨ وضع كنراد الهتشستادنى Conrad of Hochstaden كبير

أساقفة كولونى أشهر الكتدرائيات الألمانية وأقلها موافقة للطراز القوطى . وتقدم العمل تقدماً بطيئاً فى خلال الفوضى التى أعقبت موت فردريك الثانى ، فلم تدشن الكتدرائية إلا فى عام ١٣٢٢ ، ولهذا فإن جزءاً كبيراً منها يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ، أما الشماريخ الرشيقة وما على زواياها من النقوش التى فى صورة أوراق أشجار ملفوفة وزخارف النوافذ الحجرية التى يوضع فيها الزجاج فقد بنيت فى عام ١٨٨٠ حسب تصميم لها من القرن الخامس عشر . وبنيت كتدرائية كولونى على غرار كتدرائية أمين فترسمت الطراز الفرنسى والأساوب الفرنسى بدقة . فخطوط الواجهة مفرطة فى اعتدالها وصلابتها ، ولكن عمد الصحن السامقة الرفيعة ، والنوافذ المتلألئة ، والتماثيل الأربعة عشر التى على دعامات المرنمة تكسب داخل الكتدرائية جاذبية ، لم تنج من الحرب العالمية الثانية إلا بأعجوبة ، وتكاد تكون إحدى المعجزات .

وكتدرائية استرسبورج Strassbourg أكثر من هذه إمتاعاً للنفس . وهنا أيضاً كان قرب البلدة من فرنسا مما جعل الطراز الفرنسى يبدو وكأنه أقل بُعداً عن الطابع الوطنى مما يبدو فى استرسبورج فى هذه الأيام (١٩٤٩) ، فخارجها يمثل الرشاقة الفرنسية وداخلها يمثل القوة الألمانية . ويدخل الإنسان إلى الكتدرائية بعد أن يمر ببيوت مزدحمة جميلة المنظر ذات سقف هرمية . وتزين التماثيل الواجهة ، ولكن النوافذ المشععة الواسعة ذات الروعة أبهى من هذه الزينة . والبرج الوحيد القائم فى ركن واحد من أركان الواجهة يشوه منظرها ، إذ يوحى إلى الإنسان بأن فيها نقصاً ، ولكن الفنان قد أفلح كل الفلاح فى أن يجمع هنا بين المهابة والزخرف ، حتى ليستطيع الإنسان أن يفهم وصف جيته لهذه الواجهة بأنها « موسيقى متجمدة » ، وإن كان علينا نحن أن نستخدم فى وصفها لفظاً غير لفظ « متجمد » . فقد كتب جيته يقول : « لما كنت قد نشأت على احتقار العمارة القوطية ، فقد ازدريت هذه الواجهة ؛ ولكنى لما دخلتها اعترتنى

الدهشة ، وأحسست بما فى جمالها من جاذبية »[٣٠] . والزجاج الملون فى هذه الكتدرائية قديم العهد ، ولعله أقدم من أى زجاج فى فرنسا ؛ والتماثيل المنحوتة التى عند باب الجناح الجنوبى (١٢٣٠ — ١٢٤٠) نادرة الجمال ، وفى القوس التى فوق الباب نقش غائر يمثل موت العذراء ؛ والرسل المجتمعون حول فراشها ذوو ملامح فردية غير وافية ؛ ولكن الفكرة التى أوحت بصورة المسيح جميلة وقد أبرزها المثال بمهارة . ويقوم على جانبى هذا الباب تمثالان عظيمان : يمثل أحدهما الكنيسة فى صورة ملكة ألمانية بشوشة ؛ والآخر صورة لشخص نحيل رشيق ، مكفوف ولكنه جميل ، يرمز إلى معبد اليهود ؛ ولو رفعت العصابة التى على عينى هذا التمثال لفاق المعبد الكنيسة . وقد أمرت لجنة الثورة الفرنسية فى عام ١٧٩٣ بتدمير تماثيل الكتدرائية لتجعل منها « معبداً للعقل » ؛ ولكن عالما فى التاريخ الطبيعى لا نعرف من اسمه أكثر من هرمان Herman أنقذ تمثالى الكنيسة والمعبد بأن أخفاهما فى حديقته المخصصة لعلم النبات ، كما أنقذ النقوش التى فوق قوس الباب بأن غطاها بلوحة عليها نقش فرنسى : **الحرية ، والمساواة ، والإخاء**[٣١] .

الفصل الثامن

الطراز القوطى الإيطالى (١٢٠٠ – ١٣٠٠)

أطلق الإيطاليون فى العصور الوسطى على الطراز القوطى اسم **طراز تيدسكو**؛ وأخطأ إيطاليو النهضة مثل خطئهم فى أصل هذا الطراز ، فاخترعوا له اسم القوطى لاعتقادهم أن برابرة ما وراء الألب وحدهم هم الذين يستطيعون إيجاد فن يبلغ هذا القدر من الإسراف . ذلك أن ما فى هذا الطراز من كثرة فى الزخارف وعظم فى الجرأة لم يكن يتفق وأذواق الإيطاليين ذات النزعة القديمة الطويلة العهد بالنقاء . وإذا كانت إيطاليا قد اتخذت الطراز القوطى، فقد كان ذلك عن إباء يكاد يبلغ حد الاحتقار . ولم يكن فى مقدورها أن تطلع على العالم بلألاء كتدرائية ميلان الغريب وطراز أرفيتو ، وسينا ، وأسيسى ، وفلورنس القوطى – البيزنطى – الرومنسى إلا بعد أن كيفته بما يوائم حاجاتها ومزاجها . وكان الرخام موفوراً فى أرضها وخرباتها وكان فى وسعها أن تبنى واجهات معابدها بألواح منه متعددة الألوان ؛ ولكن كيف تستطيع أن تنحت واجهة رخامية لتشيد منها المداخل المعقدة كما كان ينحت أهل الشمال بالحجارة اللينة ؟ إنها لم تكن فى حاجة إلى النوافذ الكبيرة التى تدعو إليها حاجة بلاد الشمال الباردة القائمة إلى الدفء والضوء ، وكانت لذلك تفضل عليها النوافذ الصغيرة التى جعلت كتدرائياتها معابد قليلة الحرارة تقى روادها وهج الشمس؛ ولم تكن ترى أن الجدران السميكة والأربطة الحديدية نفسها أقبح منظراً من الدعامات المتنقلة ، فكانت لذلك تستخدمها فى تزيين مبانيها ، ولم تتقبل فى يوم من الأيام المنطق الإنسانى فى الطراز القوطى .

ويكاد هذا الطراز فى البلاد الشمالية يكون كله قبل عام ١٣٠٠ مقصوراً

على الكنائس ، لا يستثنى من هذا إلا عدد قليل منها فى المدن التجارية مثل إيبر ، وبروج ، وغنت. وكان للعمارة المدنية فى إيطاليا الشمالية والوسطى، وهما أغنى من الأراضى الوطيئة نفسها فى الصناعة والتجارة ، شأن عظيم فى فى تنمية الفن القوطى ، فقد اتخذت القاعات العامة ، وجدران المدن ، والأبواب ، والأبراج ، وقلاع سادة الإقطاع ، وقصور التجار ، اتخذت هذه كلها الشكل القوطى أو الزخرف القوطى ؛ وبدأت بروجيا دار بلديتها فى عام ١٢٨١ ، وبدأت سينا دارها العامة فى ١٢٨٩ ، وبولونيا دارها الشعبية فى ١٢٩٠ ، وبدأت فلورنس دارها الفذة الرشيقة المعروفة بقصر ڤتشيو Vecchio فى ١٢٩٨ — وكلها على الطراز القوطى التسكانى .

وفى أسيسى أراد الأخ إلياس فى عام ١٢٢٨ أن ينشئ مكاناً يتسع للعدد الجم من رهبانه الفرنسيسين وللطوائف المتزايدة من الحجاج إلى قبر القديس فرانسس ، فأمر بتشييد دير سان فرانسسكو وكنيستها العظيمى الاتساع — وهى أول كنيسة شيدت فى إيطاليا على النظام القوطى . وعهد هذا العمل إلى رئيس للبنائين ألمانى يسميه الإيطاليون ياقوبو الألمانى (يعقوب الألمانى Jacopo d,Alemannia) ، ولعل هذا هو السبب فى تسمية الطراز القوطى فى إيطاليا « بالطراز الألمانى » . وشيد ياقوبو « كنيسة سفلى » على الطراز الرومنسى الذى فيه القبة ذات المنحنيات الزاوية عند ملتقى العقود ، ثم أقام فوقها « كنيسة عليا » ذات نوافذ فى عقودها محشوة بزخارف جميلة ، وقباب مضلعة مستدقة . وتكون الكنيستان والدير كتلة من البناء ذات روعة ، وإن كانت لا تبلغ فى الإمتاع ما تبلغه المظلمات العجيبة التى أبدعتها أيدى سمابيو Cimabue ، وچيتو ، وتلاميذ چيتو ، أو السائحين والعبّاد الذين يهرعون كل يوم من مائة مدينة ومدينة إلى ضريح قديس إيطاليا المحبوب ، أقل من يلقى المبالاة من هؤلاء القديسين .

ولا تزال سينا حتى الآن من مدائن العصور الوسطى : فهى تتكون من

ميدان عام تحيط به دور الحكومة ، وسوق عامة مكشوفة ، تتصل بها حوانيت متضعة لا تبذل فيها جهود لاسترعاء النظر . ويتفرع من هذا الميدان المركزى نحو اثنى عشر طريقاً تتعثر فى طريقها الخطر الطليل بين مساكن قديمة مظلمة لا تكاد يبعد بعضها عن بعض بعشر أقدام ، غاصة بخلائق بشوشين تفوح منهم روائح كريهة ، الماء عندهم ترف أندر وأشد خطورة على أجسامهم من النبيذ . وتقوم على تل خلف المساكن كتدرائية المدينة مبنية من الرخام القاتم والأبيض فى سطور غير ذات جمال . وقد بدئ بناء الكنيسة عام ١٢٢٩ وتم فى عام ١٣٤٨ ؛ وأضيفت إليها فى عام ١٣٨٠ واجهة جديدة ضخمة من تصميم خلَّفَه چيوڤنى پيزانو . وكلها من الرخام الأحمر أو الأسود أو الأبيض ، وفيها ثلاثة أبواب كبيرة رومنسية الطراز على جانبي كل منها قوائم منحوتة نحتاً بديعاً ، وتحيط بها سقف هرمية ذات نقوش معقوفة ، ونافذة متشععة ترشح أشعة الشمس الغاربة ؛ وتمتد البواكى والعمد على طول الواجهة تطالع الناظر بطائفة كبيرة من التماثيل ؛ وفى الأركان شماريخ وأبراج من الرخام الأبيض تقلل من حدة زواياها ، وفى المقص العالى نقش فسيفسائى ضخم يمثل العذراء الأم تسبح صاعدة إلى الجنة . وكان الفنان الإيطالى مولعاً بالسطوح البراقة الملونة ، ولم يكن كالفنان الفرنسى مولعاً بانعكاسات الضوء والظل الدقيقة على العمد الداخلية فى الأبواب وعلى الواجهات ذات النحت الغائر . وليست هنا مساند للجدران . وتعلو فوق المرنمة قبة بيزنطية الطراز ، تتحمل ثقلها جدران سميكة وعقود مستديرة متسعة اتساعا كبيراً ، تقوم على مجموعات من عمد الرخام ، وتحمل قبة ذات أضلاع مستديرة ومستدقة . والطراز القوطى التسكانى لا يزال يغلب عليه هنا الطراز الرومنسى ، ولا يزال بعيداً كل البعد عن طراز كنيستى أمين وكلونى الثقيل المعجز . وفى داخل الكنيسة منبر نقولو وچيوڤنى پيزانو . وتمثال برنزى لقائم بالتعميد صبه دوناتلو Donatello (١٤٥٧) ، ومظلمات من صنع پنتورتشيو Pinturicchio ،

ومذبح من صنع بلدسارى بروزيو Baldassare Peruzzio (١٥٣٢) ومقاعـــد للمرنمين كثيرة النقوش المنحوتة من عمل برتولميو نيرونى Bartolomeo Neroni (١٥٦٧) ؛ وهكذا استطاعت كنيسة إيطالية أن تنمو قرناً بعد قرن بفضل سلسلة متصلة الحلقات من العباقرة الإيطاليين .

وبينما كانت كتدرائية سينا وبرج أجراسها يتشكلان تناقل الناس من قرية بلسينا Bolsena معجزة كانت لها نتائج معمارية . ذلك أن قساً ، كان فى سابق أيامه يشك فى عقيدة استحالة العشاء الربانى إلى لحم المسيح ودمه ، اقتنع بصدق هذه العقيدة الدينية حين رأى الدم على الخبز المقدس ؛ ولم يكتف البابا إربان الرابع بأن يخلد هذه المعجزة بضم « عيد الجسد » إلى الأعياد المسيحية (١٢٦٤) ، بل أمر بتشييد كتدرائية فى أرڤيتو القريبة من قرية بلسينا . ووضع تصميم هذه الكتدرائية أرنلفو دى كمبيو Arnollo di Cambio ولورنزو مكتانى Lorenzo Mactani وظلا يعملان فى تشييدها من ١٢٩٠ حتى تمت فى ١٣٣٠ . وجعلت واجهتها على طراز كتدرائية سينا ، ولكنها أجمل منها صقلا وتنفيذا ، وأحسن منها تناسباً فى أجزائها ، فكأنها تصوير ضخم فى الرخام ، كل عنصر من عناصرها آية فنية بذلت فيها عناية فائقة . وتروى النقوش البارزة المفصلة تفصيلا لا يكاد يصدقه العقل ، ولكنها مع ذلك دقيقة كل الدقة ؛ وتحدث هذه النقوش القائمة على العمد المربعة العريضة التى بين الأبواب مرة أخرى عن قصة خلق العالم ، وحياة المسيح ، وتطهير المسيح للجنس البشرى من الذنوب والشقاء ، ويوم الحساب . ويمتاز أحدها ، وهو الذى يمثل زيارة العذراء لإليصابات ، بأنه يرقى فى ذلك العهد إلى الكمال الذى بلغه فن النحت فى عصر النهضة . وهناك عمد منحوتة نحتا رقيقا تقسم مراحل الواجهة الشامخة الثلاث ، وتأوى طائفة كبيرة من الأنبياء ، والرسل ، والآباء ، والقديسين . وتتوسط هذه المجموعة المعقدة نافذة مشععة تعزى إلى أركانيا Orcania (١٣٥٩) ، وإن كان

هذا مشكوكاً فيه ، ويعلوها نقش فسيفسائى براق (أزيل فى الوقت الحاضر) يمثل تكليل العذراء . وداخل الكنيسة الذى تتناوب فيه الخطوط الملونة تناوباً غريباً عبارة عن باسلقا ساذجة تحت سقف منخفض من الخشب ؛ والإضاءة فيها ضعيفة ، وليس فى وسع الإنسان أن يمتدح المظلمات التى صنعها فرا أنجليكو Fra Angelico وبنزو جتزولى ، Benozzoli Gozzoli ولوكا سنيورلى Luca Signorelli .

ولكن سورة البناء التى اجتاحت إيطاليا فى القرن الثالث عشر أتت بأعظم عجائبها فى مدينة فلورنس الثرية . فقد شاد أرنلفو دى كمبيو فى عام ١٢٩٤ كنيسة الصليب المقدس (سانتاكروس Santa Croce) واحتفظ فيها بنظام الباسلقا التقليدى الخالى من الجناحين ، ذى السقف الخشبى المستوى ، ولكنه استخدم العقد المستدق فى النوافذ ، والصحن ذا البواكى والواجهة الرخامية . ولا يعتمد جمال الكنيسة على هندستها المعمارية بقدر ما يعتمد على كثرة ما فى داخلها من التماثيل ، والنقوش المنحوتة ، والمظلمات ، التى تكشف عن مهارة أصحاب الفن الإيطالى السائر نحو النضوج . وفى عام ١٢٩٨ أنشأ أرنلفو لمكان التعميد واجهة من طبقات الرخام يتعاقب فيها اللونان الأسود والأبيض ذلك التعاقب الذى يمجه الذوق السليم ، ويشوه كثيراً من مبانى الطراز التهسكانى ، لأنه يخضع الارتفاع العمودى لحشد من الخطوط المستقيمة . ولكن روح العصر المزهوة بنفسها — وهى بشير آخر بعصر النهضة — يمكن تبينها فى المرسوم (١٢٩٤) الذى كلف به أرنلفو ببناء الكتدرائية العظيمة :

لما كان الحزم أجمع يقضى على ذوى الأصول الكريمة أن يختطوا فى أعمالهم خطة تجعل ما يتبعونه فيها من حكمة وفخامة تظهر فى صورة تراها العين ، فقد أمرنا أن يعد أرنلفو رئيس المهندسين فى المدينة نماذج أو تصميمات لإعادة بناء (كتدرائية) سانتا مارية ربراتا Sante Maria Reparata ، بحيث تبدو

فى أسمى حلة من الفخامة مهما أنفق فيها من المال ، وبحيث لاتستطيع جهود البشر ولا قواهم أن تبتكر شيئاً أيا كان ، أو أن تتعهد بالقيام بشىء ، يفوقها سعة أو جمالا ؛ وأن يراعى فى هذا العمل ما أعلنه أحكم الحكماء من المواطنين وأشاروا به فى مجلسهم العام وفى اجتماعهم العام وهو ألا تمس يد أعمال المدينة إلا إذا كان فى نية صاحبها أن يجعلها موائمة للروح النبيلة المؤلفة من أرواح جميع مواطنيها مجتمعة فى إدارة موحدة(٣٢) .

وأثار هذا التصريح الواسع الانتشار حماسة الجماهير ، وهو الهدف المقصود منه بلا ريب ، فأخذوا يتبرعون بالمال . واشتركت نقابات الحرف الطائفية فى المدينة فى تمويل المشروع ؛ ولما أن تباطأت غيرها من النقابات فيما بعد تعهدت نقابة عمال الصوف بنفقات المشروع كله ، وتبرعت لهذا الغرض بمبلغ ارتفع إلى ٥١٫٠٠٠ ليرة ذهبية (أى ما يعادل ٩٫٢٧٠٫٠٠٠ دولار أمريكى) فى العام(٣٣) . ولهذا صمم أرنلفو البناء على أبعاد ضخمة ، فقدر ارتفاع القبة الحجرية بمائة وخمسين قدماً ، أى بما يساوى ارتفاع قبة بوفيه ، وقدر اتساع الصحن بمائتين وستين قدماً فى خمس وخمسين ؛ واعتزم أن تتحمل ثقل البناء جدران سميكة ، وأربطة حديدية ، وعقود فى الصحن مستدقة ، اشتهرت بقلة عددها الذى لا يزيد على أربعة ، وبامتدادها الهائل الذى يبلغ خمساً وستين قدماً فى الطول وتسعين قدماً فى العرض . وتوفى أرنلدو فى عام ١٣٠١ ؛ وظل العمل قائماً بعد وفاته وأدخل على تصميمه كثير من التعديل بإشراف چيتو ، وأندريا پيزانو ، وبرونلسكى Brunelleschi وغيرهم ،ولم تدشن هذه الكتلة الضخمة المشوهة من البناء إلا فى عام ١٤٣٦ ،وغير اسمها إلى سانتا ماريا ده فيورى Santa Maria de Fiore . وهى صرح ضخم غريب المنظر استغرق تشييده ستة قرون ، وغطى مساحة قدرها ٨٤٫٠٠٠ قدم مربعة ، وتبين فيما بعد أنه يتسع لمستمعى شڤنرولا Savonarola .

الفصل التاسع

الطراز القوطى الأسپانى (١٠٩١ - ١٣٠٠)

حمل رهبان فرنسا فى القرن الثانى عشر الطراز القوطى إلى أسپانيا فوق جبال البرانس ، كما نقلوا طراز العمارة الرومنسى إلى تلك البلاد فى القرن الحادى عشر . وكانت كتدرائية سان سلڤادور القائمة فى بلدة أڤيلا الصغيرة (١٠٩١ وما بعدها) هى بداية الانتقال من الطراز الرومنسى إلى القوطى ، وذلك بما احتوته من العقود المستديرة ، والباب القوطى الطراز ، والعمد الشيقة التى فى القبا والتى ترتفع حتى تتصل بالأضلاع المستدقة فى القبة . واحتفظ أهل سلمنقه Salamanca الأتقياء بالكتدرائية القديمة التى تمثل دور الانتقال والتى شيدت فى القرن الثانى عشر إلى جانب الكتدرائية الجديدة التى شيدوها فى القرن السادس عشر ؛ وتكون الكنيستان معا مجموعة من أكبر المجموعات البنائية وأعظمها روعة فى أسپانيا . وفى طرقونة Tarragona كانت الصعاب المالية سبباً فى إطالة عملية بناء الكرسى الكهنوتى من ١٠٨٩ إلى ١٣٧٥ ؛ وإن ما يتصف به البناء من بساطة ومتانة ليوائم الزخارف القوطية والإسلامية ، وما فيه من الأروقة - المكونة من عمد رومنسية تحت قبة قوطية - لمن أجمل ما أخرجه فن العصور الوسطى .

وطراز البناء فى طرقونة واضح المعالم ، أما بورجوس Burgos ، وطليطلة وليون فهى أكثر منها نزعة فرنسية ، وتزيد كل واحدة عن التى قبلها فى هذا الاتجاه . ذلك أن زواج بلانش القشتالية من لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٠٠) قد أدى إلى زيادة أسباب التدخل الذى بدأه من قبل الرهبان المهاجرون . وكان

ابن أخيها فرنندو الثالث ملك قشتالة هو الذى وضع الحجر الأساسى لكتدرائية بورجوس فى عام ١٢٢١ ؛ وكان مهندس فرنسى غير معروف هو الذى قام بتصميم البناء ، وألمانى من كولونى — جوان ده كولونيا Juan de Colonia — هو الذى أقام الشماريخ (١٤٤٢) ، وبرغندى يدعى فليبه ده برجونيا Felipé de Borgonia هو الذى بنى الناقوس العظيم فوق ملتقى الجناحين (١٥٣٩ — ١٥٤٣) ؛ ثم قام أخيراً تلميذه جوان ده ڤليجو Juan de Vallego الأسبانى بإتمام الصرح كله ١٥٦٧ : وإن الشماريخ المزخرفة النوافذ ، والأبراج المفتوحة التى تعتمد عليها هذه الشماريخ ، والباكية ذات التماثيل ، لتخلع على كنيسة سانتا ماريا لا مايور Senta Maria la Mayor (القديسة مارية الكبرى) مهابة وفخامة لا يستطيع الإنسان أن ينساهما فى وقت قصير . وقد كانت هذه الواجهة الحجرية كلها فى بادئ الأمر مطلية ، ولكن الألوان زالت عنها من زمن بعيد ، ولهذا فإن كل ما نستطيعه الآن هو أن نحاول تصور هذا الصرح المتلألئ الذى كان فى وقت من الأوقات يضارع الشمس بهاء .

كذلك قدم فرنندو الثالث نفسه الأموال اللازمة لبناء كتدرائية طليطلة الأكثر من كتدرائية بورجوس فخامة . وقل أن توجد فى المدن الداخلية مدينة جميلة الموقع كمدينة طليطلة — فهى تجثم فى ثنية من ثنايا نهر التاجه ، تخنمها تلال تحميها من الأعـــداء ؛ وما من أحد يعرف ما هى عليه من فقر فى هذه الأيام يتصور أن ملوك القوط الغربيين ومن جاء بعدهم من أمراء المسلمين ، ثم ملوك اليون Leon وقشتالة المسيحيين ، قد اتخذوا هذه المدينة عاصمة لهم . وقد بدأت كتدرائيتها فى عام ١٢٢٧ وأخذت ترتفع فى الجو ببطء مرحلة بعد مرحلة ، حتى أوشكت على التمام قبيل عام ١٤٩٣ . ولم ينشأ من التصميم الأصلى إلا برج واحد ؛ وهى من طراز نصف إسلامى مغربى كطراز الخرلدة فى أشبيلية ، وتكاد تماثلها فى رشاقتها . وبنيت فوق البرج الثانى فى القرن السابع عشر قبة أعد تصميمها أشهر

أبناء طليطلة دومنجو تيوتوكوپولى Domingo Teotocopuli الملقب باليونانى Elgreco . وطول الكنيسة من الداخل ٤٩٥ قدماً وعرضها ١٧٨ ؛ وهى متاهة تحتوى على خمس طرقات ذات دعامات عالية ، ومصليات مزخرفة ، وتماثيل حجرية للأولياء الزهاد ، وشبابيك من حديد مشغول ، و ٧٥٠ شباكاً من الزجاج الملون . ويتمثل فى هذه الكتدرائية الضخمة كل ما يتصف به الخلق الأسپانى من جد ، وكل ما يتصف به التقى الأسپانى من كآبة وقوة انفعال ، وما فى الآداب الأسپانية من رقة ودماثة ، كما يتمثل فيها أيضاً بعض ما يتصف به المسلمون من ولع بالزخرف .

ومن الأمثال السائرة فى أسپانيا أن « فى طليطلة أغنى كنائسنا ، وفى أڤيدو أكثرها قداسة ، وفى سلمنقة أعظمها قوة ، وفى ليون أعظمها جمالا »(٣٤). وقد بدأ الأسقف منريك Manrique كتدرائية ليون Leon فى عام ١٢٠٥ وجمع المال اللازم لها من تبرعات صغيرة جوزى عليها من قدموها بصكوك الغفران ، وتم بناؤها فى عام ١٣٠٣ . وقد عمد المهندسون فيها إلى الخطة القوطية الفرنسية وهى أن يكون معظم بناء الكتدرائية مكوناً من نوافذ ؛ ولزجاجها الملون منزلة عالية بين روائع ذلك الفن . وقد يكون حقاً أن تصميم الأرض التى بنيت عليها مأخوذ من كتدرائية ريمس ، وأن الواجهة الغربية قد أخذت من شارتر ، والباب الجنوبى الكبير من برجوس . ولهذا تمثل الكنيسة خليطاً عجيباً من الكتدرائيات الفرنسية — يحتوى على أبراج وشماريخ مصقولة .

وقامت كنائس أخرى ابتهاجاً باستعادة المسيحية أسپانيا — فى رمورة عام ١١٧٤ ، وفى توطيلة عام ١١٨٨ ، ولريده ١٢٠٣ ، وبلنسية ١٢٦٢ ، وبرشلونة ١٢٩٨ . ولكننا يصعب علينا أن نصف الكنائس الأسبانية التى قامت فى تلك الفترة من الزمان بأنها قوطية الطراز ، لا يستثنى من ذلك التعميم إلا كنيسة ليون . فقد خلت هذه الكنائس من النوافذ الكبيرة والمساند

المتنقلة ، واعتمد ثقل أبنيتها على جدران ودعامات ضخمة ؛ وتمتد هذه الدعامات نفسها حتى تكاد تصل إلى القبة ؛ بدل أن تمتد ضلوع العقود من القاعدة إلى السقف ؛ وهذه العمد العالية التى تقوم كالمردة الحجرية فى كهوف الصحون الضخمة تكسب داخل الكنائس الأسپانية عظمة قاتمة مظلمة تخشع لها النفوس رهبة ؛ على حين أن الطراز القوطى الشمالى يسمو بها لما يغمرها من ضوء . وكثيراً ما احتفظت الأبواب والنوافذ فى الطراز القوطى الأسپانى بالعقود الرومنسية ، كما احتفظت الزخارف المكونة من طبقات مختلفة ورسوم من الآجر الملون بعنصر إسلامى مغربى بين زخارفها القوطية ؛ وبقى تأثير الطراز البيزنطى فى القباب وأنصاف القباب القائمة ، ذات التقاسيم الثلاثية المتناسقة القائمة على قاعدة كثيرة الأضلاع . وهذه العناصر المختلفة هى التى أنشأت منها أسپانيا طرازاً فذاً من الكتدرائيات يعد من أجمل كتدرائيات أوربا .

وليست قصور الريف الحصينة وقلاعه ، ولا جدران المدن وأبوابها ، أقل الأعمال المعمارية فى العصور الوسطى نبلا وفخامة . فلا تزال جدران أفيلا قائمة إلى اليوم تشهد بإدراك العصور الوسطى لجمال الشكل ، كما جمعت بعض الأبواب الكبيرة كباب الشمس Puerto de Sol فى طليطلة بين الجمال والمنفعة . كذلك أقام الصليبيون من ذكرياتهم للقلاع الرومانية ، فى الشرق الأدنى — ولعل ذلك كان أيضاً من ذكرياتهم لما شاهدوه من حصون المسلمين(٣٥) — حصوناً قوية ضخمة كحصن الكرك (١١٢١) ، تفوق فى حجمها وشكلها أية حصون من نوعها فى ذلك العهد الحربى . وشادت بلاد المجر ، حصن أوربا الحصين من المغول ، قصوراً فخمة حصينة فى خلال القرن الثالث عشر . ثم انتقل هذا الفن إلى بلاد الغرب وترك فى إيطاليا آيات من الفن الحربى مثل برج ڤلتيرا Voltera الحصين ، وفى فرنسا فى القرن الثالث عشر قصور كوسى Coucy وپيير فون Pierrefonds ، وقصر جويارد Chatean Guillard الذى شـاده رتشرد قلب الأسد

(١١٧٩) على أثر عودته من فلسطين . ولم تكن القصور المحصنة فى أسپانيا بدعة من بدع الخيال ، بل كانت كتلا ضخمة قوية من البناء صدت المسلمين المغاربة ، واشتق منها اسم قشتالة(*) . ولما استرد الفنسو السادس (الأذفنش) (١٠٧٣ — ١١٠٨) ملك قشتالة مدينة سيجوفيا Ssgovia من المسلمين ، أقام فيها قصراً حصيناً على نمط « قصر » طليطلة . وقامت أمثال هذه القصور الحصينة فى إيطاليا لتكون قلاعاً يسكنها النبلاء ، ولا تزال مقاطعتا تسكانيا ولمبارديا مليئتين بها ؛ وكان فى سان جمنيانو San Gimignano وحدها ثلاثة عشر قصراً حصيناً من هذا النوع قبل الحرب الأوربية الثانية . وبدأت فرنسا منذ القرن العاشر لا بعد تبنى فى شتودون Chateaudun القصور التى أضحت فى عصر النهضة من أفخم مظاهر فنها المعمارى . وانتقلت الأساليب الفنية فى بناء القصور الحجرية إلى إنجلترا مع أتباع إدورد المعترف المحبَّبين ، وارتقت بما اتخذه وليم الفاتح من إجراءات هجومية دفاعية فى البلاد ، فاتخذت فى أثناء قبضته الحديدية عليها صروح برج لندن ، وقصر ونزر Windsor ، وقصر درهام اتخذت هذه الصروح أقدم صورها . ومن فرنسا أيضا انتقل بناء القصور الحصينة إلى ألمانيا ، حيث شغف به الأعيان الخارجون على القانون ، والملوك المحاربون ، والقديسون الغازون . فشاد اسكلس Schloss الكنجزبرجى الرهيب (١٢٥٧) حصنا استطاع الفرسان التيوتون أن يحكموا منه السكان المعادين لهم ، حتى كان هذا الحصن ضحية هو خليق بها من ضحايا الحرب العالمية الثانية .

(*) Castile من Castle . (المترجم)

الفصل العاشر

لمحات متفرقات

لقد كانت العمارة القوطية أجل ما تكشفت عنه النفس البشرية فى العصور الوسطى . ذلك أن أولئك الرجال ، الذين أقدموا على تعليق هاته القباب على مشاءات قليلة من الحجارة ، قد درسوا عملهم ، وعبروا عنه بإحكام أكثر مما فعله فى برجه العاجى أى فيلسوف من فلاسفة العصور الوسطى ، وقد أثمرت هذه الدراسة ما لم تثمره دراسة أولئك الفلاسفة ؛ وإن خطوط كنيسة نتردام وأجزاءها المتناسقة لتؤلف قصيدة أعظم من الملهاة الإلهية . هذا وليس فى وسعنا أن نعقد موازنة عامة بين العمارتين القوطية واليونانية — الرومانية القديمة ، لأن هذه الموازنة تحتاج إلى كثير من التخصص . ولسنا ننكر أنه ما من مدينة واحدة فى أوربة العصور الوسطى قد أخرجت من العمائر ما أخرجته أثينة أو رومة ، وأنه ليس من الأضرحة القوطية ضريح حوى من الجمال الصافى ما حواه البارثنون ؛ ولكننا لا نعرف فى العمائر اليونانية — الرومانية القديمة ما يضارع العظمة المعقدة التى نراها فى واجهة كتدرائية نتردام أو الوحى الذى ينزل على النفس فيسمو بها حين تشهد قبة كتدرائية أمين ؛ وإن ما يتمثل فى الطراز القوطى من تمهيد واطمئنان ليعبر عن تعقل واعتدال كانت تدعو بلاد اليونان إليهما أهلها ذوى العاطفة القوية الجائشة ؛ وإن النشوة الخيالية التى فى الطراز القوطى الفرنسى ، والضخامة القاتمة التى تمتاز بها كتدرائيتا برجوس وطليطلة ، واللتين ترمزان من غير قصد إلى ما فى روح العصور الوسطى من شوق وحنان ، وإلى ما فى العقيدة الدينية من رهبة ، وإيمان بالأساطير والعقائد الخفية . لقد كانت العماة والفلاسفة

اليونانيتان — الرمانيتان القديمتان علمين يهدفان إلى الثبات والاستقرار ؛ ذلك أن العوارض الراكزة على الأعمدة والتى كانت تربط عمد الپارثنون كانت هى التفسير الدنيوى لنقوش دلفى مع توكيد للتسامى ، والنضج بالثبات ، وهى توشك أن ترغم أفكار بنى الإنسان على العودة إلى هذه الحياة وهذه الأرض . ولقد كانت تسمية روح بلاد الشمال بالروح القوطية تسمية صادقة تنطبق على الواقع ، لأنها ورثت الجرأة القلقة التى هى من مميزات البرابرة الفاتحين ؛ وكانت تنتقل منهومة من نصر إلى نصر ، حتى حاصرت آخر الأمر السماء بمساندها المتنقلة ، وعقودها السامقة ، ولكنها كانت بالإضافة إلى هذا روحا مسيحية تطلب إلى السماء أن تهبها الرحمة التى أقصتها البربرية عن الأرض . وكانت البواعث المتعارضة هى التى أدت إلى أعظم انتصار للشكل على المادة فى تاريخ الفن من أوله إلى آخره .

ولكن لِمَ اضمحلت العمارة القوطية ؟ لقد كان من أسباب اضمحلالها أن كل فن يقضى على نفسه بتعبيره الكامل عن نفسه ، ويدعو إلى رد الفعل أو التغيير . ثم إن تطور الفن القوطى إلى العمودى فى إنجلترا ، وإلى كثرة الألوان والزخارف فى فرنسا ، لم يترك للشكل مستقبلا سوى المغالاة ثم الاضمحلال . يضاف إلى هذا أن إخفاق الحملات الصليبية ، وضعف العقيدة الدينية ، وتحول الأموال من مريم العذراء إلى رب المال ، ومن الكنيسة إلى الدولة ، قد حطم روح العصر القوطى . وفوق هذا وذاك فإن فرض الضرائب على رجال الدين بعد أيام لويس التاسع قد أفرغ من المال خزائن الكتدرائيات ، وفقدت المـــدن المستقلة ونقابات الحرف الطائفية ، التى كانت تُسهم فى مجد العمارة القوطية ونفقاتها ، استقلالها ، وثروتها ، واعتزازها بنفسها ؛ وأنهك الموت الأسود ، وحرب المائة السنين فرنسا وانجلترا كليهما ؛ فكانت النتيجة أن المبانى الجديدة فى القرن الرابع عشر لم تقل فحسب ، بل إن الكثرة الغالبة من الكتدرائيات

العظيمة التى بدأت فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر قد تُركت ناقصة . وآخر ما نذكره من أسباب هذا الضعف أن إعادة كشف الكتّاب الإنسانيين الحضارة القديمة ، ونهضة العمارة الجديدة فى إيطاليا التى لم تمت فيها هذه الحضارة قط ، قد أحلا محل الفن القوطى فنا خصبا جديداً موفور النماء ، فسيطر فن النهضة المعمارى من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر على أوربا الغربية ، لا يستثنى من ذلك الإسراف فى الزينة وكثرة التفاصيل . ولما جاء الدور على النزعة اليونانية — الرومانية القديمة فأصابها هى الأخرى الوهن أعادت الحركة الإبداعية التى قامت فى بداية القرن التاسع عشر العصور الوسطى إلى خيال أصحاب النزعة المثالية ، وعادت العمارة القوطية إلى الوجود . ولا يزال الكفاح قائماً بين الطرازين اليونانى — الرومانى والقوطى فى كنائسنا ومدارسنا وأسواقنا وحواضرنا ، على حين أن طرازاً معمارياً أصيلا أعظم جرأة من الطراز القوطى أخذ يعلو فى أجواز الفضاء .

وظن رجل العصور الوسطى أن الحقيقة قد تكشفت له فلم يعد فى حاجة إلى الجرى الوحشى وراءها ؛ ولهذا فإن الجهد الطائش الذى نبذله الآن فى الجرى وراء تلك الحقيقة قد وجه فى تلك الأيام إلى خلق الجمال ، وقد وجد الناس بين كوارث الفاقة ، والأوبئة الفتاكة ، والحروب ، من الوقت والروح القوية ما مكنهم من أن يحملوا ألفاً من الأدوات المختلفة الأنواع تختلف من حروف أسمائهم الأولى إلى الكتدرائيات الشامخة . وإذا ما وقفنا محتبسى الأنفاس أمام بعض مخطوطات العصور الوسطى ، أذلاء أمام نتردام ، وتمثلنا صورة صحن كنيسة ونشستر البعيدة ما كان فى عصر الإيمان من خرافات وأقذار ، وحروب دنيئة ، وجرائم وحشية ؛ وأدهشنا مرة أخرى ما كان يتصف به أجدادنا فى العصور الوسطى من صبر طويل ، وذوق جميل ، وخشوع وإخلاص ؛ وحمدنا لألف ألف من الرجال المنسيين ما بثوه فى دم التاريخ من قداسة الفن .

الباب الثالث والثلاثون

موسيقى العصور الوسطى

(٣٢٦ — ١٣٠٠)

الفصل الأول

موسيقى الكنيسة

لقد أسأنا نحن إلى الكتدرائية . إنها لم تكن هذه المقبرة الباردة الخالية التى يدخلها الزائر فى هذه الأيام ، بل كان لها عمل تؤديه ؛ ذلك أن من كانوا يدخلونها للعبادة لم يكونوا يجدون فيها تحفة فنية فحسب ، بل كانوا يجدون فيها مريم وابنها يواسيانهم ، ويشدان عزمهم . وكانت تستقبل الرهبان والقساوسة الذين كانوا يقفون عدة مرات فى اليوم فى مواضع الترنيم ينشدون أناشيد الصلوات الدينية . وكانت تستمع إلى أدعية المصلين الملحين يستمدون من الله الرحمة والعون . وكان صحنها وجناحاها تهدى المواكب التى كانت تحمل أمام الشعب صورة العذراء أو جسم ربهم ودمه . وكانت جنباتها الرحبة تردد فى جد ووقار موسيقى القداس ، ولم تكن هذه المسيقى أقل شأناً من صرح الكنيسة نفسه ، وكانت تؤثر فى النفس تأثيراً أعمق من تأثير جلال الزجاج والحجارة . وما أكثر النفوس الجامدة القوية ، المتشككة فى العقيدة الدينية ، التى أذابتها الموسيقى فخرت راكعة أمام ذلك السر الذى تعجز الألفاظ عنه .

وقد اتفق تطور موسيقى العصور الوسطى اتفاقاً عجيباً مع تطور الطرز

المعمارية ؛ فكما أن الكنائس الأولى انتقلت فى القرن السابع من شكلها القديم شكل القباب والباسلقات ، إلى الشكل الرومنسى القوى المتين ، وانتقلت فى القرن الثالث عشر إلى الطراز القوطى المعقد ، العالى ، المزخرف ، كذلك احتفظت الموسيقى المسيحية إلى زمن جريجورى الأول (٥٤٠ — ٦٠٤) بنغمات بلاد اليونان والشرق الأدنى الحزينة ، وانتقلت فى القرن السابع إلى الترنيم الجريجورى أو الترنيم البسيط ، ثم ازدهرت فى القرن الثالث عشر فتعددت نغماتها وكثرت أصواتها القوية الجريئة تنافس الأساليب المتزنة التى تقوم عليها الكتدرائية القوطية .

وتضامنت غارات البرابرة فى الغرب ، مع بعث النزعة الشرقية فى الشرق الأدنى ، فى تحطيم التقليد اليونانى الذى كان يرمز إلى النغمات الموسيقية بحروف توضع فوق الكلمات ؛ ولكن الأساليب اليونانية الأربعة — الدورى ، والفريجى ، والليدى ، والمكسوليدى Mixolydean بقيت وتولد منها بطريق التقسيم الأساليب الثمانية فى التأليف الموسيقى — التأملى ، والمحبوس ، والجدى ، والرزين ، والمرح ، والمبتهج ، والقوى ، والمنتشى . وظلت اللغة اليونانية ثلاثة قرون بعد الميلاد باقية فى موسيقى الغرب الكنسية ، ولا تزال باقية فى صلاة ارحمنا يارب Kyrie eleison . واتخذت الموسيقى البيزنطية شكلها فى عهد القديس باسيلى ، وقرئت الترانيم اليونانية بالسورية ، وبلغت ذروتها فى ترانيم رومانوس (حوالى ٤٩٥) وسرجيوس (حوالى ٦٢٠) ونالت أعظم نصر لها فى الروسيا

وكان بعض المسيحيين الأولين يعارض فى استخدام الموسيقى فى الدين ، ولكن سرعان ما تبين أن دينا بغير موسيقى لا يمكن أن يقوى على منافسة العقائد التى تمس حساسية الإنسان الموسيقية . ومن أجل ذلك تعلم القس أن يغنى القداس ، وورث بعض الألحان التى كان يتغنى بها المرتل العبرى ؛ وعلم الشمامسة

وخدم الكنيسة أن يغنوا الردود ؛ وعلم بعضهم تعليما فنياً فى مدارس خاصة للترنيم جعلت البابا سلستين الأول Celestine I (٤٢٢ — ٤٣٢) يصبح هو نفسه مرنما حاذقا ، وكان هؤلاء المرنمون المدربون يكونون فرقاً عظيمة منهم ، كان فى فرقة أياصوفيا ٣٥ مرنماً ، ١١١ « قارئا » معظمهم من الغلمان(١) . وانتشر غناء المصلين من الشرق إلى الغرب ، وكان الرجال يتبادلون مع النساء أغنيات متجاوبة ويشتركون معهن فى التسبيحات الدينية . وكانوا يظنون أن المزامير التى يغنونها تردد أو تقلد على الأرض تسابيح المديح التى يغنيها الملائكة والقديسون بين يدى الله فى الجنة . وأدخل القديس أمبروز فى أسقفيته تبادل الغناء بين الرجال والنساء على الرغم من نصيحة الرسل بأن تظل النساء صامتات فى الكنيسة ؛ وقال هذا الإدارى الحازم إن « المزامير حلوة النغم فى كل عصر ، وتليق بكلا الجنسين ، وهى تخلق رابطة عظيمة من الوحدة حين يرفع الناس جميعاً عقيرتهم فى ترنيمة واحدة »(٢) . وبكى أوغسطين حين سمع المصلين فى كنيسة ميلان يتلون ترانيم أمبروز ، وصدق عليه قول القديس باسيلى إن المستمع الذى يستسلم للذة الموسيقى يستجيب للنشوة الدينية والتقوى(٣) . ولا تزال ترانيم أمبروز تتلى فى كنائس ميلان إلى يومنا هذا .

وثمة رواية متواترة كان أهل العصور الوسطى عامة يؤمنون بصحتها ، وأضحت الآن بعد شكوك دامت زمنا طويلا مقبولة بوجه عام(٤) ، تعزو إلى جريجورى الأكبر وأعوانه إصلاحاً وتجديداً فى الموسيقى الكنسية الكاثوليكية الرومانية ، أدى إلى اعتبار « النشيد الجريجورى » الموسيقى الرسمية للكنيسة مدى ستة قرون . واجتمعت الألحان الهلنستية والبيزنطية مع الإيقاع العبرى فى الهيكل والمعبد فشكلت هذا النشيد الرومانى أو النشيد البسيط . وكان هذا النشيد موسيقى تتألف من أغنية واحدة ؛ وأيا كان عدد الأصوات المشتركة فيه ، فقد كانت كلها تغنى نغمة واحدة ، وإن كان النساء والغلمان كثيراً ما يغنون طبقة فى السلم الموسيقى

أعلى من التى يغنيها الرجال ؛ وكان هذا النشيد موسيقى سهلة على ذات المدى القليل ، وكانت تسمح من حين إلى حين بإضافة نغمة أو بضع نغمات مركبة غير لفظية تحلى بها الأغنية ، وكانت فى مجموعها فواصل متصلة متحررة من قيود الوزن والقافية غير مقسمة إلى أوتاد أو تقسيم للوقت الذى تلقى فيه .

وكانت العلامات الموسيقية الوحيدة المستعملة فى النشيد الجريجورى قبل القرن الحادى عشر تتألف من إشارات صغيرة مأخوذة من علامات التنبير اليونانية توضع فوق الكلمات المراد غناؤها . وكانت هذه « الأنفاس » تدل على ارتفاع النغمة أو انخفاضها ، ولكنها لا تدل على درجة الارتقاع أو الانخفاض ، ولا على طول مدة النغمة ؛ فقد كانت هذه تُعرف بالتواتر الشفوى وبحفظ طائفة جد كبيرة من أغانى الطقوس الكنسية . ولم يكن سمح بأن تصحب الغناء آلة موسيقية ؛ ولكن النشيد الجريجورى أصبح على الرغم من هذه القيود — أو لعله أصبح بسبب هذه القيود — أعظم مظاهر الطقوس الكنسية المسيحية وقعاً فى النفس . وإن الأذن الحديثة التى اعتادت التوافق الموسيقى المعقد لتجد هذه الأغانى مملة رقيقة ، وترى فيها استمراراً للتقاليد اليونانية ، والسورية ، والعبرية ، والعربية ذات الصوت الواحد التى لا تقدرها فى هذه الأيام إلا الأذن الشرقية . لكن الأناشيد التى تغنى فى كتدرائية رومانية كاثوليكية فى أسبوع الآلام ، تنفذ بالرغم من هذا النقص إلى قلوب المستمعين بقوة سريعة عجيبة لا نجدها فى الموسيقى التى تلهى تعقيداتها الأذن بدل أن تحرك الروح .

وانتشر النشيد الجريجورى فى أوربا الغربية كأنه انتشار آخر للدين المسيحى ، ورفضته ميلان ، كما رفضت السلطة البابوية ، وظلت أسبانيا زمناً طويلا محتفظة بنشيد « مستعرب Mozarabic » ألفه المسيحيون الخاضعون لحكم المسلمين ، وهو نشيد لا يزال يتلى حتى اليوم فى جزء من كتدرائية طليطلة . واستبدل شارلمان ، وهو الحاكم المحب للوحدة ، النشيد الجريجورى بالنشيد الغالى

فى غالة ، وأنشأ مدارس لموسيقى الكنيسة الرومانية فى متز وسواسون ؛ ووجد الألمان ، الذين تكونت حناجرهم بتأثير مناخهم وحاجاتهم ، صعوبة فى هذه الأغانى ذات الألحان الرقيقة . وفى ذلك يقول الشماس يوحنا : « إن أصواتهم الخشنة التى تشبه هزيم الرعد ، لا يمكن أن تنطق بالنغمات الرقيقة ، لأن هذه الأصوات مبحوحة من كثرة الشراب »(٥) .

وربما كان الألمان قد كرهوا الأسلوب الذى أخذ منذ القرن الثامن وما بعده يزين النشيد الجريجورى بـ « المحط القصيرة » وبسلسلة النغمات التى تتعاقب بانتظام . وقد بدأ « المحط » بوصفه طائفة من الكلمات يسهل بها تذكر اللحن ، ثم صار بعـــدئذ إدماجا للألفاظ والموسيقى فى النشيد الجريجورى ، كما كان يحدث حين لا ينشد القس Kyrie eleison **ارحمنا يارب** بل ينشد Kyrie eleison (fon Piltatis, a quo bona cuncta Priocedant) **ارحمنا يا من تمن علينا بجميع الخيرات يارب** . وأجازت الكنيسة هذه التحليات ولكنها لم تقبلها قط ضمن الترانيم الرسمية . وكان الرهبان المتضايقون من حياة الأديرة يسلون أنفسهم بتأليف هـــذه العبارات وإدخالها ضمن الأناشيد ، حتى كثرت فيها كثرة أدت إلى وضع كتب خاصة بها لتعلم الناس العبارات المحببة منها أو تحفظها من النسيان . ونشأت موسيقى التمثيل الكنسى من هذه العبارات . وقد وضعت سلاسل النغمات المتعاقبة على نسق تسابيح القداس . ونشأت هذه السنة من إطالة الحرف المتحرك الذى فى آخر الكلمة إطالة سموها اليوبيلوس iubilus أى نشيد الابتهاج ؛ وكتبت فى القرن الثامن عدة نصوص لهذه التوقيعات التى أدخلت فى الألحان . وأصبحت هذه السنة فنا راقيا حوّل النشيد الجريجورى تدريجا إلى طراز مزخرف لا يتفق مع روحه الأولى أو مع قصده « البسيط »(*) . وقضى هذا

(*) ولم تقبل الكنيسة فى أورادها إلا خمسة من هذه الأناشيد .

التطور على نقاء النشيد الجريجورى وسلطانه فى القرن الثانى عشر الذى شهد الانتقال من الطراز الرومنسى إلى الطراز القوطى فى العمارة فى بلاد الغرب.

وتطلب نقل هذه الكثرة من التواليف المعقدة علامات موسيقى أحسن من العلامات التى استعملت فى تلك الأغنية السهلة. ولهذا قام أدو Odo رئيس دير كلونى ونوركر بلبولس Norker Balbulus أحد رهبان دير القديس جول Gall فى القرن العاشر بإحياء الطريقة اليونانية القديمة طريقة تسمية النغمات بحروف. وفى القرن الحادى عشر اقترح كاتب لم يفصح عن اسمه استخدام السبعة الحرف الكبيرة الأولى من السلم الموسيقى، واستخدام ما يقابلها من الحروف الصغيرة اللاتينية فى الطبقة الثانية من السلم، والحروف اليونانية للطبقة الثالثة منه(٦). وقام حوالى عام ١٠٤٠ راهب من بمپوزا Pomposa القريبة من فرارا Ferrara يدعى جيدو الأرزوى Guido of Arezzo فسمى الست النغمات الأولى من السلم الموسيقى بأسمائها الحالية الغربية بأن أخذ المقاطع الأولى من كل نصف شطر من ترنيمة ليوحنا المعمدان:

أنقذ الدنيا من دنس الشفاه
حتى يستطيع عبيدك
الذين يقومون بخدمتك
أن يرددوا أعذب
الألحان فى الفضاء
الواسع المزهر

Ut queant laxis *re* sonare floris
Mira gestorum *famuli* tusrum
Solve Polluti *labü* reatum

وأصبحت تسمية النغمات الموسيقية بالمقاطع: أت أو دو، رى، مى، فا، صل، جزءاً لا يتجزأ من شباب الغرب.

وأهم من هذا تطور «الموسيقى» على يد جيدو. فقد نشأت حوالى عام ١٠٠٠ عادة استخدام خط أحمر للتعبير عن النغمة التى يمثلها حرف F، ثم أضيف بعدئذ خط آخر أصفر أو أخضر ليمثل حرف C، ثم وسع جيدو أو شخص آخر قبله هذه الخطوط ليجعل منها مدرجا ذا أربعة خطوط، أضاف إليه معلمو

الموسيقى فيما بعد خطا خامسا . وكتب جيدو يقول إن غلمانه المرنمين قد استطاعوا بهذا المدرج الجديد وبالنغمات أت ، رى ، مى ، أن يتعلموا فى أيام قليلة ما كان يتطلب منهم قبلئذ عدة أسابيع « وكان هذا تقدما يسيراً ولكنه تقدم عظيم الشأن بدأ به عهد جديد فى تطور الموسيقى ؛ وبفضله لقب جيدو بلقب **مخترع الموسيقى** وأقيم له تمثال فخم لا يزال يُرى فى ميدان أرزو العام إلى هذا اليوم . وأحدث هذا التطور انقلاباً عظيما فى الموسيقى ؛ فبفضله تحرر المغنون من حفظ الترانيم الموسيقية الدينية كلها عن ظهر قلب ، وأصبح من الميسور أكثر من ذى قبل تأليف الموسيقى ، ونقلها ، وحفظها ، كما أصبح فى مقدور العازف أن يقرأ النغمات الموسيقية بمجرد النظر إليها ، ويستمع إليها بعينه ؛ ولم يعد المؤلف مضطراً إلى أن يكون قريباً من الألحان التقليدية خشية أن يرفض المغنون حفظ الأدوار التى يؤلفها ، بل أصبح فى مقدوره أن يغامر بألف من التجارب . وأهم من هذا كله أنه قد أصبح فى وسعه أن يكتب موسيقى متعددة الأنغام ، يمكن أن يغنيها صوتان أو أكثر من صوتين فى وقت واحد ، أو أن يعزف اثنان أو أكثر من اثنين ألحاناً مختلفة ولكنها متوافقة .

ونحن مدينون لآبائنا فى العصور الوسطى باختراع آخر أمكن بفضله وجود الموسيقى الحاضرة . ذلك أنه قد أصبح من المستطاع تلحين الغناء بنقط توضع على سطور المدرج الموسيقى أو بينها ، ولكن هذه العلامات لم تكن تدل أية دلالة على المدى الذى يجب أن تمتد إليه النغمة ، وأصبح لا بد لتطور الموسيقى ذات اللحنين المستقلين (أو الأكثر من لحنين) تعزفان متناسقين فى وقت واحد ، أصبح لا بد لهذا التطور من وجود طريقة يُقاس بها زمن كل نغمة وتدل على هذا الزمن ، وربما كانت معلومات منقولة عن رسائل الكندى ، والفارابى ، وابن سينا وغيرهم من علماء المسلمين وفلاسفتهم الذين عالجوا موضوع أطوال النغمات الموسيقية أو علامات القياس (٧) . وكتب قس عالم فى الرياضة من كولونى

يدعى فرانكو فى وقت ما فى القرن الحادى عشر[٨] رسالة فى **قياس الغناء** جمع فيها كل ما وجد قديما من المقترحات النظرية والعملية . ووضع أساس طريقتنا الحاضرة للدلالة على أطوال النغمات الموسيقية ، واختير عود ذو رأس مربع كان فى بادئ الأمر يستخدم للدلالة على النغم ، استخدم هذا العود يمثل النغمة الطويلة ، وكبرت علامة أخرى هى النقطة حتى أضحت شبه منحرف ومثلت بها النغمة القصيرة . ثم بدلت هذه العلامات على مدى الأيام ، وأضيفت إليها ذيول حتى تطورت منها بمئات من السخافات طريقتنا السهلة التى نستخدمها الآن لقياس النغمات .

وقد مهدت هذه التطورات الخطيرة السبيل إلى الموسيقى المتعددة النغمات ، وكانت هذه الموسيقى قد كتبت قبل فرانكو ، ولكنها كانت موسيقى خشنة تعوزها الرقة ، فلما أشرف القرن التاسع على الانتهاء وجدنا طريقة فى الموسيقى تدعى « التنظيم » — أى غناء النغمات المتطابقة بأصوات متوافقة . ثم انقطعت أخبار هذه الطريقة فلم نعد نسمع منها إلا القليل النادر قبل نهاية القرن العاشر إذ نجد لفظى organum وسمفونيا symphonia (الأغنية المنتظمة والإيقاع) يستعملان لهذه النغمات المركبة من صوتين . وكانت الأرغنة (الأغنية المنتظمة) قطعة من القداس يواصل فيها الصادح لحناً قديما موحد النغمة ، فى الوقت الذى يضيف فيه صوت آخر لحناً يتفق معه . ثم نشأت صورة أخرى من هذا النوع نفسه كان للصادح فيها نغمة جديدة عجيبة ، واجتذبت صوتاً آخر فى اللحن المشترك . وخطا المؤلفون فى القرن الحادى عشر خطوة لا تقل فى نوعها جرأة عن توازن قوة الدفع فى العمارة القوطية . فقد كتبوا قطعاً متعددة الأصوات بوحدة ملائمة لم ينقد فيها الصوتُ « المنجذب » إلى الصادح انقياداً أعمى فى علو اللحن وانخفاضه ، بل اندفع إلى ألحان أخرى ذات نغمات لا يحتم عليها أن تتحرك فى خط متواز مع أصوات الصادح . وكاد هذا الإعلان للاستقلال يصبح ثورة حين

سحب الصوت الثانى نغمة الصادح الآخذة فى الارتفاع بحركة انخفاض مقابلة لها : وأصبح هذا التوافق عن طريق التباين وحل التنافر المؤقت فى يسر ، أصبح هذا وذاك هياما عند المؤلفين يكاد يجرى مجرى القانون ؛ وهذا دعا چون كتن John Cotton أن يكتب حوالى ١١٠٠ يقول : « إذا كان الصوت الرئيسى يرتفع ، وجب أن ينخفض الجزء المصاحب له »(٩) وانتهى الأمر بأن جعلت ثلاثة أصوات مختلفة ، أو أربعة ، أوخمسة بل ستة فى بعض الأحيان تغنّى فى مجموعة متشابكة من الإيقاع الانفرادى ، تتقابل فيه الألحان المتباينة المتطابقة وتمتزج فى انسجام رأسى أفقى دقيق ، رشيق ، شبيه بالعقود المتقابلة فى قبة قوطية . ولم يحل القرن الثالث عشر حتى كان هذا الفن القديم فن تعدد الأصوات قد وضع أساس التأليف الموسيقى الحديث .

وكان التحمس للموسيقى فى هذا القرن ذى العواطف الثائرة والمهتاجة يضارع الولع بالعمارة والفلسفة . وكانت الكنيسة تنظر شزراً إلى تعدد الأصوات فى الموسيقى ، لأنها لم تكن تثق بقوة التأثير الدينى للموسيقى إذا ما أصبحت فى نفسها إغراء وغاية . ولهذا دعا چون أسقف سلزبرى وفيلسوفها إلى وجوب وقف حركة التعقيد فى التأليف الموسيقى . ووسم الأسقف جويوم دوراند Guillaume Durand الصادح بأنه « موسيقى مختلة النظام » ؛ وأسف روچر بيكن ، الثائر فى ميدان العلم ، لزوال النشيد الجريجورى الضخم . وندد مجلس ليون Lyons (١٢٧٤) بالموسيقى الجديدة ، وأصدر البابا يوحنا الثانى عشر (١٣٢٤) اعتراضا على الموسيقى المتعددة الأصوات لأن المؤلفين أصحاب هذه البدعة : « يفتتون الألحان . . . فتندفع بعضها فى إثر بعض بلا توقف ، حتى تسكر الأذن من غير أن تهدئها ، وتقلق بال المتعبد الخاشع دون أن تثير فيه خشوعه »(١٠) . لكن الثورة ظلت تجرى فى مجراها ، ففى أحد حصون الكنيسة الحصينة — كنيسة نتردام فى باريس — ألّف ليونينس Leoninus رئيس جماعة

المرنمين حوالى عام ١١٨٠ أجمل أغنية فى أيامه ، وارتكب خليفته پترونيوس Petronius إثما كبيراً إذا ألف مقطوعات من ثلاثة أصوات أو أربعة . وانتشرت الموسيقى المتعددة الأصوات ، كما انتشر الطراز القوطى ، من فرنسا إلى إنجلتر وأسپانيا . وقال چرالدس كمبرنسس Giraldus Cambarensis (١١٤٦ — ١٢٢٠) بوجود أغانى مكونة من جزأين فى أيرلندة ، كما قال عن بلدة ويلز قولا لا نخطئ إذا قلناه عنها اليوم :

وهم فى أغانيهم لا ينطقون بالنغمات متحدة . . . بل ينطقون بنغمات كثيرة — بطرق كثيرة وأصوات كثيرة ؛ ومن ثم فإن وجود المغنين الكثيرين الذين جرت عادة هـذا الشعب على جمعهم ، يؤدى إلى سماع أصوات يبلغ عددها عدد من تقع عليهم العين من المغنين ، كما يؤدى إلى سماع أجزاء مختلفة متباينة تجتمع آخر الأمر فى لحن متوافق متحد[١١] .

وخضعت الكنيسة آخر الأمر لروح العصر ونزعته اللتين لا تخطئان أبداً ، وارتضت الموسيقى المتعددة الأصوات ، واتخذتها خادما قوية للإيمان ، وأعدتها لمـا نالته من انتصار فى عهد النهضة .

الفصل الثانى

موسيقى الشعب

وظهرت الرغبة فى الوزن فى مائة صورة من الموسيقى والرقص غير الدينيين . وكان لدى الكنيسة من الأسباب ما يجعلها تخشى هذه الغريزة إذا لم تفرض عليها رقابة . وكان من الطبيعى أن تتحالف هذه الرغبة مع الحب مصدر الأغانى والمنافس القوى للدين من هذه الناحية . وكانت النزعة الأرضية القوية التى تغلب على عقول العصور الوسطى فى غيبة القسيس مما يميل بتلك العقول إلى التحرر فى النصوص وإلى البذاءة فيها فى بعض الأحيان ، تحرراً وبذاءة ارتاع لهما رجال الدين وأثارا المجامع الدينية إلى إصدار قرارات لم يكن لها أثر . وكان المتعلمون الجوّالون يلقون فى تجوالهم أو يؤلفون فى أثنائها أهازيج فى النساء والخمر ، ويقلدون الطقوس المقدسة تقليداً ساخراً معيبا . ونشرت مخطوطات تحتوى مقطوعات موسيقية جدية تلحن الألفاظ المرحة لقداس السكيرين ، كما نشر كتاب صلوات الصخابين(١٣) . وكانت أغانى الحب كثيرة كما هى فى هذه الأيام ، وكان منها ما هو فى رقة ابتهالات الحور وحنانها ، ومنها ما هو حوار للإغواء تصحبه نغمات رقيقة . ولا حاجة إلى القول بأنه كانت فى ذلك الوقت أغان حربية ، يقصد بها الوصول إلى الوحدة عن طريق اتحاد الأصوات ؛ أو تحث على طلب المجد بالألفاظ الموزونة التى تسلب الحس . وكانت بعض الموسيقى أغانى شعبية وضعها عباقرة غير معروفين ، وادّعاها عامة الشعب — أو لعلهم نقلوها عن مؤلفيها ، كما كان البعض الآخر من الموسيقى الشعبية ثمرة قرائح محترفين ماهرين يستخدمون كل ما تعلّموه فى أوراد الكنيسة من فنون الموسيقى المتعددة الأصوات . ووُحد

فى إنجلترا ضرب من الموسيقى المتعددة الألحان المحبوبة وهو الموسيقى الدَّوْرية؛ فيها يبدأ أحد الأصوات لحناً ، ثم يبدأ صوت ثان هذا اللحن عينه أو لحناً آخر مؤتلفا معه حين يصل الأول إلى نقطة متفق عليها فيه ، ثم يبدأ ثالث والثانى مستمر فى غنائه ، وهكذا دواليك حتى يجتمع عدد من الأصوات قد تبلغ الستة فى دورة مرحة نشطة من النغمات المجتمعة .

وتكاد أغنية « الصيف مقبل » الذائعة الصيت تكون أقدم أغنية دورية ؛ وأكبر الظن أن مؤلفها راهب من رهبان بلدة ردنج Reading وأن ذلك كان فى عام ١٢٤٠ . وتدل هذه الأغنية المعقدة ذات الستة الأجزاء على أن الموسيقى المتعددة الألحان قد استقرت بين الشعب . ولا تزال ألفاظ هذه الأغنية شاملة لروح ذلك القرن الذى كانت فيه حضارة العصور الوسطى كلها فى طريق الازدهار :

الصيف مقبل
فغنّ يا وقوق بصوت عال !
فالبذور تنبت والكلأ يتمايل
والزهر يتفتح الآن فى الغاب
غنّ يا وقوق !
النعجة تثغى وراء الحمَل
والبقرة تخور وراء وليدها
والثور يقفز والوعل يفرّ
غن مرحاً يا وقوق !
يا وقوق يا وقوق ما أعذب شدوك ؛
فلا تقف عن الغناء ، لا تقف الآن أبداً ،
غن يا وقوق الآن ، غن يا وقوق ،
غن يا وقوق ، غن يا وقوق الآن .

وما من شك فى أن هذه الأغنية وأمثالها توائم المغنين الجوالين الذين كانوا ينتقلون من بلدة إلى بلدة ، ومن بلاط إلى بلاط ، بل من قطر إلى قطر. فنحن نسمع عن مغنين من هذا النوع يأتون من القسطنطينية ليغنوا فى فرنسا ، وعن آخرين من إنجلترا يغنون فى أسپانيا . وكان وجود هؤلاء المغنين وقيامهم بعملهم جزءاً معتاداً فى كل وليمة رسمية . فقد استخدم إدورد الأول ملك إنجلترا (٤٢٦) مغنيا فى الاحتفال بزواج ابنته مرجريت(١٣) . وكثيراً ما كانت هذه الجماعات من المغنين تنشد أغانى مجزأة كما كانت فى بعض الأحيان معقدة تعقيداً غير مألوف . وكانت هذه الأغانى يؤلفها عادة — ألفاظها وموسيقاها — شعراء غزلون فى فرنسا وآخرون مثلهم فى إيطاليا وألمانيا(*) . وكان معظم الشعر فى العصور الوسطى يُكتب لكى يُغنّى ، وفى ذلك يقول فلكيه Folquet الشاعر الغزلى الفرنسى : « إن القصيدة بغير الموسيقى كطاحون بلا ماء »(١٤) . ولدينا فى هذه الأيام موسيقى لمائتين وأربع وستين أغنية من الأغانى الباقية للشعراء الغزلين البالغ عددها ٢٦٠٠ ، وتتألف هذه الموسيقى فى العادة من نغمة متتابعة ذات مقطع واحد ووصلات على مدرج من أربعة خطوط أو خمسة . وأكبر الظن أن شعراء أيرلندة وويلز كانوا يغنون ويعزفون على آلات .

وإن كثرة الآلات الموسيقية واختلافها فى العصور الوسطى لما يثير الدهشة : فآلات القرع — كالأجراس ، والصنوج ، والدفوف ، والمثلث الموسيقى ، والطبلة — والآلات الوترية — كالقيثارة على اختلاف أنواعها ، والربابة ، والعود ، والكمان الأصغر ، وذات الوتر الواحد وغيرها ؛ وآلات النفخ ، كالصفارة ، والناى ، والمزمار ، والآلة ذات القربة ، والنفير ، والبوق والقرن ، والأرغن ، هذه أمثلة اخترناها من مئات . لقد كان لدى أهل تلك الأيام

(*) وكانوا يسمون Trobadors فى فرنسا ، و Troubadors فى إنجلترا و Trovatore فى إيطاليا و Mennisingers فى ألمانيا . (المترجم)

كل ما تتطلبه اليد أو الإصبع ، أو القدم ، وكل ما يحتاجونه لضبط الأوتار . وكانت بعض هذه الآلات قد بقيت من أيام اليونان وجاء بعضها الآخر ، بصورته واسمه ، من بلاد الإسلام كالرق والناى والقيثارة ، ومنها ما كان نماذج قيمة لتحف فنية من المعدن أو العاج أو الخشب . وكانت الآلة العادية للمغنى الجائل هى الكمان الصغيرة ، وهى آلة كالكمان قصيرة يعزف عليها بقوس كقوس الرامى منحنية الظهر . وكان أكثر أنواع الأرغن انتشاراً قبل القرن الثامن هو الأرغن المائى ؛ ولكن چيروم وصف فى القرن الرابع أرغناً هوائياً[١٧] ، وكتب بيدى يصف أرغناً ذا « أنابيب من الشبه تملأ بالهواء من منفاخ ويصدر منه نغمات فخمة حلوة إلى أقصى حد »[١٨] . وقد اتهم القديس دنستان St. Dunstan (٩٢٥ ؟ — ٩٨٨ ؟) بالسحر حين صنع قيثاراً يعزف إذا وضع أمام ثقب فى جدار[١٩] ؛ ووضع فى كتدرائية وستمنستر حوالى عام ٩٥٠ أرغن ذو ستة وعشرين منفاخا ، واثنين وأربعين نافخا لهذه المنافيخ ، وأربعمائة أنبوبة ، وكانت منافيخه ضخمة ضخامة تضطر العازف إلى أن يضربها بقبضات تحميها قفازات ذات بطانات سميكة[٢٠] . وكان فى ميلان أرغن أنابيبه من الفضة ، وفى البندقية أرغن ذو أنابيب من الذهب[٢١] .

وبعد فإن كل ما يبعثه وصف العصور الوسطى للجحيم من رهبة فى النفس ليفنى إذا ما نظر الإنسان إلى مجموعة الآلات الموسيقية فى تلك العصور . وإن الصورة التى تبقى لدينا من ذلك الوقت لهى صورة قوم لا يقلون عنا سعادة إن لم يزيدوا علينا ، يستمتعون بمرح الحياة ومطامعها ، لا ينوء بهم الخوف من نهاية العالم أكثر مما تنوء بنا شكوكنا هل تدمر الحضارة وتفنى قبل أن نُتم كتابة تاريخها ؟

المراجع مفصلة

أسماء الكتب كاملة توجد فى المراجع المجملة فى الجزء الأول ، والأرقام الرومانية الصغيرة إلا إذا كانت فى بداية المراجع تدل على رقم المجلد ويتلوها رقم الصفحة ، أما الأرقام الرومانية الكبيرة فتــدل على رقم « الكتاب » أو الجزء من النص ويتلوها رقم الفصل أو الآية فى القرآن أو الكتاب المقدس .

CHPTER XXVII

1. In Coulton, *Social Life*, 15.
2. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, lxiv, 4.
3. Iu Coultron, *Five Centuries of Religion*, I, 60.
4. Ibid., 31.
5. Gregory I. *Dialogues*, iv, 30, 35, in Lecky, *Morals*, II, 220.
6. Ibid., 221.
7. Westermark, *Moral, Ideas*,I, 723, Conltion, *Five Centuries*, I, 71.
8. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, Supplement, xcyii, 5,7.
9. Les, *Inquisition in Middle Ages*, III, 384.
10. Ibid.,385
11. Coulton, *Conturies*, I, 40.
12. Gregory I, *Dialogues*, i, 4, in Duduen, II, 367.
13. Coulton, *Five Conturies*, I, 445-9, II, 665.
14. Coultron, *Panorama*, 416.
15. Id., *Social Life*, 337.
16. Westermark, *Moral Ideas*,I, 722.
17. Coultron. *Panorama*, 416.
18. *Cambridge Medieval History*,VII, 635.
19. Coultron,*Inquisition and Liberty* 19.
20. Id., *Panorama*, 417.
21. Id., *Medieval Village*, 241.
22. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, I, xxiii, 7.
23. Coulton, *Life*, I, 54.
24. Lecky. *Morals*, II, 220.
25. In Coultron, *Inquisition and Liberty* 18.
26. Lea, *Auricular Confession*, III, 322.
27. Dudcen, II, 427.
28. Renan, E., *Poctry of the Celtic Races*. 177.
29. Coultron, *Five Conturies*, I, 75.
30. Id., *Inquisition and Liberty*, 2.
31. John of Salisbury, *Metalohicus*, vii, 2.
32. in Munro and Sellery, 489.
33. Giraldus Cambrensis, *Gemma Ecclesiastica*, ii, 24, in Robertson, J. M., *Short History of Free Thought*, II, 311.
34. Ibid., i, 51, in Robertson, II,311.
35. Lea, *Inquisiton in Middlle Ages*, III, 558.
36. Coulton, *Social Life*, 218; *Five Centuries*, I, 71.
37. Vencent of Beauvais, *Speculum Morale*, ii, 3-6, ii, 1.11.
38. Coulton, *Five Centuries*, I, 31.
39. Coulton *The Inquisition*, 62.
40. Quoted by Berthold of Regensburg in Coulton, *Five Centuries*, I, 72.
41. *Aucassen et Nicolette*, iine 22.
42. Coulton, *Panorama*. 17.
43. Id., *Five Centuries*, I, 308.
44. Reese, G., *Music in the Middle Ages*, 110.

45. Wright, Th., *The Book of the Knight of La Tour - Landry*, prologue, aud ch. 35, 174.
46. Coulton, *Village*, 524.
47. Raby, *Christian Latin Poetry*, 358
48. Durand, *Rationale divinorum officiorum*, in Raby, 357.
49. Raby, 356.
50. Giraldus Cambrensis, *Itnerary*, i, 1.
51. Vencent of Beanvais, *Speculum Historiale*, vi, 99, in Coulton, *Life*, I, 1,
52. Caesar of Heisterbach, ii, 170.
53. Ibid.
54. Milman, III, 242.
55. Coulton, *Five Centuries*, i, 300.
56. Moore, *Judaism*, II, 4.
57. Catholic Enclopedia, I, 634.
58. Voltaire, *Works*, XIII, 136.
59. In Spengler, O, *Declinc of the West*, II, 295.
60. Voltaire, III, 137.
61. Lea, *Auricular Confession*, II, 443
62. Ibid, III, 285.
63. Catholic Encyclopedia. VII, 787.
64. *Cambridge Medieval History*, VI, 678, Funk, I, 379.
65. Adams, B., *Law of Civilization and Decay*, 64.
66. Lanfranc. *Decocorpsre et sanguln Dominal*, in *Combridge Medieval History*, VI, 678.
66a. Lacroix. *Military*, 454,
67. Matt. vi. 7.
68. EncyclopaediaBritannica, VI, 795
69. Montalembert. i, 57,
70. Male, E., *L'art religieux du XIIIe siècle en France*, 309-11.
71. Coulton, *Panorama*, 107.
72. Coulton, *Life*, I, 168.
73. Addison, *Arts*, 65.
74. Coulton, *Five Centuries*, IV, 94.
75. Haskins, *Renaissance of Twelfth Century*, 235.
76. Jussernad. 327.
77. Ibid.,
78. Coulton. *Five Centuries*, IV, 106
79. Calvijo, G. de, *Embassy to Tamerlane*, 7, 63, 81.
80. Coulton, *Five Cecturies*, V, 105
81. Ibid., IV, 120.
82. V, 99.
83. Coulton, *Five*, IV, 98.
84. Ibid., 116.
85. III.
86. Haskins, *Renaissance*, 235.
87. Coulton, *Five Centuries*, IV, 121
88. Funk, I, 297.
89. Howard, C., *Sex Worship*, 78-93; Coulton, *Life* IV, 209-10.
90. Davis. *Medieval England*. 202, Frazer, Sir J., *Magic Art* II, 370.
91. Weigall, A., *The Paganism in Our Christiany* 131.
92. Adams, H., *Most St. Michel*, 91.
93. Coulton, *From St., Francis*, 119.
94. In Adams, H., 262.
95. Ibid., 93, 254.
96. 259.
97. 258.
98. Funk. I, 296.
99. Catholic Enclopedia, IX, 991d
100. Julian Ribera in Thorndike, *ShortHistory of Civilization* 36[illegible]
101. For tr. of *Dies irae* cf. Van Doren, M., *Anthology*, 460.
102. Gibbon, VI, 494f.
103. Renard, 42; Brentano in Smith, T., *English Guids* ixxxv.
104. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 674 Barnes. *Economic History*. 164.
105. Catholic Encyclopedia, V, 679.
106. Viliari, 161.
107. Coulton, *Five Centuries*, VI, 333; *Medieval Village*, 294.

108. Ibid.,
109. Maine, *Ancient low,* 132.
110. Coulton, *Panorama,* 172, 293, *From St. Francis,* 293, Lea, *Sacerdotal Celibacy,* 238, Matthew Paris, I, 83.
111. Davis, *Medieval England,* 28.
112. Coulton, *Panorama,* 137, 154.
113, Id., *Medieval Village,* 205.
114. Ibid., 303, id., *Panorama,* 197, 204, *Social Life,* 213,*Life,* III 30
115. Lecky, *Morals,* II, 335.
116. Coulton, *Panorama,* 120.
117. Lea, *Inquisition in Middle Ages,* I, 3.
118. Thatcher, 165-6.
119. *Cambridge Medieval History,* VI, 543
119a. Jewish Encyclopedia, I, 550.
120. Lea, op. cit., I, 13.
121. *Cambridge Medieval History,* VI, 8.
122. Ibid 3; Taylor, *Medieval Mind,* II, 303.
1 23. Carlyle, R.W., *Political Theory,* V, 157, 182.
124. Ibid, 162,
125. Encyclopaedia Britannica, II, 370 a,
126, Clayton, J,, *Pope Innocent III,* 181,
127, Walsh, J, *Thirteenth Century* 370,
128. *Cambridge Medieval History,* VI, 2,
129. In Lea, *Inquisition in Middle Ages,* I, 129
130. *Cambridge Medieval History,* VI, 694
131. Encyclopaedia Britannica, XII, 370b.
132, Coulton, *From St. Francis* 275
133, Funk, I, 358
134, Coulton, *From St Francis* 277,
135, *Cambridge Medieval History* VI, 120
136. Luke Wadding in Coulton, *From St. Francis* 277,
137. Ibid, 225,
138. Coulton, *Panorama,* 165
139. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 688
140. .Voltaire, XIII, 130,
141. Clapham and Power, 189
142. Lea, *Auricular Confession,* III, 17
143. Taylor *Medieval Mind,* II, 303: Thompson, *Economic Middle Ages,* 689
144. Id., *Feudal Germany,* 19
145. Boissonnade, 82, 243
146. Ibid., Lacroix, *Manners* 12
147. Fisher H,L. *Medieval Empire,* II, 64.
148. Thompson, *Economic History of the middle Ages.* 692
149. Ibid., 691
150. Id., *Later Middle Ages,* 12
151, Funk, I, 355,
152. Lea, *Inquisition in Middle Ages,* III, 624
153. Lavisse, E., *Histoire de France* III, 318,
154. Matthew Paris, I, 50
155. Coulton, *Five Conturies* IV, 522
156. Coulton, *Life,* I, 36
157. Milman, V, 139
158. Porter, *Medieval Architecture* II, 164; Coulton, *Social Life,* 215
159, Cf, Lea, *Inquisition in Middle Ages,* I, 21-38, for many instances of ecclessiastical self-reform

CHAPTER XXVIII

1. Coulton, *From St, Francis,* 12
2. Beer, M, *Social Straggies In the Middle Ages,* 135, 177

3. Luchaire in Munro and Sellery, 438.
4. Ibid., Beer, 133.
5. Encyclopaedia Britannica, XXIII, 288b.
6. Coulton, *Panorama*, 463
7. Vacandard, *Inquisition*, 70
8. Thompson, *Economic History of Middle Ages*, 622
9. *Cambridge Medivale History*,VI, 21.
10. Sabatier, *Life of St. Francis*, 43
11. Matthew Paris, I, 66
12. Vacandard, 83
13. Ibid., 74.
14. 91.
15. Luchaire, 444.
16. Vacandard, 77 ; Beer, 129-31.
17. Coulton, *Inquisition and Liberty*, 79, Vacandard, 97; Luchaire, 441
18. Coulton, *Inqnisition and Liberty* 70,Vacandard, 73, Morey. *Medieval Art* 255.
19. Vacandard, 77.
20. Lea, *Inquisition in Middle Ages*, I, 103.
21. Rowbotham, 293.
22. Luchaire. 434.
23. Ibid., 436.
24. Lea, I, 120, 133.
25. Thatcher, 209.
26. Lea I, 139.
27. Ibid., 141.
28. Ibid.
29. 146.
30. 153.
31. 154.
32. Guizot, *France*, I, 507 Coulton. *Life*, I, 68.
33. Lea, I, 162.
34. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 490.
35. Lea, 654.
36. Maim5nides, *Guide to the Perplexed*, III, intord., xli.
37. Vacandard, 48.
38. Ibid.
39. 63.
40. 68.
41. Sumner, *Folkways*, 238.
42. Catholic Encyclopedia, VIII, 28c.
43. Lea, 237.
44. Vacandard, 63.
45. Coulton, *Inquisition aud Liberty*, 49.
46. Vacandard, 37.
47. Lea, 69.
48. Mickerson. H., *Inquisition*, 61.
49. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 680.
50. Lea, 318.
51, Ibid, 321,
52. Coulton, *Inquisiton aud Liberty*, 49,
53. Catholic Encyelopedia, VIII, 29a; Vacandard, 52,
54. Ibid, 119,
55. Coulton, *Inquistion* 59 ; *Inquisition and Liberty*, 66,
56. Vacandard, 61,
57. Sarton, II(2), 546,
58. Vacandard, 183,
59. Ibld, 163,
60. Davis, *Medieval England*, 406,
61. Thatcher, 309,
62. Lea, 371 ; Vandard, 190.
63. Lea, 381,
64. Ibid, 436,
65. 317,
66. Catholic Encyclopedia, VIII, 31d
67. Lea, 441.
68. Catholic Encylodedia, VIII, 31c
69. Lea, 441,
70. Catholic Encyclobedia, VIII, 32b
71. Ibid, 32d,
72. Ibid

73. Caulton, *Inquisition*, 86.
74. Vacandard, 183.
75. Lea, II, 97.
76. Catholic Encyclopedia, VIII, 33d.
77. *Cambridge Medieval History* VI, 723; Vacandard, 203.
78. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 689.
79. Vacandard, 144, 178.
80. Lea, I, 549.
81. Ibid., 550.
82. *Cambridge Medieval History*, VI, 723; Vacandard, 196, Lea, I, 551.
83., Ibid., 393.
84. 113.

CHAPTER XXIX

1. Thompson, *Economic History, of the Midd e Ages*, 603.
2. Coulton, *Five Centuries*, IV, 15.
3. Gilson, E., *Philosophy of St. Bonaventure*, 31.
4. Coulton, *Life*, IV, 98.
5. In Coulton, *From Francais*, 70.
6. Coulton, *Life*, IV, 238.
7. Lea, I, 35.
8. Thompson, *Economic History of the Middle Ages*, 604.
9. Milman, IV, 259.
10. Coulton *Life*, IV, 155.
11. Coulton, *five Centuries*, I V, 96, 367-77.
12. In Coulton, *Life*, VI, 199.
13. Caesar of Heisterbach, i, 249, in Coulton; *Five Centuries*, i, 377; Jocelyn's *Chronicle*, in Carlyle, Th., *Past and Present*, p. 72.
14. Waddell, H., *Wandering Scholars* 210.
15. Taylor, *Medieval Mind*, I, 268.
16. Ibid., 430.
17. Coulton, *Five Centuries*, I, 183.
18. Lacroix, Paul, *History of Prostitution*, 692.
19. Cf. Longfellow's "Golden Legend."
20. *Cambringe Medieval History*, V, 675.
21. Thompson, *Economic History, of the Middle Ages*, 612.
22. Étienne de Bourbon, *Anecdotes*, in Coulton. *Five Centuries*, i, 79
23. Ogg. 258.
24. Coulton, *Five Centuries*, I, 308.
25. Ibid., IV, 165.
26. I, 304.
27. Munro and Sellery, 410.
28. In Gilson, E., *La philosophie au moyea âge* I, 92.
29. W. B. Yeats, introd. to Tagore, R., *Gitanjali*, xviii.
30. Munro and Sellery, 412.
31. Ibid.
32. Coulton, *Five Centuries*, I, 305.
33. Ibid., 391.
34. 336.
35. 387.
36. Jörgensen, *Francis*, 12.
37. in Sabatier, 149
38. Jörgensen, 21
39. Sabatier. 26, Bonaventure, *Life of St. Francis*, ch. 1.
40. Sabatier, 59f
41. *Mirror of Perfection*, ch. 14
42. *Tres Socii*, 35, in Sabatier, 74
43. *Mirror*, ch. 69
44. Ibid , ch. 11
45. Ibid.
46. Coulton, *Panorama*, 529
47. *Tres Socii*, 38-41
48. *Little Flowers of St. Francis*, ch. 8.
49. Ibid., ch. 9
50. *Mirror*, ch. 16
51. Ibid., chs, 29-35
52. Ibid., ch. 114
53. *Little Flowers*, ch. 22

54. Ch. 16.
55. Sabatier. 97.
56. Arnold, M., *Essays in Criticism* First Series, 155.
57. *Little Fllowers*, ch. 11.
58. Ch. 24.
59. Sabatier, 229.
60. Ibid., 227.
61. Dr. E. F. Hartung in *Time*, Mar 11, 1935.
62. *Mirror*, ch. 116.
63. Ch. 120.
64. Faure, E., *Mediel Art*, 398.
65. Text of the will in Sabatier, 337
66. Milman, V, 242.
67. *Cambridge Medieval History* VI, 737f.
68. Matt. Paris, ii, 443, in Coulton, *Five Centuries* IV, 170.
69. Ibid., 388.
70. Coulton, *From Francis*, 101-2.
71. Ibid.
72. Funk, I, 370.
73. Cromp, 413.
74. Lea, *Sacerdotal Cslibacy*, 105.
75. Power E. *Medieval People*, 64.
76, *Litt.e Flowers*, ch. 33.
77. E g., *Nan's Rule*(Ancren Riwel) 105, 185.
78. Cf. pp. 294-6.
79. Montalcmbert, II, 703.
80. Ibid.
81. Lea. *Celibacy* 264.
82. Taylor, *Medieval Mind*, I, 492.
83. Coulton. *Panorama*, 622.
84. Power, *Medieval people* 80.
85. Ibid.
86. Lea, *Inquisition diddle Ages*, III, 10-17.
87, Lea. I, 272,
88. *Cambrldge Medeival History*, *VII*, 789.
89, Sabatier, 52.
90. Lea, II, 326,
91. Coulton, *Life*, III,54 ; Kantorowicz., 419,
92. Sabatier, 52 ; Taylor, *Medieval Mind*, I, 460.
93, Milman. *V* I, 123.
94. Coulton, *Life*, I, 205.
95. Catholic Encyclopedia, II, 662d.
96. Ibid., 663,
97. Thatcher, 311.
98. *Ca nbridge Medieval History* VII, 7-8.
99. Milman, *V*I, 282; Coulton, *Panorama*, 212,
100. Guizot, *France*, I, 591,
101. Catholic Encyclopedia, II, 666c
102. Ibid., 667c. Ogg, 383-8,
103. Adams, B., *Law of Civliization and Decay*. 173, Draper, *Intellectual Development*, II, 83
104. Guizot, *France*, 596.
105. *Cambridge Medieval History*, *V*II, 18
106. Gnizot, 601 ; Draper, II, 86.
107. Milman *V*I, 494f.
108. Lea. II, 58.
109. Hume. *England*, I. 511,
110, Coulton, *Five Centures*, I*V*, 118
111. Coulton, *From Francis*, 150.

CHAPTER XXX

1. In Coulton, *Five Centuries*, I, 176
2. Id., *Medieval Village*. 103.
3. Bede, i, 27,
4. Coulton, *Life*, I*V*, 160n.
5. In Coulton *From Francis*, 18.
6. Benvenuta da Imola in Coulton, *From Francis*, 416, Lecroix, *Prostitution*, I, 694,
7. Ibid, 695,
8. 700
9. 697,
10. II, 908,

1, Wright, ed., *Book of the Knight, of La Tour-Landry* Prologne, and ch. 35.

12, In Briffaulte, *Mothers*, III, 417.

13. Lecky, *Morals*, II, 152.

14. Lacroix, *Prostitution*, II, 904

15. Ibid., 904

16. 905

17. I, 721.

18. II, 869. Snmner, *Folkways*, 529, Bebel, 61, Garrison, *History of Medicine*. 192, Sanger, Wm., *History of Prostitution*, 98.

19. St. Augustine, *De ordine*, ii, 4.

20. Thomas Aquinas, *Summa Theologica*, II, IIea, x, 11.

21. Encyclopaedia Britannic, *V*XIII, 598a

22. Ibid.

23. Lacroix, *Prostitution*, I, 733-42.

24. Ibid., II, 751, Tanger, 95

25. Coulton, *Panorama*, 172.

26. Lecky, *Morals* II, 218.

27. Power, E. *Medieval People*, 118.

28. Pollock and Maitland, II, 387.

29. Coulton, *Panorama*. 634

30. Bevan, E., and Singar, C. *Legacy of Israel*, 102

31, Cremp, 846

32. Thomas Aquinas, *Summa Contra Gentiles*, iii, 122

33. Himes, *Contraception*, 160f

34. Lacroix, *Prostitution* I, 699

35. Coulton *Medieval Village*, 404,

36. Schoenfeld, H., *Women of the Teutonic Nations*, 122

37. Freeman, *Norman Conquest*, II, 166.

38, Wright, Th., *History of Domestic Manners and Sentiments*, 216,

39, Pollock and Maithland, II, 390; Crump, 297; Butler, P, *Women of Medicval* France, 30,

40, St. Johu Chrysostom in James, B., *Womea of England*, 108

41. Thomas Aqninas, *Snmma Theologica*, Supplcment, lxxxi, 3.

42. Ibid. I, xciii, 4

43. Supplement, xxxix, 3

44. II, IIae, xxvi, 10

45. In Coulton, *Panorama*, 614, quotingGratian, *Decretum*, II, xxxiii, 5

46. Coulton, *Life*, III, 114, *Five Centuries*, I, 174

47. Id., *Chaucer's England*, 212

48. Id., *Panorama* 618.

49. Schoenfeld, 41.

50. Davis, *Life on a Medieval Barony* 102.

51. James, *Women of England* 182.

52. Renard, 20,

53. Cf. James, 116

54. Wright, T. *Domestic Manners*, 273-4

55. Bultier *Women of France*, 104

56. Adams, H. *Mont st., Michel*, 211

57. Butle, 123

58. Tout. T.F., *Medieval Forgers*, in Coulton *Five Centuries* IV, 310

59. Haskins, *Renaissance* 89

60. Exs. in Coulton, *Chaucer's England*. 200, *Five Centuries*, I,251

61. Locroix, *Manners*, 41

62. Coulton, *Med eval Village* 72,344

63. Id., *Panorama* 74, 369

64. Encyclopaedia Britannica VIII. 8d

65. Coulton *Inquistion*, 47

66. Hume I. 185

67. Sslzman 309

68. Ashley, II, 73

69. Coulton *Chaucer*. 131

70. Coulton. *Life* III. 57f

71. Id., *Medieval Village* 30

72. Thompson, *Economic History of the Middle Ages* 571, Potter *Medieval Architecture*. II. 159.

73. Coulton, *Panorama*, 377.
74. Ibid.
75. Lea. *Inquisition in Middle Ages* I, 234-5.
76. Coulton. *From Francis*. 218
77. Sumner. 472, Jusserand. 212. Boissonnade. 262-
78. Coulton. *Social Life*. 395.
79. Joinvile, 309
80. Cf. Coulton. *From Francis*, app C.
81. Jusserand. 132f.
82. Davis. *Medieval England*. 425
83. Zimmern. *Hansa* 111
84. Ibid.
85. Coulton. *Social Life*, 371, 425
86. Ashley, II. 326
87. Bacon. R. *Opus maius*. ed. Bridges, II. 251
88. Ashley. II. 307.
89. Ibid., 323
90. Davis. *Life on a MedievalBarony* 95.
91. Traill. I. 484
92. James. *Women*, 208
93. *Speculum*. Apr. 1940. 148. Encyclopaedia Britannica. IV. 470.
94. In Adams. H. 202
95. Frienländer *Roman Manners*. II. 183.
96. Butler *Women*, 147.
97. Dante, *Purgatorio*. xxiii. 102
68. Coulton. *From Francis*. 271
99. Davis. *Life on a Medieval Barony*, 96
100. In Coulton. *Life*. III. 64
101. Crump. 431
102. Beard. 69
103. Coulton. *Life*. IV. 173
104. *Speculum*. Apr. 1928
105, Sarton, II (1), 69
106. *Speculum*. Jan. 1934 306
107. Ibid.
108. Lowie. *Are We Civilized?* 75
109. Lacroix. *Manners*, 176
110. Butler. *Women*, 150
111. Giraldus Camprensis, *Description of Wales* i. 10
112. Salzman. 171.
113. Lacroix P. *Arts of the Middle Ages*. 13
114. Rogers. *Sex Centuries* 46
115. Sedgwick, *Italy*. II. 197
116. Power. *Medieval People*. 103.
117. Thompson *Economic History of the Middle Ages* 595
118. Müller. Lyer. *Marriage* 56.
119. Coalton *Panorama* 313. Addison *Arts*. 272
120. Coulton *Medieval Village*. 27
121. Schevill. *Siena*. 349
122 Haskins. *Studies in Medieval Culture*. 122
123. Sedgwick. II. 206
124. Coulton. *Panorma* 96
125. Power E. *Medieval People*. 76
126. Laroix. *Manners*. 239. Coulton. *Medieval Village*. 559
127. Coulton. *Panorama* 96
128. Kirstein L. *Danee*. 88
129. Wright, Th. *Domestic Manners* 257.
130. Walsh J. *Thirteenth Centnry*. 452.
131. Davis *Medieval England*. 372.
132. Davis, *Life on a Medieval Barony*. 64
133. Encyclopaedia Bretannica. XIII. 791c
134. Lacroix. *Manners*. 233
135. Gardiner. E. N. *Athleties of the Ancieut World*. 237
136. Coulton *Panorama* 83
137. Gardiner. 238
138. Coulton. *Panorama* 95
139. Coulton. *Social Life* 292
140. Id., *Chaucer*, 278.

141. Chambers. E. K. *The Medieval Stage.* I. 287. Maitland. *Dark Ages.* 174. Lacroix *Science and Literature in the Middle Agas* 240.
142. Ibid., Chambers. i. 23. Coulton *Panorama,* 606.
143. Chambers I. 343.
144. *Time* Dec. 31. 1945.
154. Waddell. *Wandering Scholars.* 200.
146. Coulton, *From Francis.* 56.
147. Ibid. 55.
148. 57.
149. 13.

CHAPTER XXXI

1. Jackson. Sir T. *Bezantine and Romanesque Architecture.* 94.
2. Id. *Gothic Architecture.* I. 59.
3. Spencer. H. *Principles of Sociology* III. 291. Coulton *Life* IV. 169.
4. Theophilus *Schedula diversarum artium.* Introd. in Dillon. *Glass* 126.
. Addison *Arts* 86. 59.
6. Ibid. 186.
7. Walsh *Thirteenth Century.* 515.
8. Saunders. *English Art in the Middle Ages.* 65
9. Ackerman. Phyllis. *Tapesty.* 42f
10. Ruskin. *Stones of Venice* I. ch. 2.
11. Morcy. 195.
12. Short E. H. *Tke Painter in History* 75.
13. Mäle. *L'vrt religieux du XIIIe siècle.* 80
14. Taine. H. *Italy : Florence and Veince,* 49.
15. Encyclopaedia Birtannica.V.706d
16 Vasarl, *Lives.* I. 66
17. Morey. 267
18. Lacroix. *Art* 251 i
19. Adams H. *Mont St. Michel.* 137
20. Saunders. 105
21. Mâle. 78
22. Bond. F. *Wood Carvings inEnglish Churches.* 167
.3, Ibid
24. Mâle 74
25. S Reinach in Walsh. *Thirteenth Century.* 106.
26. Kantorowicz. 538. Morey. 314. Sedgwick, II 225.

CHAPTER XXXIII

1. Pope A.U. *Iranian and Armenian Contributions to the Beginnings of Gothic Architecture.* 127
2. Porter II. 170
3. *Speculum* Jan 1927. 23
4. Mâle 66. Morey 214
5. William of Malmesbury, v.3
6. Encyclopaedia Britannica,VII 763
7. Cram, *Substance of Gothic* 119.
8. Pope *Contributions* 137
9. Bond. F. *Gothic Architecture in England* 263. Pirenne. *J Grands Courants.* II. 135. Porter II. 63.
10. Addison. *Arts* 201
11. Panofsky. I. *Abbot Suger*
12. Cram 144
13. Coulton, *Life* II, 18 Porter I. 151f.
14. Headlam. C, *Story of Chartres* 140
15, Jackson *Gothic Architecture,* I. 96
16. Ferguson. J *History of Architecture* 1, 540
17. Adams H, 66
18, Headlam. *Chartres.* 229
19. Ibid, 208

20. Ibid
21. Adams H. 76
22. Connick C. J., *Adventures in Light and Color.* 10
23. Robillard. M. *Chartres.* 54.
24. Faure. *Medieval* Art. 348. Bood. *Gothic Architecture in England* 33. Moore. C. H., *Development of Gothic Architecture.* 124
25. Jackson, *Gotbic Architecqure*, I, 189
26. Ibid
27. Walsh *Thirteenth Century*, 108
28. Armstrong, Sir W., *Art in Great Britain*, 46
29. Morcy, 293. Germany was closed to more scholars during the composition of these pages, which must therefore speak of German architecture and sculpture at second had, or from vague memories of visits in 1912 and 1932
30. De Wulf, *Medieval Philosophy* I, 3.
31. Morey, 297
32. In Taine, *Italy* : *Florence*, 89
33. Beard, 143
34, Streat G. *Gothic Architecture in Spain*, 106
35. Arnold, *Legacy of Islam*, 168, Dieuiafoy. *Art in Spain*, 147.

CHAPTER XXXIII

1. Lang, P. H., *Music in Western Civilization*, 61.
2. Ibid., 43
3. Recse, *Music in the Midle Ages*, 63
4. Ibid., 2of, *Oxford History of Music*, introductory volume, 137
5 Lang, 71
6. Grove, *Dictionary of Music*, s.v. Notation.
7. Arnold, *Legacy of Islam*, 17. Sarton, II (1), 25, 406
8. The date and identity of Franco are disputed, cf. Grove, s.v. Franco of Cologne
9. Lang, 130
10. Ibid, 139
11. GiraldusCambrensis, *Description of Wales* I, 8.
12. Lang. 97.
13. Jusserand. 196
14. Reese 206
15. Ibid , 246.
16. So argues, with considrable scholership. Julian Ribera in *La musica de las cantigas*; cf. McKinney H. D., and Anderson. W. R., *Musice in History*. 181. Beck Gennrich, and Reese prefer to derive the uame and songs of the troubadours from the trope, cf. Reese. 218.
17. Lacroix, *Arts*, 203.
18. Addison, *Arts*, 110.
19. Ressse, 123.
20. Rowbotham, 6. Lacroix, *Arts*, 205.
21. Ibid.,, 204.

الفهـــرس

الصفحة — الموضـــوع

الباب السابع والعشرون : مذهب الروم الكاثوليك

الباب الثامن والعشرون : محاكم التفتيش فى بداية عهدها

الباب التاسع والعشرون : الرهبان والإخوان

الباب الثلاثون : الأخلاق والآداب فى العالم المسيحى

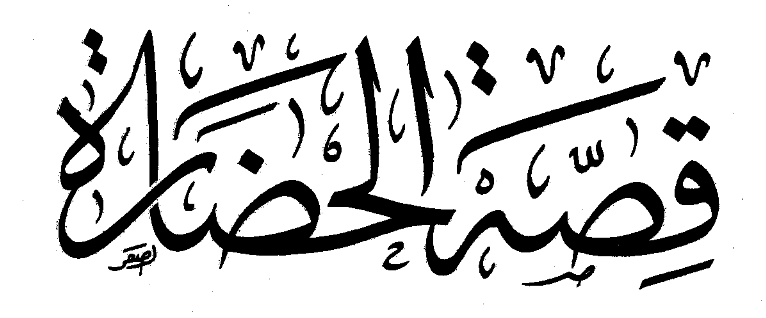
الموضـــوع الصفحة

الباب الحادى والثلاثون : بعث الفنون

الباب الثانى والثلاثون : ازدهار الفن القوطى

الباب الثالث والثلاثون : موسيقى العصور الوسطى

فهرس الصـــور



ول وايريل ديورانت

عصر الإيمان

ترجمة

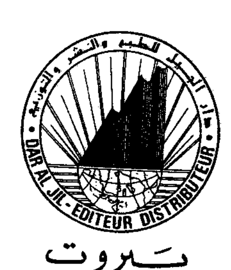
محمّد بدران

الجزء الخامس من المجلّد الرّابع

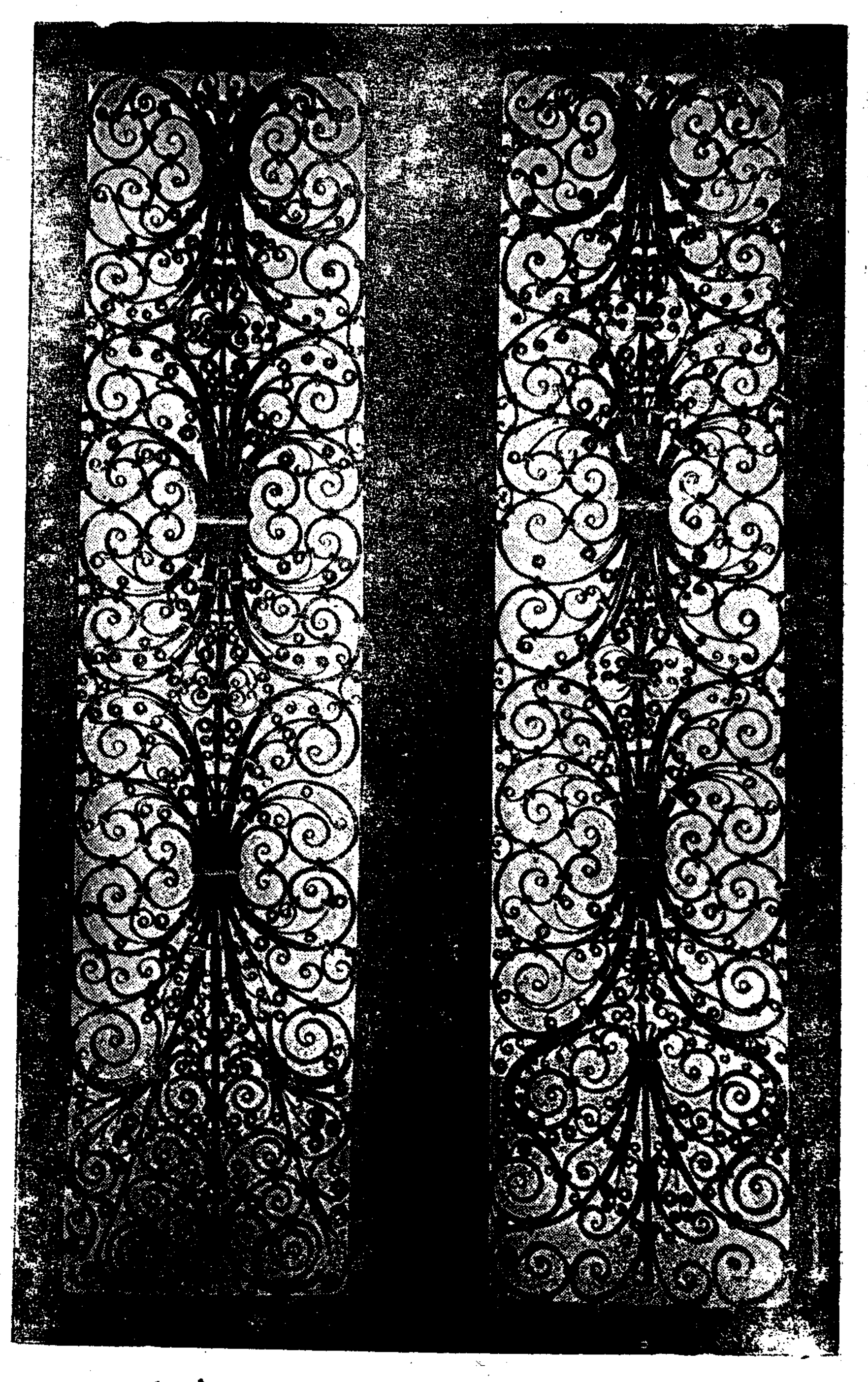




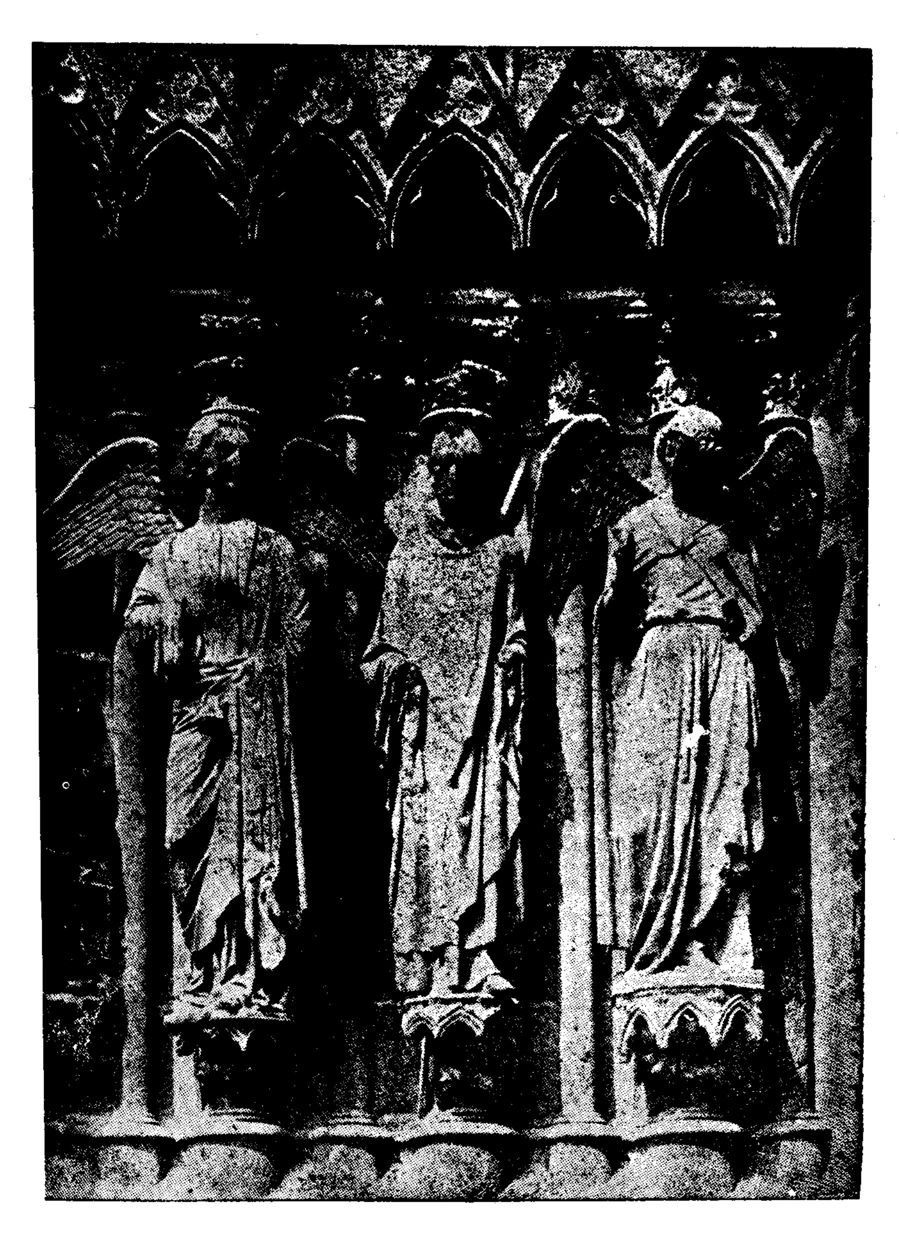
تونس



بيروت



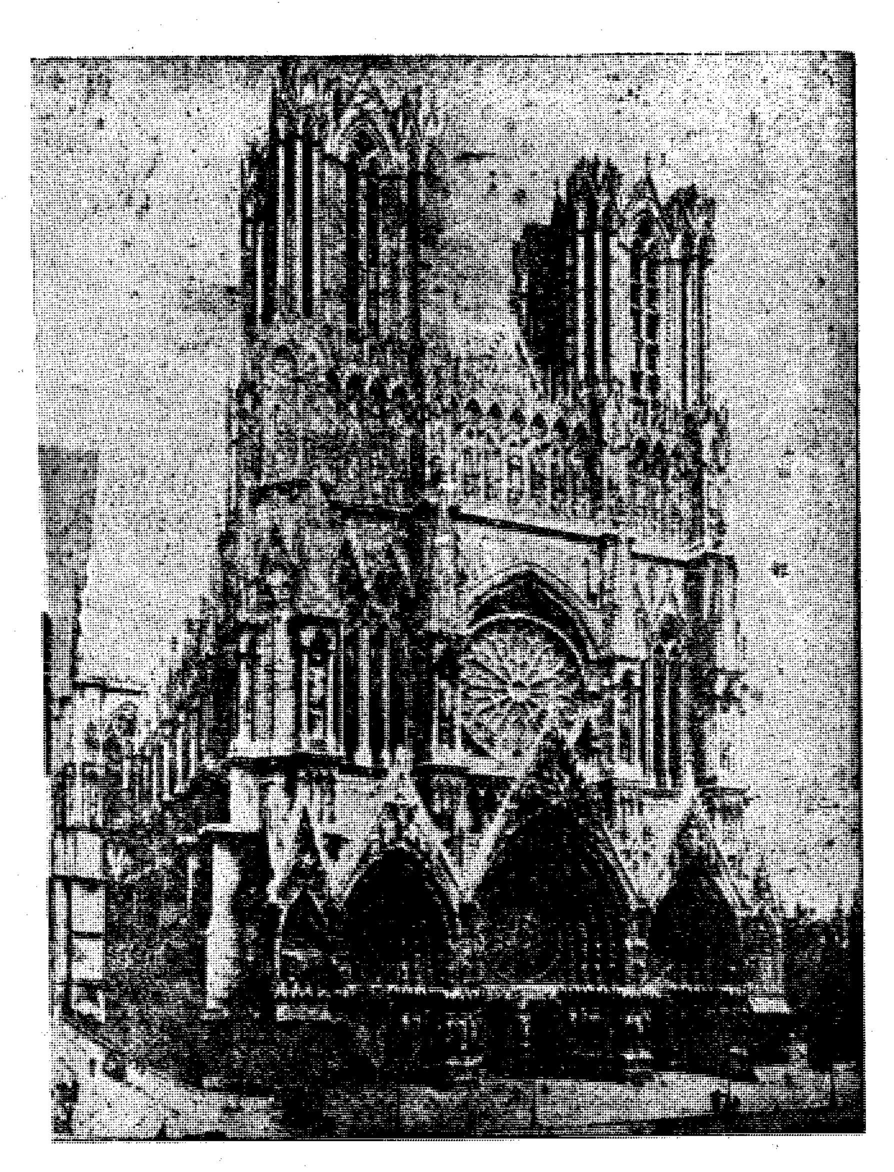
(الصورة رقم ١) الدرابزينة المشبكة من الحديد المشغول فى دير أورسكامپ



(الصورة رقم ٢) القديس نيكيس بين ملاكين – من كندرائية ريمس



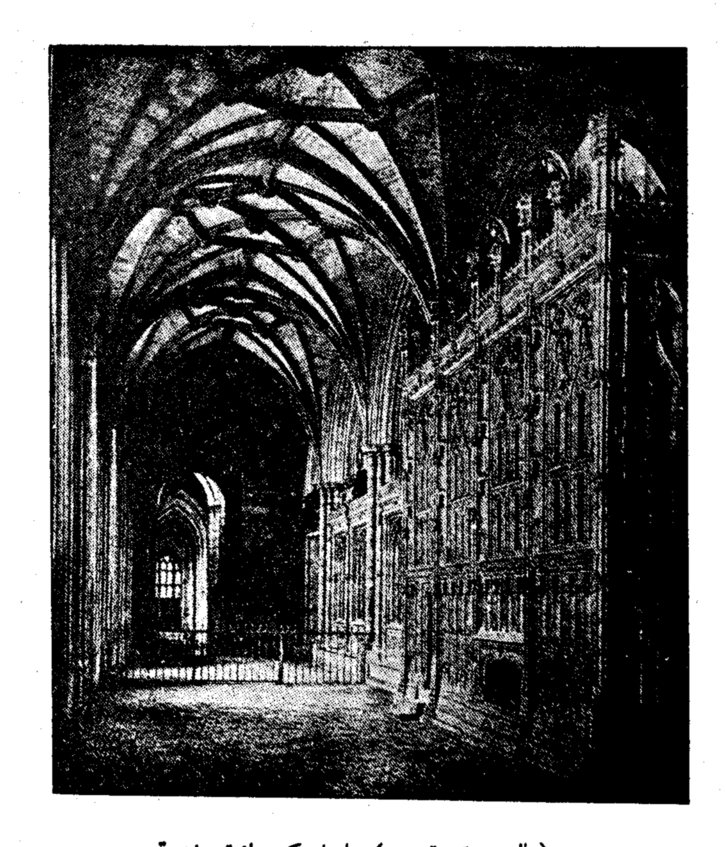
(الصورة رقم ٣) « البشارة والزيارة » في كتدرائية ريمس



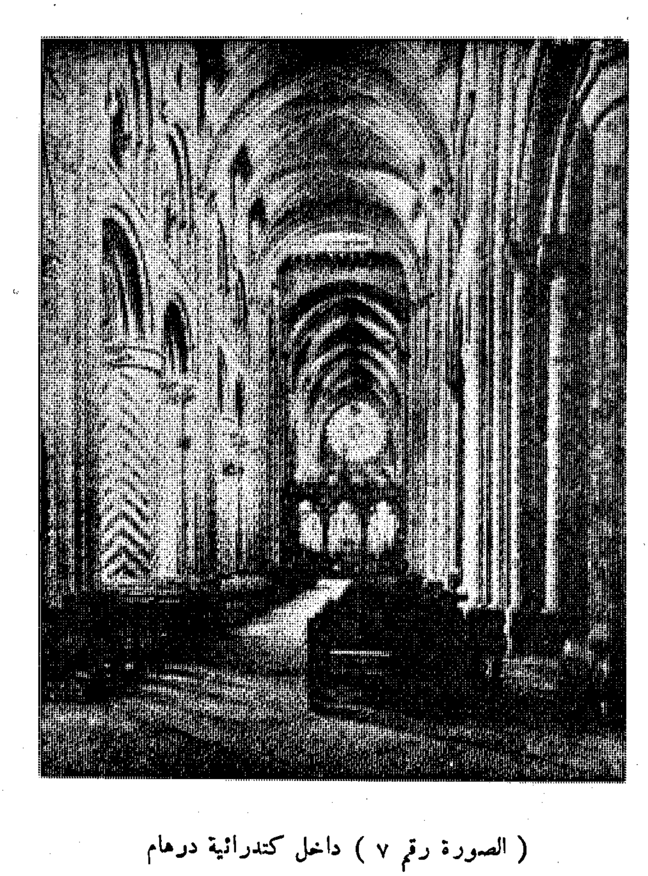
(الصورة رقم ٤) كتدرائية ريمس



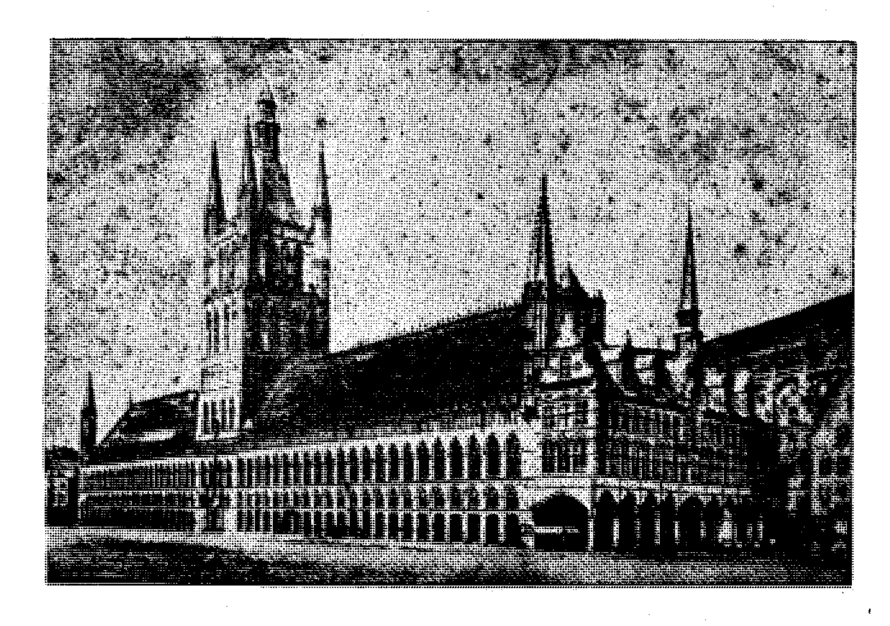
(الصورة رقم ٥) دير وستمنستر بلندن



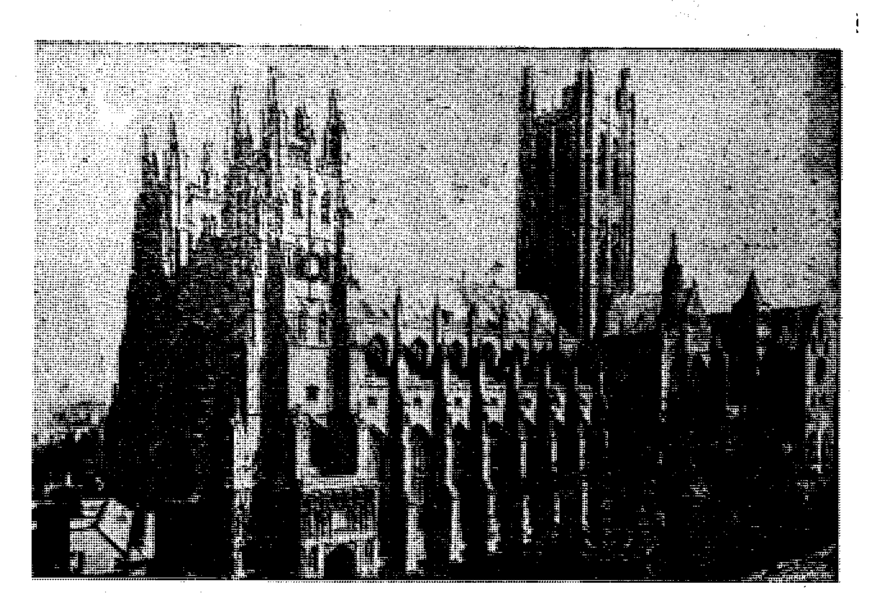
(الصورة رقم ٦) داخل كتدرائية ونشستر



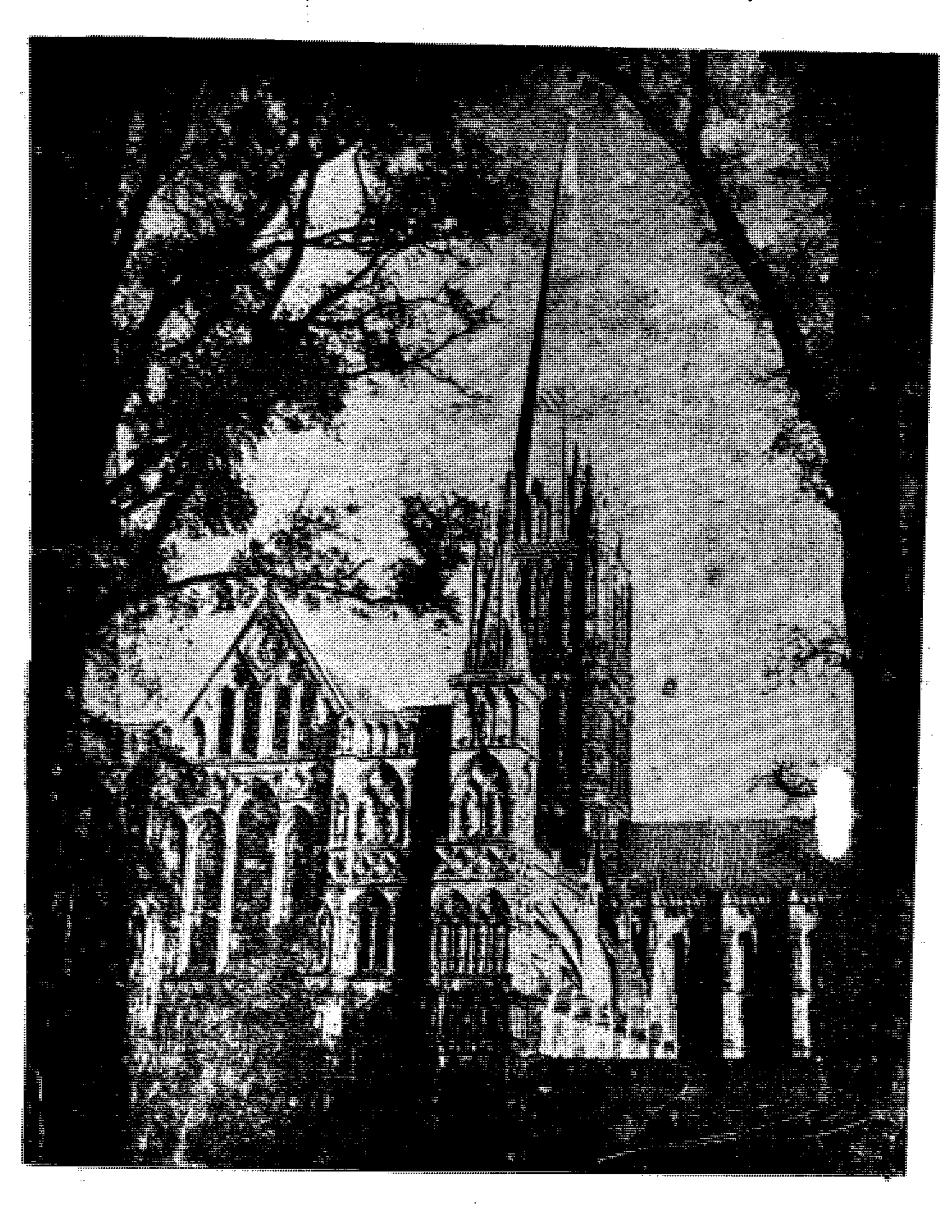
(الصورة رقم ٧) داخل كتدرائية درهام



(الصورة رقم ٨) « فندق المدينة » إيبر



(الصورة رقم ٩) كتدرائية كنتربرى



(الصورة رقم ١٠) كتدرائية سلزبرج